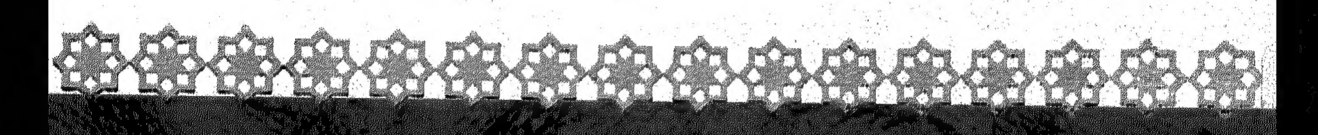
الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



الجزء الرابع والثلاثون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية الخامسة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث والثلاثون

دمشق ١٤١٩ / ١٩٩٨

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية.

الحملة الصليبية الخامسة

تأليف وتحقيق وترجمة
الاستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث والثلاثون

دمشق ١٤١٩/ ١٩٩٨

- ١٩٥٥ -

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١— الاستيلاء على دمياط
٢— تاريخ القدس
٣— منظمات الفرسان
٤-وصف الأرض المقدسة

تأليف وتحقيق وترجمة

الاستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث والثلاثون

دمشق ١٤١٩/ ١٩٩٨

- ١٩٥٧ -

(١)

الاستيلاء على دمياط

تأليف

أولفر أوف بادربورن

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

لقد استدركت أربعة أجزاء على مصادر الحملتين الثانية والثالثة، والآن بعد الفراغ من ذلك أعود إلى مسار الخطة المرسومة لأتناول ما يعرف باسم الحملة الخامسة، ولهذه الحملة مكانة خاصة تختلف بها عن الحملات المتقدمة لا لأنها استهدفت مصر فقط، بل لطبيعة المسؤولية عنها.

فنحن عندما نستعرض الحملات المتقدمة، نجد الأولى منها مختلطة شعبية بالدرجة الأولى، وقد جاءت عبر البر، ولم يكن للبحر دور حاسم بالنسبة لها، ثم كانت الحملة الثانية، وهي أيضاً سلكت طريق البر، غير أنها كانت رسمية قادها أعظم حكام أوروبا في وقتهم، ثم جاءت الحملة الثالثة قسم منها سلك طريق البر فأخفق، والقسم الأعظم سلك طريق البحر فحقق النجاح، وهي أيضاً حملة رسمية، ثم جاءت الحملة الرابعة، فكانت صليبية التجار ضد بيزنطة، مع أنها بالأصل كانت خطتها تستهدف مصر.

وحين برهنت الحملة الثالثة على أهمية البحر والاستغناء عن بيزنطة جاءت الرابعة لتزيل حكم أباطرة بيزنطة الشرقية من الوجود، ولتمهد الطريق نحو الزوال النهائي للامبراطورية، ولدى مراجعتنا لأخبار الحملة الثالثة وجدنا أن رتشادر قلب الأسد لدى اخفاقه في مهاجمة القدس خطط للزحف ضد مصر.

ومن الملاحظ أن دور مصر عند بداية الحروب الصليبية لم يكن فعالاً للوضع المتدهور الذي عاشته الخلافة الفاطمية، والشيء نفسه ينطبق على دمشق تحت حكم الدولة البورية، وهنا نستفيد درساً هاماً أن حكام

دمشق من البوريين والمتسلطين على عرش القاهرة غالباً ما انشدوا الحماية من الفرنجة ضد منافسيهم من المسلمين، لكن مع أول بادرة ضعف سعى هؤلاء الحلفاء الألداء الى السيطرة على دمشق وكذلك على القاهرة، وكان اخفاق الحملة الثانية في الاستيلاء على دمشق بين أهم الأسباب التي ساعدت نور الدين على توحيد الشام الشمالي مع الجنوبي، وبفضل هذه الوحدة حيل بين الفرنجة وبين الاستيلاء على مصر.

وحين توحدت مصر مع بلاد الشام، عرفت أرض الكنانة روحاً جديدة فبفضل امكانات مصر والشام كان النصر المؤزر في حطين، وأكثر من هذا بفضل مصر بالدرجة الأولى أمكن الصمود أمام الحملة الثالثة، وهكذا وقر في أذهان الفرنجة أن الطريق الى القدس ينبغي أن يمر أولاً عبر مصر.

وكانت مصر الفاطمية تمتلك امكانات بحرية لابأس بها، لكن منذ أيام حصار عكا ظهر إلى العيان العجز بالامكانات البحرية لدى المسلمين في المشرق، مع الاخفاق بالتعاون مع الغرب الاسلامي.

هذا والمستعرض لتاريخ الأيوبيين يشهد ان جل طاقاتهم العسكرية تبددت خلال الحروب الاسلامية الداخلية، ففي حياة صلاح الدين لايوجد سوى أقل من عقد من الزمن صرفه في الجهاد ضد الفرنجة، وفي أواخر أيام صلاح الدين، في وقت المحنة تخلى عنه تقي الدين، وكان الشخصية العسكرية الأولى في جيوش صلاح الدين، وشغل العادل، أخو صلاح الدين لأبيه دوراً نمّ على الأنانية وتفضيل الصالح السلطوي الذاتي على الصالح العام، وهذه السمة هي التي صبغت الأيوبيين بعد صلاح الدين، لاسيما العادل وابنه الكامل، فما من واحد من خلفاء صلاح الدين كانت للقدس مكانة لديه، وكانوا يعرضون تقديم القدس لأول طارق، وأدرك الفرنجة هذا، لذلك طلبوا أكثر من القدس، وهذا ما نراه واضحاً في أخبار حصار دمياط أثناء الحملة الخامسة، ثم في الحملة

السادسة، والمثير للانتباه أن موقف أهل الشام ومصر كان ضد هذا المسلك ، ومع هذا لم يعدم الأيوبيون بعض العلماء الذين أفتوا لصالحهم، كما فعل ابن أبي الدم الحموي، ففي كل عصر نجد من المتعممين من آثر رضا السلطان على رضا الله تعالى.

ولئن كانت الحملة الرابعة حملة ارتفع فيها صوت التجار، ففي الحملة الخامسة كان الصوت المرتفع هو صوت البابوية، فالبابوية هي التي بشرت بالحملة، ودفعت للمرتزقة، والنائب البابوي كان هو القائد الفعلي للحملة، على هذا كانت القيادة في هذه الحملة لاهوتية لا عسكرية ولاسياسية، وفيها مؤشر على تبدل السياسة البابوية نحو المشروع الصليبي، وفي ثنايا العقل اللاهوتي نجد أسرار الاخفاق النهائي لهذه الحملة.

ولحسن الحظ أن أخبار هذه الحملة جرى تدوينها من قبل أهم رجال اللاهوت الذين كانوا فيها، وأقصد هنا بالدرجة الأولى أولفر أوف بادر بورن ثم جاك دي فيتري، فقد جاءت أخبار الحملة لدى الأخير في كتاب أراد التأريخ به للقدس، أهم ما فيه ما تعلق بالحروب الصليبية، أما ما جاء عما قبل ذلك فلا قيمة له لاعتماده على تلفيقات أسفار العهد القديم.

ونجد لدى مصدرينا كيف بقيت العقلية الأوروبية متحجرة تجاه الاسلام وذلك على الرغم من مضي ما يزيد على القرن على الحملة الأولى، كما ونشهد هنا خططاً جديدة لتعميد أطفال المسلمين وإرغامهم على التخلي عن دينهم.

هذا وكنا في الحملات المتقدمة قد تعرفنا إلى منظمتي فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية، لكن في هذه الحملة نواجه نوعيات جديدة من الفرسان، وللفائدة ألحقت بهذا المجلد ملحقاً صغيراً، لكن عظيم الفائدة

حول أهم بيوتات الفرسان،ولكي يتوازن هذا الجزء من حيث الحجم والفائدة ألحقت به أيضا وصف الأرض المقدسة من قبل جون أوف وورزبيرغ(١١٦٠—١١٧٠).

أمالي عظيمة في أن يمنحني الله العون والتوفيق لإنجاز هذا المشروع العملاق الذي أسير الآن بسرعة نحو الانتهاء من ثلثيه.

لله دوما الحمد والشكر،والصلاة الدائمة على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

سهيل زكار

دمشق ٩ ربيع الآخر ١٤١٩/ ٢ آب ١٩٩٨

مدخل

حياة أولفر المبكرة

كان بين الأعمال الأولى لبابوية هونوريوس الثالث القيام بإعلان نداء في سنة ١٢١٦ إلى المسيحيين في أوروبا من أجل القيام بحملة صليبية جديدة، وتقبلت منطقة إثر منطقة النداء، وكانت هنغاريا تحت قيادة الملك أندرو الثاني وألمانيا تحت قيادة الدوق ليوبولد صاحب النمسا، والبلدان الاسكندنافية تحت حكم الدوق كاسمير أوف بوميرانيا Casimir of Pomorania ، والأمير سيغورد Sigurd النورجي، كانت بين أكثر البلدان حماسة واندفاعاً في استجابتها، أما بالنسبة للامبراطور فردريك الثاني صاحب ألمانيا، الذي توقعه الناس جميعا أن يكون قائد الحملة الصليبية، فقد اتخذ موقفاً مختلفاً بسبب صراعات في داخل مملكته، لكن على الرغم من كثير من المشاكل زحف الصليبيون، ووجدوا في عكا ثلاثة من الملوك ليتولوا قيادتهم، وهم ملوك هنغاريا وقبرص والقدس، وكانت وحدة الاتجاهات منعدمة، والصراع وانعدام الثقة كانتا المحصلة، وعلى الرغم من الجهود المستمرة للبابا هونوريوس، والنجاحات الصليبية الأولى تمّ فقدان دمياط بشكل دائم وأبدي، ونظر إلى الحملة الصليبية من قبل جميع الآخرين على أنها إخفاق محزن آخر.

وكان بين الذين رافقوا الحجاج رجال دين ذوي مراتب عليا من جميع البلدان، فلقد ضم كرادلة وأساقفة وكهنة جهودهم لدعم أعمال الجنود ولمساعدتهم، وكان بين رجال الدين هؤلاء أولفر أوف بادر بورن، الذي بشر بالحملة الصليبية ودعا إليها في مقاطعته من كولون Cologne ، ولقد وجد الفرصة لأن يخلد كتابة جميع ما واجهته الحملة الصليبية

الخامسة، ولقد أطلق بالأصل على كتابه عنوان « تاريخ دمياط»، وبالإضافة إلى هذا أوقف أولفر قلمه على جغرافية الارض المقدسة وتاريخها، مع ثلاثة أعمال أخرى، سيأتي ذكرها فيما بعد، أوقفت على هذا، زد على هذا، مايزال باقياً مالا يقل عن عشرة رسائل كتبها أولفر.

أما بالنسبة لميلاده، وطفولته، وتعليمه المبكر، فإننا لانمتلك أية معلومات، والذي نعرفه أن اسمه ظهر للمرة الأولى في سنة ١١٩٦، بمثابة شاهد أسقفي في نزاع قام بين أبرشية بادربورن ودير هلمرهوز Hel-marhaus ، وحيث أن الشهود كانوا أعضاء من الجماعة اللاهوتية لكاتدرائية بادربورن، وبما أن رجال اللاهوت والشريعة كانوا إلى حد الاحتكار من الأسر النبيلة، يمكننا أن نفترض بأمان بأن أولفر انتمى إلى أسرة نبيلة من أسر الأسقفية، وعلى كل حال إنه بالإضافة إلى حادثة الأصل والولادة، يبدو أنه أعد ليشغل منصب كاهن، وهذا ظاهر بالسمات والمزايا التي يمكن ملاحظتها في كتاباته، ويُظهر كتابه «تاريخ دمياط» على كل صفحة من صفحاته تقريباً أنه كان رجلاً صاحب تقوى، وحماسة دينية، وايمان بسيط راسخ.

ويبدو أنه كان متميزاً بثقافته وفهمه وهو مايزال في مرحلة الشباب، وقد حظى لهذا بلقب «ماجستير»، الذي استخدم في ذلك الوقت لتمييز انسان كان صاحب ثقافة استثنائية، ونجده في سنة ١٢٠٠ مديراً واستاذاً للاهوت في مدرسة النحو لبادربورن، ولقد شغل هذا المنصب لوقت قصير فقط، لأنه في إيلول من عام ١٢٠١ طلب منه رئيس الاساقفة في كولون أن يشغل كرسي الاستاذية في المدرسة الكاتدرائية الذي ترك شاغراً بعد شغله من قبل العالم رودولف Rudolph ، ولواحد امتلك مثل قدرات أولفر لابد أن مثل هذه الفرصة كانت سارة جداً ومبهجة، لأن كولون كانت آنذاك في قمة قوتها، وكانت هي المعترف بها قائداً لجميع المدن الألمانية، ومركز التأثير والثقافة، لكن على كل حال كانت

الحياة السياسية فيها في وضع عنف واضطراب شديد، فقد كان فيليب صاحب سوابيا وأوتو أوف برونزويك Brunswich منشغلين في صراعهما حول العرش الامبراطوري، واستدرج هذا رجال الدين للتورط في الصراع، وكان معظمهم يؤثر أوتو، وذلك مخالفة لموقف البابا أنوسنت الثالث، وحافظ أولفر على تأثير مرض في المدينة، وذلك حسبما ظهر فيما بعد باشارات إطراء لما قام به ولمكانته.

وكان أولفر في باريس في سنة ١٢٠٧ ، علماً بأنه ليس من المعروف كم مكث هناك في ذلك في العام، وخلال اقامته في تلك المدينة داوم في جامعتها المشهورة، التي حظيت باعجاب العالم المتحضر، وأثني عليها من أجل تعليمها.

وفي هذا الوقت بالذات بدأ البابا في نشر خططه العزيزة عليه للدعوة إلى حملة صليبية جديدة، وبدا أن التوقيت كان غير موائم البته للاقلاع بمثل هذا المشروع، لأن ألمانيا كانت ممزقة ومنهكة بسبب الصراع بين الولفيين Welfs وأسرة هوهنستوفن Hohenstaufen ، وكانت فرنسا من أحد الجوانب متورطة ومشغولة بقضية الانتشار السريع للهرطقة الألبينسانية Albigensian ، وكانت من جانب آخر مستنفرة ومتحفزة خشية مواجهة المشاكل مع انكلترا، ومع ذلك لاقت الصليبية الجديدة تأييداً حماسياً، وشعر أنوسنت بانتعاش آماله بأن القدس سوف تعود أخيراً إلى أيدي الصليبيين، وطلب في مرسوم أصدره في ٣٠ — كانون الثاني لعام ١٢٠٨، من أسقف جنيف ومن راعي دير بونيفو Bonnevauxالقيام بالاشراف على أسقف غرونوبل لدى قيامه بمنح أولفر كنيسة صغيرة في ايبرني Epernay مقابل بعض الخدمات التي قدمها، ونتيجة لهذا رجع أولفر إلى كولون، حيث بقي فيما بين ١٢٠٩ و ١٢١٣، مع أنه من غير المعروف كيف جرى توظيفه واستخدامه، وأفتتح في ربيع سنة ١٢١٣ حقل جديد من النشاط أمامه،

وذلك عندما أرسلت رسائل من البابا انوسنت الى جميع العالم المسيحي التمس فيها العمل في سبيل تحرير الضريح المقدس، وتمت تسمية عدد من الرجال اتسموا بالحماسة والفصاحة للقيام بالتبشير والدعوة إلى حمل الصليب في جميع البلدان الأوروبية، وجرى تعيين أولفر مع عميد بون للتبشير في مقاطعة كولون، ونشط فيها بين ١٢١٤— ١٢١٥ وعمل في لوتخ Luttich ، ونامور Namur ، وفلاندرز، وغلدت Geldt ، وأوترختUtrecht ، وفريزلاندFriesland ، ومن رسالتين كتبهما في هذه الآونة يمكن الحصول على صورة واضحة عن أعماله في التبشير، ونشاطه أيضاً كمبشر، ولقد واكبه النجاح على طول طريقه، وتلقى الفريزيون رسالته بتعاطف كاد يصل إلى حد التقديس.

وفي وسط أعمال تبشيره أرسل أولفر إلى روما ليعمل بمثابة ممثل لأسقفية كولون في المجمع الكنسي الكبير في اللاتيران لعام ١٢١٥، الذي قرر ورسم ضمن أشياء إن على الصليبين المغادرة نحو الأرض المقدسة في ١ حزيران ١٢١٧، ومع ١٠ نيسان كان أولفر مرة ثانية في لوتخ، جاهزاً لاستئناف عمله بالتبشير من أجل الحملة الصليبية، غير أننا لانستطيع تتبع آثار نشاطاته خلال السنة التي تلت، وعندما اقترب حلول يوم المغادرة المقرر، التحق أولفر بحشود الحجاج الذين تجمعوا في مرسيليا وتقاطروا عليها، حيث سافر بحراً إلى الأرض المقدسة، ووصل إما في تموز أو في آب إلى عكا.

الحملة الصليبية الخامسة وكتابات أولفر

ووصفت الحقبة التي تلت وصفاً كاملاً لنا من قبل أولفر نفسه، وذلك بالاضافة لرواية مفصلة عن الأحداث قدمت بشكل غير مباشر رؤية واضحة ونافذة حول أخلاقه وسماته، وسمحت لنا أن نكتشف أكثر من أثر للحكمة وللتسامح، واليقظة، والحماس، والعرفان بالجميل، والاخلاص، والتواضع والثقة بالرب، والحكمة، والمرونة كلها قد ظهرت

في آرائه للصليبيين، مع أن تواضعه قد منعه من تسمية نفسه على أنه الرجل الذي قدم مثل تلك النصائح الحكيمة.

ومجرد القاء نظرة على روايته حول الحملة الصليبية تمكننا من أن نلاحظ أن هذه الرواية انتاج انسان متيقظ ورجل قادر على الوصف التصويري، ومن المقدر أن الجزء الأكبر من كتاب « تاريخ دمياط» قد كتب أثناء الحملة الصليبية وبعدها مباشرة، أي فيما بين ١٢١٧ و ١٢٢٢، وهذا واضح من خلال استخدام كل من صيغتي الفعل المضارع مع صيغة المستقبل، ونراه بينا في ثنايا كتابه، وأضاف هذا حيوية الى الرواية في عدد كبير من الأماكن، هذا ومن الممكن أن القسم الأخير من الكتاب قد أكمل في مصر، لكن لايمكن تقرير ذلك بشكل حاسم، وكان آخر تاريخ للحوادث هو في ايلول ١٢٢٢، عندما تمت الدعوة الى عقد اجتماع يكون في فيرونا يوم ١١ تشرين الثاني من تلك السنة نفسها.

وعندما نأخذ بعين التقدير أن أولفر قد كتب ثلاثة كتب أخرى بالاضافة الى «تاريخ دمياط» وذلك أثناء وجوده في مصر، وكان هذا بدون اهمال لواجبات مركزه بحكم كونه من رجال الدين، عندما نفعل هذا كله لايمكننا أن نشكك بنشاطه وقدراته، ومن إلقاء نظرة كلية على كتاباته يمكن أن نرى حماسته وغيرته بكل وضوح، لكنها ليست أوضح منها ولا أعظم ظهوراً من جهوده التي بذلها في سبيل تحويل السلطان وأتباعه من الإسلام الى المسيحية، ويوجد في هذه الحادثة اشارات على الاقرار بالفضل والامتنان، فقد قدر أولفر تقديراً عالياً شهامة السلطان نحو الأسرى الصليبيين، ولهذا توفرت لديه الرغبة في أن يعرض عليه منحة تأتي تعويضاً على لطفه،ولهذا لم يجد هدية أفضل وأكمل — حسبما كان يعتقد — من هدية الايمان الصحيح، لكن السلطان على كل حال بقي متمسكاً بشدة بالاسلام.

وقاد الاخلاص للمسيح، وبالتالي لجميع الذين عملوا باسمه، أولفر

للحديث عن الكاردينال بيلاغوس Pelagius بطريقة تفترق بعض الشيء عن بقية المؤرخين، ففي الوقت الذي رأى معظم المراقبين عنده توفر للمطامح، وللأنانية، مع سعي نحو السلطة، رأى فيه أولفر ممثلاً للرب، وأن كلماته قد بدت وكأنها كلمات حكمة ربانية، ولهذا لم ينل النقد من أولفر، أو أن أولفر وجده قصياً عن النقد، وهكذا لانجد في أي مكان صورة بيلاغوس على أنه كان متشدداً، وأرعناً وطاغية مستبداً، بل بدلاً عن ذلك نجد في كل مكان عبارات إطراء تثني على براعة النائب الرسولي، وعلى حكمته ونشاطه وغيرته وكفايته وقدراته، وبميول أولفر على هذه الشاكلة نحو الكاردينال، لابد أن القليل القليل هو الذي توفر لدى أولفر للاعجاب بجون أوف بريين، بما أن القائدين كانا متضادين بالطباع وبالنظرة إلى الأمور، وهنا نلاحظ وجود أكثر من ايماءة نقد في اشارات أولفر لجون.

ولم يحصر أولفر انتقاداته بالأفراد، ولهذا نجد لديه تكراراً لوصف، أو ذكر نقاط الضعف بين الصليبيين ككل، وهكذا نقرأ في صفحات إثر صفحات عبارات من مثل قوله: «كان ذلك عقوبة على الذنوب» و «الشهوة في العيون جعلت اللصوص كثيرين» و« ربما أن المدافعين عملوا بإهمال»، ومن الممكن أخذ هذا كله أنه على الرغم من محبته للمثالية، لم يكن بأي حال من الأحوال أعمى لم يستطع رؤية الحقائق الواقعية، وبدت الآثام المؤسفة التي اقترفها الصليبيون برأي أولفر أنها السبب في الخسائر المتنوعة للجيش، ولم يكن مرد ذلك أي نوع من أنواع التفوق لدى المسلمين، مع أنه اعترف مرة أو مرتين مرغماً فأقر بأن المسلمين كانوا مقاتلين بارعين وأصحاب خبرة في الحرب، وفي وسط الكآبة والوضع البائس سعى أولفر لاستنباط بعض العزاء من خلال ذكره للألمان وبشكل خاص للفريزيين من ذلك قوله: «أعطي معظم المدح عن جدارة لتلك الأمة النشطة والمطيعة، وذلك من بداية الهجوم على

دمياط بكثير من الشجاعة وعدم الاهتمام بالمركز من قبل كل من المتواضعين أو المنخفضين»، وتلقى الداوية أجرهم من الثناء، ومن بين العبارات التي راجت داخل الكتاب وتكررت مع شيء من التشابه قوله: « كان جيش الداوية الذي هو بالعادة الأول بالتجمع ، الأخير بالتراجع ».

وكان بإمكان أولفر أن يرى في كل واقعة ذات نهاية مأساوية بالنسبة للصليبيين تعبيراً عن حكمة ربانية، وهكذا ردد قوله: « بوساطة خطة الروح القدس»؛ « دعوا النصر ينسب إلى ابن الرب وحده»، « من خلال تدخل رحمته، انبعث نور المعجزة»، ولاشك أن مثل هذه التعابير التي وقعت بشكل مستمر ، وجاءت متلاحقة في روايته، هي عبارات مخلصة صدرت عن عقل رأى أن حضور الرب هو حقيقة مشرقة، ولهذا عدّ نفسه أكثر فأكثر مجبراً على البقاء والمتابعة والاستمرار حتى النهاية القصوى، وأن يبقى مخلصاً للميثاق الصليبي، وكان يقول: « ما هو التسويغ الذي يمكن أن يكون لديهم أمام حاكم لايمكن رشوته أو غشه، إذا ما تسلموا فوائدهم وتلقوا منافعهم، لكن أهملوا واجباتهم التي تعهدوا بأدائها؟ ومن جهة أخرى أي جوائز كان يمكن لهؤلاء المؤمنين أن يتوقعوا، وهم الذين قدموا من بلدان نائية للمشاركة في الحرب المقدسة، وفعلوا ذلك»؟ واستطرد يقول: « ومع أن جهودهم لم تتوج بالنجاح، هل الرب سوف لن يكون مسروراً بالتضحيات التي قاموا بها في مغادرتهم لأوطانهم، وحبهم للآخرين من أجله»؟ ويبدو أن الخسارة لدمياط لم تترك أثراً محبطاً على نشاطه ومثابرته، لأنه تابع الكتابة إلى الكامل وإلى «حكماء مصر» لاقناعهم بقبول المسيحية.

وأظهرت آراء أولفر في بعض المناسبات ميلاً حاسماً نحو السذاجة، فقد مال نحو تأويل أي نجاح صغير على أنه معجزة، وفي وصفه لبعض الشارات والظواهر الغريبة في فريزيا نرى أن هذه السذاجة واضحة تماماً، والتمازج والاقحام الكبير للاشارات إلى نصوص من الكتابات المقدسة

نرى فيها دليلاً على معرفة كبيرة واعتياد على ما إعتقد أنه كلمات الرب المدونة، وغالبا ما اقتبس في كثير من قضاياه من الأجزاء الاقل تداولاً من نصوص كل من العهد القديم والعهد الجديد، واختياراته هذه اختيارات موائمة، وبدت وكأنها تتدفق بشكل طبيعي من خلال قلم أولفر، وكأنها كلمات من صياغته شخصياً، ومع هذا إن اهتمامه بالأشياء اللاهوتية لم يعق نشاطاته في حقل تطلب البراعة بالأشياء التطبيقية، لأننا نعلم أن أولفر كان هو الذي صمم ومن ثم أشرف على بناء برج التهديم الهائل، وقد قال عنه: « إن مثل هذا العمل من الخشب لم يعمر مثله فوق الماء»، ومما هو جدير بالذكر أيضاً إنه ليس أولفر هو الذي أخبرنا باسم المصمم لهذه الآلة من آلات العصور الوسطى، ذلك أنه كتب ببساطة وبدون إطراء ذاتي وقال بكلمات بسيطة: « كان ذلك بوساطة ماأرانا الرب إياه وقام المهندس بتجهيزه»، ولقد كان جاك دي فيتري هو الذي أعطانا اسم المهندس الذي صمم ببراعة.

ومن الجانب الأدبي يستحق «تاريخ دمياط» تقديراً مختصراً، ففي المقام الأول من الواضح أن الكاتب لم يدخر جهداً لأن يضمن عمله جميع المعلومات الضرورية، وبالنسبة لوصف المعارك هناك ثراء بالتفاصيل المفيدة، فهنا يمكننا أن نشعر بحرارة شمس مصر المحرقة، وأن نرى الخوذ اللامعة والسيوف، والنور المشع للنار الاغريقية، وزخات النشاب المدمر، ومشاعرنا وهي ترتعد من رعب المدينة التي أصابها الطاعون، ومن ساحات القتال وقد غطيت بجثث القتلى، ومن التراجع المخفق وغير المخطط له والمهين، وتبرهن الاستطرادات العديدة التي تأخذنا بعيداً عن مشاهد القتال، أنه كان لدى المؤلف بعض المعرفة بالممارسات الاسلامية والعقائد مع أن المؤلف كان جاهلاً بالعربية، وإنه لأمر يثير العجب أن انساناً مثل أولفر بفهمه وثقافته قد استخدم قليلاً جداً النصوص الكلاسيكية، وفقط مرة واحدة نجد إشارة مؤكدة: فقد

استشهد أولفر بحادث رواه كورتيوس روفوس في تاريخه عن الاسكندر الكبير، وهناك اشارتين أخريين إلى الاسكندر لعلهما اعتمدتا على المصدر نفسه، وهناك اشارة إلى يوليوس قيصر، لعلها اعتمدت على سوتونيوس، مع أن ذلك كان بالواسطة كما هو محتمل.

أما اللغة فهي مثقلة بالمحسنات اللاتينية العامية، لكنها كانت واضحة بما فيه الكفاية، وتأتي في بعض الأحيان العبارات ذات الصلة معقدة ومبهمة.

كما ونجد بعض الصيغ البلاغية تتدفق من قلب متحسر تجاه المأساة التي بعث بها الرب، وهي متشوقة لتحريك الكسل والتقاعس تجاه العمل.

ومن الممكن القيام بذكر الكتابات الأخرى لأولفر، أعني غير «تاريخ دمياط» باختصار فيما يلي:

١ — « وصف الأرض المقدسة» ، فلقد شعر أولفر أن هذا الوصف الجغرافي سوف يكون مفيداً بمثابة رفيق عملي لكتاباته الأخرى التي عالجت تاريخ الأرض المقدسة، وهذه الكتابات غير أصيلة البتة، واعتمدت بشكل شبه مطلق على ما يعرف باسم يوجيبوس فيتيلوس، وبرأي هوغيويغ Hoogeweg قام أولفر بتصنيف هذا الكتاب بحدود سنة ١٢٢٠، عندما أمضى الجيش كثيراً من الوقت بدون نشاط بعد الاستيلاء على دمياط.

٢ — «تاريخ القدس ومجريات حوادثها المختلفة»، وقد بدأ هذا بآدم وتوقف مع قدوم الصليبيين لعام ١٠٩٦ — ١٠٩٩، وهم الذين استولوا على القدس من المسلمين، وفي الحقيقة هذا الكتاب مجرد تاريخ لليهود منذ الخليقة حتى الاستيلاء على المدينة من قبل تيتوس في سنة ٧٠، ثم أتبع ذلك بمجرد لائحة بأسماء الأباطرة: الرومان، والاغريق والالمان،

ومصادره الأساسية الأسفار التاريخية من العهد القديم، «والتاريخ اللاهوتي» لبطرس كومستور Petrus Comestor وبعدما وصل أولفر إلى الامبراطور كاديوس، نلاحظ أن قائمة الأباطرة لديه قد أخذت (ربما عبر وسنيط) من القديس جيروم ومن بولس الشماس، ومع هذا يبدو أن عدداً من الفصول هي أصيلة، وأن بعض النقاط قد استعيرت من مصادر أخرى.

٣— «تاريخ حكام الأرض المقدسة» ونجد القسم الأول من هذا الكتاب حتى الفصل الرابع والعشرين قد اعتمد على كتاب «تاريخ القدس» لفولتشر أوف تشارترز، لكن على النشرة الثانية منه التي وصلت حتى سنة ١١٢٤، واعتمد القسم التالي على وليم الصوري، شروعاً من الكتاب الثالث عشر، واستمر هكذا حتى الفصل التاسع والثمانين، وبعد هذا يبدو أنه كان لدى أولفر مصادر أخرى، ويبدو أن استثمر كثيراً جداً ما عرف باسم «تاريخ هرقل»، ففي أماكن كثيرة هناك تطابق مدهش مع رواية أولفر، وفي الأخير وصف الكتاب محاولات البابا انوسنت الثالث للاقلاع بحملة صليبية جديدة، واجتماع اللاتيران لعام ١٢١٥، وهذا قاد إلى صليبية ١٢١٧ التي وصفها أولفر بتوسع طويل في كتابه «تاريخ دمياط» وهو أهم كتبه على الاطلاق، وكان « تاريخ الحكام» قد كتب أثناء حصار دمياط في ١٢١٩ — ١٢٢٠، كمسودة أولى، ثم ظهر في سنة ١٢٢٢ في نسخة منقحة ثانية، صممت على الانتهاء والتوقف حيث بدأ «تاريخ دمياط».

ووصلنا عشر رسائل مما كتبه أولفر، وتاريخها فيما بين حزيران ١٢١٤ إلى ١٢٢٤، وأربع منها كتبت في مصر، والرسالة الثالثة أرسلت إلى رئيس أساقفة كولون مع رجال الدين هناك، وقد تولت وصف أحداث الصليبيين من ٨ تشرين الثاني ١٢١٧ حتى نهاية آب ١٢١٨، وكتبت الرسالة الرابعة قرب دمياط في ١٤ إيلول ١٢١٨ الى رجال الدين

والقناصل في فريزيا، وفيها تم مدح الفريزيين الصليبيين على أنهم شجعان، ومضحين ومخلصين، وكتبت الرسالة الخامسة في ١٤ ايلول سنة ١٢٢٢ الى سلطان مصر، سأله فيها قبول المسيحية وإعادة الأرض المقدسة، وكتبت الرسالة السادسة في الوقت نفسه إلى «حكماء مصر» لإقناعهم بألوهية المسيح.

وهذه الرسالة هامة بالنسبة لكتاب «تاريخ دمياط»، لأن اثنتين منهما مما كتب في مصر تشكلان مصدراً للجزء الأول من ذلك الكتاب، أما الرسالتين اللتان أرسلتا من قبل أولفر الى المانيا فقد دمجتا لتشكلان الفقرة الأولى، التي تعالج موضوع صليبية ملك هنغاريا مع موضوع الحملة التي استولت على دمياط في سنة ١٢١٩، ولهما أضيفت بعض الاضافات، تولت شرح بعض النقاط التاريخية، والجغرافية، والثقافية، وهي ليست متعلقة بشكل مباشر مع الحملة الصليبية، وأخيراً هناك فقرات أضيفت لتتولى شرح الأحداث من ١٢٢٠ إلى ١٢٢٢، وهكذا جرى اكمال تاريخ مندمج من قبل المؤلف بعد إدخاله بعض الأمور الضابطة والمكيفة.

حياة أولفر بعد الحملة الصليبية الخامسة

أنزل اخفاق الحملة الصليبية ضربة قاسية على مطامح أولفر العميقة ، وهو على كل حال لم يبدد وقته في البكاء والنحيب من دون فائدة، بل عاد على الفور إلى عمله القديم في ألمانيا، ففي ١٦ شباط ١٢٢٢ قدم موعظة صيام مع قداس احتفالي في كولون، وكان البابا هونوريوس قد أصدر دعوة من أجل حملة صليبية أخرى، وتولى أوفر الآن القيام بنشاطه القديم كداعية ومبشر، مع أننا لانمتلك سجلا يؤكد أنه عين رسمياً للقيام بمثل هذا العمل، وفيما بين شباط ١٢٢٢ وايلول ١٢٢٣، جاءت معلوماتنا عنه فقط من خلال رسالة كان قد كتبها وفيها اشارات إلى أنه كان موجوداً في فريزيا في هذه الأيام، ولقد ذكر زيارة قام بها لصديقه

الأب امو Emo في ديره في ويتويروم Wittewierum .

ووقع الآن حادث سيء الحظ في بادربورن، وجاء نتيجة وفاة الأسقف برنارد الثالث يوم ٢٨ آذار ١٢٢٣، وجرى اقتراح اختيار واحد من رجلين لخلافته وهما: أولفر وهنري فون بروكل Brokel راعي دير بوسدورف -Bus dorf، ونشب نزاع كبير حول الانتخاب، وكان السبب الرئيسي لذلك هو أن أسرة فون بروك كانت أسرة ذات نفوذ كبير منذ سنوات في الأسقفية، ولهذا لم تتحمل وجود مرشح مضاد لمرشحها، فكان أن لجأت إلى القوة لضمان اختيار مرشحها، وتم التماس تدخل روما، وأخيراً جاءت الموافقة على أولفر، لكن المسألة لم تعرف الاستقرار والتسوية لسنوات عديدة، وخلال جزء من هذا الوقت المضطرب أقام أولفر مع الكونت هنري أوف شكويرن Schwerin في نوردهوزن Nordhousen يقدم له المساعدة في صراعه مع فالدمير صاحب الدانمرك.

ونشط بعد هذا باخلاص في التبشير بالحملة الصليبية، وذلك بداية من ١٥ أيار، وفي ١ حزيران زار صديقه القديم إمو في ديره، وفي يوم الاثنين الذي أعقب عيد الحصاد، انطلق أولفر مجدداً نحو شرقي ألمانيا، لكنه تسلم أثناء ترحاله دعوة لحضور اجتماع في كولون، واستجابة منه لهذه الدعوة تخلى عن التبشير لبعض الوقت، ومع أن الاجتماع الذي دعي إليه لم يعقد، تمكن أولفر من مقابلة القاصد الرسولي، الكاردينال كونراد، وكان قادراً على دفع قضية صديقه إمو وتحسينها، وذلك أن إمو كان متورطاً في خلاف مع راعي دير هيرديركوس في سكلدوولد Herderieus of Schild Wolde.

وعاد أولفر إلى أعمال تبشيره، غير أنه وجد الأشياء غير موائمة ولامرضية لقضيته، فقد جلبت فيضانات متوالية المآسي والمجاعة إلى فريزيا، وكانت الرغبة ضئيلة لدى الناس لسماع الدعوات للتوجه إلى بلاد أجنبية والارتحال إليها، وكانت الحروب الخاصة منتشرة، ولم يكن

الوقـت بدون أدنـى شك مرضيـا، ومع ذلك كـان أولفر قـادراً على حشد بعض الجنود للقيام بمحاولة جديدة.

وجـاء تـأكيـد تعيين أولفـر أسقفـا لبـادربورن بـوسـاطـة رسـالـة مـن هونوريوس وصلت بتاريخ ٧ نيسان ١٢٢٥، وفي تموز سافر أولفر إلى سان جرمانو ليتسلـم طيلسانه من الامبراطور فردريـك الثاني، الذي أخيراً وافق على تـأييـد الحملة الصليبيـة الجديـدة، وأرغـم أو لفر بهذه المنـاسبـة على اقتراض خمسة وسبعين مـاركا فضيـاً باسم جماعـة رهبان كـاتدرائيـة بادر بورن.

وقليل جداً هـو المعلوم عن عمل أولفـر وهو أسقف ، لأنه شغـل هذه الوظيفـة لوقت قصير، ثم إنـه كان غائبـاً عن الأسقفية خلال معظـم هذا الـوقت القصير، وتعـرفنـا إلى إحـدى الحقائق حـولـه مـن خلال إحـدى الوثـائق التي جاءت مـن عند هونوريـوس: فبناء على طلب أولفـر، جرى منح فـرصة غفـران مدتها أربعين يـوماً لجميع الـذين يـزورون كاتـدرائية بـادربورن، بمنـاسبـة ذكرى تكـريسها، وبعـد ذلـك بوقـت قصير في ١٨ إيلول، وقع أولفر مـرسوماً بابويـاً مـن أجل بادوا Padua ، وكان وقتها يحمل لقبـاً جديـداً هو «الكاردينـال— الأسقف» لسانـت سابينـا، وكان هونوريوس قد أعلن عن هذا التعيين لـرجال الكهنوت في كاتدرائية بادر بورن في ٢٧ إيلول.

وجاء الذكر التالي لأولفر وهـو يعمل وسيطاً فيما بين الامبراطور فردريك ومجلس الكرادلة، وذلك حول خـلاف انبعث حول شغل منصب أسقفي شغر في ايطاليا، وكـان أولفر قادراً على الوصول إلى تسويـة، وكذلك أقنع فريدريك للقيام بكتابة رسالة إلى الفـريزيين يعبر فيها عن أمتنانه وتقديره لأفاعيلهـم الشجاعـة عند دمياط، ومحدداً تـاريخ المغـادرة المقبل في آب ١٢٢٧، واختفى أولفـر الآن من أمـام أبصارنا، والـذي بقي فيـه اشارات إليه هو رسائل قلة تحمل تـوقيعه، وكان آخرها تـاريخه ٩ آب ١٢٢٧، وفي

- ١٩٧٦ -

١٨ ايلـول جـرى تعيين يو هـان هالغـريـن

JohannHalgrinلكـاردينـالاً أسقفـا لسـانـت سـابينـا، ومـن هـذا نستخلـص أن أولفـر قـد مات قبـل بعـض الـوقـت فيما بين ٩ آب و١٨ إيلول ١٢٢٧، وقد دفن في ايطاليا.

الاستلاء على دمياط

هنا يبدأ «تاريخ دمياط» الذي كان المعلم أولفر هو المصنف له، والمبشر بصليب الصلبوت والداعية إلى حمله، والذي بلا شك كان حاضراً هناك.

استهلال

« ليفرح جبل صهيون، ولتبتهج بنات يهوذا من أجل أحكامك السارة، أيها الرب، غنوا أنتم للرب لأنه صنع هذه الأشياء العظيمة». (مزامير ٤٨/ ١٢ جزئياً)، ولدى الكتابة والتبشير عليهم الاعلان عن روائع الرب، وهو الذي أمر رجاله المقدسين، ودعا رجاله الأقوياء أثناء غضبه، وعليهم ألا يبتهجوا بقوتهم الخاصة، «لا بأعمال في بر عملنا ها بل بمقتضى رحمته المباركة» في كل شيء في الأبدية، من «أجل الأرض التي تنتج الخبز النازل من السماء»، ومكان ميلاده قد قطع وفصل بالسيف، وكثير من الحصون جرى احتلالها من قبل الكفار، « وحجارة هذه الأرض هي موضع الياقوت الأزرق»، لأنها كانت ملك البطاركة، وموضع العناية بالأنبياء، والمعلم للحواريين، والأم للإيمان « وفيها تراب الذهب»، ولأن الوصاة على الدين، اجتمعوا مع بعضهم بالرعاية، ولم يخفقوا هناك قط، وجرى تحريرها أخيراً بعد كثير من الآلام والعديد من التنهدات، وهي الآن تبتهج بالأمل، وتثق بجودة محرريها، وبهجة سوف تبتهج عندما «سوف تؤخذ عصا الأشرار من نصيب الصديقين»، وفي الحقيقة إن الذي تمت رؤيته وتم سماعه وجرى حقاً فهمه قد كتبناه من دون أدنى مزج للزيف، وبناء عليه إن أية محاسن سوف تظهر فذلك بحمد الرب، وبشكره.

الفصل الأول

في سنة ١٢١٧، عندما انتهت الهدنة التي كانت معقودة فيها بين المسلمين والصليبيين(١)، وبعد العبور الأول الذي جاء بعد مجمع اللاتيران(٢)، احتشد جيش المولى الكبير في عكا مع ثلاثة ملوك هم: ملك القدس(٣)، وملك هنغاريا(٤)، وملك قبرص(٥)، وهم لم يحملوا معهم تقدمات طقوسية، ولم يقدموا شيئاً كان جديراً بالتذكر، وكان دوق النمسا هناك (٦)، وكذلك دوق ميران(٧)، مع عدد كبير من المرافقين، ورجال من أصل رفيع، ورئيس أساقفة نيقوسيا(٨)، ورئيس أساقفة رآب(٩) Raab، ورئيس أساقفة ايرلو(١٠)Erlau ، ورئيس أساقفة هنغاريا (١١)، ورئيس أساقفة بيو (١٢) Bayeux ، ورئيس أساقفة بامبرغ(١٣)، ورئيس أساقفة زتز(١٤)Zeitz ورئيس أساقفة مونستر Munstor(١٥) ، ورئيس أساقفة أوترخت (١٦)، وكان معهم قوى، ورجال نبلاء، منهم اللورد وولتر أفسني(١٧) Avesnes، الذي ترك بعد عودته في عبور الربيع أربعين جندياً في خدمة الأرض المقدسة، وزودهم بتمويل وبنفقات كانت كافية لمدة سنة، وتصرف البافاريون برعونة، وبشكل مضاد لقانون الحجاج بقيامهم بتدمير حدائق وبساتين المسيحيين، لابل أكثر من هذا برميهم الاتقياء والدينيين من مآويهم، وعندما لم يشبعهم هذا أقدموا على قتل المسيحيين، أما بالنسبة لدوق النمسا، وكان أميراً كاثوليكيا، فقد قاتل في سبيل المسيح طوال الوقت.

الفصل الثاني

رفع بطريرك القدس (١٨) بكثير من التواضع والتبجيل خشبة الصليب المانح للحياة، وكان بذلك ممثلاً لرجال الدين والشعب،

وانطلق من عكا في اليوم السادس الذي حل بعد عيد جميع القديسين (٦ — تشرين ثاني ١٢١٧) إلى معسكر الرب الذي انتقل الآن إلى خربة كرذاني (١٩)، وكانت هذه الخشبة الحلوة محفوظة حتى هذا الوقت، حتى من بعد فقدان الأرض المقدسة، وعندما كان الصراع بين المسلمين والصليبيين مخيفاً أيام صلاح الدين، حسبما عرفنا عن طريق أجدادنا، جرى تقطيع الصليب إلى قطع، وقسم منه هو الذي حمل إلى المعركة، وتم فقدانه هناك(٢٠)، وقسم منه هو الذي حفظ وهو الذي عرض الآن، وفي ظل مثل هذه الراية زحفنا في صفوف منتظمة خلال سهل الفوله (٢١)على مقربة من نبع طوبانيا(٢٢)، وقد بذلنا جهوداً كبيرة في هذا اليوم، وعندما أرسلنا كشافة أمامنا، وذلك بعد رؤيتنا للغبار الذي ثار أمامنا من قبل أعدائنا، لم نكن متيقنين فيها إذا كانوا جاءوا مسرعين للهجوم علينا أم كانوا فارين، وانطلقنا في اليوم التالي من خلال جبال جلبوع(٢٣) التي كانت عن يميننا مع مستنقع بيت شان(٢٤) عن يسارنا، حيث كان العدو قد أقام مخيما له ، لكن لخوفه من وصول جيش الرب الحي، الذي كان كبير التعداد جداً، وكان يزحف بنظام عظيم، قوض المعسكر وهرب، تاركا البلاد لتتعرض للسلب والنهب من قبل جند الرب، وعبرنا من هناك الأردن ليلة عيد القديس مارتن (٧ تشرين ثاني)، وقد غسلنا أجسادنا هناك ونحن نتمتع فيه، واسترحنا هناك لمدة يومين في المكان نفسه، حيث وجدنا وفرة من الأطعمة والأعلاف،ثم أمضينا ثلاثة أيام راحة على شواطىء بحر الجليل (طبرية)، وتجولنا في خلال الأماكن التي تلطف مخلصنا وقام فيها بعدد من المعجزات، وتحدثنا مع رجال كانوا على شكل جماعة صغيرة هناك، وتطلعنا نحو بيت صيدا (٢٥)، وهي مدينة أندرو وبطرس، ثم إنها تحولت إلى قلعة صغيرة، كما رأينا أماكن حددت لنا وفيها دعا المسيح حوارييه وسار على وجه البحر بقدمين جافين، وأطعم الحشود في الصحراء، ثم مضى وحيداً إلى الجبل ليصلي، وشاهدنا المكان الذي أكل فيه مع حوارييه بعد

القيامـة، وهكذا عدنـا إلى عكا، ونحن نحمل معنـا مرضانـا والمحتاجين من أخواننا، ومررنا من خلال كفـر ناحوم(٢٦)، وهم على ظهور حيوانات التحميل

الفصل الثالث

ووصلنا في الإغـارة الثانيـة إلى سفوح جبل الطور، ووجـدنا في البـداية نقصاً في الماء، لكن حصلنـا فيما بعد على وفرة من الماء عندما حفـرنا من أجل ذلك، وخشي قـادتنـا من صعـود الجبل حتى جـاء صبي مسلم فأخبرهم بأن مـن الممكن الاستيـلاء على المعسكـر فـوضعـوا خطـة، وفي الحقيقة مـع أول أحد من شهـر قدوم الـرب (٣— كانـون أول) وميلاده وبعدما تمت قراءة ما جـاء في الانجيل: «إذهبا إلى القرية التي أمامكما» (متى : ٢١/ ٢)، سار البطـريرك متقدمـا نحو الأمام ومعـه شارة الصليب، وبـرفقتـه الأسـاقفـة ورجـال الـدين، وصعـدوا إلى الجبـل وهـم يـدعـون وينشدون المزامير، ومـع أن الجبل كان شديـد الانحدار من جميـع الجهات وعاليـا، وبدا من غير الممكن تسلقـه من دون توفـر ممر ممهـد بشكل جيد، مع ذلك تمكن الفرسان مع مـرافقيهم والخيالة والجنود الرجـالة من تسلقه بـرجولـة، وتمكن جـون ملك القدس مـع جيش الرب من الاستيـلاء على القلعة مع هزيمـة الأمير بأول هجوم، وجعل المدافعين عن القلعة يلجأون إلى الفرار وقـد استولى عليهم الرعب، غير أنهم بدأوا يـدافعون عن الجبل، وبدون خـوف قاومـوا الأعداء خـارج أبواب الحصن، وهكـذا خسر الملك وقتها كثيراً مـن الفخار الذي كسبـه وقت الصعود، وضـاع الآن كل شيء وقت النزول، لأنه بنزوله في يوم الأحـد نفسه وبجعله الآخرين ينزلون منح التشجيع للمسلمين بـوساطـة فسحـة الـوقت التي منحهم إيـاها، لكننـا لاندري بأي أمـر رباني أو بـوساطـة أية خطـة نزل قادة جيش الرب، ثم انسحبـوا بشكل مهين، وهذا على كل حـال لانعـرفه، لأن عين الانسـان

لايمكنها أن تنفذ إلى أسرار وبواعث الأوامر الربانية، وجرح الآن كثير من الداوية والاسبتارية وبعض الجنود أثناء التسلق الثاني للجبل، وذلك بعدما تلقوا قواتاً جديدة من المعسكر، لكن قلتهم الذين ماتوا، ونحن نعتقد أن المسيح ربنا قد احتفظ بنصر الجبل هذا لنفسه وحده، لأنه قد صعده مع عدد قليل من الحواريين، وهناك أوضح عظمة القيامة المستقبلية ومجدها، زد على هذا أن الصليبيين حملوا معهم في الإغارة الأولى وفي الإغارة الثانية حشداً عظيماً من الأسرى، من رجال ونساء، لابل حتى من الأطفال، وقام الآن (جاك دي فيتري) أسقف عكا بتعميد الصغار، الذين أمكنه أن يكسبهم إلى جانبه بالهدايا أو بالالتماسات، وتولى توزيعهم فيما بين نساء الدين، وأعدهم لتلقي التعليمات والتوجيهات.

الفصل الرابع

في الاغارة الثالثة (٢٧)، التي حمل فيها البطريرك شارة الصليب، والتي لم يشارك فيها رجال الدين المقدسين، عانينا من كثير من الخسائر والمصاعب، وذلك بقدر ما عانينا من قطاع الطرق، ومن شدة الشتاء، لاسيما أثناء الزحف في الليلة المتقدمة على يوم ميلاد الرب، وذلك عندما هلك كثير من الفقراء والدواب بسبب البرد، وفي ليلة الميلاد نفسها عندما تحملنا مشاق عاصفة حادة اجتاحت البلاد، ترافقت مع رياح وأمطار في منطقة صور وصيدا قرب الصرفند.

الفصل الخامس

وانقسم بعد هذا جيش الرب إلى أربعة أقسام، وقد توجه ملك هنغاريا وملك قبرص نحو طرابلس، حيث أنهى ملك قبرص

الشاب(٢٨) حياته، وبعد قليل من التأخير انسحب ملك هنغاريا، مما سبب أذى كبيراً للأرض المقدسة (٢٩)، وأخذ معه حجاجاً أيضاً، وخوذاً وخيولاً، وحيوانات تحميل محملة بكثير من السلاح، مع أنه تلقى انذارات كثيرة من البطريرك بوجوب عدم قيامه بالتراجع هكذا، وأخيراً تم حرمانه كنسيا، ومع ذلك ركب رأسه وغادر ومعه حاشيته، وحدث انقسام آخر بين الحجاج الكسالى والجبناء الذين رقدوا وجلسوا فاستهلكوا كميات كبيرة من الأشياء الدنيوية، وكانوا قد بقيوا في عكا، لكن ملك القدس ودوق النمسا ومعه فرسان مشفى القديس يوحنا(٣٠)، والأساقفة الذين تقدم ذكرهم وبصحبتهم بعض الآخرين، تمكنوا في وقت قصير برجولة وبايمان من تحصين قلعة قيسارية في فلسطين، مع أنه أعلن مرارا عن وصول الأعداء ، ومن خلال هذه القلعة بعون الرب، سوف يتم استرداد المدينة نفسها، وفي بازيليكا أمير الحواريين احتفل البطريرك مع ستة من الأساقفة بشكل مهيب بعيد الطهارة (٢ شباط ١٢١٨)، زيادة على هذا أن الداوية (٣١) مع اللورد وولتر أوف أفسني وبعض الحجاج المساعدين، والاسبتارية من أخوانية التيوتون (٣٢) شرعوا في إعادة تحصين قلعة الحجاج (٣٣)، التي كانت تدعى من قبل دستورويت Destroit، وهذه قائمة في أسقفية قيسارية فيما بين حيفا وقيسارية، ووضعها هو كما يلي:

الفصل السادس

هي واسعة وعالية، وتطل بشكل عظيم على البحر، وهي محصنة بشكل طبيعي بوساطة الشعاب الجبلية في الشمال والغرب والجنوب، أما باتجاه الشرق فهناك برج قوي جرى إعماره في وقت مضى من قبل الداوية، وقد حافظ على صموده بشكل جيد في الحرب وفي أيام الهدنة، وقد أقيم هذا البرج هناك بالأصل بسبب وجود العصابات التي كانت

تهدد الغرباء الذين كانوا يصعدون الى القدس ويسيرون عبر الممرات الضيقة، ثم يهبطون عائدين منها، ولم يكن هذا البرج بعيداً عن البحر، وبسبب وجود الممر الضيق أطلق عليها اسم دستروويت، وعندما عمرت قلعة قيسارية وكملت، أخذ الداوية يحفرون بشكل متواصل وبشكل متعارض في قنة الجبل، وبعد عمل استغرق ستة أسابيع، وصلوا أخيراً إلى أول الأساسات، حيث بدا أن السور القديم كان سميكاً وطويلاً، وتم العثور على مال هناك من النقود التي لم تعد بالاستخدام وهي غير معروفة في الوقت الحاضر، وقد جاءت بمثابة هبة من خلال احسان ابن الرب لجنوده لتعين على انفاقهم أثناء عملهم، وبعد ذلك وفيما هم يحفرون وينقلون الأتربة من أحد الأماكن الأمامية تم العثور على سور آخر أقصر، ونبعت فيما بين وجه الأرض الممهد والسورين ينابيع تدفقت منها مياه عذبة، وزودنا الرب أيضاً بوفرة من الحجارة والملاط، وتمت أعمال بناء البرجين أمام الحصن بحجارة منحوته ومناسبة وذات أحجام كبيرة، حتى أن الحجر الواحد كان يحمل بكل صعوبة على عربة شد إليها ثورين، وكان كل واحد من البرجين بطول مائة قدم، وسبعين قدما بالعرض، ومن حيث السماكة احتويا على مظلتين لحماية الجند، وكان ارتفاعهما أعلى بكثير من قنة الجبل، وأكمل بناء سور فيما بين البرجين مع شرافات ، وكان من الممكن بوساطة العمل الحرفي البارع للفرسان المسلحين الصعود إلى أعلى البرج في الداخل والنزول، ومثل هذا جرى بناء سور آخر على مسافة صغيرة من البرجين، وقد امتد من طرف من أطراف البحر إلى الطرف الآخر، وحوى من الداخل على نبع ماء للحياة وأحيطت قنة الجبل من كلا الجانبين بوساطة سور مرتفع، امتد حتى الصخور، واحتوى الحصن على بيعة صغيرة داخل قصر مع عدد من البيوت، والفائدة الأساسية من هذا البناء هي جمع الداوية، بعدما اقتيدوا إلى خارج عكا، وهي مدينة آثمة امتلأت بجميع أنواع الدنس، وكانوا سيبقون شحنة لهذا الحصن حتى يتم استرداد أسوار القدس، وفي منطقة هذه القلعة وفرة

من الأسماك، ومناجم الملح، والغابات، والمراعي، والحقول والأعشاب، وهي تسحر سكانها بكرومها التي زرعت أو التي سوف تزرع، وببساتينها وحدائقها، ولايوجد فيما بين عكا والقدس أية قلعة بأيدي المسلمين، ولهذا تأذى المسلمون كثيراً بوساطة الحصن الجديد، ومع خوف الرب وهو يطاردهم، أرغموا على مغادرة هذه المناطق الزراعية، وامتلك هذا المبنى مرسى طبيعياً جيداً، سوف يكون أحسن عندما يعاون بوساطة العمل الفني، وهو يبعد ستة أميال عن جبل الطور، ويفترض أن بناء هذه القلعة قد كان السبب في تهديم الأخرى، لأنه في السهل الواسع القائم فيما بين منطقتي الجبال العائدتين لجبل الطور وهذا المعسكر، ما من أحد يمكنه الفلاحة بسلامة وأمان أو الحصاد أو انضاج أي شيء بسبب الخوف الذين يعيشون فيه .

الفصل السابع

وسقط أسقف مونستر (٣٤) Munster نائماً في الرب في قيسارية، ووصل المعلم توماس (٣٥)، وكان لاهوتيا، وحكيما صاحب عقل واضح جيد الى نهاية أيامه في قلعة ابن الرب(٣٦).

الفصل الثامن

وعاد بعد هذا جيش الرب إلى عكا، وأعدّ أساقفة ألمانيا وآخرون كثر أنفسهم لعبور البحر، بعدما تأخروا لبعض الوقت في أرض الميعاد، وكان من المتوقع توفر عبور آخر ثاني، وخاصة مع توفر اسطول قادم من الشمال(٣٧)، كان من المؤمل أن يبحر خلال بحر قرطاج الضيق، فمن بداية الدعوة لحمل صليب المسيح أعدت منطقة كولون بحماس عظيم وبانفاق هائل، حوالي الثلاثمائة سفينة استمر بعضها بالبقاء،وهلك

بعضهـا الآخر بقـوة العواصف، والمهم أن الجزء الأكبر وصل إلى عكـا مع شجاعة عظيمة من جانب المحـاربين، وقد نشأ خلاف كبير هناك، عندما رغب بعضهم في متـابعـة السفـر، بينما رغب آخرون في امضـاء الشتـاء في حصار الحصن القوي جداً، المدعو الكاتيا (٣٨) Alcatia، وهناك انقسم الاسطول حيث أمضى قسم منه الشتاء في غيتا Gaeta وكورنتو Cor- neto وتـولى القسم الآخـر حصـار الكـاتيـا تحت قيـادة قـائدين هما : الكـونت وليم صـاحب هـولنـدا (٣٩) ، والكـونـت جـورج أوف ويـد Wied (٤٠)، وجـرى الاستيـلاء على حصن الكـاتيـا هــذا من قبل الألمان والفريـزيين، وظل في أيديهم حتى أيام قيامهم بحصـار حشد كبير من المسلمين الذين قاتل ضـدهـم برجولة كل من فرسان الـداوية وفرسان القديس جيمس (٤١)، ووقتهـا حاربوا مع جيش ملكـة البرتغال (٤٢)، وأخيراً الحقت الهزيمة بالمسلمين بـوساطة قوة سماويـة: وجرى قتل واحد من ملوكهم وقتل معه عدد كبير من المسلمين أو وقعوا بالأسر (٤٣).

الفصل التاسع

وعاشـت مقاطعة كـولون حـالة من الجيشـان للعمل في سبيل خـدمة مخلص العالم من خلال عدد من العـلامات اللائي ظهرن في السماء، لأنه ظهر في السماء في مقاطعة كـولون، وفي أسقفية مونستر، في قرية في فـريزيا اسمها بيدوم Bedum، في شهر أيار وفي اليوم السادس قبل عيد الحصاد (١٦ — أيار) ، عنـدما جرت الـدعوة لحمل الصليب هناك، وقتهـا ظهر شكل ثـلاثي في السماء، شكل أبيض متجـه نحـو الشمال، وآخـر متجـه نحو الجنـوب له الشكل نفسـه واللون، أما الثـالـث فقام في الـوسط، وهو مظلل باللـون، وله تشعبـات الصليب، وجسد انسـان ممدد عليـه، ويداه مرفوعتـان وممدودتان مع علامات المسـامير على اليدين والقدمين مع رأس مطأطىء، وكان هذا الشكل الـوسيط فيما بين الشكلين الآخرين، حيث لم

تظهر عليه أيـة علامات لشكل جسم انساني، وفي وقت آخـر ومكان آخر في قريـة في فريـزيا، ظهـر أثناء وقت الـدعوة لحمل الصليـب على موازاة الشمس صليب لونه أزرق ، والـذين رأوا هذا كانوا أكثـر عدداً من الذين رأوا المشهـد المتقدم، وكـان المشهد الثـالث في أسقفية أوتـرخت في قريـة دكوم Dokkum حيث كان القديس بونفيس Boniface قد استشهد، ففي أثناء الاحتفال بعيـد هذا القديس نفسه (٥ حـزيران) حيث احتشد عـدة آلاف من أجل هذا القـديس نفسه، ظهـر صليب أبيض كبير وكأنها حزمـة ضوئية وضعت على الأخـرى بشكل مصطنع، ورأينا هذه العـلامة جميعـاً، وقد تحركت الآن بشكل تـدريجي من الشمال الى الجنـوب، ونحن نعتقـد ان المشهـدين الآخـرين قـد ظهـرا لإزالـة جميع الغمـوض المتعلق بالمشهد الأول، وذلك مثلما يقول الرسل حول القيامة: «أنه ظهر لصفا ثم لـلاثني عشر، وبعـد ذلك ظهـر دفعـة واحـدة لأكثـر من خمسمائة أخ » (كورنثه: ١٥/ ٥— ٦).

الفصل العاشر

في سنة النعمة لـ ١٢١٨، وفي شهر آذار، بدأت السفن تبحر نحو ميناء عكا من مقاطعة كولون مع سفن أخرى صغيرة من مقاطعة بريمن Bre-men وتريـر Trier ، وبذلك جرى تنفيذ الخطة التي وضعت في مجمع الـلاتيران الـذي انعقـد في رومـا تحت رئاسـة البابـا انـوسنت صـاحب الـذكـرى الطيبـة، وذلك من أجل قيـادة الجيش الصليبي إلى الأراضي المصرية، وبنـاءً عليه في شهر أيـار، بعد صعـود الرب (٢٤ أيار) عنـدما باتت السفن معـدة، والغلايين مجهزة بالأسلحة، والسفـن الأخرى محملة، أقلع الجميع مـن عكـا مع الملك جـون ملك القـدس، والبطـريـرك وبصحبتـه أساقفـة نيقـوسيا، وبيت لحم، وعكـا، ودوق النمسـا وبرفقتـه فرسـان البيوت الثلاثـة: (الداوية والاسبتـارية والتيوتـون) وحشد كبير من

الصليبيين، وصدرت الأوامر للأسطول للاجتماع عند قلعة ابن الرب، التي تدعى قلعة الحجاج، ثم إنه بعدما هبت ريح شمالية وصل الملك والدوق ومقدموا البيوت الثلاثة إلى المكان المحدد، وأقلع الحشد بسرعة كاملة، وفي اليوم الثالث وصل إلى ميناء دمياط، لكن بالنسبة للقادة الذين تقدم ذكرهم، فقد تأخروا بعض الوقت عند القلعة، ولم يتمكنوا من اللحاق بالحشد حتى اليوم السادس بعد مغادرتهم ميناء عكا، يضاف إلى هذا أن آخرين ممن لم يكونوا قد استعدوا تأخروا بعض الشيء في عكا بعد الذين أبحروا أولاً، وهؤلاء إما مكثوا بشكل نهائي في عكا، أو أنهم حاولوا السفر فردتهم الرياح العاتية إلى عكا، أو ظلوا تتقاذفهم الأمواج وسط البحر لمدة ثلاثة أسابيع أو أربعة، وبقي رئيس أساقفة الرايمز (٤٥) Rheims وأسقف ليموز (٤٦) Limoges ، في عكا بسبب سنهما المتقدم، ومات أسقف ليموز هناك، أما أسقف الرايمز فقد عاد مع عبور الصليب المقدس، وهلك على الطريق.

وعندما جاءوا الآن للرسو عند ميناء دمياط اختاروا كونت أوف ساربروكن Saarbrucken قائداً لهم، واستولوا على الأرض المعادية في اليوم الثالث (٢٩ أيار) بدون أية خسائر بالدماء، وذلك من قبل أن يلحق بهم الملك والقادة المتقدم ذكرهم، لأنه عندما زحف قلة من المسلمين ضد الفرسان في الميناء، قام واحد من الفريزيين وقد غرس ركبته اليمنى، بالأرض ، وأمسك ترسه بيده اليسرى ، وسدد رمحه الحديدي بيده اليمنى ، وكان واحداً من الخيالة المسلمين يراقبه فظن أنه كان يلعب، وهنا رماه الفريزي مع مطيته، فهلك وسقط إلى الأرض، وعندما هرب الباقون متخلين عن جهازهم وعتادهم، قام الصليبيون بتثبيت حدود المعسكر فيما بين شاطىء البحر وضفة نهر النيل، وأثار هذا الاعجاب العظيم للذين لحقوا بهم وذلك عندما رأوا الخيم وقد نصبت، وحقق الرب معجزة تجلت بالحقيقة التالية، وهي أنهم لدى وصولهم أولاً

كانت مياه النهر متحدة مع البحر، ومن ثم كانت في مناسبات عديدة فيها بعد ذات طعم مالح، ولقد أمكن جرها وهي عذبة المذاق طوال الطريق إلى القلعة التي كانت تبعد حوالي الميل فوق دمياط، وبعد وقت قصير من وصول الصليبيين حدث خسوف كامل للقمر، ومع أنه بالعادة يحدث لأسباب طبيعة عندما يكون القمر بدراً، لكن لأن مخلصنا قال:«وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم». (لوقا: ٢١/ ٢٥)، قمنا بتأويل هذا الخسوف وتفسيره على أنه شارة سوء بالنسبة للمسلمين، وكأنها تدلل على سقوط الأشخاص الذين ربطوا أنفسهم بالقمر، واضعين قوة عظمى في القمر المضمحل أو الشاحب اللون، ونقرأ الآن في كتاب كوينتوس كورتيوس (٤٨) Quintus Curtius أن الاسكندر المقدوني قاهر العالم كله، عندما انطلق للحرب ضد داريوس والفرس، من بلاد الاغريق إلى بلاد آسيا، وعندما سارت أرتاله المعبأة بشكل جيد على هذا الجانب، وقع وقتها خسوف للقمر، وأوّل الاسكندر هذه الظاهرة لصالح الإغريق ضد الميديين والفرس، وشجع رجاله، وقاتل ضد داريوس وهزمه.

الفصل الحادي عشر

وكان هناك برج قائم في وسط النهر، توجب الاستيلاء عليه قبل العبور، وعبر الفريزيون، الذين كانوا على كل حال عديمي الصبر تجاه التأخير، النيل واستولوا على كثير من حيوانات المسلمين، ورغبوا في نصب المعسكر في الجانب الأقصى من الشاطىء، وتمسكوا بأرضهم وقاتلوا ضد المسلمين الذين جاءوا من مدينتهم للتصدي لهم، لكن أمكن ارجاعهم بواسطة الأوامر المطاعة، لأنه لم يبد أمراً حكيماً بالنسبة لقادتنا أن يدعوا برجاً مشحوناً بالمسلمين خلف الصليبيين، وفي الوقت نفسه أعد دوق النمسا ومعه الاسبتارية سلمين وضعوهما فوق سفينتين،

وقام التيوتون والفريزيون بتحصين سفينة ثالثة مع دريئة واقية وضعت فوق حصن صغير ثبت على قمة السارية، وذلك بدون تعليق سلم، وكان رأسهم، وقائدهم، وصاحب الرأي بينهم الكونت أدولف أوف بيرغ، (٤٩) وكان رجلاً نبيلاً وقوياً، كما كان أخاً لرئيس أساقفة كولون،(٥٠) ومات الكونت أمام دمياط قبل الاستيلاء على البرج، وجرى توجيه سلمي الدوق والاسبتارية ضد البرج في وقت الاحتفال بعيد القديس يوحنا المعمدان (٢٤ حزيران)، وكان المسلمون يدافعون عنه برجولة، وانشطر سلم الاسبتارية وتحطم مع السارية، وألقى بمقاتليه من الأعلى إلى الأسفل، وتحطم سلم الدوق في الوقت نفسه تقريباً، وبعث إلى الجنة جنوداً كانوا نشطاء ومسلحين بشكل جيد، وكانوا قد جرحوا في أجسادهم لصالح أرواحهم، وتتوجوا بشهادة رائعة، وسخر المصريون منا بعنف، ورفعوا أصواتهم، وقرعوا الطبول، وزعقوا بالأبواق، وهاجم الحزن والأسى الصليبيين، لكن سفينة الألمان والفريزيين ألقت بمراسيها فيما بين البرج والمدينة، مسببة خسائر كبيرة للمصريين بوساطة المنجنيق الذي أقيم على ظهرها، ولحق الأذى بشكل أعظم الذين كانوا واقفين على الجسر الممتد فيما بين المدينة والبرج، وهوجمت السفينة بعنف شديد من قبل مقاتلي المدينة، وبوساطة الجروخ المرمية من البرج ومن الجسر، وكذلك بوساطة النفوط، وأخيراً استولت عليها النيران، ومع أن الصليبيين خشيوا أنها سوف تتدمر كلياً، تمكن المدافعون عنها من إطفاء اللهب بشجاعة، ومثل هذا كان النشاب قد خرق من كل من الداخل والخارج الحصن الذي وضع على رأس السارية، لابل خرق حتى الحبال التي تعود إلى كل من الأشرعة والسواري، وأعيدت السفينة إلى وضعها وهي تحمل الشرف العظيم للصليبيين، وكانت هناك سفينة أخرى تعرضت لكثير من الأضرار وتحملت ذلك، وعادت هذه السفينة إلى الداية وكانت محصنة بسواتر دفاعية لذلك صمدت أمام البرج وقت الهجوم.

الفصل الثاني عشر

وعلى كل حال أدركنا أن البرج لايمكن الاستيلاء عليه لابوساطة قذائف العرادات أو حجارة المجانيق (لأن هذا جرب لعدة أيام)، ولابجعل الحصن أكثر قرباً، بسبب عمق مياه النهر، ولاباستخدام التجويع بسبب وجود المدينة المحيطة به، ولابوسيلة اللغم لصعوبة ذلك وقسوة المياه التي تتدفق هناك، وباظهار الرب وتبيانه لنا كيفية العمل وتوفيره لنا مهندساً، وبتقديم الألمان مع الفريزيين العتاد والعمل قمنا بوصل سفينتين وحزمهما معاً بقوة وثبات بوساطة العوارض الخشبية والحبال، وهكذا منعنا (بربط المنشأتين عن قرب ببعضهما) خطر الجنوح، وأقمنا أربع سواري، والعدد نفسه من حوامل الأشرعة، وقد وضعنا في أعلاهم حصناً قوياً موصولاً بأعمدة وبشبكة دفاعية، وغطينا الحصن بالجلود من جميع الجهات، كوسيلة للوقاية من ضربات آلاتهم، وعلى أعلاه كوسيلة للدفاع ضد النار الاغريقية، ووضع تحت الحصن سلم، جرى تعليقه بحبال قوية جداً، وقد امتد إلى الأمام مسافة ثلاثين ذراعاً أمام قيدوم السفينة ، وأكملت هذه العملية بنجاح في وقت قصير ، واستدعي قادة الجيش لرؤيتها ، حتى إذا كان هناك نقص في أي شيء توجب توفيره بوساطة المواد أو بعبقرية الرجال حيث يدللون عليه ويظهرونه ، ولقد أجابوا أن مثل هذا العمل الخشبي لم يشاهد له مثيل في الصنعة من قبل فوق وجه البحر ، ولقد أدركنا أنه متوجب علينا الاسراع ، بسبب القذائف المتوالية للمجانيق ، وكان الجسر الذي ينتقل عليه أعداء العقيدة من المدينة الى البرج قد تدمر في جزء كبير منه ، وبناء عليه في اليوم السادس قبل عيد القديس بارثلميو (١٨ — آب) قمنا بمسيرة بأقدام حافية الى الصليب المقدس ، مع ايمان وتقوى من جانب شعبنا ، وبعدما التمسنا بتواضع العون

السماوي ، وأن تكون المسألة حرة من كل حسد ، وفارغة من كل تفاخر ورعونة ، بعد هذا استدعينا للقيام بتنفيذ هذه المهمة بعض الرجال من جميع الأمم التي توفرت آنذاك في الجيش ، مع أن أمتي الألمان والفريزيين كانتا كافيتين لشغل السفن وتوجيهها .

الفصل الثالث عشر

وفي يوم عيد القديس بارثلميو (٢٤ — آب) الذي وافق اليوم السادس على فيضان النيل بشكل عنيف ، أعاق فيضان الماء وقوة التيار عملنا كثيراً ، وبصعوبة بالغة وبخطورة أمكن جر هذه الآلة في وجه التيار وذلك من المكان الذي صنعت فيه الى البرج ، ومضت سفينة صغيرة مرافقة لهذه الآلة على محاذاتها وهي منشورة الأشرعة ، وسار الكهنة بأقدام عارية على الشاطىء بمثابة تأييد ودعم ، وعندما وصلت الآلة والسفينة الى البرج ، لم تستطع ترتيبات مضاعفة ادارتها وجعلها تلتفان نحو الجانب الغربي ، لكن بتقدمها نحو الأمام وضعت الآلة بشكل مباشر باتجاه الجانب الشمالي ، وأمكن بوساطة الحبال والمراسي تثبيتها أخيراً ، مع أن قوة المياه الفائضة جهدت في سبيل إعادتها الى الخلف ، وجرى وضع ست آلات قذف أو أكثر من الآلات الأخرى ، وقد تحطمت بعد عدة ضربات وتوقفت عن العمل ، غير أن الآلات الأخريات قذفن بدون إعاقة الأحجار مثل زخات البرد وكان الخطر الذي واجهته السفينة الأولى عظيماً ، ولا يقل عما واجهته الآلة ، لأنها وقفت عند أسفل البرج ، وكانت النار الاغريقية التي قذفت من برج النهر قد قذفت من مسافة قريبة ، أما التي قذفت من المدينة ، فكانت أشبه بالبرق ، وكان بإمكانها بعث الشعور بالرعب ، وقد استعان الذين عملوا في سبيل اطفاء النار بالسوائل الحامضة وبالحصباء والرمل وبوسائل أخرى .

وسجد البطريرك وسط الرمال أمام خشبة الصليب ، أما رجال

الدين فقد وقفوا عراة الأقدام ، وهم يرتدون الأزياء الطقوسية ، وكانوا يصرخون رافعين أصواتهم نحو السماء ، وتمكن المدافعون عن البرج بوساطة مدّ رماحهم من تلويث واجهة السلم بالزيت ، ثم إنهم أضافوا النار ، مما جعل السلم يلتهب ، وعندما ركض الصليبيون الذين كانوا عليه لإطفاء النار، ضغطوا غلى رأس السلم بوزنهم الكبير، مما جعل الجسر المتحرك المقام قرب حافته ينحني ، وسقط حامل راية دوق النمسا من على السلم ، واستولى المسلمون على راية الدوق وخيل للمصريين أنهم كانوا المنتصرين لذلك صرخوا بشكل جنوني ، وجعلوا الهواء يضطرب بسبب صراخهم ، وترجل الصليبيون من على ظهور خيولهم ، وتمددوا وهم يتضرعون ويضربون أيديهم ، ودموعهم تنهمر على وجوهم حزناً ، وهم يعبرون عن شفقتهم نحو الذين كانوا يتحملون المخاطر في أعماق النهر، وحزناً منهم على خسارة المسيحية كلها ، واستجابة نحو هذا الدعاء والتقوى الصادرة عن الشعب ، ولأجله ، تدخلت العناية السماوية فرفعت السلم ، وأطفأت دموع المؤمنين النار، وهكذا جدد رجالنا نشاطهم وقاتلوا برجولة المدافعين عن البرج بمختلف الأسلحة من سيوف وفؤوس ودبابيس ووسائل أخرى ، وكان واحداً من الفرسان الشباب من أسقفية لييج أول من تمكن من الصعود الى البرج ، وكان هناك أحد الشباب الفريزيين بيده العصا التي تستخدم عادة لضرب سنابل القمح لفصل الحبوب ، وقد قام هذا الشاب بتحويل هذه الدرّاسة الى أداة قتال بربط سلسلة بها ، وهكذا أخذ يطوح بها ذات اليمين وذات الشمال ، فأصاب أحد الرجال ، وكان يحمل راية السلطان الصفراء ، وألقاه أرضاً وانتزع الراية منه ، وجاء واحد تلو الآخر فأهلكوا رجال الأعداء الذين كانوا معروفين بقسوتهم وشراستهم أثناء الدفاع ، ما أروعك أيها اللطف الرباني اللامحدود ، ويا أيها السرور الذي لا يمكن وصفه الذي تمتع به الصليبيون ، فبعد

الحزن والأسى ، وبعد النحيب والبكاء رأينا متعة النصر ، « نحمدك أنت يا رب » و«مبارك أنت أيها المولى رب اسرائيل » ، وأنشدوا تراتيل حمد أخرى للسماء ، وغنينا لسرورنا ، وتمازجت أصواتنا مع الدموع ،وكررنا شكرنا .

الفصل الرابع عشر

وقام بالوقت نفسه المسلمون الذين انسحبوا الى الجزء الداخلي من البرج بإشعال النار تحت الجزء العلوي من البرج ، وأحرقوه ، وصحيح أن رجالنا كانوا هم المنتصرين ، غيرأنهم تراجعوا بوساطة السلم ، لعدم قدرتهم على تحمل الحرارة ، أما بالنسبة للجسر الذي أعد في الجزء الأسفل من الحصن ، فقد أنزل الى الجزء الضيق من أسفل البرج ، والماء العميق يتدفق من حوله من جميع الجوانب ، وهاجم المنتصرون الباب وبأيديهم مطارق حديدية ، بينما تولى المسلمون الدفاع عنه من الداخل ، وبقي كل من التحصينان لا يرامان ، وخرقت مراقي السلم جزئياً ، مع اطار العمل الذي أمسكه مع بعضه بوساطة حبال قوية جداً ، بوساطة ضربات المجانيق واستمر هذا الخطر من الساعة التاسعة من اليوم السادس حتى الساعة العاشرة من الأحد التالي (٢٥ — آب)، ولكن ما كان يشبه الشبكة حيث أعد لحماية السلم بقي بدون أذى ، وذلك مع الحصن الذي وضع فيه المنجنيق والعرادات ، التي تولت حمايته ، وأخيراً بعد ما تمكنا من تطويق البرج ، طلب المسلمون التفاوض ، وفي ظل المحافظة على أرواحهم وأنهم لن يتعرضوا للموت ، استسلموا لدوق النمسا باستثناء الذين رموا بأنفسهم في الليلة الماضية من النوافذ ، ونجوا من الحصار المشدد على البرج ، وكان عدد كبير منهم قدغرقوا في النهر وهلكوا ، لكن بلغ تعداد الأسرى مائة رجل .

- ١٩٩٥ -

الفصل الخامس عشر

ومع أن المصريين اضطربوا منذ ذلك اليوم وارتعبوا ، واستعدوا للفرار كما اعتقدنا ، انغمس قادتنا بالكسل والتقاعس حسبما كانت عادتهم ، وأبدعوا وسيلة لتأجيل المفاوضات ولم يقلدوا يهودا المكابي الذي « رأى أن الوقت هو لصالحه » لذلك لم يعط الأعداء أدنى راحة

الفصل السادس عشر

واستعدت السفن للانسحاب ، وكان هناك حشداً كبيراً من الفريزيين والتيوتون قد انطلقوا للسفر بعبور الصليب المقدس ، وقدم في ذلك العبور (٥١) بعض الرومان ، وجاء بعد ذلك أسقف ألبانو وكان هو نائب الكرسي الرسولي (٥٢) وكان معه أمير روماني (٥٣) ، ثم جاء بعده رئيس أساقفة بوردو (٥٤) ، الذي قام بتأخير نافع ، ثم أساقفة أنغر (٥٥) Angers ، ومانوتا mantua (٥٦)، وهومانا Humana (٥٧) وسالبي (٥٨) salppi ثم جاء من بعدهم المعلم روبرت أوف كوركون Courcon لكاردينال الأسقف للقب القديس ستيفن فوق جبل سيليو (٥٩) Celio ، وأساقفة باريس (٦٠)، وجيرونا(٦١)، وايرلو Erlau (٦٢) وهنغاريا ، الذي مات قبل عبور النهر فوق رمال دمياط ، وكذلك الكاردينال روبرت، وجاء كونت نافار (٦٣) أيضاً ، الذي عندما واجه الخطر المهدد تراجع لضرر الصليبيين وأذاهم ، وجاء كونت التخوم (٦٤) (لى— مارشي) ، وكونت أوف بار (٦٥) BAR وابنه (٦٦) وأخو وليم أوف تشارترز ، وهو مقدم جيش الداوية (٦٧) ، وهيرفه أوف فيرزون (٦٨) Herve of Viertzon وايثير أوف تاوسي (٦٩) Ithier of

Toucy وأولفـر ابن ملك انكلترا ، وعـدد كبير آخـر من بيـوتـات الفروسية ، ومن عامة الناس ، حيث أنهوا حياتهم عند دمياط ، فكثير منهم كانـوا شهداء من أجل المسيح ، وعدد أكبر اعترفـوا بالمسيح ، فتحرروا من العناية الانسانية عند دمياط ، وذهبوا ماضين الى الرب .

الفصل السابع عشر

« هـو حكيم القلب وشـديـد القـوة . الفـاعل عظـائم لا تفحص وعجائب لا تعـد . الجاعل المتواضعين في العلى فيرتفع المحـزونون الى أمن » (أيـوب ٩/ ٤ ، ٥/ ٩، ١١) ، فهـو وحده الـذي نـال التعظيم في حصـار دميـاط ، لأن الـذي حـدث هنـا لم يشـابـه مـا حـدث في الحملات الأخـرى ضد المسلمين ، عندما تهيأت الفـرص المختلفة من خلال الحكمة البشريـة ، أو من خلال جهود المقاتلين ، بل مـن خلاله نفسـه عمل بشكل اعجازي ، وقـد تمّ من خلال قـواه الربـانية مـا لم يتصوره الانسان أو يطلبه ، ولم يعط المجد للملـوك أو للأمراء الآخرين أو الأمم ، بل لاسمـه ، وبذلك تحقق من خـلالنا نحن المذنبين الـوعد النبـوي بقـولـه :« الـرب يقـاتل عنكم وأنتـم تصمتـون »(الخروج : ١٤/ ١٤).

الفصل الثامن عشر

بعـد الاستيـلاء على البرج القـائم في عمـق نهر النيل ، صـار سيف الـدين أكثر شيخـوخة بسبب الأيـام العاتيـة والمرض ، وهو الـذي لم يكن الوريث لأبناء عمه ، لكنـه المغتصب لممالك آسيا ، هذا الرجل مـات ودفن في الجحيم ، وبعـد هـذا في يوم عيـد القـدس دنس (٩ــ تشرين أول) ، قـدم المسلمـون بشكل غير متـوقع مع غـلايين مسلحـة

وهاجموا المكـان الأهم في المعسكـرات ، حيث كان الـرومان قـد نصبوا خيـامهم ، وقـد جرى صـدهم بـوساطـة قـوة صغيرة من الصليبيين ، وقـاتل هنـاك الملك جـون ملـك القـدس بـرجـولـة بنـاء على تحريض وتشجيع من أسقف بيت لحم ، وذلك عنـدما طاردهم ، لـدى فرارهم مسرعين عائدين الى غلايينهم ، ومع ذلـك هم لم يتمكنوا من النجاة من سيـوف مطـارديهم ولا من تيـار النهـر ، وحـدث الآن مثلما حـدث للمصريين من قبل داخل الميـاه الهائجـة في البحـر الأحمر ، فقـد ابتلعت مياه النيل حوالي الألف من المصريين ، وذلك حسبما عـرفناه فيما بعد من المسلمين .

وفي يـوم عيـد القـديس ديميتريـوسDemtrius(٢٦ تشرين أول) الـذي قيل بأنـه كان أخـاً من نـاحية الأم للمبـارك دنس ، هـاجم العدو معسكـر الداويـة عند الفجر ، ومع أن رجـاله الحقـوا بنا بعض الخسائر الطفيفة ، لقـد تم صدهم بوسـاطة فرسـاننـا المتيقظين ، وهربوا الى الجسر الـذي بنوه على مسـافـة ضئيلة من الجزء الأعلى من النهـر ، وقـد قتل منهم حـوالي الخمسمائة ، وذلـك حسبما عـرفنـا من خـلال المتخلين عن جيشهم والهاجرين له .

الفصل التاسع عشر

وبعـد هذا بما أن عـدداً كبيراً من الصليبيين كـانـوا مـرضيين بالنسبـة للرب، كان من الضروري إجراء عملية امتحان لتكـون برهاناً لهم، فيونس ألقي بالبحـر بسبب الاضطراب الذي عصـف به، وسجن في داخل بطن الحوت، ثم عاد إلى اليـابسة عندمـا جاز الامتحان، ونجـا الرسول عنـدما امتحن ثـلاث مـرات بغـرق السفينــة، واستحق شعب الـرب الامتحـان بعدمـا قام بـالصوم لمدة ثلاثـة أيام، الأمر الـذي راعاه رجـال الدين عن

طواعية حيث صاموا على الخبز والماء، وبعدما جرت عدة مسيرات بناء على أمر اللورد بيلا غوس المبجل، وهو أسقف ألبانو، ونائب الكرسي الرسولي، ذلك أنه في عشية عيد القديس أندرو الرسول (٢٩ — تشرين الثاني)، في منتصف الليل ثارت أمواج البحر، وتضاعف حجمها، وتقدمت بشكل مخيف حتى باتجاه معسكر الصليبيين، واندفع النهر من الجانب الآخر، وأخذنا على حين غرة، فطفت الخيم، وأتلفت الأطعمة والميرة، وتكومت أسماك النهر والبحر، وكأنها لاتخشى شيئاً، في أماكن نومنا، وأمسكناهم بأيدينا، ومع هذا كنا مسرورين لأن نكون بدونها، ولولا فضل خطة روح القدس، والاعدادات التي تمت من قبل ببناء الحاجز الدفاعي الذي أقيم من أجل مصالحنا، لكانت مياه البحر قد تلاقت مع مياه النهر، وجرفت نحو الأعداء الرجال مع الحيوانات، والسفن مع الأسلحة وميرة الأطعمة، وفي وسط هذه المخاطر، كانت هناك على كل حال أربع سفن شيدت عليها قلاع من أجل الاستيلاء على المدينة ، ولم تتمكن هذه السفن من النجاة ، فبوساطة هجوم واحد حملن مع سفينة كانت قد وقعت في وسطهن ، وتم سوقهن إلى الشاطىء المقابل بقوة الرياح ، وهناك أحرقن أمام أعيننا بالنار الاغريقية . ووفر الرب جهود الفريزيين والألمان الذين بوساطتهم تم الاستيلاء على البرج ، أما السفن المحملة اللائي كن واقفات في ميناء البحر فقد فقدن عندما تقطعت فجأة حبالهن ، واستمرت هذه العاصفة لمدة ثلاثة أيام متواصلة ، وعندما انتهى هذا فإن الرب « الذي يعزينا في كل ضيقنا .انتهر الرياح والبحر فصار هدوء عظيم . ووقف البحر عن هيجانه » (متى : ٨/ ٢٦، كورنثه ٢/ ١/ ٤/، يونان : ١/ ١٥)

الفصل العشرون

الى جانب هذا أصيب عدد كبير من الجيش بأحد الأمراض الذي

عجز الأطباء عن ايجاد علاج له في براعاتهم ، وهاجم وجع مفاجىء الأقدام والأرجل ، وغطى بالوقت نفسه جلد فاسد اللثة والأسنان ، مزيلاً القدرة على المضغ ، وغطى سواد مخيف الذقون ، وهكذا بحكم المعاناة الطويلة من المرض المنتشر ، مضى كثيرون الى الرب مع كثير من الآلام ، وعاش بعضهم حتى الربيع . ونجوا، وجاءت نجاتهم بفضل ازدياد الحرارة .

الفصل الحادي والعشرون

وبعد المعاناة المتقدمة الذكر ، استعدت السفن لعبور النهر ، وأما الذين كانوا عرضة لمخاطر عظيمة فيما بين المدينة والبرج المستولى عليه ، فقد أعاقتهم كثيراً النار الاغريقية والنشاب ، ولقد حدث أن إحدى سفن الداوية (٧١) انتزعها التيار العنيف وحملها الى الجانب الأقرب من المدينة نحو الأعداء ، الذين هاجموها بالجروخ والكلاليب الحديدية ، وقذفوها بالنار الاغريقية وبالحجارة من الأبراج في الأعلى ، وبما أنهم لم يحققوا السيطرة بسبب شجاعة المدافعين عنها تسلقوا عليها بكل حماس ، ورموا بأنفسهم مباشرة فيها ، وانقضوا على الداوية وبعد قتال طويل خرقت السفينة أخيراً (لا نعرف أتم ذلك بوساطة الأعداء أم بوساطة رجالنا) ومضت نحو الأعماق مغرقة المصريين والصليبيين وهكذا بصعوبة بالغة ظهر رأس الصاري فوق وجه الماء ، ومثلما فعل شمشون حيث «كان الموتى الذين أماتهم في موته أكثر من الذين أماتهم في حياته »(القضاة : ١٦/ ٣٠) فعل هؤلاء الشهداء حيث جرّوا معهم إلى أعماق المياه أكثر من الذين كان بإمكانهم قتلهم بالسيف ، وبكى أهل دمياط وناحوا من أجل نصرهم الدموي لقرابة سبعة أيام ، وبعد هذا بينما كانوا يرممون الجسر تركوا فتحة صغيرة ، وهكذا لم يعد بإمكان سفننا الذهاب من

دون خطر ، لكن الألمان والفـريزيون امتلأوا بـالحماس وبغضب مسوغ ، فقامـوا وليس معهم من عون سـوى عون السماء ، فقاتلـوا برجـولة الجسر بوساطة السفينـة الصغيرة ، التي بعونها تم الاستيلاء على البرج ، والتي يـدعوهـا الغاليـون « الأم المقدسـة » ، وتسلق أقل من عشرة رجال من الأمة المتقدمة الذكـر الجسر ، في وجه جميع المقاومة الصادرة عن المصريين ، وكـان هنـاك حشـد كبير مـن الصليبيين يـراقبـون مـا يحدث ، ويمتـدحون جرأتهم ويثنـون عليهـا ، ودمروه ، ودمـروا معـه السفن الأربع التـي أقيم فـوقهـا الجسر ، وعـادوا منتصرين ، تـاركين الطريق حراً ومفتوحاً من أجل السفن التي كانت تبحر صعوداً.

الفصل الثاني والعشرون

وعنـدما تم انجـاز هذا كلـه ، قام المسلمـون وهـم ينتظرون الخطـر الذي يهددهم بتحصين طـرف النهر المواجه لنـا بالسـواتر الدفـاعية المدعـومـة بما يشبه الملاط والطين وقطـع خشب جاهـزة ، وأقـامـوا المجانيق والعـرادات هناك وبـذلك انتزعـوا منا الأمل بـالعبور من ذلك المكان ، وكذلك عملوا عند القلعـة التي كانت على قرابة ميل من المدينـة ، حيث انتهت جميع التحصينـات الجديـدة ، فقد أغـرقـوا عبر النهر كلـه سفناً وغرسوا أعمـدة في أماكن الدوامـات ، ومع هذا فإن نائب الكرسي الرسولي ، الذي كـانت لديه رغبة جيدة في محاصرة المدينـة ، قـام ببحث السفن لـلاجتماع على مسافـة من هنـاك للقيـام بـالعبـور ، وكانت السفـن محصنة ومقـواه بـالـدفـاعات وبـالحصـون وكـذلك بالـرجـال المسلحين وذلك مع الغلايين والسفن الأخـرى ، وكان المسيح قائدهم أثناء العبور ، فنجوا من السفن المغرقة المشار اليها أعـلاه ، ولكن العدو تظاهـر بالخوف ومع ذلك مـركز ثلاثـة أرتال من الرجال في مـواجهة صفوف سفننا : وكـان أول الأرتال من الجنود

الرجالة واقفاً على الشاطىء ، ومع رجاله ترسة من النوع الذين يدعونه الدرايىء ، وقد تمركزوا على شكل صفوف ، ووقف الثاني من خلفهم مثل الرتل الأول،وتألف الرتل الثالث من الخيالة،وكان رتلاً طويلاً ومخيفا،وهدد صفوف الصليبيين بوساطة زخات من الحجارة وبأسلحة أخرى.

يضاف الى هذا أنه في ليلة الاحتفال بعيد القديسه أغاثا، العذراء والشهيدة(٥ شباط ١٢١٩) عندما اجتمع الناس من المؤمنين الذين كانوا سيعبرون في اليوم التالي،أضافت الأمطار والرياح الكثير من الرعب والمصاعب لرجالنا،لكن«الرب أمين» و«لن يدعكم تمتحنون فوق ماتستطيعون»(كورنثه : ١/ ١٠/ ١٣) ، وهكذا نظر الى معسكر عبيده ، فحول الى يسر وسرور أشياء أخرى كانت لأدنى الأسباب صعبة أو غير ممكنة ، وجدد روائع قوته ، فبعد منتصف الليل ألقى رعباً هائلاً في قلب سلطان مصر وضباطه ، الى درجة أنهم تخلوا عن المعسكر بشكل كان غير معروف حتى بالنسبة للمصريين الذين تولى صفهم من أجل المقاومة ، ووضعوا آمالهم في الفرار فقط ، وقام أحد المرتدين ، الذي كان قد خرق القانون المسيحي لبعض الوقت ، وقاتل الى جانب السلطان ، بالوقوف على طرف النهر ورفع صوته صارخاً بالفرنسية :« لماذا أنتم متأخرون ؟ لماذا أنتم خائفون ؟ لماذا أنتم مترددون ؟ لقد ذهب السلطان بعيداً» ، وبعدما قال هذا طلب أن يعاد الى احدى السفن ، فبوضعه تحت سلطانهم يمكنه أن يبرهن على صحة كلماته ، وبناء عليه في الفجر الباكر ، عندما بدأ قداس يوم العيد بغناء المسيحيين للكلمات التالية :« دعونا جميعاً نبتهج » تمّ إعلام النائب الرسولي والملك مع الآخرين ، وهكذا مع فرار المصريين عبر رجالنا بحماس وسرعة بدون عوائق من جهة العدو وبدون إراقة للدماء .

لكن أرض الأعداء كانت موحلة جداً ومن الصعب النزول عليها وبسبب عمق المياه سيقت الخيول من دون سروج أو ركاب ، ومع ذلك لاقت صعوبة بالغة بالوقوف ، ثم إن قادة الداوية الذين تمكنوا من امتطاء الخيول ، رفعوا أعلامهم ، وبادروا مسرعين نحو المدينة بزحف سريع وألقوا أرضاً الأشرار الذين قدموا بكل جرأة من الأبواب لمقاومة الذين كانوا يتقدمون :« فالفأس لن تفتخر على القاطع بها ، كذلك لن يتكبر المنشار على مردده » (إشعيا : ١٠/ ١٥) ، فبأي شيء سوف نعادل هذه المعجزة أو نقارنها إلاّ بما نقرأ عنه فيما يتعلق بابن حدد ملك سورية الذي حاصر السامرة (انظر الملوك : ٢/ ٦/ ٢٤) ،وأنهكها كثيراً ، فبعث اليه الرب رعباً جعله يهرب من معسكره ، وكما أن فرار السوريين قد أعلن للسامرة بوساطة المجذومين الذين كانوا عند مدخل البوابة ، كذلك جاء الاعلان عن فرار المصريين بوساطة واحد كان مصاباً بالجذام في روحه، وأعني به المرتد السالف الذكر ، ومثلما جمع شعب السامرة الأسلاب التي تركت في معسكر السوريين كذلك فعل جيشنا فنهب الخيام واستولى على غنائم الذين كانوا يفرون ، واستولى المنتصرون على كثير من الدرايىء وعلى جميع الغلايين ، مع البراكيس وبقية السفن التي وجدوها تحت القلعة بعيداً حتى المدينة ، مع أسلاب أخرى، وكان عدد كبير من المحاربين قد تركوا زوجاتهم وأولادهم ، وهربوا من دمياط ، لاستيلاء الرعب عليهم بسبب الجواز غير المتوقع ، وحوصرت المدينة بإحكام وطوقت ، لأن الجيش قد اجتمعت عناصره بوساطة إعداد جسر كان يلامس طرفي النهر .

الفصل الثالث والعشرون

وحدث أنه من خلال الكسل والتراخي من قبل الذين الرب

يعرف أسماءهم أن المعظم (عيسى بن العادل) وصل ومعه رجال حلب وحشد كبير، وتجدد نشاط الأعداء واستردوا شجاعتهم، فاستولوا على المكان (٣ — أيار) الذي عبر منه رجالنا عبوراً اعجازياًوهكذا فيما نحن نحاصر المدينة لقد تولوا حصارنا بشكل أعظم خطراً، ولولا توفر إلهام رباني جعل المعسكر الأول الذي كان قائماً فيمابين البحر والنهر، يحافظ عليه من قبل الألمان، وخاصة من قبل الفريزيين، لتم الاستيلاء على الميناء مع انتزاعه منا وبذلك كان العمل سيتعرض كله الى خطر عظيم، وسوف يتعطل، ولكن حتى تغدو معجزة العبور أكثر شهرة ومن أجل أن تعزى من دون أدنى تردد الى المسيح وحده، وصل المسلمون الى درجة التهور، عند صباح السبت قبل Oculi meic semper الأحد (٩ آذار)، ولأننا لم نتوقع مثل هذا الخطر، فقد اقتربوا أكثر مع حشد عظيم، وضغطوا علينا حتى الدفاعات، لكن بوساطة العون الرباني أمكن صدهم وردهم الى الخلف، مع خسائر بالخيالة وبالجنود الرجالة .

الفصل الرابع والعشرون

في سنة النعمة لـ ١٢١٩، هدمت القدس، ملكة المدن، والتي بدت بحصانتها أنها لا ترام، هدمت من الداخل ومن الخارج من قبل المعظم عيسى ابن سيف الدين (١٩ — آذار أو ٢٥)، وتحولت أسوارها وأبرجتها الى أكوام من الحجارة باستثناء المسجد الأقصى وبرج داود، وتشاور المسلمون حول تدمير الضريح المقدس الرائع، وهددوا بهذا من خلال رسائل بعثوا بها الى سكان دمياط لطمأنتهم وتسكينهم، لكن ما من أحد أقدم على مدّ يده الى مثل هذا العمل الجريء، بسبب تبجيل المكان، لأنه حسبما كتب في القرآن، الذي هو كتاب شريعتهم، هم يعتقدون أن يسوع المسيح إلهنا قد حملت

به العذراء مريم وولد منها ، وأكدوا أنه عاش من دون ذنب كنبي وأكدوا بكل اصرار أنه أعطى النظر للأعمى ، والشفاء للمجذوم وأقام الميت ، وهم لا ينكرون كلمة الله وروحه ، وأنه صعد وهو حي الى السماء ، لكنهم ينكرون آلامه وموته ، وأن الطبيعة اللاهوتية متحدة أيضاً بالطبيعة الناسوتية في المسيح ، ومثل هذا هم لا يعترفون بثالوث الأشخاص ، وبناء عليه ينبغي دعوتهم هراطقة ، وليس مسلمين ، ولكن استخدام الأسم الزائف هو الذي انتشر وساد ، ولهذا في أيام الهدنة ، عندما ذهب عقلاؤهم الى القدس ، طلبوا مشاهدة نسخ من الأناجيل ، وقبلوا هذه النسخ وبجلوها بسبب نقاء الشريعة التي بشر بها المسيح ، ولاسيما انجيل لوقا لأنه جاء فيه : « أرسل جبرائيل الملاك » (لوقا : ١/ ٢٦) ، الأمر الذي غالباً ما ردده المتعلمون منهم ، وتذكروه في أذهانهم ، ... وشريعتهم التي أعطاها محمد (صلى الله عليه وسلم) الى المسلمين قد كتبت بالعربية ، وقد بدأت بالسيف ، وقامت وحوفظ عليها بالسيف ولسوف تنتهي بالسيف، ولم يكن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه متعلماً ، حسبما أوضح ذلك في قرآنه ..... (تكملة هذا الفصل وقوامها خمسة أسطر بشعة ، فيها حقد وجهل فاضح . وليس فيها ما يفيد لذلك آثرت عدم ترجمتها).

الفصل الخامس والعشرون

في يوم أحد السعف ، من السنة السالفة الذكر (٣١ — آذار) ، قام أعداؤنا بكثير من التهديدات ، وقالوا بأنهم سوف يدمرون أنفسهم أو يدمروننا جميعاً في يوم واحد ، وجمعوا جيشاً لا يعد ولا يحصى من الجنود الفرسان والرجالة الذين لا يعرفون الخوف وانقضوا علينا ، وهاجموا سواترنا الدفاعية من جميع الجهات ، ولا سيما جسر الداوية ، ودوق النمسا ، الذي كان متحمساً للدفاع مع الألمان ، وقام العدو ،

مع نخبة من الجنود ، بالقفز من فوق ظهور خيولهم وتحاربوا بقسوة مع الصليبيين ، وركزوا جهودهم على هذا الجانب وسقط عدد كبير قتلى وجرحى ، وأخيراً تسلقوا الجسر وأحرقوا شطراً منه ، ولدى التخلي عن الجسر ومغادرته أعطى دوق النمسا أمراً الى رجاله أن عليهم اعطاء فرصة للاقتراب مع مدخل لهؤلاء الذين كانوا يضغطون علينا ، لكنهم لم يتجرأوا على الدخول بسبب جيشنا الذي عبأ صفوفه لتكون عوناً للذين يتولون الدفاع عن التحصينات ، وقامت النساء بدون خوف بجلب الماء والحجارة والخمرة والخبز الى المقاتلين ، وثابر الكهنة على صلواتهم ، وتولوا تضميد جراحات الجرحى ومباركتهم ، ولم نعط الفرصة في ذلك اليوم لحمل سعف النخل ، بل حملنا القسي العقارة ، والقسي العادية والسهام والحراب ، والسيوف ، والترسة ، ولقد قاتلونا بعنف منقطع النظير وضيقوا الخناق علينا من شروق الشمس حتى قرابة الساعة العاشرة ، والمهم ، أن أولئك الذين قدموا لتدميرنا مع الرغبة في تحرير المدينة تراجعوا أخيراً منهكين مع خسائر عظيمة .

الفصل السادس والعشرون

لم يكن حلول عبور الربيع قريباً ، وكان دوق النمسا ناوياً على الانسحاب ، فهو الذي قاتل لمدة سنة ونصف السنة بإيمان خالص من أجل المسيح ، وكان مليئاً بالمشاعر الدينية ، ومتواضعاً ، ومطيعاً وكريماً، فبالاضافة الى جميع النفقات التي لا تحصى التي تحملها أثناء الحرب ومن خلال المساعدات الفردية ، من المعتقد أنه منح بيت التيوتون ستة آلاف مارك فضي أو أكثر ، من أجل الحصول على أرض، وأعطى من أجل الحصن الجديد العائد للداوية خمسين ماركاً ذهبياً ، ولهذا الحصن أعطى أيضاً إيرل أوف تشستر (٧٢) خمسين ماركاً

فضياً من أجل تقوية أسواره وأبراجه .

الفصل السابع والعشرون

بدأ في أول أيار حشد كبير من الحجاج بالانسحاب ، تاركيننا في الخطر العظيم،لكن أبانا اللطيف والرحيم ، وقائدنا وآمرنا ورفيقنا في السلاح يسوع المسيح الذي هو « وقاء ودفاع للمحتمين به ، لأنه سهل عليه الانقاذ إما بكثرة أو بقلة ». (المزامير ٣١/١٨ ، الملوك ٦/١٤) لم يأذن لغير المؤمنين بالانقضاض علينا حتى وصول الحجاج الجدد الحاليين مع وفرة من المساعدات ، والميرة والمؤن والخيول التي بعثت بوساطة قوة سماوية لسرور حشد المؤمنين ، وبناء عليه في عيد صعود الرب (١٦ أيار) عندما تجدد تعداد جنود المسيح ، الأعداء الذين لا يوثق بهم ، انقضوا علينا وفقاً لعاداتهم براً وبحراً ، وعندما وجدوا أنفسهم غير قادرين على السيطرة ، مع أنهم قاموا بعدد كبير من المحاولات ، قاموا بتحدي رجالنا ، خاصة قرب المعسكر ، حيث تكبدوا خسائر وألحقوا بنا خسائر ، وفي يوم ٣١ تموز تقدموا ومعهم جميع القوات التي أمكنهم حشدها ، وبعد عدد من الحملات ، عبروا أخيراً السواتر الدفاعية في مواجهة لجيش الداوية، وخرقوا بعنف شديد الحواجز ، وأرغموا جنودنا الرجالة على الفرار ، الى درجة أن جيش الصليبيين كله بات في خطر عظيم ، وحاول فرسان فرنسا وجنودها ثلاث مرات ردهم الى ما وراء السواتر الدفاعية ، غير أنهم لم يكن بإمكانهم فعل ذلك ، وبعدما تمكن المسلمون من تدمير دفاعاتنا الخشبية ، مركزوا صفوفاً من الخيالة والجنود الرجالة داخل أسوارنا ، وارتفعت أصواتهم وهم يسخرون منا، وأعد الحشد كله عتاده وما لديه ، فقد سيطر الرعب بعمق على الصليبيين ، غير أن الروح التي جاءت الى جدعون شجعت الداوية ،

فقد قام مقدم الداوية مع مقدمي بقية الفرسان الذين كانوا موجودين ، بهجوم من خلال واحد من الممرات الضيقة ، وتمكنوا برجولة من إرغام غير المؤمنين على الفرار ، وعندما رأى فرسان بيت التيوتون والكونتات والفرسان الآخرون من مختلف الأمم ، أن جيش الداوية كان في وضع خطر ، بادروا مسرعين لتقديم العون من خلال ممرات توفرت أمامهم ، وهكذا ألقى رجالة المسلمين ترستهم وقتلوا فيما عدا الذين فروا دونما توقف فانتزعوا أنفسهم من براثن قتلتهم ، ومضى جنودنا الرجالة خلف فرساننا ، وتراجع العدو الى مسافة قصيرة ، وظلت أرتالهم المسلحة ثابتة هنا وهناك حتى حلول المساء وانتشار الظلام ، فذلك وضع حداً للقتال ، وكان المسلمون هم أول من تراجع وأوقف القتال ، وظلت أجساد القتلى ممددة بتعاسة ومبعثرة قرب دفاعاتنا بأعداد كبيرة ، باستثناء الذين أصابتهم جراح خطيرة أو خفيفة وأعيدوا الى المعسكر ، وهكذا أنقذ الرب في ذلك اليوم الذين وضعوا أملهم فيه من خلال شجاعة الداوية والذين عملوا متعاونين معهم ، والذين كرسوا أنفسهم للصراع ، وكان عدد قليل من رجالنا قد قتلوا ووقعوا بالأسر.

الفصل الثامن والعشرون

واحترقت جميع الآلات التي أعدت ضد المدينة خلال الغارات التي جاءت من كثير من الجوانب وقام بها المدافعون عن دمياط ، وأكد البيازنة والجنويون والبنادقة (٧٣) وأصروا على الهجوم على المدينة باستخدام أربعة سفن علقت عليها السلالم :« إلا أنهم لم يكونوا من نسب أولئك الرجال الذين أوتوا خلاص اسرائيل على أيديهم » (المكابيون : ٦/٢/٥) ، ذلك أنهم رغبوا في صنع اسم وسمعة لأنفسهم فتقدموا نحو الأمام ومعهم الأبواق ومزامير

القصب وكثير من الرايات ، وزودهم نائب الكرسي الرسولي بكميات كبيرة من الأموال من الخزانة العامة ، وصنع الملك مع الآخرين كميات وافرة من الحبال والمراسي والكلاليب توقعاً لأن يحتاجوهم ، وهكذا هاجموا المدينة وقتلوا وجرحوا الكثيرين من اليوم الأول ، وغالباً ما قاموا بهجمات بعد هذا ، وفي الوقت نفسه تمت تقوية الأسوار بأبراج خشبية وبأسيجة ، وقاوم المدافعون المهاجمين بنشاط متزايد وبشدة أعظم ، وهكذا تعرضت السلالم للأذى بالنيران مراراً عدة ، ثم أعيد ترميمها ، وأخيراً القيت بالقوة على الضفة ، وباتت المحاولة محبطة وبلا ثمار ، وبات واضحاً ومفهوماً بأنه بالقوة الالهية وحدها يمكن أن تؤول دمياط الى أيدي الصليبيين.

الفصل التاسع والعشرون

لكننا نحن الذين بلا شعور وبلا عقل أو منطق لندرك منافع أفعال الرب التي قام بها وروعتها .« أغظنا عيني مجده المقدس » (أشعيا : ٣/٨) : وجعلناهما ضدنا من خلال تراخي قادتنا وشكاوى الأتباع ، فقد وجه الجنود الرجالة اللوم الى جبن الفرسان ، كما واستخف الفرسان بمخاطرات الجنود الرجالة . عندما زحفوا ضد المسلمين ، وبناء عليه حدث في يوم عيد قطع رأس القديس يوحنا المعمدان (٢٩ — آب) ، وذنوبنا العامة تتولى حثنا وتحريضنا إنه لم يعد هناك بالكاد أحد رغب بالبقاء محبوساً في المعسكر ولهذا قدنا متقدمين جيشًا برياً وبحرياً وزحفنا نريد معسكر المصريين بين البحر والنهر ، حيث لم تتوفر هناك مياه عذبة للشرب ، واستولينا على خيامهم ، وتظاهروا بالفرار ، وعندما زحف رجالنا الى نقطة كان واضحاً منها أن خصومنا لا يرغبون في مواجهتنا في اشتباك مكشوف بدأ رجالنا نقاشاً مديداً حول هل عليهم التقدم أم التراجع ، وانقسمت الآراء

والمشاعر فيما بينهم ، وفي الوقت نفسه تفرقت الأرتال باستثناء مجموعة ربطتهم طاعتهم بالنظام العسكري ،وأظهر فرسان قبرص (٧٤)، الذين كانوا على الأجنحة اليمنى جبنهم للمسلمين لأنهم لم يقوموا بالهجوم من جانبهم ، وهرب الجنود الايطاليون الرجالة أولاً، وتلاهم الفرسان العائدون الى مختلف الأمم وكذلك بعض فرسان الاسبتارية ، وذلك في حين قام نائب الكرسي الروماني والبطريرك الذي كان يحمل الصليب المقدس فترجوهما بإخلاص وأمانة للوقوف في مكانهم ، لكن عبثاً كان ، وكانت حرارة الشمس مرتفعة جداً ، وكان الجنود الرجالة مثقلون بأوزان دروعهم وأسلحتهم ، وزادت متاعب الطريق الحرارة ، والذين جلبوا معهم خمرة شربوها دونما مزج بالماء بسبب ضغط العطش الشديد عليهم ،ولانعدام الماء، وبينما كانت هذه الأشياء تحدث ، حدث في الوقت نفسه للذين كانوا يدافعون عن أنفسهم ، لدى وقوفهم حيث هم ، وإدارتهم ظهورهم للذين هربوا أولاً وظلوا يركضون وهم منقطعي الأنفاس حتى زالوا من الوجود ، لقد حدث لهؤلاء أنهم تهاووا دون الإصابة بجراح ، لكن الملك صمد في وجه حملة المطاردين ، ومعه الداوية ، وفرسان بيت التيوتون وفرسان اسبتارية القديس يوحنا وكونتات : هولاندا ، وويد ، وساربروكن وتشستر ، مع وولتر أوف بيرثوت Berth-out(٧٥) وعدة كونتات من فرنسا وبيزا ، مع فرسان آخرين ، وكاد الملك أن يحترق بالنار الاغريقية ، وعمل هؤلاء الرجالة بمثابة حماة للذين يفرون ، وغالباً عندما كانوا يبدون وجوههم للأعداء ، كان الأعداء يفرون ، لكن مع تراجعهم التدريجي توجب على هؤلاء الرجال تحمل ضربات أسلحة الأعداء

ووقع في الأسر أثناء الدفاع من الجانب الصليبي : الأسقف المنتخب لبوفياس (٧٦) مع أخيه (٧٧) الحاجب الأعظم لفرنسا مع ابنه (٧٨) ،

وفيـز كونت أوف بلمـونت Belmont (٧٩) مع أخيه أسقـف أنغر Angers، وجون أوف أركـي ، وكان نبيـلاًورجلاً نشيطـاً (٨٠) ، وهنري أوف أولمن (٨١) uelmen وعـدد كبيرآخر كـانوا قـد قتلوا أثنـاء الأسر ، ووقع في الأسر ثلاثـة وثلاثين من الداوية أو قتلـوا مع مقدم اسبتـارية القـديس يـوحنا (٨٢)مع عـدد كبيرآخـر من الفرسـان من التنظيم نفسـه ، كما أن بيت التيـوتون لم ينج مـن دون خسائر ، وكـان جيش الـداويـة الـذي اعتاد على أن يكـون الأول في الاحتشـاد، هـو الأخير في التراجع ، وبنـاء عليـه عنـدمـا وصل أخيراً في تـراجعـه الى دفـاعاتنـا تـوقف خارجهـا حتى يتمكن من جلب الـذين كـانوا مـا يزالـون أمام هـذه الدفاعـات الى ما ورائهـا ، أي الى داخل الأسوار إذا كـان ذلك ممكناً ، وأخيراً عـاد الـذين كـانوا يطـاردوننـا ليتـولوا قيـادة أسراهم وليجمعـوا أسـلابهم ، وعـرضـوا — كما علمنـا فيما بعـد من المسلمين — أمـــام السلطـــان خمسمائة رأس من رؤوس القتلى الصليبيين ، واستـولى الحزن والأسى على رجـالنـا ، لكنهم لم يقنطـوا ، لأننا علمنـا أن هذه الانتكاسـة جاءت عقوبـة على ذنوبنا ، وأنـه كان هناك تخفيف بـالعقوبـة أقل مما تستحقـه الأخطاء التي اقترفنـا ها ، ذلك أنه هو الذي يلطف العقوبـات ، فهو الذي خاطب روح المذنبة بقـولـه :« أمـا أنت فقـد زنيت بأصحـاب كثيرين لكن ارجعي إليّ يقـول الرب » (ارميـا : ٣/ ١) ، وكان من الـواضح بـالنسبة لنـا أن المسلمين عانـوا من خسائر كبيرة داخل نخبة جيشهم ، فـذلك اليوم كـان «يوم شـدة وتأديب واهـانـة ربـانية » (الملـوك : ٢/ ١٩/ ٣) ، وحقـاً إن الـرب رحيم فهو « الـذي لا ينسى في إظهـار الـرحمة ، وغضبه لن يغلق رحمته ، فهـو الذي في أوقات المحنة يغفـر الذنوب ، وهـو الـذي يأمر النـور بإنـارة الظـلام ، ويحوّل حزننـا الى بهجـة » (مـزامير: ٩/٧٦. طـوبيـا : ٣/ ١٣، كـورنثـه : ٢/ ٤/ ٦ . استير: ١٣/ ١٧) ،ذلك أن السلطان بعث بواحـد من أسرانا للبحث معنا

فيما يتعلق بالسلام أو بالهدنة ، واستطعنا في أثناء المباحثات أن نرمم دفاعاتنا مع بقية التحصينات .

الفصل الثلاثون

وفي الوقت نفسه كان البحارة الذين تولوا خيانة الصليبين ، معهم عدد كبير جداً من الحجاج الذين أحبوا أنفسهم أكثر من التعاطف مع أخوانهم كانوا قد تخلوا عن عساكر المسيح وهم في وضع خطر جداً ، قبل الوقت المعتاد للعبور ، ورفعوا أشرعة سفنهم، وغادروا الميناء ، وبذلك سببوا الاحباط لنا ، وتشجيعاً للمصريين .

وقام المصريون بقطع الإعدادات من أجل السلام عشية عيد القديسين كوزماسcosmas ودامیان Damian،وفي يوم العيد التالي(٢٦— ٢٨ أيلول)،لابل حتى يوم السبت التالي، جاءوا مع غلايين وبراكيس فوق النهر،ومعهم مجانيق،وترسة،وجذوع أشجار من أجل طم الخندق وتسويته بالأرض،وهاجمونا وفق طرائقهم الشرسة والعنيفة،لكن المقاتل الجبار«المنتصر في اسرائيل»(الملوك:١/ ١٥/ ٢٩)استخدم لطفه المعتاد، فدافع عن معسكره،بارسال سافاري أوف (٨٣) موليون Savary of mauleon بوساطة البحر مع غلايينه المسلحة وعدد كبير جداً من المقاتلين،وقد وصل وقت الأزمة والشدة،وكنا نصرخ الى السماء،فلم يتردد بالاندفاع نحو القتال ،بل وقف برجولة على أرضنا،وحافظ على موقفنا،فقتل،وأرغم العدو بعد ماألحق به الجراحات وسبب له الفوضى،على الانسحاب والتخلي عما كسبه في ثلاثة أيام من القتال،وكان هذا بفضل قوته،فهو الذي ينقذ الذين يثقون به.

الفصل الحادي والثلاثون

وفي الوقت نفسه كانت المدينة من قبل قد تأثرت كثيراً بالحصار الطويل وبالسيف،وبالمجاعة،وبالوباء،وكانت الأحوال أشد ممايمكن وصفه وكتابته،ووضعت أملها فقط في السلام الذي كان السلطان قد وعد به السكان،لأن المجاعة ازدادت فيها الى درجة عالية،وانعدمت فيها الأطعمة المحتاجه،مع أن الأطعمة الفاسدة كانت فيها كثيرة ووفيرة، لأن القمح في مصر لايعمر طويلاً،بسبب نعومة الأرض التي ينمو فيها، فيما عدا الأراضي حول القاهرة،حيث كان يحفظ هناك ببراعة لسنوات، وحسبما سمعنا أن تينة واحدة بيعت في دمياط مقابل إحدى عشرة قطعة نقدية،وبسبب ضغط المجاعة هددت أنواع متعددة من الأمراض السكان، وبين الأمراض والمصائب التي عانوا منها—حسبما قيل—أنهم لم يعودوا يبصرون شيئاً أثناء الليل،وكأنهم أصيبوا بالعمى،مع أن أعينهم كانت مفتوحة،وحثهم السلطان على عدم الاستسلام،وخدع هؤلاء الناس التعساء من يوم الى آخر بوعود فارغة،وأغلقوا— على كل حال— أبوابهم من الداخل من أجل أن لايأتي أحد إلينا من بين صفوفهم،فيخبرنا كيف أنزلت بهم الأيام المصاعب والى أي حد كانوا يعانون منها،لكن من الواضح أن الذين كان بامكانهم النجاة بوساطة الأبواب الجانبية،أو من خلال التدلي من الأسوار بوساطة الحبال،بينوا بكل وضوح الأحوال المأساوية لقومهم عن طريق أوضاع أجسادهم المتورمة ومظاهر الجوع عليها،وبدأت موارد الخبز والأطعمة بالتلاشي حتى بين الذين كانوا يحاصروننا من الخارج في جيش المسلمين،لأن النيل، يفيض بالعادة من بعد عيد القديس يوحنا المعمدان(٢٤حزيران) حتى عيد تمجيد الصليب المقدس(١٤—ايلول)ولكن لم يصل ارتفاع النيل الآن الى المقاس الذي يضعه المصريون بالعادة،وبالتالي لم يتم ري سهول مصر هذه السنة

حسب المعتاد،ولهذا السبب بقيت أجزاء كبيرة من البلاد جافة ،وبذلك لم يكن بالامكان فلاحتها أو حصدها في الأوقات المناسبة،ولهذا فإن السلطان الذي خشي من القحط والمجاعة عرض على الصليبيين صلحاً بوساطة أخيه المعظم عيسى، ذلك أنه فعل ذلك رغبة منه بالابقاء على دمياط، وكانت الشروط التي عرضها:أنه سوف يعيد الصليب المقدس،الذي جرى الاستيلاء عليه من قبل أثناء انتصار صلاح الدين،وذلك مع المدينة المقدسة وجميع الأسرى الذين يمكن ايجادهم على قيد الحياة في أرجاء مملكته في مصر والشام،وأيضاً تقديم المال للقيام بترميم أسوار القدس،وبالاضافة الى هذا كان على استعداد لإعادة مملكة القدس بأجمعها، باستثناء الكرك والشوبك،ولسوف يدفع مقابل تملكها جزية طوال قيام الهدنة.

وكان هناك موضعين قائمين في العربية،احتويا على سبعة حصون قوية جداً،من خلالهم يعبر بالعادة تجار المسلمين والحجاج الذاهبين الى مكة أو العائدين منها،والذي يتملك هذه المواضع يمكنه بكل جدية تسبيب الأذى للقدس مع حقولها وكرومها، وأن يفعل بها كما يريد ويرغب،واعتقد الملك مع الفرنسيين وكونت أوف تشستر مع قادة الألمان،بحزم أن هذه الترتيبات كانت لصالح الصليبيين،وينبغي أن لانعجب تجاه هذا،ذلك أنهم كانوا سيرضون بالصلح الذي كان أدنى أهمية وفائدة وهو الذي عرض من قبل،لولا أنهم عورضوا بالآراء الحكيمة،وبفعالية وحزم عارض النائب البابوي مع البطريرك ورؤساء الأساقفة والأساقفة ،والداوية، والاسبتارية،وجميع القادة الايطاليين(٨٤)،وعدد كبير آخر من حكماء الرجال، عارضوا هذه الترتيبات،وأظهروا بشكل منطقي أن دمياط ينبغي الاستيلاء عليها قبل كل شيء،وأنتج الخلاف بالرأي انشقاقاً مالبث أن وضع حد له،وتمت تسويته بسبب الحاجة العامة،وأرسل في الوقت نفسه السلطان بشكل

سري حشداً كبيراً من الجنود الرجّالة من خلال الأماكن السبخة الى المدينة ليلة الأحد بعد عيد جميع القديسين(٢—٣ تشرين الثاني) وهاجم مائتان وأربعون منهم الأسيجة بينما كان الصليبيون نياماً،لكن صراخ الخفراء أيقظهم،وقتل— حسبما أحصينا نحن— منهم حوالي المائتين أو أكثر أو وقعوا بالأسر.

الفصل الثاني والثلاثون

في الخامس من تشرين الثاني،وفي ظل حكم مخلص العالم،ومع بيلاغوس،أسقف ألبانو،وهو ينفذ بحماسة ويقظة عمله كنائب للكرسي الرسولي،جرى الاستيلاء على دمياط،بدون مقاومة،ودون أن تسلب بعنف،وبدون فوضى وضجة،وهكذا ينبغي أن يعزى النصر الى ابن الرب وحده،الذي ألهم شعبه ودلهم على مدخل مصر وتولى رعاية عونه هناك، وعندما جرى الاستيلاء على المدينة أمام أعين ملك مصر،لم يتجرأ حسبما كانت عادته على الهجوم من خلال دفاعاتنا على جنود المسيح الذين كانوا مستعدين للهجوم، وفاض النهر بالوقت نفسه وملأ خندقنا بماء وفير،وقام السلطان نفسه وهو في حالة من الفوضى والاضطراب باحراق معسكره والفرار،والرب الذي جمع المياه كلها في اليوم الثالث تحت قبة السماء في مكان واحد،هو نفسه الذي جلب جنوده بوساطة مياه البحر الى ميناء دمياط في اليوم الثالث من شهر شباط،وهونفسه الذي استولى على دمياط،القائمة وسط المياه في اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني.

ويمكننا تشبيه هذه المدينة،التي قهرت بالهزة الثالثة للأرض،بثور محطم،ولقد دعوناها«ثوراً» بسبب ترفها وعنفوانها،ومن أجل أسماكها وطيورها،ومراعيها،وقمحها،وحدائقها وبساتينها،فلقد ازدادت ثروة بالتجارة وبممارسة القرصنة،ولقد فاضت بجرائمها.وابتهجت،نعم لقد

فاضت في جهنم، «لأنه في ساعة واحدة جاءت دينونتك»(رؤيا يوحنا:١٨/ ١٠) ونحن نقول جاء« خرابها» لأن سكانها هلكوا في الهزة الثالثة للأرض،ومع ذلك بقيت هي دونها أذى بنفسها،فلقد حوصرت أولاً من قبل الاغريق واللاتين الذين غادروها وابتعدوا عنها،ثم حوصرت ثانية من قبل اللاتين تحت قيادة عموري،ملك القدس،الذي لم يحقق النجاح،لكن في المرة الثالثة:«ملك الملوك ورب الأرباب»(الرؤيا:١٩/ ١٦)أعطاها الى عبيده،وكان يسوع المسيح هو الذي انتصر،وحكم وأمر،«وهو الذي بالنسبة للمصريين أيبس كل شيء زرع بالماء... وأخزاهم في كل ماعملوه بالكتان والذهب،والكتان الممشط لحياكة الملابس الرفيعة»(اشعيا:١٩/ ٧—٩)، وهكذا قاتل جند المسيح دمياط،فوجدوا شوارعها مغطاة بجثث الموتى،الذين هلكوا بسبب الأوبئة والمجاعة،ووجدوا كثيراً جداً من الذهب والفضة،وكانت الأقمشة الحريرية العائدة للتجار بكميات وفيرة،وكان هناك عدداً كبيراً من مخازن البضائع المليئة بمختلف الأنواع،وبالاضافة الى الموقع الطبيعي للمكان،والذي كانت محصنة به،كانت المدينة محاطة بسور ثلاثي ومحمية بقوة بوساطة عدد كبير من الأبراج الآجرية،وهي المفتاح لمصر كلها، وهي محمية بشكل جيد لوقوعها فيما بين رعمسيس وسهل تنيس في أرض جيسين(٨٥)Gessenوذلك حسبما تمكنا من استخلاصه،لأن هناك تقوم المراعي التي طلبها بنو اسرائيل من الفرعون في أيام المجاعة(انظر التكوين:٤٧).

الفصل الثالث والثلاثون

دمياط،مشهورة بين المماليك،وهي مشهورة جداً في مجد مصر،فهي الحاكمة للبحر،والناهبة للصليبيين،لقد جرى الاستيلاء عليك،لفخار مضطهديك، بوساطة عدد قليل من السلالم الصغيرة،وأنت

الآن«متواضعـة تحت يد الـرب القويـة»(بطرس:١/ ٥/ ٦)،ورميـت بعيداً الـزاني الـذي احتفظت بـه لـوقت طـويل،ولقـد عـدت الى زوجك السالف،وأنت التي ولدت أولاد زنـا أولاً سوف تلدين الآن أولاداً لصالح الايمان بـابن الـرب،لأنـك غـدوت في القبضـة القـويـةللمـؤمنين بـالمسيح،وحـرر أسقف عكـا(جـاك دي فيتري)فيك الثمـرات الأولى من الأرواح من أجل الـرب،بقيـامـه بتطهير صغـارك في مـاء المعمـوديـة الطاهر،وهم الـذين عثر عليهم فيك أحياء بقوته،مع أنهم كـانوا أقرب الى الموت، ولقـد كنت عرضـة لأضعـاف مضاعفـة من العقـوبات،لأنـه الى جانب الـذين أخذوا أحياء فيك،بلـغ تعداد موتـاك من كلا الجنسين من بداية الحصـار حوالي الثلاثين ألفاً وأكثر،فالرب هو الـذي رماهم وأماتهم بـدون سيف ولانـار،وأصبحت منـذ الآن فصـاعـداً تسخـرين من تحمل الدنس الذي اقترف فيك.

الفصل الرابع والثلاثون

وبنـاءً عليه لتبتهج الكنيسـة بعودة الأعمال الجديـدة بالشكـر من أجل مثل هـذا النصر، وليس ذلك فقط من أجل دمياط، وإنما أيضـاً من أجل تـدمير قلعة جبـل الطور الخطـرة، ولنيلنـا ممراً حـراً إلى القـدس، التي من الممكن إعادة بناء أسوارها في الوقـت الذي يراه الرب العالي، وإلى جانب هذا قلعة ابن الرب، التي يتولى جيش الداوية في ظل نفقة عظيمة جعلها مفيـدة ولاترام، وهي التي كتبنـا من قبل حولها كثيراً، ابتهجي يـامقاطعـة كـولون، وافـرحي وقـدمي الشكـر، لأنك أعطيت من السفن، ومن آلات الحرب، ومن المحـاربين ومن الأسلحة، ومن الميرة والأمـوال، والمعونـات، أكثر مما أعطتـه بقية مملكة ألمانيا، هذا وشعبنـا شعب الرب، متشوق كثيراً وبانتظـار امبراطورنا الـلامع مع ملك صقلية حتى يحققـا بسرور الالتحاق بـالمخاطـرة، أما أنت يـاكـولون يـا مـدينة القـديسين، الذين يقيمـون في

حدائق ورود الشهداء، وليلك العزراوات، وبنفسج المعترفين، ابتهجي الآن بالسلام الزمني الذي تمّ نيله بوساطة رئيس أساقفتنا المبجل، وبسبب إيمان وإخلاص بناتك، واركعي بقلبك أمام الرب في الأعالي، الذي لديه قوة الحياة والموت: «ولا تستكبري في ذهنك بل خافي أمامه، وزكي طريقك أمامه خشية أن عظيم غضب الرب الذي انسكب عليك». (روما: ٢/ ٢٠. أيوب: ١٣/ ١٥. أخبار الأيام: ٢/ ٣٤/ ٢١) أن يتحول إلى بردلكن..... بما أن أوقات السلام قد منحت منذ وقت طويل، تعبدي بعقل متفتح الذي له الشرف والمجد، والجبروت والقوة.

الفصل الخامس والثلاثون

قبل الاستيلاء على دمياط استرعى انتباهنا كتاب كتب بالعربية، قال فيه مصنفه أنه لم يكن لايهودياً ولامسيحياً ولامسلما، ومهما كان هو، لقد تنبأ بالشرور التي أنزلها صلاح الدين بوحشية على الشعب الصليبي، في تدميره لطبرية، وفي نصره على الصليبيين عندما أخذ ملك القدس أسيراً ومعه أمرائه، واحتل المدينة المقدسة، وهدم عسقلان، وتنبأ أيضاً كيف أنه حاول الاستيلاء على صور غير أنه لم ينجح، وأشياء أخرى كثيرة استحقتها ذنوب ذلك الحين، وتنبأ أيضاً بدمار حدائق وبساتين نخيل مدينة دمياط، الأمر الذي رأيناه يتحقق، عندما تفحصنا هذا الكتاب من خلال المترجم، ولقد أضاف بأن دمياط سوف يتم الاستيلاء عليها من قبل الصليبيين، وهو لم يستخدم اسم صلاح الدين، لكنه أشار إليه من خلال عينيه السوداوتين وراياته الصفراء، يضاف إلى هذا لقد تنبأ بواحد من الملوك من مسيحيي النوبة (برسترجون الذي سيأتي ذكره فيما بعد بالتفصيل) سوف يتولى هدم مدينة مكة، ولسوف يفرق عظام النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مع أشياء أخرى لم تحدث بعد، لكنها ستكون، وعندما ستتحقق سوف يؤدي ذلك إلى بهجة المسيحية وذل المسلمين،

ونحن نعرف أن بعض الكفار من الشعوب يمتلكون روح قدس على شفاههم، لكن ليس في قلوبهم، ولقد تنبأوا بشكل مكشوف حول المسيح، ولهذا نحن لسنا مندهشين إذا ماتدفق الماء من خلال الأقنية الحجرية.

إلى جانب هذا انتشرت تقارير في جميع أنحاء العالم تحدثت عن الاستيلاء على دمياط من قبل الصليبيين، وكان هذا هو السبب في ارسال رسالة من الجورجيين (الكرج) إلى معسكر الجاثليق، وقالت الرسالة بأن تلك الأمة غاضبة وتشعر بالعار وثائرة لذلك، وقررت وأقسمت الأيمان أنه ماأن يتمكن الملك من اقناع القادة، حتى سيتولون حصار احدى مدن المسلمين الشهيرة، وأعلنوا أنهم يشعرون بالعار لأن الفرنجة جاءوا من مناطق نائية عبر البحر، ومن أقصى حدود الأرض، عبر محيط مليء بالمخاطر، وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة حصينة جداً بعد طول حصار، ولسوف يظلون يشعرون بالعار ومالم يقوموا هم أنفسهم بالاستيلاء على دمشق أو مكان محدد آخر بقوة أسلحتهم، ذلك أنه أسهل عليهم من الفرنجة مهاجمة العدو وقتاله، ويؤمن الجورجيون الآن بالمسيح، وهم جيران للفرس، تفصلهم عن أرض الميعاد امتدادات واسعة من الأرض، وتمتد مملكتهم حتى جبال قزوين، التي محبوس فيها عشر قبائل، تنتظر موعد ظهور المسيح الدجال، فوقتها سوف يتدفقون نحو الأمام ويسببون الكثير من الخراب، والجورجيون شعب محارب، ويضع رجال الدين منهم على رؤوسهم قلنسوات مستديرة، أما قلنسوات غير رجال الدين فمربعة، ونساؤهم من ذوي الأصل الرفيع قد تدربن على القتال، وعندما يمضي الجورجيون إلى قتال الأعداء في صفوف منتظمة يشرب كل واحد منهم قرعة صغيرة مملوءة بالخمرة الصرفة، ووقتها يقاتلون خصومهم بشجاعة.

ولاريب لدينا أننا بين المحظين من قبل المسيح حامينا، فقد دافع عن قادتنا وحماهم من القتلة من بين صفوف أعدائنا أثناء حصار دمياط، لأن

الحشيشية ومقدمهم «شيخ الجبل» اعتادوا على رمي خناجرهم ضد الصليبيين، لوضع حد لحياة الذين يهتمون منهم بمصالح المسيحيين وأعمالهم، فقد حدث في أيام الهدنة أنهم قتلوا بشكل متعمد (ريموند بن بوهيموند الرابع) كونت طرابلس، الذي كان شاباً جيداً، حيث مدد أمام المذبح في كنيسة العذراء المباركة في طرطوس، وبناءً عليه قام جيش الداوية بمطاردتهم بدون توقف وبعنف ديني كبير، حتى تذللوا إلى حد العبودية ووعدوا بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثة آلاف دينار إلى الداوية.

الفصل السادس والثلاثون

في أيام الحصار، توفي ليون ملك أرمينيا في سن متقدم، ومثله توفي سلطان قونية،ومن المعتقد أنه كان قد تعمد، وكان لذلك لطيفاً جداً نحو المسيحيين، حتى أنه في أثناء مشاركته في الحروب ضدبعض المسلمين كان يأمر باطلاق سراح المسيحيين الذين كان يجدهم في الأغلال داخل الحصون التي كان يتولى مهاجمتها، وكان يعطيهم حق الخيار بالعودة إلى بلدانهم، وذلك إذا مارغبوا، أو بتسلم المال منه، ومن ثم المشاركة في الحروب تحت قيادته إذا مافضلوا ذلك، وكانت علاقاته وطيدة بالمسيحيين إلى حد أنه اتخذ منهم حرسه الشخصي، مع أن والده كان قد قتل من قبل لاسكارس الاغريقي، كما أنه ساند الأفضل علي الابن المخلوع لصلاح الدين ضد أبناء سيف الدين، وذلك بقدر ماسمح خليفة بغداد الذي كان بمثابة البابا لقومه.

وألحق الملك الأشرف بن سيف الدين خسائر كثيرة بالداوية عندما كانوا يحاصرون دمياط، فهو قد أحرق بلدة صافيتا، ودمر أبراجها المحصنة، لكنه عندما عاد إلى أراضيه هزم من قبل المسلمين، وفي الوقت نفسه، هاجم بوهيموند كونت طرابلس بشدة وعنف مدينة انطاكية،

وطرد منها روبين، الذي كان واحداً من أقـربائه، وخلعه من حكم المدينة (٨٦)، وفضل بالحري التمتـع بالذنب الدنيوي على التعـاون مع الشعب المسيحي، ولهذا قـام نائب الكرسي الـرسولي رسميـاً باعلان الحكـم عليه بـالجرمان الكنسي، وبتطبيـق ذلك ضـده وضد طـرابلس والأراضي التـي اقترف فيها جريمته.

الفصل السابع والثلاثون

«قد كسر الرب عصا الأشرار قضيب المتسلطين. فعلـه المرهب نحو بني آدم» (اشعيا: ١٤/ ٥. المزامير: ٧٤ / ١٧؛ ٦٥/ ٥) فهـو الذي فتح بقـوته أبواب دميـاط، عندمـا كنا داخلين إليهـا، وهناك واجهتنـا رائحة رهيبـة، ومنظر تعيس، فقـد قتل الأموات الأحياء، لقد قتل الـرجل زوجته، والأب ابنـه، والسيد عبـده لقد قتـل كل واحـد منهـم الآخر بـرائحته، ولم تكـن الشوارع وحـدها مليئـة بالموتـى، لكن البيـوت أيضاً، ففـي غرف النـوم، وعلى الفرش تمددت جثث الموتى، وعندما كـان الزوج يهلك، كانت المرأة لاتمتلك القـدرة على القيام وتفتقر إلى مـن يقدم لها العـون، لذلك كـانت تموت لعدم قـدرتها على تحمل الرائحـة، وكان الـولد إلى جانـب أبيه، أو العكس صحيـح، هلك بـالمرض، وتمدد جثة هامـدة: «الأطفال يسـألون خبزاً وليـس من يكسره لهم» (مـراثي أرميا: ٤/ ٤) وكـان الرضـع معلقون على صدور أمهاتهم وأفـواههم مفتوحة وهي تحتضن واحـداً من الأموات، ومات الـرجال الأثريـاء ذوي الحساسيـة العظيمة من الجوع وسـط أكوام من الطحين، وكـانت هذه الأطعمة تفتقـر إلى مااعتادوا عليه، وبصعـوبة بـالغـة اشتهـوا البطيـخ والثـوم، والبصـل، والسمـك، والطيـور، وفـواكـه الأشجـار والتوابـل، وفيهـم تحققـت نبوءه النبـي بقـولـه: «فيكون عـوض الطيب عفـونـة، كجثـة مدوسـة متعفنـة لاتتحـد بهم في القبر» (اشعيـا: ٣/ ٢٤؛ ١٤/ ١٩ — ٢٠)، ولقـد هلـك في المدينة قـرابـة الثمانين ألفـاً،

وذلك حسبما عرفنا من تقارير الأسرى، وكان ذلك من بداية الحصار حتى نهايته، وذلك باستثناء الذين وجدناهم أصحاء أو مرضى، وكان تعدادهم حوالي الثلاثة آلاف، وثلاثمائة من هؤلاء كانوا هم الأكثر تميزاً بين كلا الجنسين، وقد جرى الاحتفاظ بهم من أجل فداء أسرانا، وقد مات بعضهم بعد النصر وجرى بيع آخرين بأسعار مرتفعة، وقسم آخر جري تعميده وإعطائه للمسيح.

الفصل الثامن والثلاثون

وكانت هذه المدينة محصنة إلى درجة عالية، حيث امتلكت سوراً أولياً لحماية الخندق، ثم سوراً ثانياً أعلى، ثم سوراً ثالثاً أعلى من الثاني، وامتلك السور الثاني ثمانية وعشرين برجاً رئيسياً واحتوى كل برج منها من ساترتين إلى ثلاثه سواتر للرماة، وقد بقيت جميعها صحيحة بدون أذى مع الأسوار، فيما عدا واحدة انشطرت بشكل واضح بسبب الرمايات المستمرة التي صدرت عن منجنيق دوق النمسا، ذلك أن جيشنا استسلم للكسل والتراخي حتى أن الفرسان كرسوا أنفسهم للمتعة مهملين عمل الرب، بينما انصرف عامة الناس إلى الحانات، وإلى التعامل بالخداع والحيل، وتمت صناعة سنورين أنفق عليهما مبالغ كبيرة من أجل طم الخندق، وأوكل أمر إحداهن إلى الملك، ووضعت الثانية تحت رعاية الرومان، وقد أحرقتا، عندما كان المدافعون عن المدينة مايزالون أقوياء وقادرين على استخدام السلاح، وجرى حفر نفقين تحت الأرض من أجل لغم أساسات التحصينات، لكن ذلك العمل أعيق بعدما كلف كثيراً، فقد رغب الرب في إعطاء المدينة بلا أذى، وبدون خسارة الذين يستولون عليها، وكان هذا بسبب قوته، وأقسمنا نحن بشكل جماعي على أن الأسلاب التي ستحمل من المدينة ينبغي أن تقسم بين المنتصرين، وأضيف إلى هذا تحريم مهيب من قبل نائب الكرسي

الـرسولي، والمعتـدون سوف يظلـون ينظـر إليهم بـازدراء دائم مع عخـان الذي أخـذ عند أريحا شيئـاً مما كـان محرماً، وفي الحقيقـة جعل شره العين كثيراً من الرجـال لصوصاً، ومع هذا تلقينـا لصالح الدولـة وتسلمنا جزءاً كبيراً مـن منتجات مصر الثمينـة مـن ذهـب وفضة ولآلىء، وتفـاح العنبر، وخيوط ذهبية، ومختلفة أنواع الشراريب وأقمشة حريرية ثمينة، مثلما عدّد أشعيا وأحصى بقوله: «ينزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلـة. والحلـق والآساور والبراقـع، والعصـائب والسـلاسل والمنـاطـق وحناجـر الشمامات والأحراز. والخواتـم وخـزائم الأنف. والثياب المزخـرفة والعطـف والأرديـة والأكيـاس. والمرائي والقمصـان والعمائم والأزر» (أشعيـا: ٣/١٨ — ٢٣)، والأشيـاء التي أخـذت لايمكـن لإنسـان أن يحصيها كاملة، ونحـن نبدد وقتاً طويلاً في تقديرهـا، ووزعت هذه الأشياء وسط جيش الرب مع القمح الذي وجد في المدينة.

الفصل التاسع والثلاثون

ألحق نائب الكرسي الـرسولي دمياط، مع كل ماهـو متعلق بها بمملكة القدس إلى الأبد، وجرى تحويل مسجد دميـاط من خلال تضرع الثالوث المقـدس الذي لايعـرف الانقسام، إلى كنيسـة كرسـت على اسم العـذراء مريم المباركـة والرائعة، وبما أنه بني على شكل رباعي، كـان بإمكاننا أن نرى أن عمقه يسـاوي تقريباً طوله، وهو محمـول على بمائة وواحد وأربعين عموداً رخاميـاً، وقد امتلك سبعة أروقة، وهنـاك في الوسط سـاحـة طويلة وعريضة مكشـوفة، فيها هرم لـه في أعلاه شكل قبة مفتـوحة، وفي الطرف الغربي هناك برج قـائم على شكل الأبراج التي تحمل النواقيـس، وقد بني فيه أربعـة مذابـح، وحمل المذبح الأول اسـم مريـم المباركـة، وحمل الثاني اسـم بطـرس أمير الحواريين، وحمل الثالـث اسم الصليـب المقدس، وحمل الرابع اسم بارثلميو المبـارك، الذي جرى يوم عيـده الاستيلاء على البرج

القائم وسط النهر.

ووجدنا في دمياط أربعة مجانيق مع عرادات وعدد كبير من المجانيق العادية، وآلات قاذفة قوية جداً مع مخرطة، وبسبب تعداد الحشد الكبير لم نعرف عدد العرادات والأقواس، فقد كان هناك كل نوع من أنواع المعدات للرجال الشجعان، قد وجد محفوظاً من أجل الصليبيين، ولم يقسم الذهب والفضة والمجوهرات والأشياء السهلة النقل على شكل حصص فقط بين رجال الدين والفرسان، بل بين الخدم، والنساء والأطفال، وجرى توزيع أبراج المدينة مع بيوتها بين الممالك التي احتشد مقاتلوها من أجل الاستيلاء عليها، واحتفظ في المقام الأول بأحد الأبراج، بحكم الواجب واللياقة، لصالح الكنيسة الرومانية مع بابه الذي كان يدعى من قبل باب القاهرة، غير أنه بات يعرف الآن باسم باب الرومان، واحتفظ ببرج آخر لصالح رئيس أساقفة دمياط، ومثلما حدث من قبل حيث جرى الاستيلاء على القدس، المدينة المقدسة للرب الحي، من قبل الأعداء في الليل، هكذا أيضاً استولى الصليبيون على دمياط قبل الفجر، أما بالنسبة للآلة التي تمّ بوساطتها الاستيلاء على برج النهر فقد كرسها الألمان والفريزيون لصالح الجميع، ومنها تمت إقامة جسر جديد بين المدينة والحصن الذي بني كدفاع على ضفة النهر المواجهة للمدينة، وجرى وضع حصنين صغيرين مع بعضهما لحماية البرج، بوساطة الآلة نفسها، وإلى جانب هذا أقيم من الأشجار الأخرى التي علقت عليها السلالم، مكان مراقبة على ذروة حصن جديد، من أجل تبيان مكان الميناء للذين كانوا يأتون مبحرين من مسافة بعيدة، وكان هناك جسر قديم، أمكنه بوساطة جزيرة قائمة في الوسط، من ملامسة كلا الضفتين، وقد هوجم مرات عدة من قبل المسلمين أيام الحصار، وتمت المدافعة عنه برجولة من قبل الصليبيين، أما الآن وقد قام بما توجب عليه، فقد احتفظ به لاستخدامات أخرى.

- ٢٠٢٤ -

الفصل الأربعون

بمعجزة لم تكن أبداً أدنى، بل بالحري أعظم من سواها، أعطى الرب إلى الصليبيين حصن تنيس، في شهر تشرين الثاني، في يوم عيد كليمنت المبارك، (٢٣ — تشرين الثاني)، وكان هذا الحصن قائماً على البحر، فقد جرى إرسال كشافة كان عددهم قرابة الألف بوساطة سفن صغيرة، خلال نهر صغير يدعى نهر تنيس، وذلك بقصد أن يجلبوا ميرة لأنفسهم من القلعة، وليقوموا بكل عناية بتفحص الموقع المشار إليه، ورأى المسلمون الذين كانوا في حامية الحصن، الصليبيين فخيل إليهم أن الجيش كله قد جاء، لذلك فروا بعدما أغلقوا الأبواب، أما رجالنا الذين كان المسيح هو قائدهم الوحيد هناك، فقد شقوا طريقهم بين الحواجز، ودخلوا إلى الحصن، وبعد عودتهم أعلنوا لنا أنهم لم يشهدوا قط حصناً قام على سهل أقوى منه، فقد امتلك سبعة أبراج قوية جداً، محصنة بشرافات وطلاقات، يضاف إلى هذا أنه كان محاطاً بخندق مضاعف، كل قسم منه كان محمياً بوساطة سور، وكان هناك بحيرة تمتد بشكل عريض حول تلك المنطقة إلى حد تجعل من غير الممكن بالنسبة لخيّالتنا الوصول في الشتاء، وصعب جداً في الصيف، أي أنه كان من المستحيل بالنسبة لجيشنا الاستيلاء على هذا الحصن بوساطة الحصار، وحوت البحيرة وفرة من الأسماك، وكان يدفع من صائدي سمكها كل سنة أربعة آلاف مارك فضي إلى السلطان في القاهرة، وذلك حسبما جرى إخبارنا من قبل الشيوخ، يضاف إلى هذا، كانت هناك وفرة وفيرة من الطيور، وأعمال لاستخراج الملح، وعدد من القرى المحصنة منتشرة هناك تابعة لهذا الحص، وكانت المدينة خلف الحصن، أكبر من دمياط، وكانت من قبل مشهورة، لكنها الآن مخربة، في ثناياها شهادة على حجم أبنيتها، فهذه هي تنيس التي ذكر النبي حقلها بقوله:« قدام آبائهم صنع

أعجوبة» [المزامير: ٧٨/ ١٢] وقول اشعيا: « إن رؤساء تنيس حكماء مشيرى فرعون» [اشعيا: ١٩/ ١١/]، فهذه هي تنيس التي قيل بأن إرميا قد رمي بالحجارة فيها، لأنه عندما دمرت القدس من قبل البابليين [ارميا: ٥٢] وجرى قتل جدليا من قبل اسماعيل [ارميا: ٤١] ذهبت بقية الناس إلى مصر في معارضة لرأي إرميا، وأخذوا معهم إرميا الذي مكث في تنيس معهم: « وصارت كلمة الرب إلى إرميا في تنيس قائلة: خذ بيدك حجارة واطمرها في الملاط في الملبن الذي عند باب بيت فرعون» الخ .[إرميا: ٤٣/ ٨—٩] وقال إرميا بعد هذا لهم: « قال الرب: هاأنذا قد حلفت باسمي العظيم... فيفنى كل رجال يهوذا الذين في أرض مصر بالسيف والجوع حتى يتلاشوا«[إرميا: ٤٤/ ٢٦ — ٢٧]، وثار الشعب ضد إرميا، ورموه بالحجارة التي كانت مخبأة تحت الجدار الآجري، لكن المصريين شرفوا النبي ودفنوه خلف قبور ملوكهم، ذلك أنهم كانوا مقدرين للمنافع التي أظهرها لمصر، لأنه بكلماته أبعد حيوانات الماء التي يطلق عليها الاغريق اسم التماسيح، ثم كان أن جاء الاسكندر المقدوني إلى قبر هذا النبي، وتعرف عليه من خلال الطبيعية الخاصة

للمكان،والأسرار المحيطة به،ونقله الى الاسكندرية،ودفنه هناك وسط تمجيد عظيم،هذا ولقد وجدنا تماسيح في دمياط وقتلناها،وهذا الحيوان متوحش يفترس الناس والحيوانات،ويعتني ببيضه ببساطة بمراقبتهم بأعين مفتوحة،وما أن يفقس صغيرها حتى يفر من أبويه وكأنهم عدوين،ذلك أنه يلتهم على الفور ويفترس أي شيء يمكنه امساكه.

وتنفصل تنيس عن دمياط بمقدار رحلة يوم واحد عبر البحر باتجاه أرض المعياد،لذلك من السهل وضع حامية عسكرية هناك أو إرسال طعام إليها من عكا أو من دمياط عبر البحر،أو عبر البر أو بوساطة النهر،وقد سببت الحاق خسائر عظيمة بالصليبيين أثناء حصار دمياط،عندما كانت السفن تأتي إلينا،أو تبتعد عنا محمولة بقوة

الـرياح،لأن الشـاطـيء أمـام تنيـس منحني وبـدون مينـاء،عامـلاً بذلـك خليجاً كـاملاً واسعـاً،وعندمـا كانـت السفن تقـذف إليه كـان لايمكنها الانسحاب من دون هبوب رياح موافقة جداً لهم.

الفصل الحادي والاربعون

وعاد المعظم عيسـى من مصر الى فلسطين،فتولى حصار قيسـارية، التي كانت تحت وصاية الملك،واستـولى عليها في وقت قصير ودمرها،بينما عمل المدافعـون عنها بـإهمال،ومع هـذا فقد نجـا معظمهـم لأنه تـوفر لـديهم مدخـل حر ومخرج عبر البحـر،ثم سـار بعد هـذا الى قلعة ابـن الرب(تـل الصافية) ومعه جميع جيشه،وطوقها مـن جميع الجهات،ثم أدرك بذكاء أنه لايمكنه الاستيلاء عليهـا،يضاف الى هذا،لقد وجد الـداوية على استعداد لمواجهـة كل خطـر،ذلك أنهم كـانوا قـد أمدوا المعسكـر بالميرة وبجميـع المعدات التـي يحتاجها الـرجال الشجعان،وبـالوقـت نفسه صد الـداوية بشجاعة عصـابات المسلمين من عكا،بقتل بعضهم وأسر آخـرين،وطلب المعظـم عيسـى المسـاعدات مـن المسلمين،حتـى اذا جـاءوا مـن الشرق يمكنهم حصـار عكا، وهـذا أمر لم يكن يمكـن انجازه بسبـب الخلافات المستمرة بين أمـراء تلك البـلاد أنفسهم، وهـذه الخلافات كـانت مفيـدة جـداً للصليبيين،وهي خـلافـات بـذل الخليفة—وهـو بـابـاهم—جهـده لإنهائها.

الفصل الثاني والأربعون

في سنة ١٢٢٠ للتجسيد في العالم،قام أمير دمشـق بتدمير صافيتا،(٨٧) وكانـت صافيتا هـذه أقوى الحصون التي يمتلكهـا الداوية،وكـان صلاح الديـن مدمر الصليبيين الأول قـد أوصلها أثنـاء حصاره لها الى حالـة من

الضعف بحيث أن المدافعين هلكوا من الجوع،وقد حصلوا على أذن مقدم جيش الداوية بالقيام بتسليمها الى هذا الطاغية،وأي صوت وأي لسان يمكنه أن يكرر لنا منافع مخلصنا المتراكمة من أجلنا؟ وهي منافع صادرة عنه هو الذي امتلك الجودة والرحمة الطبيعية،وكذلك الاستمرار في مساعدة الكنيسة،فقد اقتنع بأن ينظر بعين لطيفة نحو معسكر المؤمنين،بسبب حلاوة تقواهم وإيمانهم، فالتضرع يلطفه،والدموع تجبره، وكيف يمكن ليد كاتب أو لسان متكلم أن يكون كافياً بالنسبة له،لأن مدحه هو شعور مستقر في القلب تماماً،ومع ذلك هو لايكفي؟ وعلى كل حال إنه لأمر ممتع أن نجمع،وأن نعجب بالمعجزات التي صنعت في وقت قصير من قبل الذي نزل من أبي الضياء،وكان بنو اسرائيل قريبين،يتجولون مع تابوت الرب وهم يضربون بالأبواق ويصرخون،وفي اليوم السابع تهاوت أسوار أريحا، وهكذا كان بامكان شعب الرب أن يمتلك مدخلاً حراً،لكننا نمنا أمام دمياط واستولى علينا الجبن والاهمال،وجلسنا بلا حراك وتراخينا وأسلمنا أنفسنا للكسل،ومع ذلك سقطت أسوار القدس،وأسوار جبل الطور،وصافيتا والتحصينات الأخرى المضادة،والقائمة بطريقة معادية،يضاف الى هذا أن الرب في عليين،أعطانا دمياط،ضد ارادة بعض المسيحيين المزيفين، والى هذا أضاف من مخزن كرمه حصن تنيس الذي لايرام، مع موارد مؤنه الموجودة في البلاد المعادية ، فهو الذي أنزل المن من السماء على المؤمنين به في الصحراء، ولهذا واضح للجميع،من خلال برهان المعجزة أن هذا الحج المقدس قد حظي برضا الرب وقبوله،وليصب بالخجل والخزي الذين تسلموا جوائز الملك الأعظم من كنيسته،وقاموا بالقتال بلا مبالاة،أو تراجعوا قبل الوقت المحدد،فأفسدوا حجهم،فهم سوف يقدمون حساباً الى القاضي الذي لايمكن أن يغش أو يرتشي،وعلى الكسالى القيام والنهوض،وأعني هنا الذين لم ينفذوا تعهداتهم بعد،لأنه«شرك للانسان أن يلغو قائلاً مقدس وبعد النذر يسأل» (الأمثال:٢٠/ ٢٥)فما هو

التسويغ الـذي سوف يقدمه يـوم الحساب والويل هـذا للذي سرق جهد الآخريـن وعملهم،وقتل النفـوس التي أعطـاها دعاة الحق الحيـاة،والذي اهتم بشرهه،وانتزع شارة الصليب مـن على أكتاف التعساء،الذين جعلهم يحنثون بعهودهم؟ وعليهم أن يعودوا الى الحكمـة هؤلاء الذين اتهموا بهذه الجريمة،وأدينـت ضمائرهم،لأنهم ادعـوا زيفاً أسباباً للفقر والعجز،فقد خـدعـوا ديـن الـذيـن امتحنـوا،فقـط لأن حكـم الـرب يكـون تبعاً للصـدق،لكن الـذين التهمـوا المساعـدات التـي جمعت مـن أجل عـون الأرض المقدسة،سوف يهلكون وسيكـون نصيبهم مع حنانيا وسفيرا(أعمال الرسـل:٥/ ٩)لأنهم أخفوا ذنـوبهم بالكـذب أمام روح القـدس، ولسوف يكـونـون أيضـاً مـع يهوذا،أعظـم اللصـوص شراً،وهـو الخائن للـرب، وسيعاقبـون في جهنم،لأنهم مـع خيانتهـم للمسيحية،احتفظـوا لأنفسهم بـأعطيات الـرجـال المقـاتلين،وأعطوا نفـوسهـم لأشيـاء زائلة، وجعلهـم الجشع يسرقـون،ناسين أمنا القـدس،الممددة على الأرض،وكلها رغبـة بأن تنهض مـن أسرها بيـد المصريين العائديـن الآن،كوني مطمئنـة« يامـدينة الـرب» لأن أممـا سـوف تـأتي إليـك مـن أمـاكـن نـائيـة،وهـي تحمـل الأعطيـات،ولسوف تعبـد هذه الأمـم الـرب فيك،وسـوف يلعنون الـذي يزدريـك،وسوف يـدينون الـذين دنسـوك،فالمبـاركون سـوف يبنوك حتـى تبتهجي،وأنت لسوف تبتهجي،بأولادك،ومبـارك كل الذين يحبوك،ولسوف يبتهجون بسلامك.

الفصل الثالث والأربعون

وحدث أثنـاء تبدل السنـة عندما ينطلـق الملك بـالعادة الى الحرب،أن جـون ملـك القـدس غـادر معسكـر المؤمنين(٨٨)،واخترع الكثير مـن الأسباب ليسـوغ عمله،ووعد بعودة سريعـة،لكنه كان ناسيـاً للماضي،وقد تحول نحو المستقبـل،وعندما فتـح المولى يده وملأ مينـاء دمياط بوفـرة من

القمح،والخمرة،والزيت،وعندما أضيف لنا أعداد كبيرة من مجموعات الحجاج والخيول،ولم يعد هناك أرضية لتقديم الأعذار من أجل الانطلاق نحو العمل الذي بدأ هكذا بسرور ، ووصل في العبور السادس رئيس أساقفة ميلان(٨٩)وكريت،وأساقفة فينزا(٩٠)Faenza ورغيو(٩١)،ورسل من عند الملك فردريك،يحملون رسائل عليها أختام ذهبية،وهي تعلن عن وصوله،وحضر هناك أسقف بريسشيا(٩٢)Brescia ،وجيش كبير جداً من ايطاليا،ورأى النائب البابوي أنه بفضل امتيازات النعمة العظيمة والوفرة الربانية بات كل شيء كافياً للقيام بإجراءات المناقشات حسب المتطلبات،وأصيب بالحزن والاسف لأن الوقت كان يمر بدون فائدة،وأن فرصة عظيمة جداً قد ضاعت وبناء عليه،استدعى القادة الى الاجتماع، وكان هو أول المتحدثين،ومن بعده رئيس أساقفة ميلان،وكذلك مثله الأساقفة الآخرون،فلقد بذلوا جميعاً غاية الجهد للحث على القيام بزحف ضد السلطان الذي أقام معسكره على النيل، على مسافة يوم واحد من دمياط،لكن الفرسان تحدثوا ضد هذا التحريض،وجاء ذلك بعدما عقدوا اجتماعاً للمناقشة والبحث،وادعوا أن السبب الأول بالنسبة إليهم هو أن ملك القدس كان بعيداً بناء على اختياره الشخصي،وأنه لايوجد أمير آخر،الناس من مختلف الأمم على استعداد لطاعته في أن يقود شعب الرب،ولهذا اتفقوا على عدم التحرك،الأمر الذي سبب مضاعفة الشرور في المعسكر.

الفصل الرابع والأربعون

جاء في شهر تموز الكونت ماثيو أوف أبوليا(٩٣)،مع ثمانية غلايين،عاد اثنان منهم الى القرصان، وقد تم الاستيلاء عليهما لأنهما كانا يهددان المسيحيين أثناء السفر في البحر.

الفصل الخامس والأربعون

على التهورالبشري والانـدفاع الطائش أن يخجـل،لأنه يعتمـد على قواه الخاصة أو على قوى الآخريـن،ومن الواضح أنه غالباً مـا كان مخزياً،ولقد ظهر هـذا في قضية الكونت المتقـدم الذكر،فلقـد أعلن تقرير متقـدم عن وصوله،وذلك بوساطة أخبار متواترة،وبما أن المناقشات كانت ستسير فقط من خلالـه أعيق تقدمها بوسـاطة ظروف دعت الى التأخير،لكـن ذكريات مثل هـذا الأمل العظيـم تلاشـت بقوة صـدمة،ولم يكـن مرد المسـألة الى الكـونـت أن الأمـل لم يتحقـق ويصـل الى النتـائج المرجـوة،لأن ارادته—حسبما شهـد النائب البابـوي—كانـت عالية،والتجهيـزات التي جلبها والتي أضـافها فيها بعد ظهرت أنها رائعـة بالنسبة للجميع وكـاملة وفقاً للمعـرفة العسكرية،يضـاف الى هذا أنه أقـام إقامة نافعـة في الجيش ومواثمة لوضـع جنود المسيح ،وكان بعْدما وصـل الى دمياط عمل النائب البابـوي مشاورات وتقصـى ليعرف أي الأمم كـانت وقتـذاك في المعسكر تمتلك الحماسـة الأعظم،كما وتشـاور مع الكونـت ماثيـو نفسه، الـذي بدا بالنسبـة له أن الزحـف ضد ملك القـاهرة هو الأكثر فائدة،ثم دعـا بعد ذلك أمراء الحشـد وقادته،وخاطبهـم بشكل علني وحث النـاس الكسالى على النهوض الى العمل والاقلاع عن التراخي والإهمال.

لكـن القـادة،وخـاصـة الفـرنسيين منهـم تحدثـوا ضـد تحريضـه الشريـف،وتمكنـوا من التـأثير على الايـرل أوف آرنـدلArundel وأقنعوه للقيام بإعاقـة اقتراح النائب البابوي وكان هذا الإيـرل قائداً بين الانكليز ومن أعظم النبـلاء مكانة بين الألمان،وكان من بين الأسبـاب التي تمسكوا بها غيـاب الملـك جون،وغـالباً ما احتجـوا بذلـك،فهو قـد تصرف بشكل مضاد لـلاتفاقيـة التي أبـرمت في عكـا،عندمـا كان الحجـاج على وشك الابحار الى مصر،فقـد تعهد وقتهـا أنه لن يتخلى عنهـم ويهجرهـم مادام

حياً وحراً، وخلافاً لهذا الاتفاق المهيب والمؤكد عاد الى عكا،ولم يحضر للمشاركة في أعمال الصليبيين،بل حضّر نفسه وقام بالسفر الى أرمينيا(٩٥)،وقدقيل بأنه قصد تولي حكم تلك المنطقة،لكن أماله تبددت،ولم يستقبل من قبل بارونات أرمينيا، وحدث في الوقت نفسه أن توفيت الملكة،مع الابن الصغير للملك،كما أن روبين أمير أنطاكية،أراد أيضاً الحصول على هذه المملكة،لكن الجاثليق،وكان زعيم تلك الأمة،قام بكل قوة بحصاره في مدينة طرسوس،ثم أخذه أسيراً،وتوفي هناك،وآثر الجاثليق الآن الابنة الصغرى للملك ليون(٩٧)،التي كان أبوها قبل موته قد جعل أمراء المملكة يقسمون على الولاء لها،ثم مات بعد ذلك بوقت قصير.

الفصل السادس والأربعون

وبعدماقام النائب البابوي بعدة أعمال حث وتحريض عامة،حزن كثيراً لرؤيته جيشاً كبيرا بهذا العدد مقيم ولايريد التقدم،بل يريد العودة في عملية العبور المقبلة،وقام أخيراً بضرب مثل بعمله حيث شرع يحث الناس على الالتحاق بحاشيته وأمر بخيمته فنصبت في مكان منبسط،ومع ذلك فإن معارضة القادة هي التي سادت الى درجة أن بعض الغاليين والألمان،من المرتزقة الذين قبلوا المال منه،قاموا باعاقة خطته بالتقدم،وقد تم جرمان بعضاً منهم، وكان من المقررحرمان آخرين فيما بعدلكن هؤلاء انزعجوا واضطربوا وأرغموا على إعادة المال الذي قبضوه وقبلوه وفقاً لتوزيع الوقت،وقام الجنود الايطاليون بأمل كاذب بخداع الحماسة الدينية لدى النائب البابوي، وذلك بعدما وعدوا بتقديم العون للزحف،لكنهم كانوا مثل بني « أفرايم النازعون في القوس الرامون انقلبوا في يوم الحرب » (مزامير: ٧٨ / ٩) ، لأنهم بينما كانوا يقدرون بوضوح اصرار النائب البابوي، والجرأة الكامنة في الزحف ضد

السلطان،قاموا بالموافقة والاتفاق مع المنشقين المتقدم ذكرهم أعلاه،وعارضوا الزحف،مع أن الصليبيين لم يكونوا يعانون من نقص بوفرة الجند والأتباع،وكانت الغلايين كثيرة جداً،وجرى إعداد البراكيس، وكان هناك حشد هائل من الرماة،كما توفرت كميات كبيرة من المؤن،وكانت موضوعة هناك في مكان مناسب بين النهر من جهة اليمين والبحيرة من جهة اليسار، وكأنما الرب كان يقول لنا:« ماذا يُصنع أيضاً لكرمي وأنا لم أصنعه له؟ لماذا إ ذ انتظرت أن يصنع عنباً صنع عنباً رديئاً؟» ،ذلك أنه بالاضافة الى الأشياء الأخرى التي أمدنا بها الرب للقيام بالحملة،سمعنا من كشافتنا،أنه كان لدى ملك مصر القليل من العون،وأن حشداً كبيراً من البداة قد التحقوا بنا،وهم على استعداد لتقديم زوجاتهم وأولادهم بمثابة رهائن،اذا ماعلموا بأن الصليبيين قد قرروا القيام بالحملة برجولة،فهذا ماعلمناه من رسائلهم ومن خلال رسلهم،ويبدو أن هذا كان ممكنا لأنهم كانوا خاضعين لدفع الجزية للسلطان،وفي الحقيقة كانوا هم من قبل قد تولوا حكم ديار مصر،حتى أخضعوا بالقوة من قبل صلاح الدين،وجرى تفريقهم في خلال قفار الصحراء.

الفصل السابع والأربعون

وانسحب النائب البابوي الى المعسكر السالف،وذلك بعد كثير من المتاعب، ولأنه واجه أتباعاً غير راضين وموافقين،ثم بشكل خاص بسبب فيضان النهر،وقام بقوة بحثّ صانعي التأخير،وفعل ذلك من خلال قداس عام،وأعلن أن عمل الرب طالما بدأ بداية سارة ينبغي ألا ينتهي،وأن عليهم الحكم على أنفسهم خشية أن يدانوا بقسوة من قبل قاضي الأشياء السرية.

الفصل الثامن والأربعون

مامن أحد يمكنه أن يصف فساد جيشنا،بعدما أعطانا الرب دمياط،وأضيف إليها حصن تنيس،فقد بات الناس كسالى،مخنثين،تدنسوا بأعمال المهاجع والسكر والفسق والزنا والسرقة،والربح الشرير،وبعد(٩٨)هذا قام بعض رجالنا بزحف يوم واحد داخل الأراضي العدوة،وعادوا ومعهم أسرى،وجواميس، وخيول ، ثم قام الداوية مع أتباعهم خاصة بزحف سريع نحو بلده قائمة على شاطىء البحر(الى الغرب من دمياط) واسمها البرلس،وجلبوا معهم بعض الأسلاب فيها جوالي المائة جمل،وعدد مع الأسرى،وخيول،وبغال،وجواميس،وحمير، وماعز وملابس،مع كثير من الاثاث المنزلي،وعادوا دون التعرض الى الاذى، بعد غياب دام يومين،وعلى كل حال،مات على الطريق بسبب نقص الماء كثير من الخيول والبغال مع أن الرجال عادوا سالمين،واستقبلهم فرسان التيوتون مع آخرين بكل سرور، لكن عندما تخلفوا وراء الداوية(لسبب غير معروف تماماً)،قام الفرسان الأتراك السريعين بهجوم عليهم عند البحر،وهرب الناس من الأمم مرعوبين من حولهم،لكن الانكليز والفلمنكيون و التيوتون،وروبرت أوف بلمونت(٩٩)Belmont أخذوا بالصمود بوجه الهجوم عندما وصل المهاجمون إليهم،وتمّ أسر معلم بيت الفرسان أنفسهم ومقدمهم مع عدد كبير من الفرسان ،وحوالي العشرين من الفرسان غير الرهبان،وقتل عدد كبير من خيول الذين هربوا للدفاع عن أنفسهم، لأن رجالنا كانوا قد خرجوا ليس من أجل القتال بل لاستقبال الداوية،ولهذا كانوا بدون رجال القسي العقارة والرماة الآخرين.

- ٢٠٣٤ -

الفصل التاسع والأربعون

وصل في شهر آب الى دمياط أربعة عشر غليوناً مجهزة،وكانت مرسلة من قبل دوج البندقية(١٠٠)،الذي جلب بعض المساعدة الى الصليبيين،وسلح بالوقت نفسه ملك مصر ثلاثة وثلاثين غليوناً،سببت لنا خسائر لاتقدر،لأن رجالها استولوا على سفن التجار،مع الرجال أنفسهم،الذين كانوا جالبين ميرة الى دمياط،لابل إنهم أخذوا الحجاج أسرى،ونهبوا السفن وأحرقوها،بالاضافة الى ذلك هاجموا سفينة كبيرة كانت جالبة الكونت هنري أوف سكورنSchwerin مع نبلاء تيوتون آخرين كانوا قادمين إلينا،وعلى كل حال،لقد دافعوا عن أنفسهم برجولة، وبعدما قتلوا وجرحوا عدداً كبيراً من القراصنة،لحسن الحظ نجوا،مع أنهم خسروا مركباً واحداً عائد بملكيته الى بيت التيوتون،وكان هذا المركب محملاً بالشعير،وقد أتلفت النار الإغريقية هذا الشعير.

الفصل الخمسون

نحن مرغمون هنا على اقحام رواية حول مصيبة،فقد كان الكونت ديثر أوف كاتزنلنبوغن(١٠٢)Diether of katzenellenbogen، قد تركنا قبل حلول وقت العبور مع حشد كبير من الحجاج،مع أنه حُرض بشدة،وتم حثه من قبل السيد نائب البابا حتى لايقوم بركوب تلك السفينة إذا ما رغب بالذهاب الى سالونيك،بل أن يذهب في مركب أصغر مع عدد قليل من الرجال دون أن يضعف الجيش،لكنه مع قبطان السفينة وعدد كبير من الحجاج ركبوا رؤوسهم،وقاموا بالرحلة،ولهذا قام نائب الكرسي الرسولي بإنزال عقوبة الحرمان بتلك السفينة الملعونة مع جميع المبحرين عليها،وقد وقعت السفينة بين القرصان قرب

قبرص،وأحرقت،وعلى كل حال نجا الكونت من غرق السفينة،وسبح مع عدد قليل من الرجال.

الفصل الحادي والخمسين

وطلب من غلايين البنادقة والآخرين الاسراع بالاقلاع بدلاً من التأخر في ميناء دمياط،وقد ذهبوا الى رشيد ثم الى الاسكندرية بعدما عانينا من الخسائر على أيدي المسلمين وفق الطريقة التي أتينا على وصفها قبل قليل.

الفصل الثاني والخمسون

ولما علم المعظم عيسى انعدام نشاطنا،جمع جيشاً من سورية،وأكمل تدمير أسوار القدس،مدينة الرب الحي،مع أنها دمرت من قبل،ودمر الصهاريج التي كانت قد ملئت من قبل، وكان في المدينة أعمدة رخامية فحملها الى دمشق،وزحف من خلال الجبال والحقول في فلسطين فأفسد الأشجار الحاملة للفواكه والأعناب،وعرف الداوية أنه يود القيام بحصار قلعة ابن الرب،لذلك بدأوا في أعمال تهديم برج عثليت في القسم العلوي،لكنه عندما وصل الى هناك فيما بعد،دمرها وسواها بالارض وقطع أشجار الحديقة التي كانت مقامة أمامها،ثم قام أخيراً بمحاصرة القلعة مع حشد كبير من الأتراك،حيث امتدت خطوط خيمهم من النهر حتى أماكن استخراج الملح، ولقد تصرف بهذه القسوة المتناهية صدوراً عن حقيقة معرفته أن العبور السابع الذي سيكون في حوالي شهر تشرين الأول سوف يكون صغيراً،ذلك أننا كنا نعتقد أنه لن يقدم الى عوننا سوى أقل من مائة جندي مع معدات عسكرية وخيول ،لكن حشداً كبيراً من الناس من أهل عكا قدموا الى دمياط، ولقد أخرجوا من ديارهم

بسبب الحرمان الصادر عن الكنيسة،وقد سمح لقسم من هؤلاء بالعودة،وهم الذين كان فقرهم معروف بالنسبة إلينا، وعاد آخرون من دون أذن،ليزيدوا من دمارهم الذاتي،وكان هناك آخرون عادوا الى ديارهم بعدما حصلوا على الأذن من خلال الغش،وكانوا قلة هم الذين امتلكوا ميولاً عقلانية،وبالتالي بقيوا معنا في المنفى.

الفصل الثالث والخمسون

وألقى المعظم الحصار،ونظراً لأنه كان يخشى من هجوم من المعسكر،أمر بانشاء حاجز دفاعي بين الحصن وخيامه،ووضع آلة قذف،وثلاث عرادات وأربعة مجانيق،تولت مضايقة التحصينات وقتالها ليلاً ونهاراً بواسطة قذائف الآلات،ومع هذا لم يستطع زحزحة حجر واحد من مكانه في الأبراج الجديدة وفي السور الوسطي(الفصيل)،وتمكنت آلة قذف المعسكر مع عرادات ومنجنيق أقيما الى جانبها من قذف وتدمير عرادات وآلة قذف العدو، وكان زد على هذا في بيت الداوية أربعة آلاف مقاتل يتناولون الطعام يومياً،فيما عدا الذين يطعمون على حسابهم ذلك أنهم جاءوا من عكا للدفاع عنا أو لبيعنا ميرة،وطلب النائب البابوي بسرعة ملكة قبرص(١٠٣)،والصليبيين،وبارونات سورية، واستدعاهم بوساطة الرسل والرسائل، لتقديم العون لحصن الصليبيين، ونال مقدم (١٠٤) الداوية مع جيش مجرب من الداوية الأذن من النائب البابوي بالعودة إلى القلعة بسبب الحاجة الملحة، وأن يستعد للقتال مع المعظم عيسى، وجلب رجال قبرص كثيراً من الجند والمال، وكذلك أعدّ بوهيموند(١٠٥)، وصاحب بيروت(١٠٦)، وغي صاحب جبلة (١٠٧)، مع عدد آخر من البوليان أنفسهم بسرعة لتقديم العون، وعندما علم المعظم بهذا من خلال اليزك وبعض الخونة الصليبيين أصيب بالرعب، وبدناءة انسحب

من الحصار، وقد عانى من خسائر كبيرة على أيدي الذين كانوا في القلعة، وكانت خسائره في كل من الرجال والخيول، ومثله مثل رجل متفاخر وأرعن هدد بأنه سوف يستولي على القلعة بوساطة الحصار الطويل، غير أن القوة الإلهية أرغمته على التراجع بعدما أحرق معسكره، وكان ذلك في حوالي بداية تشرين الثاني.

وكان الآن عدد كبير من المدافعين عن القلعة قد أصيبوا بالجراح وقلة منهم ماتوا، علّ العلي القدير يتولى حماية بيته، الذي بني من أجل تمجيد ابن الرب، ولكراهية المسلمين، ولكن لمحبة المسيحيين، ذلك أنه خط الدفاع عن مدينة عكا، يارب اجعل حفظ الملائكة ودفاعهم فوق أسواره: « إلى انقضاء الدهر» (متى : ٢٨/ ٢٠) ذلك أننا بالفعل « نمتلك الايمان والثقة بالرب يسوع». (انظر افسوس: ٣/ ١١— ١٢) لأنه وهو الذي بدأ بتدمير أعداء الصليب مثابر على اظهار نعمته، ولسوف يتم ذلك في الوقت الذي يرضاه ويسره، فنحن الآن قد أدركنا بعض البراهين على وجود الانتقام الرباني، فلقد علمنا من كشافتنا، ثم رأينا بوضوح في ساحة القتال عدداً كبيراً من الجثث كانت مبعثرة هناك، وكان بينها جثث ثلاثة أمراء قتلوا هناك، مع مائتي مملوك، كانوا من أبرع الناس في استخدام السلاح، ولم يتوفر لدينا احصاء بعدد رماتهم مع الذين تولوا جرهم مع آلاتهم، والذين قتلوا بواسطة رماة الجروخ من رجالنا، ولم يقل تعداد هؤلاء عن الثلاثمائة، يضاف إلى هذا أنه قتل في أحد الأيام مائة وعشرين فرساً لها أثمان عالية جداً، كان بينها واحداً شري بمبلغ أربعة عشر ألف درهم، وكان السلطان الأشرف ابن العادل، سلطان حلب قد أرسله هدية إلى أحد الأمراء، يضاف إلى هذا عانى المسلمون من خسائر كثيرة أخرى بالخيول(١٠٨) وبالجمال.

الفصل الرابع والخمسون

جرى في شهر تشرين الثاني، تتويج المولى فردريك ابن الامبراطور هنري(١٠٩) في روما من قبل البابا هونوريوس، وذلك وسط أبهة عظيمة للدولة ولرجال الدين، وبوفاق وسلام مع الرومان، ثم إنه حمل شارة الصليب، واستعد للذهاب لمساعدة الأرض المقدسة، وأرسل أمامه دوق بافاريا(١١٠)، الذي وصل إلى دمياط في سنة ١٢٢١، في العبور الثامن مع أسقف باسو(١١١) Passau، ومركيز بادن(١١٢) Baden، والكونت غي أوف بريين (١١٣) Brienne ، مع نبلاء آخرين، وكان الوصول في شهر أيار، وأوكل الامبراطور منصبه إلى هذا القائد حتى يتولى عبور البحر شخصياً، ووقتها شرع نائب الكرسي الرسولي في تقدير موائمة الوقت، لذلك قام بالتباحث مع الدوق حول شؤون الحرب، الأمر الذي من أجله قد بقي في مصر، وبالإضافة إلى الدوق المتقدم الذكر أثار موضوع وجوب قيام حشد المؤمنين بالهجوم على معسكر السلطان، وذلك قبل أن تفيض مياه النهر حسبما هي العادة، وبناء عليه وعلى خطة أعدها جميع البارونات والفرسان وعامة الناس، بدأنا في إعداد الخيم ونصبها في أعالي النهر فيما وراء المعسكر، وكان ذلك في شهر حزيران، في يوم عيد القديسين بطرس وبولس (٢٩— حزيران)، ولقد عرفنا من خلال ما ذكره أسقف بوفياس المنتخب والآخرين الذين كانوا بالأسر، ومما رواه عدد كبير من الناس، أنه لولا أن تتم اعاقة النائب البابوي بوساطة المعارضة التي أبداها أولئك الذين ذكرناهم أعلاه، ولوجرى تنفيذ أوامره بالزحف ضد السلطان قبل أو بعد فيضان النهر، لكانت مصر قد سقطت وصارت من نصيب الصليبيين، لأن قادة مصر كانوا في ذلك الوقت على خلاف مع السلطان، وتصرف المصريون الآن مثل راحاب العاهرة، التي التمست لطف الرب لشعبها ولها شخصياً، ولبيتها (انظر

يشوع:٢)، فقاموا بارسال الهدايا والأعطيات إلى اسرانا الذين لديهم في القاهرة، وترجوهم لعلهم يحصلون بوساطتهم على الرحمة على أيدي الصليبيين المنتصرين، وبدأ النائب البابوي في اليوم الثالث من عيد الرسول أوكتاف Octave (٦— تموز) صوم ثلاثة أيام، ثم إنه جمع رجال الدين والأساقفة ورؤساء الأساقفة وحمل وهو عاري الأقدام راية الصليب المخلص والحامي، في مسيرة فيما وراء دمياط إلى المعسكر القائم حيث يرتفع النهر، وعاد الملك جون في اليوم التالي إلى دمياط، جالباً معه عدداً كبيراً من الأتباع.

الفصل الخامس والخمسون

قال الرب: « أنا سوف أبدأ وأنا سوف أعمل النهاية، انتبهوا أنا سوف أعمل كلمتي، وكل من سيسمعها سوف تطن أذناه» (الملوك الأول: ٣/ ١١—١٢)، سلطاني هو في ممالك الرجال:«قائلاً رأيي يقوم وأفعل مسرتي. لأنه من مثلي ومن يحاكمني؟ لأنه ليس حكمة ولافطنة ولامشورة تجاه الرب، وإن العالم كله أمامي مثلما ترجح به كفة الميزان وكنقطة ندى تسقط على الأرض عند السحر. ثم من الذي سوف يقول لي: ما الذي صنعته، أو من الذي سوف يعارض حكمي؟ أنا أوجدت داود عبدي وبدهن قدسي مسحته» (إشعيا: ٤٦/ ١٠. ارميا: ٤٩/ ١٩. الأمثال: ٢١/ ٣٠ ١ الحكمة: ١١/ ٢٣؛ ١٢/ ١٢. المزامير: ٨٨/ ٢١)؛ وملك الهنود الذي أمرته بالانتقام للذنوب التي اقترفت بحقي، سوف ينهض ويثور ضد صاحب رأس عدد كبير من رؤوس البهائم، فله أعطيت النصر على ملك الفرس، ووضعت شطراً كبيراً من آسيا تحت قدميه، ذلك أن ملك الفرس قد ترفع كثيراً وتغطرس، وأراد أن يكون ملك آسيا، وسار ضده الملك داود، الذين قالوا عنه بأنه ابن برسترجون، وقطف منه أول ثمار النصر، ثم إنه أخضع الملوك الآخرين والممالك

لنفسه، وحسبما علمنا من تقارير انتشرت بالطول والعرض، أنه ليس هناك من قوة على الأرض يمكنها أن تقاومه، فمن المعتقد أنه المنفذ للانتقام الرباني، ومطرقة آسيا.

الفصل السادس والخمسون

في الحقيقة بعد الاستيلاء على دمياط، امتلك نائب الكرسي البابوي كتاباً كتب بالعربية، جرت قراءته بصوت مرتفع وباختصار بوساطة مترجم، وكان ذلك على مسمع من الحشود، وبعد تقديرنا لقدم تجليده وتأملنا به وبخرائطه، اكتشفنا أنه يتوجب علينا التقدم والزحف، وحمل هذا الكتاب عنوان :« كتاب كليمنت»، وقد كتب كما قيل سماعاً من شفتي أمير الرسل نفسه، من قبل كليمنت نفسه، فيما يتعلق بالوحي الذي عرفه بطرس من الرب فيما بين قيامته وصعوده، ويبدأ هذا الكتاب من خلق العالم وينتهي بإنتهاء الدنيا ، ونقرأ فيه الحلول والأراء الحكيمة فيما يتعلق بالخلاص ، وأقحمت فيه نبوءات ، بات من المؤكد أنها ظهرت مكتملة وواضحة في هذه الأيام ، مع أن بعضها يعتمد على المستقبل ، وقد قيل فيه بين أشياء أن المدينة المائية سوف يتم الاستيلاء عليها من قبل الصليبيين مع مدينة أخرى في مصر ، وأضيف أيضاً أمر الاستيلاء على الاسكندرية ، كما أن الاستيلاء على دمشق لم يحذف ، ذلك أنها المدينة التي عذبت كثيراً وما تزال تعذب عبيد الرب ، وبالاضافة الى هذا ، ورد ذكر ملكين آخرين ، قيل بأن أحدهما سوف يأتي من الشرق ، أما الآخر فلسوف يأتي من الغرب ، الى القدس ، وذلك في السنة التي سيكون فيها عيد الفصح في الثالث من نيسان ، ويتفق هذا الكتاب في كثير من الأشياء مع الكتاب الذي ذكرناه من قبل ، وكتبت رسائل كثيرة حول انتصارات الملك داود ، وهي جميعاً تؤيد هذه النبوءة ، وذلك بالاضافة الى الحكاية

المعروفة كثيراً والمنتشرة في أوساط المسيحيين والمسلمين ، ورأينا أيضاً برهاناً على هذا أن الأسرى المسيحيين لهذا الملك قد جرى تحريرهم من قبل رسل الملك داود في بغداد ، فهؤلاء كانوا قد أخذوا أسرى أثناء حصار دمياط ، وقام ملك مصر بإرسالهم بمثابة هدايا الى الخليفة .

الفصل السابع والخمسون

في ١٧ تموز احتشد الجيش الصليبي عند فارسكور ، وهي قلعة تبعد ثلاثة أميال عن دمياط ، وبعدما تعبأ بشكل موائم في صفوف من الخيالة وأرتال من الجنود الرجالة ، زحف الجميع نحو الأمام مسرعين ، وجرى تقدير تعداد الجيش فتبين في الحقيقة أنه كان هناك اثنتي عشرة مائة مسلحين وفق الطرائق العسكرية ، وكانوا مزودين بكل التجهيزات الضرورية للقيام بالمهمة المعهودة اليهم ، ولم ندخل في الاحصاء التوركبلي مع عدد كبير آخر من الخيالة ولم نستطع التعرف الى تعداد جنود الرجالة المسلحين ، لأن عددهم كان كبيراً جداً ، وشبههم المسلمون وقارنوهم بالجراد لأنهم شغلوا منطقة واسعة من الأرض ، ونعتقد أنه احتشد هناك أربعة آلاف من الرماة ، كان من بينهم حوالي خمس وعشرون مائة مرتزقة ، وكان من الواضح أنه وجد بين الستمائة والثلاثين سفينة كبيرة وصغيرة ثلاثمائة خوذة مع ثمانية عشر غليوناً مسلحاً ، فهذا ما أمكن تعداده ، والى جانب هذا كان هناك عدداً كبيراً من مختلف أنواع المراكب والقوارب التي حملت البضائع والميرة ، وكان عدد الأعداء حسبما سمعنا من اللاجئين إلينا سبعة آلاف من الخيالة ، وكانت ترتيبات القتال كما يلي :

كان النهر على اليمين مغطى كله بالسفن، التي زودتنا بالحماية

وكانت بمثابة سور دفاعي، ومن الجانب الأيسر عمل الجنود الرجالة بمثابة ساتر دفاعي حيث تقدموا نحو الأمام على شكل صفوف بزحف منتظم، وبتشكيلة متراصة، وانتشرت صفوف الخيالة من النهر حتى صفوف الجنود الرجالة على شكل خط وتري، مقدمة بذلك الدعم للرجالة ومتلقيته منهم، وبقي حملة الرماح بشكل تلازمي مع الرماة، للتصدي لهجوم الأعداء برماح مشرعة ومسلطة جاهزة لأي وقت قرروا فيه الاندفاع للقيام باشتباك قريب، وفي مواجهة لخطر الخيول والخيالة تقرر العمل وفق رأي حكيم استهدف عدم تعريض حيوانات النقل والحمولة للعقر، وسار العوام من الناس، بدون سلاح بشكل آمن مع حزم أمتعتهم على طرف النهر، وحمل رجال الذين، وجنود رجالة ونساء الماء للذين كانوا بعيدين في الأمام،أما الذين كانوا أكثر خبرة ضد الكمائن وأعمال الخداع، فقد قاموا بحذر بمهمة التصدي لحملات العدو في المقدمة والساقة، وجرى تعميم أمر شديد قضى باتخاذ الاحتياطات بمنع أي واحد بالمضي أمام الصفوف الأولى، أو أن يتخلف وراء الصف الخلفي الأخير، أو أن يخرق الصف لأي سبب كان، وقام يزك الأعداء باستعراض تقديري لقواتنا من على طرفي النهر واندهشوا تجاه النظام بين صفوفنا والانضباط العسكري، وعبثاً حاولوا الحاق بعض الخسائر بنا، ذلك أن حشد الرماة تولى مقاومتهم، حيث علمنا أن ما من واحد من رجالنا قد أسر في ذلك اليوم، وأيضاً ما من واحد من جنودنا أصيب بجراح، وذلك من الذين مكثوا بشكل دائم داخل خطوط المعركة وصفوفها الجانبية الأربعة، ووزع النائب البابوي الأعطيات بيد كريمة على الفرسان وعلى أتباعهم وخدمهم، وسلح السفن، ولم يبخل بجسده ولا بممتلكاته في سبيل تنفيذ هذا العمل، وأبدى كل نشاط ويقظة كانت بامكانه وقام مع الملك جون ملك القدس ودوق بافاريا، ورؤساء الأساقفة والأساقفة، ومقدمي بيوتات الفرسان ببذل الجهد والتعب في سبيل انجاز هذه المهمة.

-٢٠٤٣-

الفصل الثامن والخمسون

أرسل ملك مصر في ١٩ — آب أقوى برهان وأعظم دليل على ما امتلكه من قوة آنذاك، وقد أراد هؤلاء حصار شعب الرب بشكل زعديد بما فيه الكفاية، وذلك من الخارج، ومن مسافة، فقد هاجموا الصفوف النائية من الجنود الرجالة، بالنشاب، وقاومهم رجالنا بشجاعة دون أن تخرق صفوفهم أبداً بسبب هذا الهجوم، وحاصرونا في ذلك اليوم بشكل أكثر عنفاً وأرغموا رجالنا على استخدام القليل من النشاب، وجرح في هذين اليومين عدد قليل من الصليبيين جراحات خفيفة، والعدد الأقل هو الذي مات، وبهذا انتزعوا من الأعداء الأمل بنيل النصر، ثم عادوا إلى ملكهم في اليوم الثالث وبذلك فتحوا أمامنا طريقاً أميناً خلال شارمساح، وقد أحرقوا قراهم الدفاعية أمامنا، ومع ذلك فقد وجدنا كميات كبيرة من القمح والشعير والخضار، لابل حتى التبن، وفواكه الحدائق، وهرب السكان مع نسائهم وأطفالهم جميعاً من أمام وجه قوات الرب.

الفصل التاسع والخمسون

في عشية عيد القديس جيمس (٢٤—آب) نصبنا مخيمنا على رأس مثلثي لجزيرة كان النيل عندها ينقسم إلى قسمين، ويفصل المعسكر السالف للسلطان عن معسكرنا، وحيث كان قد أقام هناك بعد الاستيلاء على دمياط، وفي هذه البقعة ينسحب نهر تنيس من المجرى الذي يذهب إلى دمياط، ويشكل معه جزيرة، وتمتد هذه الجزيرة اثني عشر ميلاً في الطول، وهي تحتوي على كثير من القرى، قائمة فوق الماء، وما قام منها على الشاطيء الأقصى معروف أكثر من البقية وأكثر ثراء، ومن بينها أشموم وشارمساح، التي كان فيها قصوراً فخمة عائدة

للملك، ونالت هذه الجزيرة اسماً لها، ودعيت باسم أرض دمياط، ودعي الجزء القائم عبر النهر باسم أرض تنيس، لكن الجزء الأكبر الموجود عبر نهر دمياط، يدعى المحلة، وفيها وراء نهر تنيس، وعلى مقادر سفر يوم واحد نحو الشرق تبدأ قفار الصحراء، التي توجد المياه فيها في أماكن محددة، وهي كافية للناس وللحيوانات، إذا مازيدت بالحفر، وهي تنتهي عند الدارون وغزة، وبما أن بابليون (الفسطاط) قائمة في الجنوب، كانت السبب في تسمية بلاد مصر ببلاد بابليونا، ومخطط هذه المدينة مقسم إلى ثلاثة أقسام، وهي تشكل مثلثا،، وقد بنيت مدينة بابليون نفسها فوق النيل، وهي مديدة في طولها وعرضها، وفيها شوارع ضيقة وفيها كثافة سكانية كبيرة، وهي مكتظة بسبب الأعداد الكبيرة من السكان، ويوجد فيها كثير من الكنائس العائدة إلى المسيحيين، وحشود كبيرة من هؤلاء الناس أنفسهم يخدمون أمير البلاد ويدفعون الجزية، وفيها تجد المصنوعات والتجارات من «ليمانيا Leemanni (أسوان؟) والحبشة، وليبيا وفارس وبلدان ومناطق أخرى، ومن الجانب الآخر المواجه لدمياط وعلى مسافة قرابة الميل، تمتد القاهرة وتنتشر في أبنيتها وشوارعها العريضة، وفيها أبنية فخمة، فيها يسكن أعيان البلاد والنبلاء بين السكان، ولاتنحدر هذه المدينة تماماً نحو النهر مثلما تفعل بابليون، لكن يوجد بينهما مساحة مزروعة بما يشبه الجذور من النباتات، وعلى مسافة يقوم برج المراقبة المرتفع، وهناك تقوم القلعة الملكية، وهي واضحة للناظر إليها، محصنة ومحمية بشكل جيد بوساطة أبراج عظيمة، والأبنية معدة بطريقة مضاعفة ثلاثيا مسايرة للشكل المثلثي، وتمتد الآن الأسوار وتنزل من القلعة لتقوم بالدوران حول كل من من القاهرة وبابليون، وهناك فسحة رملية قائمة بين هذه الأبنية الثلاثة، فيها يمكن لجيش كبير أن يقيم.

الفصل الستون

ويشيرون إلى وجود كنيسة مريم المباركة فيما بين القاهرة وبابليون، فهناك يحكى أنها توقفت مع الطفل يسوع، عندما هربت إلى مصر، ووقتها سقطت أصنام مصر، وتقوم القاهرة على مسافة سفر ثلاثة أيام من دمياط، ومن القاهرة إلى حديقة البلسم هناك مسافة ميل، وهذه الحديقة التي فيها رمل زيتي مطوقة بسور، وفيها نبع في وسطها، ومنها صدرت حكاية الناس القدماء التي انتشرت في الخارج بمثابة قصة مشهورة، أفادت أن العذراء الرائعة جعلته ينبع ويجري إلى الأمام بوساطة صلواتها، فغسلت فيه ثياب الرضيع المخلص، والحديقة مزروعة الآن على شكل كروم، والجذع في هذه الحديقة له سماكة شجيرة، وتنموا الأغصان من الجذع إلى ارتفاع ذراع على شكل جوز، ولحاء الجذع عقدي ومخطط، ولونه أقرب إلى البياض، ويدعى الخشب باسم «خشب البلسم» والبذرة باسم «ثمرة البلسم» وهي تتناثر، وتعطي ورقة تشبه ورقة عرق السوس، تدعى باسم «ورقة البلسم» وكذلك باسم« عصير البلسم» ذلك أن المزارعين يأتون إلى الأغصان، ويقطعون اللحاء في أجزاء محددة، حيث يتدفق البلسم، وهكذا يجمع السائل بدرجات ، وقد يتبدد خلالها،ويجمع البلسم في الخريف بالطريقة التالية: يبرم الغصن ثم يخدش بمسمار، وتتساقط من خلال الفتحات الصغيرة نقاط تجمع وتحفظ في وعاء، وبعد هذا تذاب لمدة عشرين يوماً في الشمس، وبعد ذلك تجمع قشدتها فوق النار، وتوضع وتصب داخل قوارير، لأنه من الخلاصة الأصيلة، قليل من البلسم غير المخلوط هو الذي يبقى بعد التصفية، غير أن الباعة ثم الذين يعاودون البيع يقومون بالعادة بمزجه بخلاصة زيت الصنوبر أو الراتينج، وبذلك يغشون الشراة، ولذلك من النادر وجود الصافي منه على أيدي الباعة، واعتاد السلطان توزيعه في

قــوارير بين أمــراء الأرض بمثابــة هديــة عظيمــة، وصاحــب الحديقة هــو مسيحي يعمل تحت اشرافه عمال مسيخيون ومسلمون.

الفصل الحادي والستون

ودون القــاهــرة هنــاك جزيــرة تمتــد لمســافــة ثــلاثة أميــال بــالطــول وبــالعــرض ، وهنــا ينقســم مــاء النيــل الى قسمين ، حيــث يــلامــس شواطىء دميــاط من أحد الجوانب ورشيــد من الجانب الآخر ، وكــانت رشيــد مــدينــة كبيرة ، وهي الآن مهــدمــة ، وهــي قــائمــة فيما بين الاسكنــدرية ودميــاط ، لكنها أقــرب الى الاسكندريــة ، وعلى مسافــة يــومين من القــاهــرة ، وعند رشيــد وفوقهــا يصبــح النهر أوســع والماء أعمق ، والمينــاء أكثر سكــوناً مــن دمياط ويستقبــل هذا المينــاء سفناً أثقل حمولــة ، ومن الممكن مركــزة جيش كبير فوق الجزيرة المتقــدمة الذكر ، وعندما كنا عند رأسهــا أثناء حصار دمياط ، رغب السلطان في انتــزاع النهــرمنا ، و وغــالبــاً مــا حــاول ، لكنه أخفــق ، ، وعبثــاً حــاول جعل ميــاهه تتــدفق في قنــاة، وبعد انفــاق عظيم تــرك مجراه للطبيعة ، ومــن بابليــون الى الجانب الأعلى الى ليمانيــا ، حراثــة الأرض محدودة على جانبي النهر ، وهناك قفــار واسعة على كلا الطرفين ، وفي ليمانيا وفرة من أنواع التوابل التي تصدرها الى الخارج ، والتي يحملها مختلف تجار المملكة للبيع .

الفصل الثاني والستون

ووراء ليمانيــا ، تمتلــك الحبشــة أراضي واسعــة جــداً ، وفيهــا مــا لا يحصى تعــداده من السكــان المسيحيين ، قسم منهــم واقع تحت حكــم ملوك مسيحيين ، وقســم تحت حكــم المسلمين، وهنا يــوجد أهل النــوبة

الذين يمارسون القداس عند المذبح ، ولديهم الوظائف اليعقوبية المقدسة الأخرى : والنوبيون هم لوحدهم الذين يطبعون على الصغار بوساطة حديده محماة ثلاث طبعات لصورة الصليب ، على الجبهة وقرب العينيين على كلا الجانبين ، ومع ذلك يتعمدون ، وتستخدم الفئة الأولى والفئة الثانية الكتابة الكلدانية ويستخدمون الخبز المخمر من أجل القربان المقدس ، ويرسمون علامة الصليب بإصبع واحدة، ويقولون بأن طبيعتين قد اتحدتا في طبيعة واحدة للمسيح ولعلهم يستخدمون بشكل ملتبس اسم طبيعة ، ولهذا يأخذون بالدرجة الثانية كلمة «طبيعة » بدلاف من كلمة «شخص»

الفصل الثالث والستون

الجورجيون والاغريق متفقون في كل شيء فيما يتعلق بالطقوس المقدسة ، لكن للجورجيين كتابتهم الخاصة ، وعندما كنا نتفحص بدقة كتبهم على جبل القديس سمعان العمودي ، حيث لديهم هناك كنيسة خاصة بهم ، عرفنا من خلال المترجم أن لديهم الترتيب نفسه بالنسبة للأناجيل لدى اللاتين، وشريعة الأناجيل موضوعة على أقواس أعمدة كما نفعل ، وترتيب الرسائل الانجيلية للقديس بولص هي تماماً عندهم كما هي عندنا ، فهم يضعون رسالة القديس بولص الى الرومان قبل الرسائل الأخرى

الفصل الرابع والستون

وللموارنة بطركيتهم الخاصة بهم على طرف جبل لبنان ، ولقد تسلموا خطة طقوسهم اللاهوتية من البابا إنوسنت في المجمع الأخير الذي عقد باللاتيران ، وهم متمسكون بها بقدر ما تسمح لهم

كتاباتهم التي هي بالكلدانية ، أو قريبة من الكلدانية (السريانية) ، ومتصل بهؤلاء الناس على الجانب نفسه من الجبل الباطنية Neo-phorites الذين يخفون عقيدتهم ، ولا يشرحونها لأولادهم ولأحفادهم حتى يبلغون الثلاثين من العمر ، وانها لعقيدة شريرة العقيدة التي ترغب بالبقاء سرية ، وأن لا تظهر الى النور ، وعندما أردنا أن نعرف ، عندما كنا مارين خلال تلك المنطقة ، لماذا لا يبيحون معرفة شريعتهم لزوجاتهم أو لبناتهم أو أخواتهم ، إلا في ذلك السن ، أخبرنا واحد من شيوخهم مجيباً بأن النساء قد صنعن من قبل الشيطان ، وقد رددنا عليه قائلين « عندما تعانقون نساءً من هذا النوع ، ألا تعانقون وقتها الشيطان ؟ » وبناء عليه ابتعد عنا مضطرباً ، ولا شك أن المسيحيين يشعرون بالأسف لامتلاكهم مثل هؤلاء الجيران

الفصل الخامس والستون

وللأرمن كتاباتهم الخاصة بهم ويجلس الكهنة منهم في الحقل الى جانب سنابل القمح التي يرغبون في أن يصنعوا منها الخبز الفطير لحشودهم وهم ينقونها ويضعونها جانباً بعزلة عن المحصول العام ، كما يطحنونها منفصلة ، وفي اليوم الذي يودون أن يكرسوا فيه جسد الرب ،مع غناء المزامير أمام المذبح ، يعدون الطحين ويرشون عليه الماء ويمزجونه ، من أجل خبز فصح حمل المسيح ، وهذا يكون وفق الشكل اللاتيني ، ويحتفلون بهذا بتقوى عظيمة ، ومهما يكن الحال، إنهم يستحقون من أجل ما يلي لوماً عظيماً : فهم لايحتفلون بالميلاد معنا، بل يفلحون ويحصدون في ذلك اليوم بينما تقوم نساؤهم بغزل الصوف وتمشيطه، ويسمون يوم عيد الغطاس باسم يوم «المعمودية»، ويحتشدون في هذه المناسبة المقدسة ويتجمهرون مع كثرة كثيرة من الناس، ويحتفلون بميلاد الرب مع عيد الغطاس، ويقولون بأن

الـرب قد ولـد في اليـوم نفسه الـذي تعمد فيـه فيما بعـد، إثر مضي عـدة سنوات، ويقـولون إنهم يخضعون للشريعة الـرومانية، ولديهم جـاثليق هو الأول والرأس بينهم، وهم يطيعونه في جميع الأشياء.

الفصل السادس والستون

وأثناء توقفنا في أنطاكية تفحصنا النسـاطرة الذين لديهم كنيسة خاصة بهم هنـاك، وهم يقـولـون بأنهم يعتقـدون بأن الطبيعتين قـد اتحدتـا في شخص المسيح، ويعترفون أن العـذراء المباركة هي أم الـرب وأم انسان، وأنها حملت انسـاناً وربـاً، الأمـر الذي انكـره نسطـور، لكن هل يؤمنـون بقلوبهم مثلما يعترفون بألسنتهم، الرب يعلم.

الفصل السابع والستون

ويستخـدم السريـان الكتـابـة الاغـريقيـة، وبها ينشـدون، ويقـدمـون الأضحيـة الطقـوسيـة، لكن اللغـة العـربيـة هي الـدارجـة بينهم مثل المسلمين، ويستخدمونها بصكوكهم وبرسائلهم التي يكتبونها.

الفصل الثامن والستون

وأخذ اليعـاقبة في معظم أجـزاء مصر بالختـان، لكن الذيـن مكثوا بين الميديين والفرس هم راضون بالتعميد.

الفصل التاسع والستون

للروس لغتهم الخاصة، لكـن فيما يتعلق بالطقوس المقدسة، وجـدناهم مثل الاغريق في كل شيء، وهذه الأنـواع المختلفة من المسيحيين مختلطون

مع المسلمين في جميع أرجاء آسيا، ولهذا لايمكن لهذه الأمة الكافرة أن تسوغ موقفها على أساس الجهل!

الفصل السبعون

إننا لم نقم بهذا الاستطراد الطويل بدون سبب، وكان القصد أن نظهر بوضوح للمؤمنين موقع مصر، ومجرى النهر، وكذلك الأنواع المختلفة من المسيحيين الذين يسكنون في آسيا، والآن في عودة إلى سياق تاريخنا دعونا نخضب هذا الكتاب بالدموع، وبالنحيب، وبالأسى من أجل خسارة المسيحية ومالحقها من عار.

لقد كان الزحف إلى بلدة شارمساح المشهورة — الذي أتينا على ذكره من قبل — مفيداً لجيش المسيح، ولهذا حدث بعد سقوط دمياط، أن نظر السلطان بحكمة وتفكر بما يمكن أن يحدث في المستقبل، فقام بتدمير البلدة، وكذلك قصره الجميل القائم على النيل، وخلف هذه البقعة ينحرف النهر، ثم ينعطف عائداً، وهناك أيضاً نهر صغير يأتي من جزيرة المحلة، ويصب فيه، واعتماداً على عمق الماء الذي كان يزداد هناك أثناء انتشار الصليبيين، كان من الممكن لهذا الماء حمل الغلايين والمراكب الأخرى ذات الحجم اللطيف المعتدل، وعندما رأى قادتنا الحال، لم يبالوا ولم يعبأوا وعبروا المكان مسرعين قاصدين رأس الجزيرة، وهرع الناس أيضاً بتشوق مثل الطيور القاصدة مصيدتها والأسماك المسرعة نحو شباكها، ذلك أنه أعلن لهم كذباً بأن السلطان يستعد للفرار، وكان هدفهم الحصول على الأسلاب، وكذلك أملهم، لكن عندما سمع ملك مصر ووصله الخبر بأن شارمساح قد أخليت من الخلف، ضم عساكر رجالته ووحدهم مع فرسان مملكته، والذين جاءوا من القاهرة، وبشكل خاص الذين جاءوا من الاسكندرية، وجعلهم يهاجمون الذين كانوا

يتقاطرون وصولاً ، وفي هذا الوضع كان أسرانا قد قدروا حقيقة إخلاء القاهرة من سكانها، لذلك أعدوا خطة للاستيلاء على الأبراج وقت وصولنا، حتى يقوموا بفتحها للذين كانوا يقتربون، لكن الحكمة الربانية التي برحمة منها «سمعت أنين الأسرى الذين كانوا في الأغلال» (المزامير: ١٠١/ ٢١) وشهدت جهود وحزن الذين كانوا في الأصفاد، أطلقت سراحهم من خلال أسانا وأحزاننا.

الفصل الحادي والسبعون

وفيما كان هذا يحدث في مصر قام الملك الأشرف ملك الرها، مدينة الميديين، مع المعظم عيسي صاحب دمشق، مع صاحبي كل من حمص وحماه، مع حشد كبير جداً من الفرسان جمع من جميع مناطق الشرق، بالاجتماع في حمص، ونتيجة لهذا أصاب رعب شديد أهل انطاكية وعكا، والمدن الأخرى القائمة على الساحل والتي كان محاربوها غياب، لأنهم ذهبوا للمشاركة في حملتنا، وشعر الذين كانوا في صافيتا وطرابلس بخوف خاص تجاه هذا الاحتشاد.

وتناقش الأمراء المذكورين أعلاه بإخلاص وجدية لوقت طويل حول هل عليهم التوجه لعون مصر بأنفسهم، أو الأفضل شطر الجيش الصليبي بوساطة محاصرة احدى قلاعه ، وأثرت عليهم قوة الملك داود وضغطت، لأنه كان المنتصر على ملك الفرس في أراضي الفرس، ولأنه كان يعمل بنشاط في المناطق التابعة لبغداد، وخشيةمنه، كانوا يخشون الابتعاد عن ديارهم، كما قدروا أن الاستيلاء على قلاع الاسبتارية أو الداوية لن يكون بالأمر الهين في وقت قصير، وأخيراً نجح رأي الذين رأوا القيام بزحف سريع إلى مصر، خاصة لأن أخاهم أرسل لهم مراراً رسائل على بريد الجمال يرجوهم القدوم إليه، وأضاف أن الصليبيين قد تمركزوا الآن في

مكـان لايمكنهم مغـادرتـه من دون مخاطـر، وأنـه إذا لم يستطيعـوا لـدى قـدومهم التغلب عليهم، يمكنهم على الأقل الإعداد لعقـد صلح معهم، وكتبت ملكة قبرص إلى النائب البابوي وكتب رهبـان الاسبتارية والداوية إلى مقـدميهم حـول هذه العسـاكـر وحول خططهـم، وحثوهما على عـدم التراجع من دميـاط، وأنهما إذا مـا خـرجـا وتـراجعـا عليهما البحث عن أمـاكن آمنـة لنفسيهما، لكن الآن حسبما قضـت ذنـوبنـا، نأت الآراء الحكيمـة وابتعدت عن قـادتنا، وكـان مثلهم مثل يـوليوس قيصر، أنـذروا وحـذروا مراراً، ومثلهم مثـل الاسكندر المقـدوني أنـذوا وحذروا في هـدوء الليل وصمته، ولقـد أهملوا اتخاذ الاحتياطـات ضد المخاطر الفعليـة، وقد تكلمم الـرب نفسه من خلال مـوسى إلى بني اسرائيل قـائلاً:«لاتصعدوا ولاتقـاتلـوا، لأنني لست معكم، خشيـة أن تنهـزمـوا أمـام أعـدائكم».(العـدد: ١٤/ ٤٢)، ومع هـذا ذهبـوا، وسقطـوا مهـزومين مقهورين، وتأمل الملك جـون بالقضية وتعمق بـالتفكير حولها، ورأى أن من الحكمـة وجـوب قبـول الاقتراح الـذي غـالبـاً مـا تقـدم بـه العـدو، وتـرجيحـه على مـا رآه الشعب المؤمن، لأن هـذا الشعب اقتيـد في زحف طـويل، وبـات الآن عرضـة لتقلبـات الأحـداث، لكن النائب البـابـوي الأعلى حرم عقد أية اتفـاقية دون الحصول على موافقة الكنيسة الـرومانية، ثم إن الامبراطور لم يـأذن من خلال رسائلـه المختومـة بالـذهب بعقد أي صلح أو بالإعداد لأي معاهدة مع المسلمين (١١٤).

الفصل الثاني والسبعون

وقوينـا بالـوقت نفسه تحصينـاتنا بخندق عميق، ومن الجانـب المقابل قـام خصومنـا بإقامـة سور تـرابي وسواتـر دفاعيـة على الطرفين المتقـابلين للنهـرين، ووضعـوا عليهم آلات قـذف وعـرادات ومنجنيق مع مخرطـة، وبـذلك سببوا لنـا جـراحات خطيرة أصـابت النـاس، والحيوانـات التي

كانت مأخوذة للسقاية، وازدادت قوى خصومنا يومياً، وأخذ جمعنا يتبدد مبرهناً على عدم إيمانه، ومع اقتراب موعد العبور، إزداد الجبن بين الذين هجروا المعسكر وتخلوا عنا بشكل مكشوف أو مخادع، وعدد كبير من السفن التي ذهبت إلى دمياط لجلب الميرة، لم تتمكن من الرجوع، وفي اليوم الثامن عشر من آب جرى الاستيلاء على أربعة من غلايينا أو أنها أغرقت في النهر، ومنح هذا شجاعة إضافية إلى الأعداء، لأن السلطان كان قد غرق بعضاً من غلايينه على طول مجرى النهر، الأمر الذي تقدم لنا ذكره أعلاه، وكذلك دون معسكرنا خلال جزيرة المحلة على ضفاف النهر بدون علم منا، وقطع هذا العبور والجواز بالنسبة لرجالنا، وبذلك لم يعد بإمكانهم الذهاب لاصعودا ولا هبوطاً، يضاف إلى هذا، بما أن حشداً كبيراً من الرجال المسلحين قد جرت مركزتهم بذكاء هناك، وتولوا أعمال الحراسة ليلاً ونهاراً، وراقبوا كلا الشاطئين حتى دمياط، لم يعد بإمكان قومنا إرسال الرسل أو استقبالهم.

الفصل الثالث والسبعون

ومن اليوم الذي خسرنا فيه النهر، أخذ رجالنا يجتمعون بشكل متواصل للتشاور فيما بينهم، وليروا ما هو الأكثر مواءمة لهم: الانتظار في المعسكر حتى وصول الغلايين التي وعد الامبراطور بإرسالها، أو الخروج، دونما اعتبار للخسائر مهما كانت، وذلك بسبب اضمحلال مخزوناتنا من الأطعمة، وارتأى الجزء الأكبر رأي الخروج، الذي كان أعظم خطراً بسبب وصول الأعداء، وقرار الإعاقة المائية، لكن أحد الناس (أولفر نفسه) من الأعضاء الأدنى، وكان قد رأى وسمع هذه الأشياء، وتولى وصفها بشكل جاف، لكن بقلم صادق، اقترح اتخاذ داود مثلاً، الذي اختار بين ثلاثة أشياء، كل واحد منها كان صعباً وشديداً، فهو لم يختر الجوع لمدة سبع سنين، ولم يختر أن يغلب من قبل العدو لمدة ثلاثة أشهر

بل اختار ما كان هو الرغبة العامة للملك وفقراء الناس: الوباء لمدة ثلاثة أيام؛ وعندما سئل عن رأيه وما يقصده أجاب: بما أن الضعفاء والعاجزين الذين كانوا هناك لاتوجد سفن كافية أو حيوانات لنقلهم، ينبغي انتظار وصول المساعدات في مكان حصين، لاسيما وأن المؤن، إذا ما وزعوها بحذر يمكن أن تكفي لمدة عشرين يوماً، ومع هذا لم تقبل هذه الخطة، بل قبلت خطة المغادرة، وأصبحت مع حلول الليل أكثر قبولاً، وفي هذا المقام ساد موقف أسقف باسوا Passau مع رأي البافاريين.

الفصل الرابع والسبعون

وبناء عليه حدث في يوم ٢٤ آب، ومع الهزيع الأول من الليل، أن أخليت الخيم ، من قبل أوائل الناس، الذي اتبعوا مارغبوا به، وليس ما أوجبه العقل، وألقوا النار في الخيم، ثم فعل الآخرون مثلهم بحماس، وكانوا بذلك كأنما يعلنون عن هزيمتهم الخاصة، ويدعون المصريين لمطاردتهم، وبالوقت نفسه وصل النهر إلى أقصى درجات فيضانه، لابل ارتفعت مياهه وتدفقت حتى أعلى مما هو معتاد، فقد غمرت الحقول، وجاء الملوك السالفي الذكر من خلال الصحراء ووصلوا عبر نهر تنيس إلى أشموم، وهناك بني جسر، فتوقفوا وعسكروا، وأضيف إلى سوء حظنا في ذلك اليوم أن الناس كانوا في ذلك اليوم مخمورين كثيراً، نتيجة شربهم الخمور التي كانت هناك بكميات وافرة، وكان من غير الممكن حملها معهم أثناء التراجع، وبما أنها عرضت لمن أراد بدون ثمن ، فقد قهرت الذين كانوا غير متيقظين، وهم الذين ظلوا غارقين بالنوم داخل المعسكر أو الذين تمددوا على الطريق، وكانوا غير راغبين بالنهوض، ولقد تخلوا في معظم الأحيان عنا، وتخلفوا إما لأنهم انقطعوا أو لأنهم أسروا، ووصل آخرون إلى الأماكن التي فاض عليها النهر في ظلمة الليل، وناضلوا

بتعاسة وسط السباخ العميقة، ولهذا تخلفوا خلف الآخرين، وسقط آخرون في السفن وضغطوا عليهن بشدة بسبب أوزانهم فغرقن، وفقدنا في الليلة نفسها جمالاً وبغالاً كانت تحمل أثقالاً، بما في ذلك أوعية فضية، وملابس وخيم الأثرياء، والذي كان أكثر مأساوية فقدان نشاب الدفاع، وتولى الداوية جلب قوات الساقة في ظل مخاطرة عظيمة، ومكثوا بشكل متواصل مع بعضهم بمثابة حماية للذين مضوا في الأمام، لأنهم كانوا مستعدين بالأسلحة، وكان الذين تقدموا في الأمام، قد ساروا على طرق مختلفة، فضاعوا خلال ظلام الليل مثل أغنام شاردة، وأخبر المصريون بفرارنا بوساطة النار والدخان، فقاموا على الفور بملاحقتنا، ووصلوا إلينا بسرعة أكبر من المتوقع، وأنزلوا بالصليبيين خسائر من غير الممكن وصفها، ولم تكن أقل خطراً وأذى مما تم تحمله من قبل الذين ذهبوا بالسفن على طول الشاطىء وكانت سفينة النائب البابوي تحمل عدداً كبيراً من المرضى، وكذلك كميات من المؤن، وكانت محصنة إلى أبعد الحدود برجال مسلحين ورماة، وبدت وكأنها قلعة، وتولت بشجاعة حماية الغلايين التي بقيت بشكل طبيعي مع بعضها متراصة متقاربة، غير أنها سارت بسرعة كبيرة جداً، ولعل ذلك كان بسبب قوة التيار، ولأنها ابتعدت بشكل رهيب عن الجيش البري، لم يعد بإمكانها تزويدنا بالطعام في الوقت المناسب، فضلاً عن هذا، ابتعدت واحدة من سفننا كانت مليئة بالمقاتلين الألمان، كثيراً عن سفينة النائب البابوي، وطوقت من جميع الجهات بغلايين الأعداء، وبعدما تمكنت من إغراق واحد من الغلايين في المياه العميقة، بعد دفاع طويل، اشتعلت فيها النيران فدمرت المقاتلين الذين كانوا فيها، وكان هناك مركب عائد للنائب البابوي يحمل كثيراً من البضائع الدنيوية، وغليون صغير عاد بملكيته للداوية، كان فيه خمسين عرادة إلى المعدات الأخرى التي يحتاجها الرجال الشجعان، قد تم الاستيلاء عليها، وخرجت عن ملكيتنا.

لماذا أطيل أنا الوقوف للقيام بتعداد الخسائر التي سببتها تلك الليلة لنا؟ « أما ذلك الليل فيمسكه الدجى ولايفرح بين أيام السنة ولايدخلن في عدد الشهور. هو ذا ذلك الليل ليكن عاقراً لايسمع فيه هتاف» (أيوب : ٣/ ٦—٧)، وسارع في تلك الليلة ملك مصر بارسال الرسل للقيام بفتح بوابات السدود وتدميرها وكذلك أقنية جر المياه، التي كان من الممكن أن تكون ممرات لنا، وليلة هذاالعمل لها ذكراها عند المصريين وعندنا أيضاً، عندما فاضت أطراف النهر الى حدود كبيرة وتدفقت الكميات الهائلة من المياه عبر منحدرات خزانات المياه ومن خلال الاقنية فسببت تطرية الأرض، هذه الأرض التي كانت جافة بسبب طول انقطاع الماء، ثم إنها تحولت إلى أرض موحلة سميكة أمسكت بشدة بحوافر الخيول وجعلت الفسحة المفتوحة للحقول لايمكن جوازها، ولقد أعاقت كثيراً كل من الخيول والركاب.

الفصل الخامس والسبعون

في حوالي الساعة الأولى من يوم الجمعة التالي (٢٧— آب) ظهر هناك فرسان الترك المرعبون والذين كانوا في أعداد كبيرة، وشرعوا بمناوشتنا من جانب الميمنة وذهبت الغلايين المزعجة صعوداً ونزولاً من على اليسار، وقام فيلق من الزنوج بالزحف على الأقدام، وبالضغط علينا من الخلف بقسوة متناهية، وكان هؤلاء يستخدمون الأماكن السبخة من أجل المعسكرة، وجاء أيضاً تشكيل تابع للعدو على شكل محدودب، وواجهنا هذا التشكيل من الأمام، وبذلك حرمنا من الراحة، وفي هذه الأثناء قام الملك جون بهجوم على الأتراك الذي كانوا مواجهين له، ثم عاد إلى الخط القتالي المخصص له، ولم يتهاون الداوية وإسبتارية القديس يوحنا الذين كانوا آنذاك متحدين معهم بالتعامل مع رعونة الزنوج، وقاموا وهم يقتلونهم بالضغط عليهم حتى أرغموهم على القفز إلى الشاطىء

مثل الضفادع، وكذلك قاموا بصدهم وردهم إلى الخلف عندما أرادوا الوصول إلى الشاطىء من جهتنا، وهكذا كان هناك حوالي الألف من الحشد العظيم يسبحون مبتعدين أو يعانون من الجراح، أو يموتون، وبسبب هذه الانتكاسة التي عانى منها أعداؤنا تراجعوا قليلاً، وبما أننا لم يؤذن لنا بالتقدم نحو الأمام، أمر الملك بنصب عدد قليل من الخيم، بعضها بقي في الخلف، أو أخذ إلى الأمام، ومع ذلك بقي أعداؤها خلال ذلك النهار كله على مقربة منا، وكانوا يهاجموننا بشدة متناهية بوساطة نشابهم، وقد وضعنا جنودنا الرجالة في مواجهتهم بمثابة ساتر دفاعي، وكذلك استخدمناهم، لأنهم أعادوا رمي النشاب الذي وجه ضدنا، وعمل فرساننا تحت الوزن المستمر لدروعهم وسوابغهم،وأفادوا بمثابة حماة للجنود الرجالة، وفتح المصريون في الليلة التالية بوابات الفيضان، وجعلوا المياه تتدفق فوق رؤوس الذين كانوا نائمين، ولاندري هل فعلوا ذلك بناء على أمر السلطان، أو بدون معرفته، وقبل انبلاج نور الصباح، عندما كان الظلام مايزال يغطي الأرض، جاء الجنود الرجالة من الزنوج الذين نجوا من قبضة النهر، وكانوا راغبين بالانتقام للخسائر التي لحقت بهم، واحتشدوا مثل الجراد، ومع أنهم كانوا أشبه بالعراة، فقد هاجموا صفوفنا الخلفية، وكان من الممكن رؤية فرساننا ومعهم خدمهم يحاولون الفرار، وسط حشد متلاصق من الناس، وبما أن عوام الناس كانوا غير مسلحين، فقد أظهروا جبنهم بشكل واضح تماماً، غير أنهم كانوا محاصرين من جميع الجهات بالماء وبالأعداء، ولذلك لم يجدوا مكاناً يفرون إليه، وقام مقدم الداوية مع صفه القتالي الذي كان يقوده شخصياً بالالتفات نحو الذين كانوا يقومون بأعمال المطاردة، وأرغمهم إما على التوقف أو على التراجع، وقد فعل ذلك بعدما رفع رايته.

- ٢٠٥٨ -

الفصل السادس والسبعون

في هذه الآونة أقنع الوضع اليائس الذي بات مفهوماً قادة الحشد ليقوموا بارسال رسل يعرضون المصالحة، لكن إمبرت Imbert ، وكان مقترفا عظيماً للشرور، أخذ برفقته الذين أمكنه أن يهربهم معه، والتحق بالأعداء ، وبين الوضع المأساوي اليائس الذي كنا فيه، إلى السلطان، وكان إمبرت هذا أسوأ الخونة على الإطلاق في وقته، ومع هذا أصغى السلطان بأناة إلى الرسل، وبانتظار التأكيد، أمر رجاله بالتوقف عن إزعاجنا، مع أن أخاه، وكذلك صاحب حمص بشكل خاص — الذي كان معادياً إلى أقصى الحدود للاسم الصليبي— حاولاً أن يجعلاه يعدل عن الاتفاق، قائلين بما أن الفرنجة تحت الحصار من جميع الجهات بوساطة الماء، فلايمكنهم النجاة، لكنه هو نفسه لكونه رجلاً حكيماً ولطيفاً متسامحاً، رغب في الإعداد للتصالح أكثر من الرغبة بسفك الدماء، ولهذا عقد اجتماعاً سرياً مع أخويه وكبار رجال مملكته، وضرب مثلاً بملك الفرس، الذي كان عاقلاً جداً ومجرباً بسبب ما واجهه من أحداث كثيرة، وقد حاول خلع نير التبعية أو العبودية لملك بابل نفسه وللملوك الآخرين في آسيا، فقد هزمه الملك داود على أرض المعركة، وانتزع منه بلاد فارس ودمر أعظم مدنها وأكثرها ثروة، وبعد هذا تكلم رسل السلام من على الجانبين، كما جرت العادة في قضايا من هذا النوع، وقلبوا أوجه المسائل جميعها خلال السبت والأحد، وتابعوا حتى المساء، لكنهم لم يتوصلوا إلى شيء محدد.

الفصل السابع والسبعون

في ذكرى اليوم الذي قطع فيه رأس القديس يوحنا المعمدان (٢٩—

آب) وفي حوالي الساعة الثانية عشرة، قام طرفنا وقد شعر بالضيق لنقص الطعام والأعلاف، وأكثر من هذا بشكل خاص بسبب الحجم العظيم للماء، فقرر أنه من الأفضل والأصون للكرامة العيش بسعادة أو الموت بشجاعة في الحرب، وذلك بدلاً من الهلاك بشكل مهين في الفيضان، وعلى هذا عندما نهض جميع الفرنجة للحرب تعبأت الصفوف هنا وهناك، ونظروا نحو بعضهم بعضاً نظرات كلها حدة ورعب شديد، ولاحظ الأتراك أنهم قد أثاروا عدواً شعر بأغلاطه وبالنير الذي وضعه على رقبته، لذلك تراجعوا قليلاً بناء على تلقي الأوامر من ملكهم، ونظراً لحلول الظلام فقد حال ذلك دون القتال، وبالإضافة الى هذا، بينما كانت معاهدة الصلح ماتزال معلقة، خشي الرجال العقلاء من عرض خياني، إذا ما جرى تدمير الصالح العام بوساطة قتال خطر.

الفصل الثامن والسبعون

وهكذا في اليوم الثلاثين من آب، أرغمنا على القبول بصلح مؤسف مذل بسبب الظروف المعاكسة، فاستسلمنا إلى المصريين والآشوريين، حتى يمكن أن نزود بالخبز ونطعم، وهكذا كان أن سبب فيضان الماء وقلة الطعام، وليس القوس أو السيف اذلالنا في أرض عدونا، وكان هذا أمراً مدهشاً، نعم لقد كان بالفعل شيئاً مثيراً للدهشة، شيئاً سوف يتم تداوله بالمعرفة في المستقبل: وفي الوقت نفسه ظهر الحكم الرباني العدل، وأشرق لطف الرحمة على شكل مساعدة موائمة، فلقد كانت ضخامة أفاعلينا الشريرة، والعدد الواسع لجرائمنا يرغمان على اتخاذ قرار انتقام رباني، لكن نبع الجودة والمنفعة الطبيعي، الذي من خصائصه أن يمتلك دوماً الرحمة والتخليص، لطف قرار الحكم العادل بحدته، ولهذا وقعنا في خطر،وتأملنا أنه بوساطة الرحمة، ربما ستظهر معجزة ويشرق نورها، «فالرب لايستأصل نفساً بل يفكر أفكاراً حتى لايقطع عنه منفيه».

(الملوك: ٢/ ١٤/ ١٤)، ذلك أن ملاك المشورة العظيم، تكلم من أجل صالح الانسان، مثل واحد بين آلاف يتضرعون من أجلنا، معلنا عدالة الانسان (انظر أيوب: ٣٣/ ٢٣)، فصحيح أننا قد نكون مذنبين، ومع ذلك، في سبيل حمل صليبه تركنا البيوت والآباء والزوجات والأخوان والأخوات والأبناء والحقول، وكان ذلك كله من أجل رضا الذي يظهر الغضب بهدوء، ويصدر أحكامه بلطف، ويعاقب بمحبة، فضرباته مثل ضربات الأب، لكن قلبه قلب أم.

الفصل التاسع والسبعون

وهكذا عندما وضعت الشروط، وفقاً لقرارات السلطان، جرى اكمال وثائق العقود بين الطرفين، وجرى حلف الأيمان، مع تسميه الرهائن، وبناء عليه وضع السلطان يده على ورقة تولى توقيعها، وأقسم وفق الصيغة التالية: « أنا، الكامل ملك مصر، أقسم بالله، رب الأرباب وبشريعتي، من قلب نقي، وبإرادة طيبة، وبدون مواربة أو تردد، أنني سوف أرعى بايمان طيب جميع الأشياء التي كتبت في هذه الورقة، والتي تحتويها، وهي الموضوعة تحت يدي، وإذا لم أفعل ذلك لعلي أحرم من الحساب الأخير ومن صحبة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأن أكون مؤمنا بالآب والابن وروح القدس»، ووفق هذه الصيغة أقسم الملك الأشرف وكذلك الملك المعظم مع أعظم الأمراء مكانة لديهم، انتبهوا تحت كم من الأخطاء الكثيرة والتناقضات تعمل بها تلك الأمة العمياء، فثلاث مرات أتوا على تسمية الرب، لكن دون معرفة بأسرار التثليث، وهم لايرضون بتمييز اسم الآب، واسم الابن، واسم الروح القدس، وذلك حتى يزيدوا من إدانتهم، ولو أنهم أقسموا خداعاً أو مع أي تردد وتقاطع، في شكل الطقوس، هم يقولون إنهم ليسوا تحت الإكراه، والآن احتوت هذه الكتابة على ترتيبات وفق مايلي: سوف يعيدون

الصليب(١١٥) الحقيقي مع جميع الأسرى الذين أسروا في أي زمان في مملكة مصر، أو جميع الصليبيين الموجودين تحت سلطان الملك المعظم، وأنهم عندما سيتسلمون دمياط مع كل ما يتعلق بها ويعودون إليها، سيدعوننا نذهب جميعاً بكل حرية ومعنا مقتنياتنا المنقولة، ولسوف يحافظون بشرف على هدنة لمدة ثمانية أعوام، وأقسم قادتنا أنهم سوف يطلقون سراح جميع الأسرى المسلمين لديهم، المسجونين في كل من مملكتي مصر والقدس، وإنهم سوف يعيدون دمياط، ما لم يرغب ملكنا المتوج بخرق الاتفاقية، يضاف إلى هذا جرى تقديم أربع وعشرين رهينة، تولى السلطان اختيارهم وهم: النائب البابوي، وملك القدس، ودوق بافاريا، ومقدمي بيوتات الفرسان الثلاثة، مع ثمانية عشر آخرين، ومن جانب آخر أعطي لنا ابن السلطان، وريث المملكة، وواحد من اخوانه الذين توفر منهم العديد، وأبناء العديد من النبلاء، وذلك حتى عودتنا إلى بوره (قرب دمياط) وإلى ميناء دمياط.

الفصل الثمانون

لتعلم جميع الأجيال المقبلة، أننا بالنسبة لوضعنا الخطر ولحاجتنا الملحة أبرمنا صفقة رائعة، آخذين بالحسبان أننا تمكنا من استرداد خشبة مخلصنا مقابل مدينة واحدة كان لايمكن للصليبيين أن يحتفظوا بها لوقت طويل ،وأن القمح أو الطحين عرضة للتلف هناك في أقل من سنة، وأنه بصعوبة يمكن لسيد مصر نفسه الحفاظ على سكانها، ثم إن آلافا مؤلفة من الأسرى، الذين بينهم نعد أنفسنا، من الأعلى إلى الأدنى قد أعيدوا إلى وضعهم الحر، وكان عندما دخل الامبراطور هرقل إلى فارس، قد استولى عليها بصعوبة بالغة بعد خمس سنوات متواليات، وقد هزم كسرى، وحمل صليب الرب في موكب نصر، وأعاد البطريرك زكريا إلى القدس مع الأسرى من شعبه، والآن كان السلطان يحتفظ ببطريرك

الاسكندرية(١١٦) بمثابة أسير، وكان رجلاً عظيم التقوى، وكامل الأخلاق، وقد أعاده وأرسله إلينا عندما كنا نسير عبر النيل، وقد حرره من أغلاله وخلصه من قذارة السجن، وأعلن أعداء الصليب أنهم قد خدعوا بهذه الاتفاقية، ورددوا قائلين إنهم استردوا مدينتهم دمياط، ودمروا القدس مع حصون أخرى من حصون هذه المملكة الرائعة، لكن الصليبيين عمروا واحداً من الحصون التي لاترام في فلسطين نفسها، وهو خطر جداً بالنسبة إليهم، وتمت عمارته على الرغم منهم، ولو أننا دمرنا دماراً كاملاً، أو وقعنا بالأسر بعد فقداننا لجميع ممتلكاتنا، وأيضا لو أن دمياط قد فقدت من دون أي تعويض، لباتت بقية البلاد التي بأيدي عبدة المسيح على حافة خطر حقيقي، لأن الذين بقيوا لحراسة دمياط، تركوا المدينة وفروا، ولم يهربوا لوحدهم، بل أيضاً عندما سمع الذين وصلوا حديثاً التقارير غير المواتمة هربوا عائدين، ووصل كونت مالطا(١١٧) إلى دمياط في حوالي نهاية آب ومعه أربعين شينيا، وكان القراصنة قد سلبوا اسبتارية القديس يوحنا والداوية بضائعهم،وقتلوا واحداً من النبلاء الفرسان،وواحداً من الرهبان الدينيين من الداوية، الذي كان يدافع عما عهد به إليه، وجرحوا راهباً آخر، وكان من فرسان التيوتون.

الفصل الحادي والثمانون

بدأ السلطان قبل إعادة دمياط بتنفيذ ماوعد به، فقد أمر بإطلاق سراح أسقف بوفياس المنتخب وبعض الأسرى الآخرين، وجلبهم إلى معسكرهم، وجرى إرسال مقدم جيش الداوية، ومقدم رهبان التيوتون (١١٨) من قبل القادة ليسلما المدينة تماشياً مع التعهد وتأكيدات أيمانهم، وتم تنفيذ هذا بدون صعوبات كبيرة، لأنه لم يكن بين الحجاج الجدد الذي كانوا يصلون آنذاك، رجلاً قوياً، ونشيطاً، أو مثابراً بما فيه الكفاية

-٢٠٦٣-
لأن يكون راغباً أو قادراً على التمسك بها بعد الوقائع المتقدمة الذكر.

الفصل الثاني والثمانون

«تدخل الحيوانات المآوي وتستقر في أوجرتها» (أيوب: ٣٧/ ٨) وإذا سألت لماذا عادت دمياط سريعاً إلى المسلمين، فإن السبب واضح: لقد كانت محبة للترف، وكانت طموحة، وكانت متمردة، وبالإضافة إلى ذلك كانت غير ممتنة للرب إلى أبعد الحدود، وكذلك بالنسبة للبشر، ولنمر بأشياء أخرى، منها أنه عندما أعطيت المدينة إلينا من الأعلى من السماء، وفي أثناء توزيع الثروات التي وجدت فيها، لم يحرم من ذلك لاامرأة عجوز ولاطفل ابن عشر سنوات، وفقط المسيح وحده —المعطي لكل الأشياء— حرم من الحصة، ولم يدفع له حتى العشر، وفيما مضى قام الرومان الوثنيون فكرسوا وعاءً ذهبياً إلى أبولو، على شكل عشر، وقال بنو اسرائيل لموسى عندما قهروا المدينيين: «فقد قدمنا قربان الرب كل واحد ماوجده أمتعة ذهب، وحجولاً، وأساور، وخواتم، وأقراطاً، وقلائد» (العدد: ٣١/ ٥٠).

وفي أثناء توزيع الأبراج وأماكن السكن، أعطي معظم الثناء عن جدارة لتلك الأمة المطيعة والنشيطة (الفريزيون)، التي هاجمت من البداية دمياط بشجاعة كبيرة، ولم تعبأ بأي وضع سواء أكان متواضعاً أو منخفضاً، فبوساطة أسطول السفن الذي جلبته، أمكن تزويد معسكر المؤمنين بالأطعمة والسلاح، وهكذا جرى الاستيلاء على برج النهر (برج السلسلة)، وتنظيم العبور إلى الجانب المواجه من النهر، وتم بناء الجسرين الأعلى والأدنى، وكذلك بناء برج المراقبة في بورة، وتحصين أسوار السواتر الدفاعية، ولديها رضا في وجه مثل هذا النكران، ذلك «أن الرب سوف يعطي الثواب الجزيل» لعباده «ولسوف يقودهم في طريق رائع»

(الحكمة: ١٠/ ١٧).

الفصل الثالث والثمانون

يامحب الناس، وملك المجد، ومنقذ العالم، الذي يمتلك معرفة مقدسة، وقدرة فوق كل القوى، أنت الذي تلوم بعضهم، وتسكّن آخرين، لقد أنزلت فخارنا إلى الرغام بانتزاعك دمياط من غير الشاكرين، وبرحمة منك حفظت أرمينيا وأنطاكية وصنتهما في وجه جهود الناس الأشرار، لأن الذين كانوا في الحصن سببوا انزال مأساة عظيمة على المسيحية، أما الذين كانوا الوادي فأضافوا أذى إلى الشرور، عندما افتراضاً اجتمعوا في حالة نكران لفضائلك ومنافعك، ولقد ظهرت عدالتك من أحد الجوانب بوضوح، ومن الجهة الأخرى أشرقت منافعك ومحاسنك المعتادة واضحة على الذين كانوا على استعداد لفتح أعينهم.

الفصل الرابع والثمانون

كان روبين الذي كان من قبل صاحب أنطاكية من معدن نبيل جداًلكن لإفتقاره الى حسن التصرف هو لم يكن مناسباً لإدارة الأمور العظيمة،وقام بمساعدة من غورين Guerin ،مقدم اسبتارية القديس(١١٩)يوحنا،والذين تمكن من اقناعهم،فاستولى على طرسوس،وحارب الأرمن رغبة منه في الحصول على مملكة،ولم تفت معرفة هذا الأمر وادراكه تركمان قونية،وقد تشجعوا بالخلافات بين المسيحيين،فهاجموا أرمينيا بالجنود، ولدى قيام قادة تلك المملكة بتقديم شكواهم،أكدوا على المخاطر التي تحيق بحياتهم وبينوها، فقد نقص تعداد جيش المسيحيين في تلك المنطقة،في تلك الآونة الى حوالي العشرين ألفاً، وذلك بعدما أحصوا الذين قتلوا أو أسروا من قبل

المسلمين،وبعدما هرب العديد بسبب فقدانهم لممتلكاتهم.

الفصل الخامس والثمانون

وبناء عليه بالاضافة لشكرك كله ، وبقدر ما تسمح ، سوف أتابع بإضافة الأشياء التالية .

الفصل السادس والثمانون

في سنة النعمة لـ ١٢٢٢ ، وفي شهر أيار، حدث أن كانت هناك هزة أرضية كبيرة في قبرص ، وفي ليماسول ، ونيقوسيا ، وأماكن أخرى في تلك الجزيرة ، لا سيما في بافوس Paphos إلى درجة أن المدينة دمرت بالكامل مع القلعة ، والمخلوقات البشرية من الجنسين الذين كانوا هناك وقت حدوث الهزة ، فقدوا بالأجمع ، وجف الميناء حيث انبعثت المياه فيما بعد ، أو خرجت على شكل ينابيع .

الفصل السابع والثمانون

حشد في شهر حزيران من تلك السنة نفسها الملك المعظم جيشاً عرمرماً من العربية ، وفلسطين وأدوم وسورية ، وكان فيه عشرة آلاف فارس ، وخمسة عشر ألفاً من الجنود الرجالة ، وزحف به ضد غي صاحب جبلة ، الذي كان رجلاً شريراً وبلا مبالاة ، لهذا لم يرغب بالمشاركة في الهدنة العامة ، ورفض إعادة الأسرى المسلمين الذين كانوا في حوذته ، ومع أنه كان محصناً بشكل جيد ، بسبب الطبيعة الوعرة للمنطقة ولنيله المساعدات من المسيحيين ، مع هذا كله خضع لشروط هدنة مع المعظم ، كانت مؤذية له ومهينة لاسم

المسيحية .

الفصل الثامن والثمانون

في شهر حزيران من السنة نفسها ، صار الفتى فيليب بن بوهيموند ، أمير أنطاكية فارساً في أرمينيا ، وقد تزوج ابنة ليون ، الذي كان ملك أرمينيا من قبل ، وجرى تتويجه معها بشكل مهيب ، ملكاً لتلك المملكة ، وعندما جرى الاحتفال بذلك الزواج ، وكان الأرمن محتشدين مبتهجين من أجل هذه المناسبة العظيمة ، هاجم الأتراك من قونية تلك البلاد بكل قسوة مع حشد عظيم ، وقد قتلوا كل من وجدوه وحملوا معهم كثيراً من الأسلاب ، وفي الوقت نفسه كان بوهيموند أمير أنطاكية وكونت طرابلس موجوداً ومع أنه كان معه القليل من اللاتين فقط في ذلك الوقت ، لأنه لم يتوقع مثل هذه الحادثة الشؤم ، مع هذا قام مع ابنه الملك على الفور وبنشاط بمطاردة الأعداء عبر طرقات طويلة وصعبة ، ومع أن عدداً كبيراً من أتباعه قتل ، لكنه بحكم كونه رجلاً نشيطاً ، وبارعاً في استخدام السلاح ، طرد الأعداء وساقهم خارج حدود ألمانيا ، وبعد هذا استرد الأرمن واحداً من المعسكرات المحصنة ، واسمه سيبليا Siblia ، وكان قائماً عند الحدود بين أرمينيا وتركيا ، وكان سلطان قونية قد انتزعه منهم مع حصون أخرى بعد موت ليون

الفصل التاسع والثمانون

وفي الوقت نفسه أرسل فردريك امبراطور الألمان وملك صقلية أربعة غلايين الى عكا ، وجرى استدعاء الملك ، والبطريرك ، ومقدم إسبتارية القديس يوحنا ، وبعدما اجتمعوا عبروا في شهر إيلول وأسرعوا

للمشـاركة في مـؤتمر فيرونا ، الـذي أعلن عنـه من قبل الحبر الأعظم والامبراطور ، ليكـون في عيد القديس مـارتن (١١ — تشرين الثاني) وقـدم بالـوقت نفسـه مع الأمراء المتقـدمي الـذكر اللـوزد بيلاغـوس ، أسقف ألبانـو، ونائب الكـرسي الرسولي ، أمـا مقدم الـداوية مع جيش الـرهبنة نفسهـا فقدبقي في أرض الميعـاد من أجل حماية المسيحيـة ، وذلك تماشيـاً مع التوصيـة العـامة للبـارونـات ، وذلك بعدمـا أرسل رسلاً عقلاء وذوي مكانة الى ذلك المجمع .

ملحق أ

قسم الخاتمة في مخطوطة دارمستادت Darmstadt

عندما أنجز هذا كله صار حجاجنا أكثر كسلاً من خلال انعدام النشاط وحياة الاضطراب ، ولكونهم كانوا متشوقين للمرابح الأرضية فقد أثاروا غضب الرب القدير ضدهم، وعندما رأى أننا كنا ناكرين بالنسبة للمباركة التي تلقيناها، حكم أننا غير جديرين باستلام المزيد، وفي الحقيقة بما أنه لا القوة والنصر يعيشان طويلاً من دون الرب، وبسبب ذنوبنا التي بأشكالها المتنوعة الدنسة التي أغضبت صانع خلاصنا، أقدم بعض أبناء الشيطان، المتسترين خداعاً تحت العقيدة المسيحية، على الاقتراح علينا في أن ننطلق ضد السلطان مع جميع قوى جيشنا، وكان متمركزاً قرب بعض الحصون القريبة مع حشد عظيم من المسلمين، كان كبيراً بقدر رمال البحر التي لايمكن عدها، لكن على أمل منا أن الأمور سوف تسير وتنفذ من الرب مولانا وفقاً للرأي العام للحجاج، انطلقنا ضد أعداء الايمان، وبدون تدبر تركنا دمياط من دون دفاع، وعندما رأى السلطان بعد ثلاثة أيام فرار الحجاج، تظاهر من جهته بالفرار، وبشكل مخادع ترك معسكره حتى يتم نهبه من قبلنا،، وبادر مسرعاً مع جميع قوات مصر إلى دمياط مستخدماً طريقاً آخر، وأقام معسكره في بقعة ضيقة دون المدينة ودوننا، وبذلك لم يعد بامكاننا التراجع أو التداخل معها، انتبهوا كيف حدث تغيير مفاجىء في اليد اليمنى للعلي الأعلى، فقد كنا حتى آنئذ، نتحكم بقوة بأرض مصر، والآن وهو واقف ضدنا طردنا بتعاسة وغدونا فيما بين البرلس وجيزة دمياط، بين الجوع والعطش، فذلك كان اليوم الذي عنه كتب: « ذلك اليوم يوم سخط»الخ (صفنيا: ١/ ١٥) ولايسمح لي الأسف والنحيب والدموع الجارية بوصف الرعب واليأس، والمخاطر الخاصة بالموت، وبما أنه لم يبق

لنا من شيء سوى الموت بشكل تعيس، صرخنا جميعا بصوت واحد نحو السماء إلى ربنا يسوع المسيح، ورجوناه بتواضع العفو والسماح، غير أنه وهو الذي يقول بلطفه :« إني لا أسر بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا» (حزقيال: ٣٣/ ١١)، غالبا ما تذكر وهو غاضب رحمته، ذلك أنه عادل ورحيم، وبما أنه رأى الآن أننا تطهرنا بما فيه الكفاية بالاستغفار وبالدموع الجارية، عطل قسوة وعنف أعدائنا، إلى حد أنهم بعثوا إلينا رسلاً، نحن الذين كنا نتبدد ونضمحل جوعاً، للاتفاق على الصلح والوفاق معنا، وفق الشروط التالية: يمكن للسلطان استعادة المدينة وتملكها بسلام، وأنه سوف يعطينا أماناً إليها لنصل بدون أذى يلحق بنا شخصيا أو بممتلكاتنا، وذلك بتزويدنا بما يكفي من السفن والميرة، وإننا لنعلم أن الرسل قد أرسلوا من قبل الرب، لأنه لم يكن قد ترك لنا أي شيء سوى الموت أو عار العبودية الدائم، وكنا على استعداد لتقبل ذلك، وأن نعود بتواضع لأن نراعي الشكر للرب، وعندما تم إقرار هذه الاتفاقات، وأبرموا من خلال الرهائن والأيمان، تحركت عواطف السلطان نحونا ورحمنا وأشفق علينا، حتى أنه قام لأيام كثيرة بانعاش حشدنا كله ومساعدته بدون مقابل، وأخيراً عندما عرضت قضيتنا عليه وتم اقرارها، اشترى سفناً وميرة بأسعار عادلة، وأعطانا جوازاً آمنا، فمن الذي يمكنه أن يشك أن هذا اللطف، وهذه السماحة، والرحمة لم تأت إلينا من عند الرب؟ فهؤلاء الذين قتلنا آباءهم وأولادهم وبناتهم وأخوانهم وأخواتهم بمختلف أنواع التعذيب ، هؤلاء الذين ضاعت ممتلكاتهم ، أو أننا ألقينا بهم عراة بعدما أخرجناهم من بيوتهم ، ساعدونا على استرداد عافيتنا بوساطة أطعمتهم ذلك أننا كنا نموت جوعاً ، وفعلوا هذا مع أننا كنا في قبضة يدهم وتحت سلطانهم ، وهكذا غادرنا ميناء دمياط مع حزن عظيم وبكاء ، وتبعاً لاختلاف أممنا تفرقنا حتى نهايتنا في النعمة السرمدية

(٢)

المنتقى من مختصر تاريخ القدس

تأليف

جاك دي فيتري

استهلال

ولـد جاك دي فيتري في فيتري ــ سـورسين ، وأصبح كـاهناً شماساً لأرجنتويل Argenteuil في سنـة ١٢١٠ ، وقد جعلـت زيارة لـه لأويني منـه راهباً، وغـدا بعـد أمد وجيـز كـاهنا من كهنـة أوستن في فيلابروك Villebrouik في برابانت .

وما لبث جـاك أن أصبح واحداً من الرجالات القيـاديين في أيامه ، حتى كـان تأثيره على الحركـة الصليبية في القـرن الثـالث عشر ، لا يقل عن تأثير بطرس النـاسك عليها في القـرن الثاني عشر ، وقد جـاء هذا بشهادة معاصريه ، وهكذا قال ايتين بوربون:

<<predicaindo totam commovit franciam, quad non putat memoria aliquem ante vel post sic movisse>>

وما تـزال مواعظ قـداسات دي فيتري موجـودة ، وهي من الصعب أن تثير كثيراً من الحماسـة في هـذه الأيام ، لكن لا يـوجـد أدنى شك حـول نجاحهـا في أيـامهـا ، وبشر دي فيتري أولاً بالصليبيـة ضـد الألبينيين ، ثم أوقف حياتـه على العمل لاسترداد الضريح المقدس ، وتقدمت الاشـارة في كتاب الاستيلاء على دميـاط إلى أدوار جاك دي فيتري في الحملة الخامسـة ، وهي الحملة التـي جاءت إثر عقـد مجمع اللاتيران في ١٢١٥ ، ودعـوة هذا المجمع للحـرب المقدسـة ويقول فللر Fuller : لا بـد أن هذه الـدعوة قـد أنعشت الآمال في رؤيـة إعـادة تأسيس المملكة الـلاتينية في فلسطين ، ونتيجـة لما بذلـه دي فيتري من جهود أجيز بتعيينه أسقفاً لمدينة عكا عام ١٢١٧ .

وكانت هـذه السنة سنة صليبية الملك أنـدور الهنغاري ، التي تم خلالها الاستيـلاء على منطقة الجليل ، لكن غير هـذا كان ما أنجـزته

قليلاً ورافق دي فيتري في السنة التالية الجيش الصليبي لحصار دمياط ، حيث أسهم بالأعمال العسكرية هناك واهتم بتحويل أطفال المسلمين الى المسيحية وتعميدهم ، وهذه الظاهرة نراها الآن علنية للمرة الأولى في تاريخ الحملات الصليبية .

وفي سنة ١٢٢٧ ترك دي فيتري فلسطين ، وذهب عائداً إلى أويني، وقدم في سنة ١٢٢٩ الى روما مرة جديدة ، وهناك تنازل عن رسامته أسقفاً لعكا الى البابا غريغوري التاسع .

وإثر هذا صار كاردينالا وأسقفاً للقدس، ونائباً للبابا في فرنسا وألمانيا، وغدا في آخر المطاف بطريرك القدس ، وقد توفي في روما في ٣٠ نيسان لعام ١٢٤٠ ، وكان ذلك قبل أن يدخل بطركيته.

ويظهر من العرض الموجز المقدم أعلاه لحياة دي فيتري أنه قد ولد في الآونة التي أصيبت فيها الحركة الصليبية بصدمة أخبار تحرير صلاح الدين لمدينة القدس ، ولا بد أنه كان في صغره على دراية بتقاليد الأخبار عن غودفري وتانكرد ، وبقصص أيامه عن فيليب أغسطس ورتشارد قلب الأسد، وكان قبل أن يموت قد رأى القدس مجدداً بأيدي الصليبيين ، علماً بأنه كرجل كنسي قد قدّر الامبراطور فردريك الثاني على أنه مجرد رجل مرتد ، مع أن هذا الامبراطور هو الذي تسلم القدس من السلطان الكامل الأيوبي .

وبناء عليه ، قلة هم الكتاب الذين كان بإمكانهم تصوير مشاعر الصليبيين في تلك الحقبة ، بشكل أفضل من جاك دي فيتري ، ذلك أنه نشأ بين ذكريات الصليبيين ، وعندما صار رجلاً بشر من أجل الحركة الصليبية ، وقاتل مع الصليبيين في كل من مصر وفلسطين ، ومع هذا فإن ما عرفه عن الأرض المقدسة نفسها لم يكن كثيراً بإستثناء ما سمعه عنها ، لأن جلها كان أثناء أسقفيته في أيدي

المسلمين ، ولا شك أن الذي أحسن عرضه هو مشاعر عدم الثقة والكراهية لدى الصليبيين المحليين الدهاة من أبناء الصليبيين القدامى من الحقبة البطولية ، نحو البدائيين الحمقى الجدد التي جلبتهم حملات الحجاج المتوالية ،وقد حفظت لنا نعوت الشتم التي وسم بها كل طرف الطرف الآخر ، وهي : بوليان ، وبولفان ، وأبناء الأبطال Filii Hernaudi ، ولوقت كبير لم يكن هناك اتفاق بين الباحثين حول أصل ومعنى كلمتي : بوليان وبولفان ، لكننا شرحنا ذلك بشكل علمي موثق في الجزء الثامن المتقدم ، هذا وكان السيروولتربيزانت (القدس مدينة هيرود وصلاح الدين ص ٢٧٤ ـ ط . جديدة ١٨٨٩) قد ذهب إلى أن «مناخ سورية سبب تدنياً سريعاً في الشجاعة والقوة لدى العرق اللاتيني »، وهذا الكلام غير مقبول لعنصريته ، ثم من الذي زلزل الأرض تحت أقدام الصليبيين ثم طردهم بعد قرنين غير السوريين ؟ هذا ونجد أن اسلوب جاك دي فيتري ملىء بالنعوت ، وهكذا نراه يولول مثل امرأة غاضبة عندما يعرض شكواه عن عصره ، الذي ربما لم يكن أسوأ مما تقدمه ، ثم إن حدة الهجاء لديه وحرارته قد انتزعت منه معظم قوته .

ومهما كان رأينا باسلوب دي فيتري ، هناك قليل من الشك أنه قد كتب هذا الجزء من الكتاب من خلال معاناته الشخصية ، هذا ولا يمكننا قول الكثيرعن البقية كما أنه من الصعب تبيان كم من الوصف الطبوغرافي لديه هو أصيل ، أما تاريخه فقد اعتمد فيه الى أبعد الحدود على تاريخ وليم الصوري ، وتظهر مجموعته من الحكايات والأساطير التي أوردها في نهاية تاريخه المختصر أنه امتلك شهية لا تعرف الحدود وشرهاً نحو «العجائب» وأنه كان بلا مؤهلات نقدية مهما كان نوعها .

لقد كان مؤلف جاك دي فيتري كبيراً ، وقد ضاع منه جزء كبير ،

كما أن بعض الفصول التي وصلتنا ، تسلمناها مبتورة ، ومن المقدر أن ما ضاع من الكتاب لم يؤثر عليه أو بالحري لم يفقد ما وصلنا قيمته ، فالذي ضاع تعلق بفضائل القدس وفلسطين وبمكانتهما عند المسيحيين ، مع أوصاف جغرافية وطبوغرافية ، ونظراً لنقله عمن تقدمه فقد وقع في أخطاء كثيرة بالنقل لفقدانه القدرة على النقد والتدقيق كما أشرنا أعلاه ، يضاف الى هذا أنه مع عقليته الخاصة وتكوينه اللاهوتي كتب تاريخه في الغرب وقد تقدمت به السن ، ومع هذا ظل هذا الكتاب على ما له وما عليه وثيقة من أهم وثائق القرن الثالث عشر ، يفترض بالباحث والقارىء الاطلاع عليها والتعرف الى محتواها .

تاريخ القدس

تصنيف جاك دي فيتري

(أسقف عكا . كاردينال أسقف توسكولم . النائب البابوي في فرنسا وألمانيا . بطريرك القدس)

- ٢٠٧٩ -

يبدأ هنا التاريخ المختصر للقدس

اختار الرب أرض الميعاد المقدسة ، وأحبها ، وبجلها بوساطة الملائكة المقدسين وجعلها موضع اعجاب العالم أجمع ، لأنها المفضلة من قبل الرب ، فهو جعلها تشع بحضوره فيها بالجسد ، وبناء عليه توجب إنقاذ الجنس البشري بوضعه للقرابين التي جعلنا بوساطتها أحراراً ، وعلى هذا أحب الرب هذه الأرض بمودة أكثر من الأراضي الأخرى ، وكان أن شاء الرب أن تتعرض هذه الأرض الى الكثير من المحن بسبب ذنوب الناس ، وأن تكون عرضة لمختلف الإضطرابات من قبله الذي حرم علينا إعطاء الأشياء المقدسة الى الكلاب أو رمي اللآلي أمام الخنازير ، ولقد آلت ملكيتها الى كثير من المتملكين ذلك أن بعضهم أتى إليها ، ومضى بعضهم الآخر بعيداً ، لكن نادراً ما قام أحدهم بالتمييز بين الأشياء المقدسة والأشياء المدنسة ، واستخفوا بهذه الأرض المرغوب بها ، ذلك أنها الأرض التي تفيض بالحليب وبالعسل ، ثم إنها أرض مولانا يسوع المسيح ، والآباء المقدسين ، والأنبياء والرسل ، ولقد دنسوها بمختلف أنواع النجاسات ، حتى تحقق بذلك ما تفوه به الرب بلسان النبي بقوله :« إن الذي يمسسك بسوء يمس بؤبؤ عيني » (زكريا : ٢/ ٨)،لأن العين تحب وتقدر أكثر من أي عضو من أعضاء الجسد ، ولهذا عندما يقع وسخ ما في العين نبادر مسرعين ، باذلين أقصى جهودنا ، لإزالة هذا الوسخ ، وهكذا فعل مخلصنا ، عندما أوجع ، وجلد ، وطرد المذنبين الذين سكنوا في الأرض المقدسة التي أضفى عليها امتياز حبه الخاص ، ويكون بعمله هذا قد طهرها من دنس ذنوبهم ، وعندما يتوبون وتتحول قلوبهم مرة جديدة ، يعيدهم هو برحمته الى الوضع نفسه ، ذلك أن العمق يدعو الى العمق ،أي أن عمق البؤس يدعو

الى عميق رحمته ، ولكي نبرهن على صحة ما ورد أعلاه نسوق بعض الأمثلة القديمة : كان ملكيصادق ، كاهن العلي الأعلى ، ملكاً على سالم ، التي باتت فيما بعد حسبما يعتقد غالبية الناس ــ تعرف باسم القدس (أور ــ سالم) ، وذلك حسبما نقرأ في سفر التكوين ، وقد تملك غالبية القدس من بعده ملك اليبوسيين ، وظلت بأيديهم حتى أيام داود ، وكان عندما وصل ظلمهم الى الغاية القصوى ، أحال الرب الى أيدي أبناء اسرائيل المدينة المقدسة والمكان الذي كرسه لنفسه خاصة ، وذلك حتى يتعبدوه هناك ، ويقدمون الأضاحي من مختلف الأنواع ، وهي كلها سوف تجسد التضحية الأعظم التي لا يمكن وصفها .

لكن فيما بعد عندما تضاعفت ذنوب سكانها، وباتت أكثر حتى من رمال البحر، وذلك في أيام الملك صدقيا، والنبي إرميا، سقطت في أيدي البابليين وظلت تحت سيطرتهم لمدة سبعين سنة.

- ٢٠٨١ -

الفصل الحادي والعشرون

بعد تخليص المدينة المقدسة وتحريرها، عاد كثير من قومنا— وقد وفوا بنذورهم وحققوا رغباتهم— وهم يشعرون بالبهجة، إلى أوطانهم، وعرف رجال كثيرون وذوي مكانة عالية، وأدركوا بشكل حكيم أنهم لايمكنهم الحفاظ على المدينة مالم يتمكنوا من توسيع حدودها، وإبعاد الأعداء عن حدودها وطردهم إلى أماكن قصية، ولهذا اختاروا البقاء هناك وسط المخاطر العظيمة وفضلوا ذلك على التخلي عن المدينة، وبذلك كانوا يقدمون أضحياتهم إلى الرب، ويقومون بتنفيذ أوامره، بإعطائه ليس الرأس فقط لكن الذيل أيضاً، وكانوا— على كل حال — عددهم قليل، مقارنة بالأمم التي أحاطت بهم، وكانوا مطوقين من جميع الجهات بحشود هائلة من غير المؤمنين، منهم العرب، والمآبيين والعمونيين في الشرق، والأدوميين والمصريين والفلسطينيين في الجنوب، وفي الغرب حيث المدن الساحلية: عكا، وصور، وطرابلس والمدن الأخرى حتى أنطاكية، وفي الشمال قيسارية فيليب، ومنطقة الأسقفيات العشر، ودمشق،ومع هذا لقد آثروا تعريض حياتهم للخطر في سبيل المسيح على التراجع بعدما وضعوا أيديهم على المحراث، وبالتالي أن يتركوا العمل دون أن ينتهي، والآن لم ينظر هؤلاء الرجال المقدسون نحو الخلف أثناء مضيهم نحو الأمام، بل نسيوا الأشياء التي كانت خلفهم، ووصلوا في الأمام إلى الأشياء التي مازالت تنتظرهم، ورأوا أن ما من شيء قد أنجز طالما بقيت أشياء لم تنجز، وكان الرب معهم يرشدهم ويقويهم، ويلقي الرعب الشديد في قلوب الكفار من حولهم، إلى حد أن واحداً منهم كان بإمكانه أن يطارد ألفاً، وبإمكان اثنان منهم مطاردة عشرة آلاف، وبناء عليه لم يعلقوا آمالهم على شجاعتهم أو عددهم، بل على حماية الرب، وهكذا كانوا يحملون معهم أثناء القتال راية الصليب المنقذة، وبذلك

أمكنهم إلحاق الهزيمة بأعدائهم، فقسم من هؤلاء الأعداء قتلوه وقسم أخذوه أسرى، وربحوا من أجل المسيح أقوى المدن، والقلاع التي كانت لاترام حصانة، وانتزعوا الأرض المقدسة من قبضة الكفار بشجاعة متكافئة ونجاح.

الفصل الثاني والعشرون

في أول انطلاقة لهم، وقف الصليبيون أمام مدينة يافا على شاطىء البحر، وبعنف استولوا عليها عنوة، وكانت الغاية من ذلك أن يتمكن، الذين قدموا مبحرين من بلدان ماوراء البحر، من تقديم العون للحشد الصليبي، لدى امتلاك هذا الحشد مرسى خاص بهم لسفنهم، حتى يمكنهم الركوب من تحت أسوار المدينة المتقدمة الذكر، يضاف إلى هذا كانت هناك الرملة، التي يدعوها بعضهم باسم راماثاRamatha ، والتي هي واقعة وسط سهل، وكانت مدينة عظيمة، مليئة بالسكان، محاطة بسور حجري ممتن بأبراج عالية، وكانت هناك أيضاً حيفا، التي اسمها الآخر هوبورفيريا Porphyvia (كذا والصحيح أن بوفير ليست حيفا، بل تبعد عن صيدا ثمانية أميال إلى الشمال منها)، وتقوم حيفا على شاطيء البحر، عند بداية سفح جبل الكرمل، على بعد حوالي الأربعة أميال عن عكا، ومثل هذا هناك مدينة طبرية في الجليل، القائمة على بحر جنسارث، ومن اسم طبرية بات هذا البحر يعرف ببحر طبرية، وبشكل عام باسم بحر الجليل، هذا وجرى الاستيلاء على هذه المدن من قبل شعبنا، في السنة الأولى بعد الاستيلاء على القدس، وكان يقوده غوردفري، الدوق الشجاع.

- ٢٠٨٣ -

الفصل الثالث والعشرون

وخرجت في أواخر تلك السنة روح غودفري من جسده، وجرى اختيار أخاه بلدوين لخلافته، وذلك باجماع عام، وكـان فارساً شجاعاً في القتال، مدربـاً وصاحب خبرة بالحرب منـذ طفولتـه، وجرى تعميده ملكـاً، ولقد كـان رجل حرب، وحكيماً، وحـريصـاً في إدارته لأعمالـه، متشـوقاً بشـدة لتوسيع حدود مملكته الصغيرة، وبمساعدة الجنويين، الذين رسا اسطولهم في ميناء يـافا حوالي بـداية الربيع، استـولى على بلدة أرسوف القـائمة على طرف البحـر، وهي أيضـا تعرف باسـم أنتبارتس نسبـة إلى أنتبارتـر، والد هيرود، وهي قائمـة فيها بين يافا وقيسـارية في مكان بهي، تكتنفه غـابات كثيفة ومروج خصبة كثيرة الأعشاب.

الفصل الرابع والعشرون

وقام بعـد هذا، بمساعدة الجنـويين المتقدم ذكرهم بمحاصرة قيسـارية الفلسطينية من كل من البحر والبر، واستولى عليهـا، وكانت قيسارية هذه تـدعى من قبل بـرج ستراتـو وقد أعـاد هيرود الـذي ذبح الأطفـال عمارة قيسـارية على شرف قيصر، وهي قـائمة على طـرف البحر، لكنهـا لاتمتلك مينـاءً موائماً، هـذا وفيها وفـرة من الحدائق والمراعي والمياه الجاريـة، وهي المدينة الـرئيسية في فلسطين الثـانية (الصحيح الأولى لأن بيسـان حاضرة الثانيـة)، وفيها سجن القديس بولص الـرسول لمدة طويلة، وقـدم التماساً حتى يسمح له بالذهاب إلى روما.

- ٢٠٨٤ -

الفصل الخامس والعشرون

وقام الملك بلدوين المتقدم الذكر، بعدما استولى على قيسارية، بقيادة جيشه المحتشد كله من المهمة الصغرى إلى المهمة الكبرى، وألقى الحصار علي عكا، لأن عكا كانت أكثر مواءمة لإستقبال الحجاج، وتمتلك ميناءً جيداً، يهيء ملاذاً آمنا للسفن، وهاجمها الجنويون من طرف البحر مع سبعين من الغلايين، وضغط عليها قومنا من جانب البر بشدة وبدون توقف، وبعد عشرين يوماً، عندما وجد سكانها أنفسهم غير قادرين على متابعة تحمل الهنجمات الحادة والمتوالية التي قام بها قومنا، سلموا المدينة إلى الملك، بشرط السماح لهم بمغادرتها ومعهم مقتنياتهم، وتمتلك هذه المدينة المتقدمة الذكر اسمين هما بتولماس Ptolemias، وعكا، وذلك بسبب أن أخوين، اسم أولهما بتولمي والآخر عكون قد أسساها كما قيل، ومن ثم حملت اسميهما، وهي قائمة فيما بين البحر والجبال، ومبنية على موقع موائم على ضفة نهر بليوس Belus (النعامين وقبل ذلك بعل)، وفيها حدائق كثيرة، وكثيراً من الكروم، ويحيط بها كثير من الأراضي الصالحة للزراعة، وهي قائمة في مقاطعة فينيقيا، ومدينة صور مركز مطرانيتها.

الفصل السادس والعشرون

وقام شعبنا إثر هذا بالقاء الحصار على مدينة بيروت بوساطة البحر والبر، وقد انضم إليهم برترام كونت طرابلس النبيل، وبعد شهرين من الحصار، أمكن جلب أبراج خشبية ودفعها نحو الأسوار، وإلصاقها بها بوساطة السلالم، وبذلك تمكن الصليبيون من شق طريقهم إلى داخل المدينة، فقتلوا عدداً كبيراً من السكان، ووضعوا البقية في الأصفاد

وجعلوهم أسرى لديهم، وبيروت مدينة قائمة على شاطىء البحر بين صيدا وجبيل، في بلاد فينيقيا، ومدينة صور هي مركز مطرانيتها، وهي مدينة جميلة وخصبة، وفيها أشجار فواكه وكروم، وهنا حدث أن صلب اليهود تمثالاً خشبياً للمسيح استخفافاً وسخرية به، وعندما خرق من قبلهم بوساطة مسامير وحربة، تدفق الدم منه بغزارة، ولدى رؤية هذه المعجزة قام جميع اليهود بطقوس التعميد.

الفصل السابع العشرون

وفي السنة نفسها التي جرى الاستيلاء بها على بيروت لم يكن الملك كسولاً، فهو لم يتسلم نعمة المسيح عبثاً، ولهذا استطاع أن يضع مدينة صيدا تحت سلطانه، بذراع قوية، وسلاح ماضٍ، وأرغم السكان، بعدما عجزوا عن مقاومته، على التخلي عن مدينتهم وتسليمها إليه، ومدينة صيدا قائمة في مقاطعة فينيقيا، على شاطىء البحر، بين صور التي هي حاضرة المقاطعة، وبيروت، وفيها أشجار فاكهة وكروم، وغابات وحقول، بعضها مراعي وبعضها الآخر قابل للفلاحة، ولهذا كان السكان يستفيدون من ذلك كثيراً، وتلطف المولى يسوع بشخصه فزار حدودها، وذلك حسبما نقرأ في الانجيل (متى:١٥)، وقد مضى يسوع من هناك، وخرج متجولاً في سواحل صور وصيدا، وفي سفر الملوك الثاني (كذا) قال سليمان لحيرام: «لأنك تعلم أن ليس فينا مع يعرف ينجر الخشب مثل الصيدونيين». (الملوك: ١/ ٥/ ٦).

الفصل الثامن والعشرون

والآن بعدما مدّ الملك حدود مملكته في الجانب الغربي حسبما حكينا، رغب في توسيع المملكة الصليبية إلى ماوراء الأردن في الشرق، فبنى قلعة

غاية بـالقوة على جبل مرتفع في العربيـة الثالثة التي تعرف بـاسم سورية صوبال (أي صوبا) ودعيت هـذه القلعة مونتريال (الشوبك) لأنها بنيت من قبل الملك، وهي غنية بـالقمح، والخمرة والـزيت، وهي محط إعجاب لجمالها ولصحة مناخها، ويمتد سلطـانها فوق المنطقة المحيطة، لابل حتى حدود مُآب، ومياه الحسي Strife .

الفصل التاسع والعشرون

ومضى في السنة نفسها الملك بلـدوين، صاحب الذكرى المبـاركة أبداً على طريق جميع الأجسـاد، وذلك بعدما بنى حصنا في مكـان قام فيما بين عكا وصور، ويعرف هذا المكان عمومـاً باسم اسكندرونة، وهو مكان كثير المياه على بعد خمسة أميـال من صور، وقد دفن بكل تبجيل، يليق بعظمته الملكية، عند سفح جبل الجمجمة، في مكـان يعرف باسم الجلجلة، وكان خليفتـه نبيلا، ورجـلاً شجـاعاً، صـاحب ممـارسـة للحروب، ومتـدين ، ويخاف الرب، واسمه بلـدوين دي بيرغ، وقد كان من مملكة فـرنسا، ومن أقرباء الملك المتقدم الذكر.

الفصل الثلاثون

قد يحتاج الأمر وقتاً طويـلاً، ولربما سيكون فوق مقدرتي الفقيرة أن أبين ما هية القوة والعظمة، وأن أوضح أية أصـالة وأي نشاط حمل فيها الرجل المتقدم الـذكر نفسه، وجنـود المسيح الآخرون أنفسهم في كل منـاسبة من المناسبـات، فكانـوا بمثابـة جيل ثانٍ مـن المكابيين، وقـد كرسـوا أيديهم للـرب في تـوسيع رقعـة المملكـة والحدود الصليبيـة، وفي قتـال الأعـداء، والاستيلاء عنوة على المدن الحصينة والأماكن القوية، ولسوف تروى أخبار معـاركهم وانتصـاراتهم في جميع كنـائس القديسين حتـى نهاية الـزمـان،

ودعونا نتكلم بلطف وباختصار عن الدويلات الأربعة النبيلة، وهن اللائي تحكم بهن لمدة طويلة الجنس الدنس من الكفار، واللائي بعون الرب عدن إلى سلطان كنيسة المسيح، وأولهن كونتية الرها في بلاد الميديين، وهي تبدأ عند غابة اسمها مرثيا Marcitha (مرعش؟) وتمتد حتى ما بعد نهر الفرات باتجاه الشرق، وتشتمل في داخلها على عدد كبير من المدن، مع كثير من القلاع والأماكن الحصينة .

الفصل الحادي والثلاثون

الرها مدينة نبيلة، وهي حاضرة الميديين، وكان اسمها القديم حسبما نقرأ في سفر توبيت راجس Rages ، وتعرف الآن بشكل عام باسم رواس Roasse ، ومنها كان توبيت قد أرسل ابنه إلى جبائيل من مدينة نينوى، التي تعرف في هذه الأيام باسم الموصل، أو موصي Mosse في العامية، وتحولت هذه المدينة إلى المسيحية بوساطة ثيودورك الرسول، وذلك بفضل تبشيره ومعجزاته، وفيها كما قيل دفن الجسد الطاهر للقديس ثاديوس thaddaeus الرسول، وحكم هنا تبعاً لما جاء في مختلف المصادر التاريخية القديمة، والتاريخ اللاهوتي، الملك أبجر، في أيام المسيح، ولدى سماعه، واندهاشه بالأعمال الرائعة للمسيح، وبالمعجزات التي لم يسمع بمثلها التي كان المولى يسوع يقوم بها في اليهودية، بعث إليه برسالة، تنازل مولانا وتلطف بكتابة جواب لها، وكانت هذه المدينة القديمة والنبيلة مملوكة من قبل اللورد بلدوين، أخو الدوق غودفري، قبل استدعائه إلى مملكة القدس، وقد قام هو وخلفاؤه الذين جاءوا من بعده بطرد المسلمين منها، وجعلوا جميع منطقة الرها تحت سلطانهم، وهذه المنطقة غنية جداً بغاباتها ومراعيها وأنهارها، وحملت هذه البلاد اسماً خاصاً بها هو الجزيرة، أو بلاد ما بين النهرين، لأنها قائمة في الوسط ما بين نهرين، (ميزوبوتاميا)، ذلك أن كلمة «ميزو»

في الاغريقيـة تعني «الوسط» و« بوتومـاس» أيضا بالاغريقيـة هي الكلمة التي معنـاها النهـر، وتوجـد في هـذه المنطقة مـدينة حـران، حيث سكن ابـراهيم، عندمـا جاء من (أور) الكلـدانيين، وذلك قبل ذهابـه إلى أرض الميعاد، ولهذه المنطقة المتقدمـة الذكر ثلاثة رؤساء أساقفـة، أحدهم للرها، والآخران لجيروبـولس Geropolis ولكوريكـوسCorieus، وهم تحت سلطان بطريرك أنطاكية.

الفصل الثاني والثلاثون

وكـانت الإمـارة الثـانيـة هي إمـارة أنطاكيـة، وحـاضرتها هي مـدينـة أنطـاكية، وتمتـد حدودهـا غـرباً حتى طـرسوس في كليكيـا، مسقط رأس بولص الـرسول، وحـدها الشرقي هو النهـر الذي يجري بين بـانياس Va-lenia (الساحل) تحت قلعة المرقب، ومرقية Maraclea (نبع حسان قرب الرمال الـذهبية خارج طرطوس)، وهما مدينتـان على شاطىء البحر، وكان الاسم القديم لمدينة أنطاكية هو ربلة *، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملـوك الرابع، حيث ورد أن زكـريا ملك القـدس قد حملـه نبوخـذ نصر، ملك بابـل، إلى ربلة، وأنه ذبح ابنـه أمام عينيـه، واقتلعوا عينـاه بناء على أمر الملك السالف الـذكر، أي ملك بابل، ونالت بعـد ذلك اسم أنطاكية من الملك أنطـوخيوس، الـذي وسعها كثيراً، وجعلهـا المتقدمـة والحاكمة لجميع مقـاطعات الشرق، وبعـدما تحولت إلى الإيمان بـالرب من خـلال تبشير القـديس بطـرس ومعجـزاتـه، والقـديس بطـرس الـذي هـو أمير الحواريين، كـان أول من تسلم الأسقفيــة فيهـا، ثم أطلق عليهـا اسم ثيوفيليس Theophilis، من خلال اسم ثيوفيلوس Theophilus، وهو نبيل ومواطن قـوي، تمت سيامته فيما بعد ليكون الأسقف السـابع هناك،

*— وهم المؤلف فربلة قائمة على العاصي فيما بين حمص وبعلبك.

وهكـذا فإن المدينة التي نـالت اسمهـا أولاً من ملك كافـر، حصلت على اسمها الجديـد من خلال رجل مقـدس ومتدين، وهـو ثيوفيلـوس، الذي كرس القديس لـوقا الرسول— الذي جاء من المدينـة نفسها— له أعمال الرسـل، وفي هذه المدينة تلقى للمـرة الأولى أتباع المسيح الاسـم المقدس الذي أطلق عليهم من قبل الـرب نفسه وبلسانه، وبـاتوا يعرفون بـه منذ ذلك الحين، وهــو اسم المسيحيين، الـذي اشتق مـن اسم المسيح، حيث كانـوا يعرفون من قبل باسم الجليليين والحواريين(*)، ويحتل هـذا المكان المقام الثالث بـالنسبة لكنائس الرب والكراسي الرسـولية، وتحت سلطان بطركها عشرين مقاطعة، أربع عشرة منهـا في الجزيرة تدار من قبل أساقفة مسـاعـدين، أمـا الست البـواقـي فتـدار من قبل رئيسين يحمل كل منهما لقب جاثليـق، أحدهما هو جـاثليق مدينـة السلام أو بغداد، التـي عرفت من قبل بـاسم بـابل، أمـا الأخـرى فهي آن An، التي تعـرف أيضـــا بـاسم أبـرشيـة فارس، وتقـوم أنطـاكيـة في منطقـة تعرف بـاسم سـوريـة المجوفة، في مكـان موائم جداً، بين الجبال والانهار، وتمتلـك حقولاً خصبة جداً وتـربة صـالحة، وهي محلاة بأنهار منفردة وينـابيع مياه، وإلى جـوارها بحيرة فيهـا وفـرة من الأسماك، وهـي على بعـد عشرة أميـال أو اثني عشر ميلاً عـن البحر، ولها مرفـأ عند مصب نهر العاصي يـدعى ميناء القـديس سمعـان (السويـدية)، وهنـاك إلى الشمال منهـا جبل يعرف بـاسم «التل الأسود»، ملىء بالرهبان والنساك من كل ملة وجنس، مع كثير من الديرة

*— المشهـور أن بولص (شـاول) الرسـول بعـدما سيطـر على الكنيسة، قـال لأتباعـه في أول اجتماع عقده لهم : «أنتم أول النصارى وآخر الجليليين»، ومن المرجح أن معنى كلمة نصراني هو غنوصي— وذلك اعتماداً على وثائق الـرها لمطلع القرن الميلادي الاول، وقيل حـديثاً: اشتق الاسم من نقـابـة للصيادين وجـدت في خليج العقبـة وكـانت تصطاد هنـاك سمكـاً حمل اسم نصراني، ويـربط بعضهم الآخـر هذه التسميـة بـالصابئـة الـذي سمـوا أنفسهم النصارى، وربطـوا ذواتهم بيوحنا المعمدان.

رهبانها من النوعين الاغريقي واللاتيني، وبما أن هذا التل مليء بالمياه الصادرة عن الغدران والينابيع، فهو يعرف باسم جبل نيروNeros، أي المائي لأن كلمة نيرو بالاغريقية تعني ما تعنيه كلمة ماء باللاتينية، لكن الجهلة من العامة يدعونه «نوار» Noire، أي الاسود، في كلامهم الدارج.

الفصل الثالث والثلاثون

والإمارة الثالثة بين الإمارات الأربع المتقدمة الذكر هي كونتية طرابلس، التي تبدأ عند الغدير المتقدم الذكر، الذي يجري تحت قلعة المرقب، وتنتهي عند الغدير الذي يجري بين جبيل وبيروت، وهما مدينتان قائمتان على شاطيء البحر، وطرابلس مدينة نبيلة وثرية قائمة على شاطيء البحر، في مقاطعة فينيقيا السورية، وهي قائمة في مكان مناسب، في موقع موائم جداً، يُسقى بوساطة مجاري المياه والينابيع، وهي غنية بالقمح، وبأشجار الفواكه، وبالمراعي الخضراء، وتتمتع بمنافع كبيرة من مجاورتها لجبل لبنان، وتلاله المنتشرة، وينبع عند سفح جبل لبنان في هذه الأجزاء نبع فائق (نهر قاديشا) الجمال بمياه نقية جداً، تتدفق من خلال ممر تحت الأرض في لبنان، وتسقي بوفرة جميع حدائق الكونتية، ولقد قالوا بأن هذا هو نبع الحياة الحية، الذي أتى سليمان على ذكره في نشيد الانشاد (٤/ ١٥)، وقرب هذه المدينة ينابيع مياه عذبة تتدفق بغزارة بين أمواج البحر المالحة والمرة، وهنا أيضاً كروم تحمل ثمارها مرتين في العام.

وحوصرت هذه المدينة الجليلة لمدة طويلة بعد الاستيلاء على القدس، والذي تولى ذلك هو ريموند (صنجيل) كونت طولوز، وكان رجلاً جديراً بالثناء في كل شيء، وفارساً شجاعاً، وعبداً تقياً للرب، وقد بنى قلعة إلى جانب المدينة حتى يتمكن بمواءمة أكبر من محاصرتها، وأطلق على هذه

القلعـة اسم قلعة (تلـة) الحجاج، ومـا تـزال تحمل هذا الاسم حتى هـذا اليوم لأنها بنيت من قبل الحجـاج، وتابع ابنـه برترام الحصـار بعد وفـاته، وتمكن بعـد سبع سنـوات من الاستيلاء على المدينـة بـاستسلام سكـانها، وتسلمهـا بمثابـة اقطاعيـة من ملك القـدس، الذي كـان مـوجوداً أثنـاء الاستيلاء على المدينة، والذي أصبح هو الرجل التابع له.

الفصل الرابع والثلاثون

والدويلة الـرابعة هي مملكة القدس، التي تبـدأ عند النهر الصغير(نهر ابـراهيم) المتقـدم الـذكـر، الـذي يجري فيها بين جبيل وبيروت، وتنتهي بالقفار المتجهة نحو مصر، فيها وراء قلعـة تدعى الدارون (دير البلح)، وتمّ نيل مملكـة القـدس من أجل المسيح بعد جهـد كبير وسفك دمـاء كثيرة، ولقـد تمّ استردادهـا من قبل الأبطـال المنتصرين ورفـاق الـرب، الـذين حزمـوا أوساطهم بشـدة، ومتنوا أذرعتهـم، وطردوا أعداء الايمان بـالمسيح من دان حتى بير السبع، وأخرجوهم من الأرض المقدسة.

الفصل الخامس والثلاثون

ومدينة دان التـي هي الحد الشمالي لأرض الميعاد، مدينة قـديمة جداً، وهي قائمة عنـد سفح جبل لبنان بينه وبين دمشق، وكـان اسمها القديم هو لشم، لكن بعـدما استولى عليها أبنـاء دان، باتت تدعى بكل بسـاطة «دان»، وعلى كل حال وسعهـا فيها بعد فيليب الطيطراخ، الـذي كان ابن هيرود الأكبر، وسماها قيسـارية فيليب تكـريماً للقيصر تايبيروس، وتـدعى أيضـاً بـاسم بانيـاس، ويطلق عليهـا الآن بـالدارجـة اسم بلنيـاس(*)،

---

*— يعرف الآن موقع دان باسم تل القاضي، حيث أقام الاسرائيليون عنده مستعمرة سموها دان.

وتدعى الغابة المجاورة لها أيضاً باسم بانياس، لكن في القديم كانت هذه الغابة وبقية الغابة قرب جبل لبنان تدعى غابة لبنان.

الفصل السادس والثلاثون

وتشكل بير السبع الحد الشمالي للأرض المقدسة، وتقع بير السبع في جزء اليهودية الذي صار حصة لسبط شمعون، وتقع عند سفوح الجبال القائمة عند بداية السهل فيما بين عسقلان والجبال، وذلك على بعد عشرة أميال عن عسقلان، ومعنى اسمها وتفسيره «بئر المعاهدة» أو «معاهدة البئر»، لأن إبراهيم حفر البئر في هذا المكان، ليكون شاهداً على المعاهدة التي أقامها مع الملك أبيمالك، وتدعى أيضاً باسم بئر السبع (رقم سبعة)، ويطلق عليها في أيامنا هذه اسم جبلين(*).

الفصل السابع والثلاثون

إنها لمهمة صعبة، وأكبر من طاقتي، أن أعرض وأبين البراعات في القتال، وأعمال توسيع حدود المملكة الصليبية، التي تمّ انجازها بعون الرب من قبل جنود المسيح الأماجد، وهم أصحاب الذكرى المباركة، وكان جند المسيح هؤلاء، الذين دعيوا عن جدارة باسم المسيحيين، قد تمتعوا بموهبة الشجاعة ونالوها من عليين، ولقد قاتلوا لوقت طويل ضد المسلمين تحت قيادة مختلف الملوك، وحصلوا على جميع المدن والأماكن الحصينة من عند مدينة بلبيس، وهي تعرف أيضاً باسم بليسيوم(**) القائمة في البرية على حدود مصر، وتمتد حتى إلى الرها

*— هذا وهم فجبلين هي جبرين، وجبرين غير بئر السبع.

**— بليسيوم كانت قائمة على الساحل في حين قامت بلبيس على خط قناة قديمة من النيل إلى بحيرة التمساح.

وحرّان، وحـدود كونتية الرهـا فيما وراء نهر الفرات، في بلاد الجزيـرة، ونال كثير منهم تـاج الشهـادة الحلـوة، ووسعـوا كثيراً حـدود مملكـة القـدس والمسيحية بسفك دمائهم، في حين ضمـوا إلى البلاد عدداً كبيراً من المدن والبلدات والأماكن الحصينـة واستحوذوا عليها ووضعوهـا في أيديهم، أما من جهـة البحـر، فهم لم يتركـوا مدينـة أو حصنـا فيما بين المدينـة المسماة الفـرما، القـائمـة على حدود مصر، ومملكـة القـدس حتى إلى اللاذقيـة في سورية، ولم يقيموا السلطة الصليبية فيها.

الفصل الثامن والثلاثون

الفرما (الآن تل الفرما، وهي بليسيوم القـديمة) مدينة قديمة جداً على شـاطىء البحـر، وهـي ليست بعيـدة عن مصب نهر النيـل، من حيث يدخـل الانسان إلى مصر، وكان بلـدوين، الملك اللاتينـي الأول للقدس، قـد استـولى عليهـا عنـوة، وحصل على عـدد كبير من الأسرى، وكثير من الأسلاب له شخصياً ولأتباعه الجنود.

الفصل التاسع والثلاثون

وتأتي وراء الفـرمـا مدينـة قـديمـة أخـرى، قـائمة وسط البريـة قـرب شاطىء البحر،وتدعى لاريس (رمسيس)، والـذي يليها هو مدينة بلبيس، والتي جاءت تسميتها عند الأنبيـاء باسم «بليسيوم»، وهي على بعد خمس غلوات عن شـاطىء البحر، وأقـام شعبنا سلطانـه ومدّه فـوق هذه المدن المتقـدمة الـذكر، مع أنها كـانت فيما وراء حـدود مملكة القـدس، أي أنها بعيدة جداً خلف أقصى حصون المملكة باتجاه مصر.

– ٢٠٩٤ –

الفصل الأربعون

تقوم الدارون، وهي حصن أو بلدة على الحدود بين أدوم وفلسطين، على بعد خمس غلوات عن البحر ، وقد بنيت هذه القلعة من قبل عموري ملك القدس، على مكان مرتفع بعض الشيء، وبشكل مستدير، وبأربعة أبراج، وكان في هذا الموقع فيما مضى دير للرهبان الاغريق، ولهذا احتفظ باسمه القديم« الداروم» الذي معناه «دير الروم»، وتأتي غزة تلو ذلك، وهي مدينة قديمة جداً، وتبعد أربع غلوات Stadia عن الحصن المتقدم الذكر، وقد كانت فيما مضى واحدة من مدن فلسطين الخمسة، وكان بلدوين، الملك الرابع للقدس قد وجدها مخربة وبدون سكان، فأعاد عمارتها على جزء من التل المرتفع، حيث قامت المدينة السالفة الذكر، وعندما إكتمل شطره من العمل تماما وانتهى، منحها إلى أخوانية فرسان الداوية، منحة أبدية، بغية الاحتفاظ بها والدفاع عنها ضد أعدائنا، وهي أيضاً تبعد عشرة أميال عن عسقلان، التي كانت أيضاً إحدى المدن الفلسطينية الخمسة، وهي قائمة على شاطىء البحر، وهي على شكل قوس، أو نصف دائرة، والوتر ممتد على طول شاطىء البحر، وعلى الجزء المستدير من الجانب البري المتجه نحو الشرق، وكانت هذه آخر المدن الفلسطينية التي بقيت في أيدي المسلمين، قبل أن تؤول إلى مملكة القدس، وذلك عندما تمكن الملك السالف الذكر بعد كثير من المتاعب والمزيد من المصاعب، وبعد حصار طويل، تمكن أخيراً من الاستيلاء عليها، لأنها كانت محصنة بأسوار وبأبراج كثيرة جداً مبنية بشكل دقيق، وكانت ذات شرافات وسواتر دفاعية قوية، وتحتوي على مخزون جيد من السلاح والطعام، وعدد كبير من الرجال المقاتلين، ومهما يكن الأمر، لقد أرغم سكان عسقلان على الاستسلام، بعد تأمينهم على حياتهم ومقتنياتهم.

- ٢٠٩٥ -

الفصل الحادي والأربعون

وتقـوم أسـدود فيها بين عسقـلان ويـافـا، وتبعـد عشرة أميـال عن عسقلان، وهي قائمة على مسافـة غير بعيدة عن البحر، وكانت فيها مضى احـدى المدن الخمسة للفلسطينيين، غير أنها تـراجعت الآن وتقلصت إلى حجم قرية صغيرة، وكانت جـت (عراق المنشية) رابع مدن الفلسطينيين، وهي قـائمة على تلـة غير بعيدة عن اللـد والـرملة، وكـانت قد تعـرضت للتشعيث منـذ مـدة طـويلة، ولاسيما عنـدمـا بنى فـولك، الملك الثـالـث للقدس، من حجـارتها حصنا دعي باسم ابلين (يبنا)، فـوق التلة نفسها، وعهـد بها ووضعهـا تحت تصرف رجل نبيل اسمـه بـالين، الـذي يحمل أحفـاده حتى اليـوم اسم «دي ابلين» نسبـة إلى ذلك المكان، وكـان هـذا المكـان مع أماكـن أخرى، نـذكـر منها بير السبع أو جبريـن(كذا) وبـرج المراقبـة الأبيض(تل الصـافيـة)الـذي يسمى بـاللهجـة العـاميـة«البرج الأبيض)،وهو قـائم على مسافة ثمانية أميـال عن عسقلان،حيث بني من شعبنا قبـل الاستيلاء على عسقلان ليحـد من قحة أهل عسقـلان،ولكبح جـرأتهم وغاراتهم على مملكتنـا، وتدعى خـامس مدن الفلسطينيين بـاسم عقرون(عاقر)،وهي قائمة على شاطىء البحر،ليس بعيداً عن أسدود.

الفصل الثاني والأربعون

وباستثناء المدن الفلسطينية الخمسة السالفـة الذكر،التي نقرأ حولها في سفـر الملـوك الأول،بأن الفلسطينيين جلبـوا إليهـا تـابـوت عهـد الـرب لإصابتهم بداء البواسير،تأتي المدن والأمـاكن الحصينة الأخرى القائمة على شاطىء البحر،نذكر منها:يافـا،وأرسوف وقيسارية فلسطين،وهناك قيسارية تدعى اسم قيسـارية فيليب(بانياس) أودان،ويأتي بعـد هؤلاء بترا انشيسا

بين دورا Districtum أوديستريكتوم (دوستري قرب عثليت) Incisa وكفر ناحوم(أي بين الطنطورة وكفر لام)،وهناك أيضاً مدينة أخرى اسمها كذلك كفر ناحوم على مقربة من بحيرة طبرية،حيث بشر فيها الرب وعمل عدداً من المعجزات، ثم تأتي حيفا أو بورفيريا porphyria، وتأتي بعد هذا عكا أو بتوليمياس Ptolemais ولقد قيل حول هذه الأماكن مايكفي.

الفصل الثالث والأربعون

ويأتي بعد هؤلاء صور،وهي مدينة جليلة وشهيرة،تقوم في عمق البحر،وهي محاطة من كل جانب تقريباً بالأمواج،وتمتلك ميناء مناسباً،وتوفر ملاذاً آمناً للسفن، وصور هي المطرانية والحاضرة لجميع مقاطعة فينيقيا،وهي من حيث الدفاع محاطة بسور ودفاعات وأبراج عالية،وفيها وفرة من الأسماك،ومروية بشكل جيد بالينابيع والغدران ذات المياه العذبة،وهي غنية ومحلاة بالكروم والحدائق، والأشجار المثمرةوحقول القمح،وعلى رابية في داخل أراضيها هناك نبع أو بئر قيل بأن الرب قد استراح عنده،عندما كان منهكاً من السفر،وذلك عندما سار على شاطىء صور وصيدا،ويحتوي هذا النبع على مياه نقية جداً،وهي تتدفق بوفرة،حتى أنها تروي جميع الحدائق،وبساتين البيوت،لابل في الحقيقة جميع المنطقة،وهو الذي أشار إليه سليمان في نشيد الانشاد بقوله:« وبئر مياه حية»(نشيد الانشاد:٤/ ١٥،والنبع هو رأس العين)،وهناك صخرة خارج المدينة،لكن قرب أسوارها يوقرها السكان المحليون ويبجلها الحجاج، لأن الرب قعد عليها هناك كما يقال،ووعظ الجماهير المحتشدة،ذلك أنه لم يرغب في دخول مدينة تابعة للوثنيين،ويحكى أن هذه المدينة القديمة جداً قد تأسست بعد الطوفان من قبل تيراس(حزقيال:٢٧/ ٣)ابن يافث الذي كان ابنا لنوح،وتدعى بالعبرية

باسم«صور»،ونحن ندعوها بالدارجة أيضاً باسم«صور»، وبشأن وقارها وعظمتها ومجدها الذي تمتعت به فيما مضى،هذا واضح من سفر حزقيال،الذي قال عندما تحدث عن صور وذلك بين أشياء أخرى:«ياصور أنت قلت أنا كاملة الجمال.تخومك في قلب البحار»(حزقيال:٢٧/ ٣)ومرة أخرى:«من قضى بهذا على صور،واهبة التيجان،التي تجارها أمراء،ومتكسبوها شرفاء الأرض»(إشعيا:٢٣/ ٨)،وتحدث النبي وذكر المزيد حول ثروتها،وتفوقها وتجارتها ،وكان ملك هذه المدينة أغينور Agenor ، الذي منح ابنه فونكس اسمه لجميع المنطقة، وجاء من هذه المدينة ديدو Dido الذي أسس قرطاج في إفريقية، التي تدعى الآن «المغرب» Marroch ، وكان حيرام أيضاً ملكاً هناك، وهو الذي زوّد سليمان بخشب الأرز من لبنان، لبناء معبد الرب، وهو الذي كان عبده أبديموس Abdimus قد أجاب بعبقرية وروعه على جميع الأحاجي والألغاز التي أرسل بها سليمان الى حيرام ملك صور حتى يجيب عليها، فإن أخفق يتوجب عليه أن يدفع الى سليمان ببعض المغلقات حتى يتولى حلها،أو ليدفع غرامة من المال، ويقول بعضهم بأن مارخولMarchol هو الذي تحاجج مع سليمان على شروط متكافئة،وكان أبو لونيوس واحداً من ملوك المدينة السالفة الذكر،الذي تقرأ أعماله بتوسع في كتب الحكايات العامة،وهنا دفن أيضاً(القديس) أورجينOrigen (١٨٥—٢٥٥م)،وذلك اعتماداً على ماورواه القديس جيروم،الذي قال في رسالته الى بمّاخوسPammachos وأقيانوس Oceanus :«لقد مرّ حتى الآن حوالي مائة وخمسون سنة منذ أن مات أورجين في صور»،وتنتمي الى هذه المدينة المرأة الكنعانية،وهي التي كما قيل نادت المولى يسوع المسيح من أجل ابنتها التي تلبسها الشيطان واستحوذ عليها(متى:١٥/ ٢٢) وذلك تحقيقاً لنبوءة داود التي جاء فيها:«وبنت صور أغنى الشعوب تترضى وجهك بهدية»(المزامير:٤٥/ ١٢)،وهنا كما قيل أيضاً ولد أولبيانUlpian

المحــامـي المتعلم،وقــد قيل بـأن الصــوريين كــانــوا أول من اخترع الحروف،فهـذا مـارواه لـوكـان Lucan لنـا وحكـاه بقولـه:« كــــان الفينيقيون—إن صـدقت الآثار المرويـة— أول من حاول تثبيـت الصوت المنتشر بوساطة شارات بدائية».

ويقــال بأن الصــوريين كــانــوا أول من صنع الصبــاغ الأرجــواني واستخـرجـه من المريقMccrex، والى هـذا اليوم يـدعى أغلى صبــــاغ أرجواني«الصـوري»؛وكان بعدما قـام بلدوين أول ملوك القـدس بحصار هذه المدينـة الجليلة،والمحصنة بشكــل قوي،لمدة أربعةأشهـر، ورأى أنه لم يحصل أية منافع، وأنفق بدون فائدة الكثير من الأمـوال،قام بعد هذا برفع الحصار،عازمـاً على العودة في وقت أكثر موائمـة مع وسائل أعظم، ولكي يتمكن من تضييق الخناق على الصوريين وليزعجهم أكثـر،أعاد بناء مدينة على شـاطىء البحـر بين صـور وعكـا، هي المدينة التـي كان قـد بنـاهـا الاسكنـدر المقــدوني،عنـدمـا كــان يحاصر صـور،ودعيت بسببــه بـاسم الاسكندريـة،غير أن شعبنا يـدعوهـا في هذه الأيـام باسـم سكانـد يلوم، وهذا المكان مـروي بشكل جيد،ويبعد خمسة أميـال عن صور، زيادة على هـذا بنى هيـوج دي سينت أومر،صـاحب طبريـة،قلعـة قويـة جـداً على الجبال المطلة على صـور،بين مدينته ومدينـة صور،وهي تبعد عنهـا مسافة عشرة أميـال،وحملت هذه القلعـة إسم تورون(تبنين)،واستهـدف من وراء ذلك أن يتمكن من هنـاك تضييق الخنـاق على الصـوريين وإثـارتهم عن قـرب قـريب،ومع هـذا يتجنب مـواجهـة هجـومهم، وقـامت القلعـة في منتصف الطـريق فيما بين لبنـان والبحــر،، وهي غنيـة جـداً بـالأشجـار، والكـروم،والأرض المفلـوحـة، وفيما بعـد،عنـدمــا لـذنـوبـه،الملك الثـاني للقــدس،بلــدوين دي بـورغ،أخـذ أسيراً من قبل المسلمين،قــام السيـد بطريرك القدس،مع رؤساء الأساقفة والأسـاقفة وبقية بارونات المملكة مع كونت طرابلس،بـالمعسكرة أمام المدينة ومحاصرتها، وتلقى المسـاعدة أيضاً

من دوج البندقية،الذي هاجم المدينة من جهةالبحر مع حشد من الرجال المسلحين، وكان معه أربعين من الغلايين مع عدد كبير من السفن الكبيرة والصغيرة،وبعدما بذلوا جهوداً عظيمة وسفكوا الكثير من الدماء، وبعدما تولوا حصار المدينة بمختلف أنواع المجانيق والآلات الحربية، أمكنهم في الشهر الخامس من الحصار إرغام السكان على الاستسلام والتخلي عن مدينتهم، وذلك بعدما لم يعد بإمكانهم متابعة تحمل المجاعة،ولقد استسلموا لشعبنا على شرط الحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم، وهكذا أمكن في المائة الحادية عشرة والسنة الرابعة والعشرين لتجسيد المسيح،الاستيلاء على مدينة صور. من قبل المسيحيين، ومن ثم إعادتها الى المسيحية.

الفصل الرابع والأربعون

وتقع فيما وراء هذه مدينة الصرفند على شاطىء البحر،وهي التي تكلم النبي إيليا عند بابها الى المرأة الأرملة التي كانت تجمع الحطب،والتي تضاعف طعامها القليل لأنها عملت خبزاً لرجل الرب،وقد بنى المسيحيون بيعة صغيرة في هذا المكان قرب باب المدينة،ويلي هذا مدن أخرى قائمة على شاطىء البحر،وأولها صيدا،ثم بيروت،ثم بيبلوس التي تعرف في هذا اليوم بشكل عام باسم جبيل،وهي قائمة على شاطىء البحر في مقاطعة فينيقيا،وقد عرفت فيما مضى باسم إيفياEvaea ،لأنه كما قيل قام ايفياس الابن السادس لكنعان بتأسيسها،وقد قال عنها حزقيال:«شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك قلافوك الذين يسدون شقوقك.حكماؤك ياصور الذين كانوا فيك هم ربابنتك»(حزقيال:٢٧/ ٨—٩بتصرف)، ونقرأ مرة أخرى في سفر الملوك الأول— الاصحاح الخامس:«وحجارة مربعة(نحتها الجبليون) وهيأوا الأخشاب والحجارة لبناء بيت الرب»،واستولى برترام كونت طرابلس على

هذه المدينة،وذلك بمساعدة الجنويين مع سبعين من الغلايين،ثم منحها الى الجنويين،ووراء هذه على شاطىء البحر تأتي مدينة اسمها بتروم Botrum لكن اسمها بالعامية بترون،ثم تأتي قلعة اسمها نفين Nephin (رأس شكا)ثم مدينة طرابلس،ثم تأتي مدينة اسمها عرقة،وهي تبعد ميل واحد عن البحر،ثم مدينة أرواد القائمة على جزيرة قرب ساحل البحر،وقد بناها أرادوس بن كنعان،وفيها وجد القديس بطرس الرسول أم القديس كليمنت تسأل الصدقة،وبعدما حولها الى المسيحية،أعادها الى ابنها،وذلك حسبما نقرأ في رحلة ابنها،ولقد أخبرنا أيضاً عن عمودين من الزجاج من روائع الصناعة،قد أقيما في هذه الجزيرة لإثارة اعجاب جميع الناس، ثم تأتي مدينة أنترداوم،التي عرفت بهذا الاسم لكونها تواجه أرواد،لكنها تعرف بالعامية في هذه الايام باسم طرطوس، ولدى مرور القديس بطرس وعبوره لفينيقيا في طريقه من القدس إلى أنطاكية، أسس فيها كنيسة صغيرة كرسها على اسم العذراء مريم المباركة، واحتفل بها بقداس عظيم، وتحظى هذه الكنيسة بتمجيد خاص حتى هذا اليوم، ويؤمها عدد كبير من الناس ويتقاطرون عليها لأن العذراء المباركة قد عملت كثيراً من المعجزات، وأعادت إلى العافية أناساً مرضى جاءوا إلى المكان الذي كرس إليها من قبل الكنيسة البدائية عندما كانت في مرحلة طفولتها، وقد أوضح كثير من الناس أن هذه كانت أولى الكنائس التي كرست للقديسة مريم، وهي موضع احترام وتقدير كبير ليس فقط من قبل المسيحيين بل أيضاً من قبل المسلمين، الذي غالبا ما يجلبون أولادهم إلى الكنيسة السالفة الذكر حتى يتعمدوا، وذلك من أجل أن يعيشوا أطول، أو أن يستردوا صحتهم الجسدية، وحدث بعد الاستيلاء على المدينة المقدسة أن وجد بعض النبلاء وهم يسافرون خلال هذه الأجزاء وهم على طريق حجهم إلى القدس، فقام هنا كونتا بواتو وبليوس مع نبلاء آخرين بانتزاع هذه المدينة من أيدي الأعداء وأعطوها إلى كونت طرابلس.

وجاء بعد هـذا دور مدن ساحلية أخـرى، كان منها: مرقيـة، وبانياس وقلعة المرقب وجبوليومGabulum ، التي تعرف بشكل عام باسم جبلة، ثم تأتي آخرها بـاتجاه أنطـاكية، مـدينـة جميلـة الموقع وغنية جـداً بجميع البضائع العالمية، تـدعى لاذقية سورية، وهي تعرف بالعـامية باسم ليشي Liche ، واستـولى على هـذه المدينـة النبيل الشجـاع اللـورد تـانكـرد، عنـدما كـان يقوم بأعمال حـاكم إمارة أنطـاكية، ولقـد استولى على هـذه المدينة في اليـوم نفسه الـذي نال فيه مـدينة أخرى جليلـة تدعى أفـاميا، وهكذا وسع بشكل رائع حـدود إمارة أنطـاكية، بإضافـة مدينتين جميلتين لها في يوم واحـد، وهناك (لاذقيـة) لوديقيـا في آسيا الصغـرى، وهي التي ورد ذكرهـا في رؤيا جـاءت إلى القديس يوحنـا، بين كنائس آسيـا السبعة (سفر يـوحنا: ٣/ ١٤)، واستولى شعبنـا على جميع هذه المدن القـائمة على شـاطىء البحـر، بكل جـرأة، ولم يترك شعبنا للمسلمين ولاقلعـة واحـدة قرب البحر، وهكذا تدمرت قوى العدو على شاطىء البحر تماماً.

الفصل الخامس والأربعون

وكانت بعض المدن الداخلية، خاصة ما وقع وراء سلسلة جبل لبنان، قـد عجـز شعبنا عـن الاستيلاء عليهـا، ومع هـذا أرغمت على أن تـدفع لقومنـا الجزية، لأن قـومنا غالبـاً ما شعثـوا حدودهم وأربـاضهم، ونصبوا الكثير من الكمائن لشعبهم، حتى وصـل الأمـر بـالسكـان إلى أن كـانـوا مسرورين بتحـرير أنفسهم من المضـايقات، وكـانت مدينـة حمص، التي تدعى من شعبنـا شاميلا Chameleأو كاميلاCamele، ولكون بعض مـدن سـوريـة المجـوفـة الأخـرى مثل بعلبـك، التي تسمى أيضـاً مـوبخMaubech (وهم ومنبج غير بعلبـك) وحماه وسـواهم، على مقـربة من قبل شعبنـا، ومن السهل اثـارتها ومضايقتهـا، آثرت الحصـول على السلم والأمن مقـابل كثير من المال، وفي الحقيقـة لم يكـن كل من

خليفة مصر وسلطانها قادرين على الدفاع عن مملكتيهما في وجه الغارات الشجاعة والجريئة لشعبنا، ولهذا اعتادا على دفع مبلغ كبير بمثابة جزية سنوية إلى ملك القدس، خاصة عندما كان المصريون يخشون من سلطان دمشق، واعتاد من جهة أخرى ملك دمشق على دفع كثير من المال للحصول على الهدنة والأمن من شعبنا الذي أقام فيما بين الدمشقيين والمصريين.

الفصل السادس والأربعون

حشد بلدوين دي بورغ، الملك اللاتيني الثاني للقدس جميع قوات مملكته وألقى الحصار على حلب، لكن حشداً من المسلمين بادر مسرعاً من الشرق لنجدة المدينة، ولهذا أرغم الملك على رفع الحصار والتراجع لأن أعداده كانت أدنى بكثير من أعداد المسلمين، وقام الملك الرابع للقدس وهو بلدوين ابن الملك فولك ومعه كونراد امبراطور الرومان، ولويس ملك فرنسا، الذي حمل الصليب عندما دعا برنارد راعي دير كليرفو إلى الحملة الصليبية، ومعهم كذلك بطريرك القدس، وأسقف أوستيا، الذي كان نائب الكرسي الرسولي، وعدد كبير من رؤساء الأساقفة والأساقفة والدوقات، والكونتات والبارونات، من كل من فرنسا والامبراطورية، قاموا جميعاً بإلقاء الحصار على دمشق.

ودمشق مدينة قديمة جداً، وهي في الغالب المدينة الرئيسية بين مدن الشرق، بسبب حجمها وتعداد سكانها، ونالت اسمها من خادم ابراهيم الذي قيل إنه هو الذي أسسها، وهي حاضرة سورية الصغرى، المسماة لبنان أو فينيقيا، وذلك حسبما نقرأ عند النبي قوله: « رأس سورية — آرام — دمشق» (اشعيا: ٧/ ٨)، وهي قائمة على سهول مستوية، في المنطقة الجرداء والجافة، ذلك أنها تتمتع بهبة الماء الذي يتدفق من الجبال، ويجر

خلال أقنية ويتولى سقاية جميع السهل، وتجعله بذلك خصباً ومليئاً بأشجار الفاكهة، وعلى مقربة من المدينة السالفة الذكر مكان يدعى في هذه الأيام «ملجأ السفر» (داريا)، ناشد فيه الرب شاول عندما اقترب من دمشق وقال له: «شاول، شاول، لماذا تضطهدني»؟ (أعمال الرسل: ٩/ ٤). وحاصر الآن الأمراء المتقدم ذكرهم المدينة مع حشد لاعدّ له ولاحصر، وكان الحصار من جانب واحد، من مكان في الجوار، واندفعوا من خلال أسوار المدينة، وتملكوا بقوة النهر الذي يجري إلى المدينة، وارتاب أهل دمشق في قدرتهم، وتساءلوا عما إذا كانوا يمتلكون مايكفي من قوة للمحافظة على المكان، ولأنهم كانوا غير قادرين لمدة طويلة على مجابهة رجالنا عند سور المدينة، كسبوا الى جانبهم — كما هي عادتهم — بعض السوريين الذين عملوا أدلاء ومستشارين لأمراء الحجاج الأجانب — وكانوا معميين بالجشع — فأقنع هؤلاء الأمراء حتى ينقلوا الجيش إلى جانب آخر من سور المدينة، وبناءً عليه ترك الأمراء مكانهم الأول، الذي استرده المسلمون، وحصنوه ضدنا، ثم إنه بعدما شحت المؤن وافتقر الجيش إلى الماء، رأى أمراؤنا انعدام الاخلاص لدى الرجال الذين وثقوا بهم، وفي غضب وازدراء للخيانة، أو بالحري لكفر الشرقيين الذي امتلأوا بالعار والشنار، وبعدما بذلوا جهداً كبيراً ونالوا قليلاً، عادوا إلى الوطن ثانية.

الفصل السابع والأربعون

ألقى جون امبراطور القسطنطينية الحصار على مدينة قيسارية (شيزر) التي ليست بعيدة عن أنطاكية، والتي تعرف الآن باسم قيسارية الكبرى (قلعة شيزر)، وكان معه حشد من الجنود لايعد ولايحصى والعربات والخيول، وكذلك أمير أنطاكية، وكونت الرها، لكنه أخذ مبلغاً من المال من المحاصرين، ورفع الحصار، وعاد أدراجه، لأنه كان غاضباً بسبب تراخي الأمير المتقدم الذكر مع الكونت، ولعدم مبالاتهما بالمخاطرة

ولإخفاقهما في مساعدته؛ وذهب بلدوين أيضاً، وهو الملك الرابع للقدس، وسط جهد كبير، ومخاطر عظيمة للاستيلاء على مدينة بصرى، لكنه وقد وجدها أقوى تحصيناً مما توقعه، عجز عن الاستيلاء عليها، وعاد إلى الوطن ثانية، وتعرض وهو عائد لمضايقات المسلمين الشديدة، وقد قتل كثير من شعبه، وبوستروم مدينة قديمة جداً، وهي حاضرة العربية الأولى، وتعرف بشكل عام في هذه الأيام باسم بصرى، وهي تتحكم بمقاطعة الطراخونية، التي تحدث عنها القديس لوقا في انجيله بقوله: «فيليب طيطراخ ايطورية والمقاطعة الطراخونية» (لوقا: ٣/ ١)، وبما أن هذه المنطقة بدون ينابيع أو أنهر، يقوم سكانها بجمع مياه الأمطار ببرك بوساطة Trocones ، أي بوساطة أقنية مائية تحت الأرض، ولهذا السبب عرفت هذه المنطقة باسم «الطراخونية» ، وأيضاً يسكن الناس في تلك المنطقة في كهوف وفي أقبية تحت الأرض، ويضعون أدواتهم وأثاثهم المنزلي في عربات. وتأتي بعد منطقة الأسقفيات العشرة (الديكابولس Decapolis) التي تمتد حدودها أو تخومها من صيدا إلى بحيرة طبريا، والتي تصل إلى مابعد مدينة طبرية باتجاه دمشق، منطقة ايطورية، الممتدة فيها وراء منطقة صيدا والجبال التي تفصلنا عن المسلمين في الوادي المسمى بوادي البقاع، وبما أنها تصل إلى سفوح لبنان، إنها تدعى أيضاً باسم غابة لبنان، ومنطقة ايطورية هذه تلي منطقة الطراخونية وتتصل بها.

الفصل الثامن والأربعون

طوق الملك عموري — أخو الملك بلدوين المتقدم الذكر — المدينة المصرية المعروفة باسم القاهرة بآلات الحصار حتى قيل بأنه بات من السهل الاستيلاء عليها عنوة، لولا أنه أخذ بالمشورة الفاسدة جداً لرجل شرير اسمه ميلو دي بلانكي Milo de Planci ، الذي أخذ مبلغاً من

المال من الأعـداء، فرفع الحصـار وتـراجع منسحباً، وكـان في الحقيقة قـد حاصر أولاً مـدينة الاسكندريـة، وهي مدينة جليلـة في مصر، التي استولى عليها شيركوه وابن أخيـه صلاح الدين وانتزعاهـا من سلطان مصر، ولقد أرغمهما على التصـالح معـه والاستسـلام، لكنه — تنفيـذاً لـلاتفـاق — أعطى المدينـة إلى سلطـان مصر، بعدمـا تسلم منـه المال الـذي وعد بـه، وقام هذا الملك نفسه فيما بعد بإلقـاء الحصار على دمياط،التي هي مدينة قويـة جداً في مصر، وكان معـه عدد كبير لايحصى من البيـزنطيين، أرسلوا إلى مساعـدته من قبل امبراطور القسطنطينية، وكـذلك اسطول كبير تألف من كل من الغلايين والسفن الأخـرى، غير أنه أخفق بفعل الجوع، والبرد، والفيضـانـات الهائلـة، ولهذا رفع الحصـار بعدمـا تكبـد خسـائر كبيرة في جيشه.

الفصل التاسع والأربعون

وبالنظر لعـدم استطاعة قومنـا الاستيلاء على المدن المتقدمة الـذكر مع مدن أخـرى، لاسيما المدن الداخليـة غير البحرية، بنـوا قلاعـاً قويـة جداً ولاتـرام بينهـم وبين أعـدائهم، وذلك في أطـراف البـلاد للـدفـاع عن حـدودهم، مثل مـونتريـال (الشـوبك) والبتراء في القفـار التي اسمهـا الحالي هـو الكـرك ، وذلك فيما وراء الأردن ، وصفد هي قلعـة حصينـة جداً قـائمـة فيما بين عكـا وبحيرة طبريـا ، ليس بعيـداً عن جبـال جلبـوع، وكـوكب الهوا ليست بعيـدة عن جبل الطـور ، قـرب مـدينـة يـزعيل (زرعيل) التي كـانت فيما مضى مـدينـة جليلـة ومكتظـة بالسكان ، وهي قائمة على رابية مرتفعة بين بيسان وطبرية

-٢١٠٦-

الفصل الخمسون

ولضمان أمنها العظيم ، قسمت مملكة القدس بين مختلف الأمراء والبارونات ، الذين كان واجبهم الحفاظ على البلاد وحراستها تحت الملك ، واحتفظ الملك بيديه بأفضل أجزاء البلاد وأحسنها ، مثل مدن : القدس ، ونابلس(شكيم) وعكا ، وصور مع بلدات أخرى وقرى ، وارتبط نبلاء المملكة بيمين لخدمة الملك بعدد محدد من الفرسان ، وكان هؤلاء : كونت طرابلس ، وصاحب بيروت ، وصاحب صيدا ، وصاحب حيفا أو بورفيريا ، وصاحب قيسارية ، وأمير الجليل الذي كان أيضاً صاحب طبرية ، وكونت يافا وعسقلان، وصاحب الشوبك وجميع ما وراء الأردن ، وصاحب أسدود ، وصاحب ايبلين ، وبعض الآخرين ، لكن هؤلاء كانوا المقدمين بينهم والأول في المكانة والشرف .

الفصل الحادي والخمسين

وبدأت منذ ذلك الحين الكنيسة الشرقية بالازدهار من جديد ، وبدأت ممارسة الدين بالانتشار عبر الأراضي الشرقية ، وبدأت كروم الرب بإعطاء العناقيد ، ثم بدا أن الذي كتب في نشيد الانشاد قد أخذ يتحقق ، وهو قوله « : انتبهوا الشتاء قد مضى والمطر مرّ وزال. الزهور ظهرت في الأرض . بلغ أوان القضب » (نشيد الانشاد : ٢/ ١١ـ ١٢) وتدفق من مختلف أجزاء العالم ، ومن كل عرق ولغة ، ومن كل أمة تحت قبة السماء الحجاج على الأرض المقدسة وقد امتلأوا بالحماسة من أجل الرب مع رجال دين جذبتهم حلاوة خلاص الأماكن المقدسة والمبجلة ، وأعيد ترميم الكنائس القديمة وبنيت

كنائس جديدة ، بوساطة أعطيات الأمراء وهبات المؤمنين، وبنيت ديرة لرهبان منتظمين في أماكن مناسبة ، وتأسست في كل مكان بشكل لائق ومناسب أبرشيات القساوسة وجميع الأشياء المتعلقة بخدمة الرب وعبادته ، واختار رجال مقدسون اعتزلوا الدنيا أماكن للسكنى بها تتوافق مع مختف ميولهم ورغباتهم وحماستهم الدينية ، وتتماشى مع أهدافهم وتكريس أنفسهم .

الفصل الثاني والخمسون

واختار بعضهم ممن انجذب بمثل الرب واقتدى به ، البرية المرغوب بها والمسماة القرنطل ، حيث فيها صام الرب معتزلاً لمدة أربعين يوماً بعد تعميده ، (متى : ٤) وهناك عاشوا على شكل نساك ، وتعبدوا الرب عن طواعية متناهية في خلوات متواضعة ، واختار بعضهم تقليد حياة الاعتكاف للنبي إيليا بالعيش في عزلة على جبل الكرمل ، لاسيما في الجزء المطل على مدينة بورفيريا المسماة الآن حيفا ، قرب بئر يسمى بئر إيليا ، ليس بعيداً عن دير القديسة مرغريت العذراء ، حيث هناك خلوات صغيرة تشبه قرص عسل ، ففيها عاش نحل الرب وانتجوا عسلاً روحياً حلواً ، وهناك كرمل (إقرأ : قرمول غربي البحر الميت)آخر وراء الأردن ، قرب البيداء حيث أخفى داود نفسه عندما هرب من أمام شاؤول ، حيث كان مكان إقامة الفلاح نابال ، هذا وإن الكرمل الذي اعتاد إيليا على العيش فيه قائم على شاطىء البحر ، على بعد أربعة أميال من عكا .

الفصل الثالث والخمسون

واختار عدد كبير أضرحة هادئة للموت فيها بعيداً عن هذه الدنيا،

حتى يمكنهم العيش للـرب وكـان ذلك في وادي الأردن ، حيث اعتزل يوحنا المعمدان أثناء طفـولته ، فراراً من الدنيا ، حتى يمكنه مع مزيد من الحرية الاتصال بالـرب ، وفي عزلته في هذه البيداء لم يأكل القـديس يـوحنـا شيئـاً سـوى الجراد مع العسل ، والعـادة في معظم أجزاء سوريـة أنه عندما تأتي أسراب الجراد الطائرة ، يقـومون بجمعها والاحتفاظ بها للأكل .

وبالنسبـة للعسل أنا رأيـت الكثيرمنه في هذه الأجـزاء في قصب السكـر ، وقصب السكـر هوقصب مليء بـالعسل ، ويحصل النـاس على عصير على درجـة عـاليـة من الحلاوة ، بـوسـاطـة سحق القصب بـالضغط ، ثم يتم تكثيف العصير على النـار ، وبـذلك يصنع النـاس أولاً نـوعـاً من العسل ، ثـم سكـراً ، ويـدعى هـذا القصب -Can nameles وهـذه كلمـة مكـونـة من كلمـة قصب «canna و mel أي عسل لأن هذا القصب يشبه قصب البوص أو النباتات النامية

وبما أنني لم أعتقـد صحة أكل المعمـدان المبارك للمسيح جسـد الجراد ، وهو الـذي تخلى حتى عن أكل الخبز ، قمت بـاستفسار حثيث لواحـد من الرهبـان السريان ، الذي كـان ديره في تلك الأجـزاء ، وهو يحتوي على عدد كبير من الرهبان ، الذيـن يمارسون حياة قاسية جداً ، تحت رئاسة راع للـدير ، وسألته : أي نوع من الجراد كـان الذي — كما قيل — أكلـه القـديس يـوحنـا في تلك البريـة قـرب الأردن ؟ فأجابنـي مباشرة أنه يـوجد في غـرفة طعامـه عشبة ، غـالباً مـا تقدم للـرعبـان ، وهـم يـدعـونها angusTae أي «حبـــــوب الجراد » وينمو هناك كميات كبيرة من هذه العشبـة حول ديرهم ، وأضاف بأن هذا ما اعتاد القـديس يوحنا أن يأكله ، زد على هذا غـالباً ما يعثرون في هـــذه البراري — كما قـال — على مخزون كبيرمـن العسل البري يصنع من قبل النحل .

ومضى آخرون من رجال الدين هؤلاء الى البراري القريبة من بحيرة طبرية ، حيث غالباً ما وعظ الرب ، وحيث أطعم الحشود (متى : ١٤) بأرغفة من شعير وسمكات صغيرات ، ومجّد المنطقة بعدة أنواع من المعجزات ، وظهر هنا لحوارييه بعد قيامته (آخر اصحاح من يوحنا) ، وهنا أكل وشرب معهم ، وعلى هذا البحر كان قد مشى ، وهنا دعا بعضاً من حوارييه إليه قائلاً : « ورائي فأجعلكما صيادي الناس » (متى: ٤/ ٩) وهنا اختاروا مساكن خلواتهم، فسكن بعضهم في السهل ، حيث توفر كثير من القش من الأعشاب الجافة ، وسكن آخرون في الجبل المجاور الذي اعتاد الرب أن يذهب إليه ليعتكف للصلاة ، وبحيرة طبرية بحيرة ذات ماء عذب جداً ، قائمة على طرف الجليل ، وهي مليئة بجميع أنواع الأسماك ، وهي جميلة المنظر ، ممتعة أن تشرب منها ، ولأنها طويلة جداً وعريضة ، دعيت البحيرة سالفة الذكر باسم بحر ، وذلك مجاراة لما اعتاده العبرانيون والمصريون ، الذين دعوا أي تجمع من الماء «بحراً» ، سواء أكان عذباً أم مالحاً ، ويعرف أيضاً باسم بحر طبرية ، لأنه ملاصق لمدينة طبرية ، وعلى مقربة منها بيت صيدا (شيخ زياد) ، وهي مدينة بطرس وأندرو ، وهي التي مجدها الرب بحضوره الشخصي ، وتعرف أيضاً باسم بحيرة جنسارث ، التي فسرت بمعنى « توليد الريح» ، لأنه من ينابيع الجبال التي تقوم من حولها ، غالباً ما تتجمع ريح قوية ، تسبب الهيجان في البحيرة ، وتتحول الى عاصفة ، حيث تقهر الأمواج العالية السفن الصغيرة ، ويجري نهر الأردن في بحيرة جنسارث المتقدمة الذكر من نبعين اسمهما : «أر» و«دان» ومنهما استمد كل من مياهه واسمه ، وهما قرب قيسارية فيليب عند سفح جبل لبنان ، ومن هناك يتدفق في كتلة واحدة من الماء ، ويجري لحوالي المائة ميل ، فيروي المناطق المجاورة ، ثم يسيل عبر الوادي الرائع الذي يدعى وادي

الملح ، الى البحر الميت ، وهناك يجري ابتلاعه ولا يظهر مرة أخرى ، وهذا قرب مكان يدعى زغر ، ويعرف في هذه الأيام بشكل عام باسم « البحر المرّ» paumier كما ويدعى البحر المتقدم الذكر باسم « بحيرة اسفلت » و«البحر المالح » لأنه مالح جداً ، ومرّ الى درجة أنه لا الانسان ولا الحيوان يمكنه أن يشرب منه ، وغالباً ما يقال له « بحر الشيطان » لأنه لا يمكن لأي شيء حي أن يتكاثر هناك ، كما لا يمكن لأي كائن حي أن يعيش في مياهه ، وإلى جانبه هناك جبل مرتفع من الملح ، ، زيادة على هذا ينمو على أطرافه تفاح له منظر خارجي جميل ، لكن لا يوجد في داخله شيء سوى الرماد والغبار اللادغ ، لأن الرب أمطر ناراً وكبريتاً على سدوم وعموره ، وعلى مدن ثلاثة أخرى ، فقد كان سكان هذه المدن على درجة هائلة من الشرور ، وآثمين ضد الطبيعة ، يمارسون الخبائث والأمور الشائنة مع بعضهم بعضاً ، وفي هذا المكان الذي يدعى بنتابولس Pentapolis (المدن الخمسة) تقوم البحيرة المتقدمة الذكر ، التي لا يمكن لانسان إدراك قعرها ، لأن الرب بعدما أمطر النار على هذه المدن ، ألقى بها في قاعها الذي لا يدرك، ويقدم نهر الأردن الذي أتينا للتو على ذكره كثيراً من الخدمات لجميع المنطقة القائمة بين ذلك المكان وجبل لبنان، لأنه يروي الحدائق ويجعل الأرض تحمل فاكهة، وهو يعطي ماء عذباً للشرب وكميات من الأسماك للأكل، وشواطئه جيدة لنمو القصب أو البوص، حيث يستخدمه الناس لسقف منازلهم، وتغطية جدرانهم، ويتساقط القطر الحلو من قصب السكر الكثير جداً الذي ينمو في الحقول القائمة على طرف النهر، ويعطي هذا القصب وفرة عظيمة من السكر. واعتاد الحجاج، لابل حتى السكان المحليون على غسل أجسادهم وملابسهم بورع عظيم في مياه الأردن، لأن مخلصنا قد تعمد فيه من قبل القديس يوحنا المعمدان، وقدس هذا النهر بملامسة جسده الأعظم طهارة له، ومنح طاقة مولدة وأضفاها على مياهه، زد على هذا تولى الثالوث المقدس

كله تقديس هذا النهر السعيد والجليل جداً، لأن فوقه سمع صوت الأب، وفيه رؤيت الروح القدس على شكل حمامة، وجرى فيه تعميدهم الابن على شكل انسان،(متى: ٠٣ مرقص: ٠١ لوقا: ٣)، ثم إن كثيراً من كلا الجنسين، من الرجال والنساء قد جرى تعميدهم من قبل القديس يوحنا في المياه المتقدمة الذكر مع تعميد التوبة، وحولوا أنفسهم وجعلوها أهلاً لتسلم نعمة المسيح وتعميده، واعتادوا على الغطس في الماء، وكنموذج على الطهارة التي ستكون، هناك مثل نعمان السوري الذي شفي من البرص في تلك المياه، وعاد جلده نقيا مرة أخرى مثل جلد طفل صغير، وعبر يوشع مع بني اسرائيل على ممر جاف، في الوقت الذي توقفت فيه المياه وتراكمت، أما المياه التي هي في الأسفل فتابعت جريانها نحو البحر، ومن هنا من قاع النهر أخذ بنو اسرائيل اثني عشر حجراً تبعا لعدد أسباط بني اسرائيل الاثني عشر، (يشوع: ٤—٥)، وإلى هذه الأحجار نفسها أشار القديس يوحنا المعمدان عندما قال: « إن الرب قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم»(متى: ٣/ ٩)، وعبر أيضا إيليا واليشع فوق الممر الجاف، وحدث ذلك بعدما ضرب إيليا الماء بردائه، وباعد فيما بين طرفيه إلى هنا وإلى هناك، ولهذا اتخذ عدد كبير من المتدينيين أماكن اقامتهم إلى جانب النهر، بسبب قداسة النهر وموائمة مياهه.

الفصل الرابع والخمسون

لقد بنوا ديراً على جبل الطور احتراماً وتشريفاً للمكان، وجبل الطور جبل مرتفع جداً وشديد الانحدار، وعلى رأسه تجلى الرب يسوع مع موسى وإيليا بحضور بطرس وجيمس، ويوحنا، مظهراً مجد قيامته المستقبلية (متى: ١٧)،والجبل المتقدم الذكر قائم في منطقة طبريا، ليس بعيداً عن الناصرة، ويوجد عند سفحه مسيل كيشون، وعلى طرف منه

جبال جلبوع (فقوعه) وعلى الطرف الآخر منه بحيرة طبرية، وفيما يتعلق بهذه الجبال، يعلن عبثا بعضهم بأنه لاينزل عليهم لامطر ولاندى مطلقاً، ومراراً قد تبرهن هذا أنه مزيف، وذلك من قبل الذين يسكنون في الجوار، وبنى أتباع الرهبة السسترشيانية والبريمونستراتنشيانية Pre-monstratensianأيضاً أديرة في أمكنة مناسبة لهم، وترك كثير من الناس بلادهم وأقربائهم وبيوت آبائهم، وذلك رغبة منهم بالأرض المقدسة، ومع أن الازدحام وضغط الناس معيق للدين لقد اختاروا وفضلوا العيش وسط جمهور الناس على أن يحرموا من ميزه فضيلة العيش في المدن المقدسة مثل القدس، وبيت لحم والناصرة، التي مع أنها بقع تعبق بالشذى، إنها تعبق أكثر بحضور المخلص، لأنه في الناصرة حملت العذراء مريم بالرب بوساطة الروح القدس، وقد ولد في بيت لحم، وفي القدس صلب من أجل خلاصنا، ومات ودفن.

الفصل الخامس والخمسون

القدس هي مدينة المدن (مراثي إرميا: ١/١) وقدس الأقداس، وعظيمة بين الأمم، وأميرة بين المقاطعات، وبامتياز خاص دعيت مدينة الملك العظيم، وهي قائمة في وسط الأرض، وفي قلب العالم، وكل الأمم تجري إليها (إشعيا: ٢/٢)، وكانت ملكاً للبطارقة، والأم الحاضنة للأنبياء، والمعلمة للرسل، ومهد ايماننا، وبلد ربنا، وأم الايمان، حتى مثل روما التي هي أم المؤمنين، ولقد اختيرت من قبل الرب، وقدست من قبله، لسيره بها على قدميه، ومجدت من قبل الملائكة، وترددت عليها كل أمه تحت قبة السماء، وتقوم القدس على جبل مرتفع، مع منطقة تلية تحيط بها من كل جهة، في تلك المنطقة من سورية التي تدعى اليهودية وفلسطين، وهي تفيض بالحليب والعسل، وفيها وفرة من الحبوب، والخمرة والزيت، وجميع النعم الدنيوية، وهي على كل حال تفتقر تماماً

إلى الأنهار، كما أنه ليس فيها أية ينابيع باستثناء نبع واحد يدعى سلوان، الذي يتدفق تحت جبل صهيون في خلال وسط وادي يهو شافاط، ويعطي هذا النبع أحياناً وفرة من المياه، مع أن مياهه بالعادةقليلة جداً، أو تنعدم تماماً هناك، لكن يوجد في المدينة وفي خارجها الكثير من الصهاريج من مياه الأمطار، وهي كافيه لكل من البشر والبهائم ولجميع الاحتياجات الأخرى، وللمدينة العديد من الأسماء، وهي متنوعة تبعاً لتقلبات أيامها، ووفقاً لمختلف الأمم واللغات، ودعيت أولاً باسم يبوس، وبعد ذلك باسم سالم، ومن هاتين الكلمتين جاءت التسمية الثالثة، أي أورشليم، ودعيت أيضاً باسم سوليما وهيروسوليما، ولوز، وبيت ايل، وكان آخر الأسماء التي حملتها هو اسم إيلياء، وذلك نسبة إلى إيليوس القسطور(كذا) الروماني الذي أعاد عمارتها، وذلك بعد دمارها من قبل تيتوس وفاسبيان،وكان أول أسافقتها جيمس الرسول الذي ضرب في القدس بهراوة القصار، وانتقل إلى الرب شهيداً، وامتلكت القدس بعده مجرد أساقفة عاديين بدون مكانة أو تمجيد، وذلك حتى أيام الامبراطور جستنيان، ففي أيام هذا الامبراطور المحب للرب، وزوجته الامبراطورة التقية، وفي أثناء مجمع مسكوني عقد في القسطنطينية، وصدوراً عن الاحترام للمدينة المقدسة عينوا فيها بطريركاً، وأعطوه بعض الأساقفة المساعدين الذين أخذوهم من الاسكندرية ومن انطاكية، لرؤيتهم أن هذه البطركية قد تأسست على حدود هاتين المدينتين، وبالنسبة لكنيسة الرب يأتي ترتيب بطريرك القدس الرابع بعد الكرسي الرسولي، وله تحت سلطانه أربعة مطارنة، الأول بينهم هو مطران صور الذي له سلطة على أربعة أساقفة مساعدين، هم: أساقفة عكا، وصيدا، وبيروت، وبانياس، وبانياس هي المدينة التي تعرف الآن بشكل عام باسم بلنياس، وهي واقعة على سفوح جبل لبنان، وهي على مقربة من مدينة دمشق، وهي تشكل حدود أرض الميعاد، والمطران الثاني، أو رئيس الأساقفة، هو رئيس أساقفة قيسارية، الذي تحته أسقف مساعد واحد، أي أسقف سبسطية.

الفصل السادس والخمسون

وكانت سبسيطة تعرف باسم قديم آخر هو اسم السامرة، حيث فيها دفن يوحنا المعمدان، وإيليا، وعوبديا النبي، وليس للمدينة المسماة حيفا أو بورفيريا أسقفاً، بل تقع مباشرة تحت إدارة رئيس أساقفة قيسارية، والمطران الثالث هو مطران الناصرة، الذي لديه أسقفاً مساعداً واحداً، هو أسقف طبرية،وطبرية هي مدينة قائمة على شاطىء بحر الجليل في منطقة الجليل، وتكثر فيها الحنطة والخمرة والأسماك، وكان مقر رئيس الأساقفة فيما مضى في مدينة سيتوبولس Citopolis (سكيثوبولس) التي تدعى الآن بيسان، وهي قائمة فوق سهل قائم بين جبال جلبوع (فقوعة) ونهر الأردن، وهي مدينة كثيرة الثمار، وتروى بمياه جداول وآبار، وكانت طبرية فيما مضى مقر مطرانية فلسطين الثالثة وجميع الجليل، لكن المقر نقل الى مدينة الناصرة، بسبب عظمة المكان واحتراماً لمفهوم الرب، والمطرانية الرابعة هي مطرانية البتراء التي تمتلك أسقف مساعد واحد، هو الأسقف الاغريقي (الأرثوذكسي) لجبل سيناء، والمقيم في كنيسة القديسة كاترين العذراء، وهناك راعي دير الرهبان الموجود في ذلك المكان، والبتراء قلعة حصينة جداً، وهي التي تدعى باللغة العامية باسم الكرك، وبتراء القفار، وهي قائمة في منطقة هضبية مرتفعة بعض الشيء، فيما وراء الأردن على حدود مآب، وهي المدينة الحاضرة للعربية الثانية، وهي المكان الذي تحدث عنه النبي إشعيا بقوله :« أرسلوا خرفان حاكم الأرض من سلع (جانب البتراء) نحو البرية» الخ، (أشعيا: ١٦/ ١)، وهي على مقربة من مدينة قديمة جداً تدعى ربوث Rabboth، التي قتل أمام بابها أوريا بتحريض من داود.

الفصل السابع والخمسون

ولبطريرك القدس أيضاً أساقفة مساعدين، هم تحت سلطته المباشرة، ومن هؤلاء على سبيل المثال، أساقفة بيت لحم، والخليل، واللد، وكانت كنيسة بيت لحم ديراً للكهان المترهبنون حتى أيام الملك بلدوين، أول الملوك اللاتين لمملكة القدس، وصدوراً عن احترام عظمة المكان، وتمجيداً لمكان ميلاد الرب، رقاها إلى مرتبة كاتدرائية، وأقام فيها أسقفاً، تحت اشراف البابا باسكال صاحب الذكرى الطيبة وبمباركة منه، الذي منحه اشرافاً مباشراً وسلطة على مدينة عسقلان، وبالطريقة نفسها، رقيت كنيسة الخليل، التي كانت من قبل ديراً، إلى مرتبة أسقفية، بسبب عظمة المكان، حيث دفن فيه آدم وحواء، وثلاثة من الآباء هم: إبراهيم، واسحق، ويعقوب مع سارة ورفقة، وقد دفن الجميع في كهف مزدوج، وجاء هذا العمل أيضاً احتراماً لعبيد الرب، والاسم القديم لحبرون هو «أربعة» و «قريات أربعة». وعرفت مدينة اللد في يوم من الأيام باسم ديوسبولس Diospolis ، وتدعى في هذه الأيام باسم القديس جرجس.

الفصل الثامن والخمسون

وزيادة على ماتقدم كان تحت سلطة البطريرك المتقدم الذكر، رعاة ديره ورؤساء رهبان لهم الحق في حمل شارات التمجيد الحبرية، من ذلك: العصا، والتاج الأسقفي، والخاتم، والصندل، وهم يساعدون بكل احترام السيد البطريرك في القداسات الدينية، وللكنيسة البطركية التي هي كنيسة الضريح المقدس، عند سفح جبل الجمجمة، رهبانها المنتظمون الذين يرتدون الألبسة الكهنوتية في ظل أحكام القديس أوغسطين، ولهم رئيس الذي واجبه مع الرهبان السالفي الذكر القيام بانتخاب البطريرك،

الـذي هو بمثابـة راعي دير بـالنسبـة لهم، وفي كنائس هيكل الـرب على جبل صهيـون وجبل الـزيتـون رعـاة ديـرة ورهبـان يتعبـدون الـرب وفقـاً لأحكام النظام المتقدم الذكـر أي نظام القديس أوغسطين، وفي كنائس أو ديـرة (القديسـة مـريم) اللاتين، وتلك التي في وادي يهوشـافـاط، يوجـد رعاة ديـرة مع رهبـان سود، يتعبدون الـرب وفقاً لأحكـام نظام القـديس بنت Benet ،وفي بيت حنينا، التي هي قرية مريم، ومرثا، وقرية أخيهما لازاروس (لعازر)، والتي هي على مسافة خمس عشرة غلوة Stadia ، عن القدس، وراء جبل الـزيتون على منحـدرات ذلك الجبل، في هذه القـرية ديـر القديس لازاروس (لعـازر)، ويدعى بيت حنينـا، حيث هناك راعيـة ديـر سوداء وراهبـات، يأخـذن بأحكـام وتنظيمات القديس بنت، وهنـاك بيت حنينـا أخرى (بيـت عبرا وراء الأردن) حيث قام يـوحنـا بالتعميـد. وينتمي إلى هذه الطريقة نفسها ديـر القديسة حنة، التي حملت أم الرب، وهو قائم قرب الباب المدعو باب يهوشافاط، قرب بركة الضأن، في البقعة التي يقال بأن مـريم المباركة قد ولـدت فيها، وهناك يوجد راعيـة دير مع راهبات سوداوات يتعبـدن الرب في ظل أحكام نظام القـديس بنت، وهو أشبه بوعـاء للبخور، كان مليئاً بشخصيات مقدسـات، وورعات وتقيات، من الـلائي مع أنهن لم يـرغمن بـوساطـة أيـة معيقـات أو بالفقـر فقـدن الالتـزام الصـارم لـديـانتهـم، وشرف وأمـانـة حيـاتهم، ودفء حنـانهم وإحسانهم، ويوجد على جبل الطور هنـاك دير للرهبان السود تحت سلطة رئيس أساقفة الناصرة، وليس لمدينة يـافا أسقف، بل تدار مباشرة من قبل رئيس وكهنـة الضريح المقدس، ومثل هـذا مدينـة نابلس —التي تعـرف (وهماً) في الانجيل بـاسم سوخـار (يوحنـا: ٤)، حيث هناك بئـر يعقوب، الذي إلى جـانبه تحادث الرب مع المرأة السامـرية— ليس لها أسقف، بل تتبع مبـاشرة إلى راعي ديـر هيكل الـرب، وهنـاك أيضـاً كثير من المدن الأخرى في أرض الميعـاد، كان فيهن أساقفة مـن كنائسهن السريـانية أو الأرثوذكسيـة (الاغريقيـة) وذلك قبل عصر اللاتين، لكن بسبب عـددهن

وفقرهن تولى اللاتين اخضاع كثير من الكنائس الكاتدرائية، وكثير من المدن لمدينة كاتدرائية واحدة، وذلك خشية من تقليل قيمة مرتبة الأسقف ومكانته، ودعونا الآن نضيف وصفاً لهذه الأماكن اللائي لهن مكانة سامية بسبب قداستهن بين الأماكن المبجلة الأخرى.

الفصل التاسع والخمسون

الناصرة مدينة صغيرة، قائمة تقريباً عند مدخل الجليل، وتقوم بين جبلين، وبينها وبين صفورية هناك نبع يتدفق بمياه صافية، ومياهه المنبعثة منه غزيرة، وهو يعرف باسم نبع (عين) الصفورية، واعتاد ملوك القدس أن يحشدوا هنا جيوشهم بسبب منافع الماء المتوفرة هناك، ولتوفر الكلأ، وتبعاً لبعضهم، ولدت العذراء مريم المباركة في هذه المدينة (لوقا: ١)، ومما لاشك فيه أن العذراء المقدسة قد عاشت هناك بعد خطبتها ليوسف، وإلى هاهنا أرسل الملك ليعلن بداية خلاصنا، وهذه المدينة المقدسة هي محبوبة الرب [ففيها صارت الكلمة جسداً (يوحنا: ١)، والزهرة التي فاق شذى أريجها كل الطيوب، نمت في رحم العذراء، ولهذا فسر اسمها بشكل صحيح أنه الزهرة] ،وتتميز هذا المدينة على سواها أنه فيها تمّ الحمل بالرب صاحب انقاذنا، وفيها نشأ وتربى، وتحت قدميه وضع الرب كل الأشياء في الأرض والسماء، وتلطف بجعلها خاضعة لوالديه، وتقوم بيت لحم على سفوح جبال القدس، ليس بعيداً عنها، أي أن تقول تبعد أربعة أميال عن المدينة المقدسة، ومعنى كلمة بيت لحم: بيت الخبز، ففيها ولد الخبز الحقيقي الذي نزل من السماء، ويوجد في مدينة داود هذه الكنيسة الكاتدرائية المقدسة والمبجلة، التي كرست للعذراء المباركة، وهنا أيضاً المزود الذي تلطف للتمدد فيه، وهو الذي عرشه السموات، والأرض موطىء قدمه (إشعيا: ٦٦/ ١)، وقد وضع تبعاً للجسد في القش لتغذيه المخلوقات التقية (لوقا: ٢)، وهنا

المكان الـذي وجد فيه الـرعاة —بنـاء على أمر الملائكة— الطفل ملفـوفاً بقماط من ثيـاب رثة مع أمـه مـريم، وإلى هناك جـاء المجـوس الثلاثـة، الـذين استرشدوا بـالنجم، فـوصلوا إلى المدينـة المتقدمـة الـذكر، وعبـدوا بتواضع الملك الـذي قد ولد، وقدمـوا إليه بعض الهدايا الرمـزية، وهنا في هـذه المدينـة قـام الملك الآثـم هيرود، عـدو الايمان، في أثنـاء بحثـه عن المسيح، بقتلـه بـوحشية عـدداً من الأطفـال الصغار، وهنـا أيضـاً ضريح راحيل زوجـة يعقوب، التي تـوفيت في هـذا المكان نفسـه بعـدما ولـدت بنيـامين، ومن هنـا جـاءت المرأة نعمى التـي جلبت راعـوث المآبيـة من البتراء في الصحـراء، وهي التي اتخذها بـوعز زوجـة له، والتي من نسلهـا كـان الحمل، سيد الأرض، حيث جـاء لابنـة صهيون (إشعيـا: ١٦/ ١)، واشتاق داود لميـاه بئر بيت لحم، رغبة منـه في شرب ماء الحكمـة والانقاذ من بئـر العـذراء المبـاركـة، واختـار القـديس جيروم، الـذي تـولى تـرجمة الكتابات المقدسة إلى اللاتينية السكني في هذه المدينة المقدسة، والمحبوبة من الـرب، حيث هناك تعبـد الرب، وهنـاك دفن جسده الثمين المصنـوع من طين، ووهبت بـولا المقـدسـة وكـذلك ابنتهـا يـوستـوكيـوم Eus-tochium وكذلك عـدد كبير من العذراوات الأخـريات، وهبن أنفسهن وكرسوهـا على عبادة الرب، والتأمل اللاهوتي، في دير هناك، واحتقرن كل مظاهـر البهجة الخارجية في سبيل حب مـولانا يسوع المسيح، وتفـانيا من أجل هذا المكان المقدس.

الفصل الستون

تتفوق مدينـة القدس — التي صنع فيها الرب وهـو ظاهر بجسـده، أسرار خـلاصنـا — على غيرهـا من الأمـاكن والمدن في قداستهـا، كما وتتفوق أيضاً بعظمتها، حتى كأنها حقل مثمـر يفوح شذى لأن الرب قـد بـاركـه، ولهذا جذبت إليهـا عـدداً كبيراً من

الرجال المتدينيين ، الذين زاروا الأماكن المبجلة الكثيرة في أوقات مختلفة مناسبة ومواسم ، مع توقد بالروح ، انبعثت وتصاعدت وصولاً الى حد الانقطاع التعبدي الكلي ، وذلك واحداً تلو الآخر ، ولم تعان أرواحهم ، لتتراخى من خلال إعيائهم ، بل أبقتهم متيقظين من خلال عبق حبهم ، وتقوم هذه المدينة التي غالباً ما ذكرت وستظل تذكر ، تقوم كلها على جبل مرتفع ، وهي محاطة من جميع الجهات بوساطة سور قوي ، وهي لا تشعر بالضيق لصغرها الى أبعد الحدود ، ومثل هذا ليست منزعجة من حجمها الكبير الزائد ، وقياس امتدادها من سور الى آخر هو أربع رميات قوس ، وفيها في الجانب الغربي قلعة من الحجارة المربعة ، مبنية بشكل متماسك غير قابل للكسر ، بوساطة الملاط والرصاص المذاب ، وهي تقوم من أحد الجوانب بمثابة سور للمدينة ، وتعرف باسم برج داود ، وعلى الجانب الجنوبي للمدينة جبل صهيون ، حيث سكن داود في قلعة صهيون بعدما طرد منها اليبوسيين ، ودعاها باسم «مدينة داود» وعلى جانبها الشرقي يقع جبل الزيتون ، وجبل أكرا (الجمجمة) هو المكان الذي صلب عليه الرب ، ويعرف الآن باسم الجلجلة ، وموقع ضريح الرب قائم قرب ذلك المكان عند سفح جبل أكرا (الجمجمة) وظل حتى أيام الامبراطور إيليوس هدريانوس خارج أسوار المدينة ، لأن الرب تألم ودفن خارج الباب ، لكن ايليوس هدريانوس المتقدم الذكر أعاد بناء المدينة التي هدمها تيتوس وفسبسيان ، وقد بناها بشكل لائق ، ورصف شوارعها وأزقتها ، وعمل مصارف من خلالها يمكن في أيام المطر للمدينة أن تتنظف من أوساخها .

- ٢١٢٠ -

الفصل الحادي والستون

وقد قام بتوسيع المدينة كثيراً ، الى حد أنه أدخل مكان ضريح الرب داخل إطار الأسوار ،وفيها بعد بنى المسيحيون فوق هذا المكان، وصدوراً عن الاحترام لضريح الرب ، كنيسة القيامة الرائعة ، بنوها بمهارة واتقان على شكل فوريوم ، له شكل دائري مع فتحة من الأعلى ، وبذلك شكلت هذه الكنيسة مثلاً يحتذى ويقلد من قبل جميع الأماكن المقدسة الأخرى ، والمبجلة ، ففي هذا المكان تمدد جسد الرب الثمين بشكل لائق مع المر والألوة حتى اليوم الثالث ، لكنه قام في اليوم الثالث من جديد ، وهنا ظهر الملائكة إلى المرأة ، وغدا الجنود الذين تولوا حفظ الضريح وكأنهم رجال موتى، ومنذ ليلة قيامة الرب فصاعداً صارت النار المقدسة تنزل من السماء ،والآن عندما تجري في كل أنحاء الدنيا قراءة كلمات :« قام الرب من الضريح ، وهو الذي من أجلنا على الشجرة » ، عندما تقرأ هذه الكلمات للمؤمنين ، نجد كهنة كنيسة الضريح المقدس ، يتمتعون لوحدهم بامتياز القول :« قام الرب من هذا الضريح » ويشيرون بشكل مرئي الى ذلك المكان ويحدث مثل هذا عندما نقرأ في الإنجيل من أجل عيد الفصح :« إنه ليس هنا ،هو قد قام » ، يقوم الشماس الذي يقرأ الانجيل بالاشارة بإصبعه إلى ضريح الرب ، ويقوم المكان المدعو أكرا (الجمجمة) ، والذي اسمه بالعبرية الجلجلة ، الى جوار كنيسة ضريح الرب ، وهو رفيع المكانة جداً بين الأماكن المقدسة ، وله قوة مؤثرة كبيرة جداً على القلب بسبب ذكريات آلام الرب ، وهنا عانى الرب من أجل خلاصنا ، فقد جرد من ملابسه، ووضع على الصليب ، وثبت على الصليب بالمسامير ، وقد أعطي المرّ والخل ليشرب ، وسخر منه من قبل اليهود وعدّ مع المعتدين ،

وحكم عليه بالموت بشكل مهين ، وصلى من أجل قاتليه وعهد بالعناية بأمه الى حوارييه ، ووعد اللص بالخلاص ، وبكى بصوت مرتفع ، وسلم الروح وهو يبكي ، وسال منه الدم والماء من جنبه ليغسل العالم ، وهنا تقاسموا ملابسه فيما بينهم ، ورموا القرعةعلى ردائه واهتزت الأرض وتشققت الصخور وسقط دمه على الأرض وأظلمت الشمس واختفى الضوء منها وعندما يزور الحجاج هذا المكان المقدس تلامس هذه الأشياء قلوبهم المرهفة والمتواضعة ، وتسبب معاناة الآلام ذرف دموع الحزن والأسى منهم

والآن إنه بالنسبة لمدينتنا القوية ، صهيون جبل يتسم بالوفرة ، حيث الرب كان مسروراً بالسكنى به ، وهو جبل يدر الحلاوة لا بل يدر حتى أقراص العسل والورود ذوات الأريج الطيب ، وهو يلامس شغاف القلب ويجلب الراحة ويعيد عقل التقي ، وبواسطة قداسته المتناهية ينشط العقول ويغذيها ، وبقي الرب هنا مع حوارييه ، ووضع منشفة حول وسطه ، وغسل أقدام الحواريين ، ضارباً مثلاً بالتواضع ، ثم ارتدى ملابسه مرة ثانية وأكل وشرب مع حوارييه ، وأقر قواعد العهد الجديد ، حيث الخبز تحول الى جسده والنبيذ الى دمه ، وعلم حوارييه بكلام مقدس ، وهنا إتكأ يوحنا على صدره المقدس ، وهنا سكنت العذراء المقدسة بعد وفاة ابنها طوال المتبقي من حياتها مع يوحنا ، الذي إليه عهد بأمر العناية بها ، وهنا ظهر الرب لحوارييه فيما هم جلوس وراء أبواب مغلقة ، زيادة على هذا ، بقي الحواريون في هذا المكان ، بعد صعود الرب حتى يوم عيد الحصاد ، وذلك بانتظار قدوم الروح القدس ، وكانوا طوال ذلك الوقت صائمين مصلين ، وعندما جاء يوم عيد الحصاد ، ازدادت قوتهم بتلقي روح القدس على شكل لهب النار ، وكان ذلك مع معرفة كل اللغات ، وفوق ذلك المكان اجتمع حشد كبير من اليهود ، لدى سماعهم صوتاً مفاجئاً من

السماء ولهم شرح القديس بطرس نبوءة يوئيل ، وتولى تحويل كثيراً منهم للايمان بالرب ، وجعلت جميع هذه الأشياء هذا المكان متفوقاً بمجده على جميع الأماكن المقدسة الأخرى ، ومنحته وقاراً خاصاً وعظمة مميزة

الفصل الثاني والستون

وهيكل الرب المقدس ، الذي بنى على جبل موريا من قبل سليمان، على أرض بيدر أورنان اليبوسي ، ليس هناك ما يضاهيه بالقداسة والمكان المبجل ، ومع ذلك كان قد دُمر أولاً من قبل البابليين ، وبعد ذلك من قبل الرومان ، ومع هذا أعيدت عمارته مرة أخرى على البقعة نفسها من قبل المؤمنين والرجال المتدينين على شكل بناء مستدير بمهارة معماريه وبراعة متفوقة بجمالها وبأبهتها ، وفي هذا المكان ، وعلى الصخرة التي ما تزال في الهيكل ، يحكى بأن ملاك التدمير قد وقف وظهر لداود ، وقد تولى هذا الملاك نفسه قتل آلاف كثيرة من الشعب الاسرائيلي بسبب الذنب المتعلق بتعداد الناس،الذي أجري بناء على أوامر داود،ولهذا السبب يدعو المسلمون حتى هذا اليوم هيكل الرب باسم«الصخرة»،وينظرون إليه نظرة وقار عظيمة الى حد أن ما من واحد منهم يتجرأ على تدنيسه بأي نوع من أنواع الدنس،كما يفعلون بالأماكن المقدسة الأخرى،ومنذ أيام سليمان حتى الآن يأتون من مناطق بعيدة للتعبد هناك،وكلما استولوا على المدينة المقدسة يقيمون تمثال(كذا)محمد«ﷺ» في الهيكل،ولايدعون مسيحياً يدخل الى الصخرة المتقدمة الذكر حتى هذا اليوم،ولهذا أمر الملك يوشع ملك اسرائيل— وقد رأى أن خراب المدينة بات قريباً رأي العين— بوضع قدس الأقداس في الهيكل في مكان خفي،هذا ونقرأ في سفر المكابيين الثاني أن النبي إرميا توجه الى الجبل الذي صعد ه موسى ،ورأى ميراث الرب

هناك حيث أخذ خيمة العهد ، والتابوت ، ومذبح البخور ، ووضعهم في كهف وجده هناك ، ووقف عند باب الكهف قائلاً: « إنه بالنسبة لهذا المكان سيبقى غير معروف حتى الوقت الذي سوف يجمع فيه الرب شعبه ولسوف يظهر مجد الرب »، وحدث في هذا المكان المقدس والمبجل ، أنه عندما أنهى سليمان عمله ، وكان يقدم أضحية الى الرب ، أن قامت غمامة فملأت البيت ، وظهر مجد الرب ، ونزلت نار من السماء والتهمت تقدمة الحرق والأضاحي ، وملأ مجد الرب البيت ، ولم يتمكن الكهنة من الدخول الى بيت الرب : وهكذا رأى أبناء اسرائيل كيف نزلت النار، ورأوا مجد الرب على البيت، ثم جثا سليمان على ركبتيه وبسط يديه نحو السماء وصلى الى الرب داعياً : أن كل من يدخل الى الهيكل ويسأل شيئاً ما ، على الرب الاصغاء الى دعائه ، وظهر الرب اليه قائلاً:« لقد سمعت دعاءك ، والتقدمات التي وضعتها أمامي ، ولقد قدست هذا البيت الذي بنيته لي ، والآن إن عيني ستظل مفتوحتان ، وأذني تصغيان الى الدعاء الذي يصنع في هذا المكان ، لأنني اخترت هذا المكان لنفسي ، ولنفسي قدسته » ، ونقرأ في سفر المكابين الثاني أنه عندما جرى ارسال هيليود وروس He-liodorus من قبل الملك انطوخيوس (اقرا: سلوقس) ليقوم بخرق حرمة المعبد ، وليأخذ بالقوة المال الذي كان مودعاً بالخزانة ، ظهر هناك فرس على ظهره راكب مرعب ، مزين بغطاء جميل جداً ، وركض الفرس مسرعاً وبحدة ركل هيليودوروس بقائمتيه الأماميتين ، وبدا الذي جلس على الفرس لديه مقود كامل من الذهب ، زيادة على هذا ظهر أمامه رجلان شابان ، عظيما القوة بهيان بالجمال ، وحسنا اللباس ، ووقفا الى جانبه كل واحد منهما على طرف وجلداه بشكل مستمر ، وسددا اليه الكثير من الضربات المؤلمة ، وقيل إنه هنا خدمت العذراء المباركة قبل أن تخطب الى يوسف، وذلك مع فتيات أخريات ، كن يعملن على تجهيز الأوعية والملابس للكهنة

الـذين كـانـوا يـدرسـون الكتابـات المقـدسـة ويصـومـون ، ويتأملـون، ويصلون ، ويـدرسون بحكمـة وبتواضع النصـوص المقدسـة فضلاًعن هـذا عندمـا جلبت من قبل والـديها الى الهيكل ، وهي طفلـة ، لتمثل أمام الرب ، يحكى بأنها صعـدت لوحدها جميع الـدرجات المؤدية الى الهيكل بدون صعوبـة ، الأمر الذي بدا أنه أمراً مـدهشاً في أعين الناس جميعـاً ، ولم يسمع بشيء من هـذا القبيـل قـد صنع مـن قَبل، من قِبل طفل صغير،وحدث في هـذا المكان أنه عنـدما كـان زكريا المقـدس يقدم بخـوراً الى الـرب،أن ظهر الملاك لـه،وأخبره أن دعـاءه قـد سُمع من قبل الــرب—حيـث كـــان جميع الكهنـــة يصلـــون الى الــــرب في وقت البخـور،ويدعـونه من أجل قـدوم المسيح وتخليص الناس—وأضـاف أن زوجته العـاقر إليـزابث ستحمل منـه ولداً،وفي هـذا المكان أحضر مـولانا يسـوع المسيح من قبل والـديه مـع حمامة وفـرخ طـائر،ووضع على ذراعي سمعان،ثم كان أن تحدثت إليهم جميعاً حنـة الأرملة المقدسةفي أن ينتظروا الخلاص في القـدس،وهنـا،عنـدمـا وصل الى سن الثـانيـة عشرة،ولكي يضرب مثلاً على فهمـه ودراسته للكتـابات المقدسـة،جلس وسط الحكماء يصغي إليهم ويسألهم أسئلـة،وهكذا دهش الـذين سمعوه بسبب فهمـه واجابـاته،وعنـدما صعد الى الهيكل للصـلاة،طرد من هنـاك الذين كـانوا يبيعـون ويشترون،وقلب منـاضـد الـذين كـانـوا يقـومـون بتبـديل النقود،وكـذلك مقاعد الذين كـانوا يبيعون الحمام،وألجمهم بقولـه:«سوف يـدعى بيتي بـاسـم بيت الصـلاة»،وصعـد في احـدى المرات الى بـرج الهيكل،حيث حاول الشيطـان إغواءه،بأن اقترح عليه أنـه ينبغي أن يرمي بنفسه الى الأسفل،وعنـدما بـاتت آلامه وشيكـة الوقـوع،كان يتـولى الوعظ والتبشير طـوال النهار،ويـذهب في المساء الى بيت حنينـا،ويعود مع بـزوغ نور الصباح،ولدى مـوته تشقق حجاب هذا الهيكل من الأعلى الى الأسفل حتى يفسح الطـريق نحـو قدس الأقـداس،وسقط من بـرج هـذا الهيكل القديس جيمس الرسول بينما كان يصلي،ثم تلقى تاج شهادته بضربة من

عصا القصار،ويوجد في القدس هيكل آخر له حجم كبير واتساع،ومن خلاله نالت الأخوانية العسكرية للداوية اسم فرسان الهيكل،وكان يدعى هذا الهيكل باسم هيكل الرب،ويقع جبل الزيتون،جبل الخصب،وجبل الزيتون،وجبل الأنوار الثلاثة،وهو التل المقدس والمقبول،على مسافة ميل من القدس، وعلى منحدره تقوم«بيت فاج»، التي تفسر بمعنى«بيت الفك»،وهي قرية الكهنة،وبيت حنينا،وهي قرية: مرثا،ومريم،ولعازر،وهناك دهنت مريم قدمي الرب،ومسحتهما بشعرها،وعندما كانت مرثا مشغولة بصنع قداس للرب،جلس عند قدميها يصغي بتشوق الى الكلمات التي كانت تتفوه بها،وعلى هذا الجبل أقام المسيح لعازر،والى هناك غالباً ماتلطف وتنازل أن يكون ضيفاً،حتى يقوم بالتبشير وصنع المعجزات،وعلى هذا الجبل الأعظم قداسة وتبجيلاً،كان الرب جالساً عليه مقابل الهيكل،عندما سأله حواريوه: ماهي العلاقات التي ستكون حول قدوم حكمه،ونهاية الدنيا؟وغالباً ماذهب الى هذا الجبل مع حوارييه للصلاة،وبخاصة بشكل أكثر كثافة عندما باتت الآلام وشيكة الحصول،وعلى هذا الجبل جرت تحيته بشكل تمجيدي من قبل الأطفال العبرانيين الذين التقوا به،وهم يحملون سعف النخيل،ومن هذا المكان سار منتصراً راكباً على ظهر أتان،مع تراتيل الكهنة،وصعد من هذا الجبل،بحضور حوارييه،بمجد الى السماء.

الفصل الثالث والستون

وهناك أماكن أخرى مقدسة ومبجلة في كل من داخل المدينة وخارجها، نذكر منها:وادي يهوشافاط،بين جبل صهيون وجبل الزيتون،ولقد أخبرنا أنه خلف وادي قدرون هناك قرية صغيرة اسمها جيسماني،وعلى مقربة منها الحديقة التي ألقي فيها القبض على الرب من قبل اليهود،وقد دفنت العذراء المباركة في هذا الوادي،ومن المعتقد أن

الرب سوف يأتي الى هنا ليحكم بالعـالم،وتوجد هنا بركة استحمام سليمان حيث شفي الرجل من العمى،وهناك كنيسـة القديس ستيفن، أول شهيد على تلك البقعـة حيث رجمه اليهود بـالحجـارة.وتقوم قـرية عمـواس على نحـو ستين غلـوة بعيـداً عن القـدس،وعلى مقربـة منهـا مـودين،مـدينـة المكابيين،ومـدينة جبعون أيضـاً على مقربة منهـا،وفي مدينة عمـواس قام الرب بكسر الخبز وبتقـديم الشكر، وكان معروفـاً بينهم تكسير الخبز،وهناك أمـاكن أخـرى كثيرة تفضل الـرب بـزيـارتها وبتقـديسهـا بحضـوره الجسـدي،لأن أي مكـان داسـه الـرب بقـدميـه عـدّه المؤمنـون مقدساً،وكـرسوه،ومن الآثار الثمينة،ولاعجـب— بناء على هذا—أن أرض الميعـاد تفيض بـالحليب والعسل،وهي أطيـب ريحاً من العطـور،ولهذا جـذبـت الى نفسهـا ليس فقط رجـال الـديـن،أو العلمانيين،بل كل من الفرسـان والمدنيين، جذبتهم الى حد التخلي عن آبائهم وعن مـاورثوه عن أسـلافهم، وعاشـوا هنا في ظل نظـام مـا، وبعض هؤلاء في القـدس هم الاسبتارية،أو أخـوانية مشفى القديس يـوحنا،وآخرون هم أخوانيـة فرسان الـداويـة،وآخـرون أيضـاً هم أخـوانيـة مشفى القـديسـة مـريم من الألمان(التيوتون).

الفصل الرابع والستون

كـانـت بـدايـة مشفى القـديس يـوحنـا في أيـام السريـان والأرثوذكس(الاغـريق) عندمـا كانت المدينة المقدسة مـاتزال تقبع تحت سلطان المسلمين، على النحـو التالي: ومهما يكن الأمر،فقـد حدث بسبب آثامنـا، أنه في الـزمن الذي سيطـر فيه المسلمـون سيطرة كـاملة على جميع أرض الميعـاد،مع هذا كـره كثيرون من المسيحيين من الأمة السـورية تـرك بـلادهم، واستمـروا يعيشـون بين المسلمين، مع أنهم أنـزلـوا الى حـالـة متدنيـة،واضطهدوا بنير للعبوديـة شديـد،وكان أمير مصر،الذي كـان سيداً

لجميع البلـدان من اللاذقيـة في سورية حتى الاسكنـدرية التي هـي أبعد مدينة في مصر،قد منح ربع مدينة القدس الى جانب الضريح المقدس الى السريان وبطريكهم للسكنى فيه،آخذين بالاعتبـار دفع جزية سنوية، هذا وسكن المسلمون في الأجزاء الثـلاثة الأخرى، وكان المسيحيـون قد اعتادوا على القـــدوم من الغـــرب الى أرض الميعـــاد،بعضهـم من أجـل التجـارة،وعـرض بعضهم أنفسهم الى مخاطـر عظيمـة وجـاءوا بـدافع من ايمانهم للقيـام بالحج،لـزيـارة الأماكن المقـدسـة،وكانـوا يـدفعون الجزيـة للمسلمين، وكان بعضهم من اللـومبارد وخاصـة من الأمالفيين،أي أهل مـدينة أمـالفي،التي .لاتبعـد أكثر من سبعـة أميـال عن مدينـة سـالرنـو المجيـدة،وكان هـؤلاء يجلبـون التجـارات الأجنبية،وقـد جعلـوا أمير مصر صـديقـاً لهم بإعطـائه الجزيـة وهـدايـا،وقـد حظيـوا بمكـانـة عليـة لديـه،وبسهولة أقنعه هـؤلاء الناس في أن يسمح لهم ببناء كنيسـة لاتينية تبعد رميـة حجر عنهـا، وكان السبب لهذا هو أن السـوريين كانـوا يتبعون عادات وأحكام الكنيسة الأرثوذكسية (الاغـريقية) أثناء أدائهم للقداسات الدينيـة،وبناء عليه ماتـزال هذه الكنيسة المتقـدمة الذكر حتى هـذا اليوم تعرف بكنيسة القديسة مريم لـلاتين،ذلك أنهم أقاموا هناك راعي دير مع رهبـان يتـولـون إدارة القـداسـات وفقـاً للطقـوس الـلاتينيـة،ومع مـرور الأيـام،كان الـدير المذكـور بلا أسـوار،وقـد رأى الرهبـان فيه أنـه من غير اللائق تمكين النسـاء من الحجاج من الإقامـة فيه،ولهذا أسسوا ديـراً آخر كرسـوه للقديسة مـريم المجدلية،وجعلـوا فيه أخـوانية نسائيـة من النساء المتـدينـات،ليتـولين شـؤون النساء الـلاتينيـات في ذلك المكـان والترفيـه عنهن،وفيما بعـد ومع تدفق الحجـاج الى هنـاك ،ولكون الـديرين سـالفي الذكر لم يعودوا يكفيان لإقامـة الفقراء والمرضى والمصابين من الناس،قام راعي الديـر المتقدم الذكـر والرهبان،بـاختيار مكان في الموقع نفسـه بجوار كنيستهم،فبنوا مشفى وبيعة لاستخدام النـاس المرضى والفقراء،وكرسوهما للقديس يـوحنا المعطاء،وكان هـذا الرجل المقدس،مرضيـاً من قبل الرب

وجديراً بالثناء في كل شيء،وكان قبرصياً من حيث الانتماء،وبفضل قداسته جرى تعيينه بطركاً للاسكندرية،ولأنه كان متميزاً بكرمه وبالأعمال التقوية الأخرى، صار يدعى باسم«المعطاء»،أي أن تقول«المحسن»، ورأى في البداية راعي دير القديسة مريم اللاتيني أن المشفى المتقدم الذكر أو الـ Xenodochium ،أي مشفى القديس يوحنا كان بلاموارد وليس له لاميزانية ولاممتلكات،وبحكم مكانته الدينية السامية،اعتاد أن يزود المرضى والمحتاجين من فتات الطعام وفضلات الموائد في الديرين،ومن خلال صدقات المؤمنين،لكن عندما تفضل الرب برحمته فأمكن بوساطة الدوق غودفري وبقية الشعب المسيحي المؤمن،تحرير مدينة مخلصنا من الكفار واعادتها الى الديانة المسيحية، كان هناك رجلاً صاحب حياة مقدسة، وإيمان مجرب،اسمه جيرارد،قد قام بناء على طلب من راعي الدير بادارة شؤون الفقراء من الناس في المشفى المتقدم الذكر،لمدة طويلة وبإخلاص،وكان يعاونه آخرون من الرجال الشرفاء والمتدينيين،وقد أخذ الجميع على أنفسهم عهد الرهبان النظاميين، ووضع هو صليبا أبيض على ثيابه الخارجية فوق صدره،وربط نفسه بميثاق للاحتراف رهيب،في أن يرعى جميع أحكام النظام والعادات الحسنة،وانضم اليه في ادارته لشؤون الفقراء سيدة اسمها أغنس،وكانت من أصل روماني،وكانت نبيلة من حيث الانحدار الجسدي،لكنها كانت أعظم نبلاً فيما يتعلق بحياتها المقدسة، وكانت قد شغلت منصب راعية دير للنساء،وأخذت على نفسها الآن العهد بمراعاة أحكام النظام نفسها مع الحياة المتواضعة،وخدمت الأخت المتقدمة الذكر الرب بتواضع واخلاص، وأدارت بنشاط شؤون الفقراء والمحتاجين،وكانت تتولى دفن الموتى منهم في حقل حمل اسم أكلداما،أي حقل الفاخوري،وكان قد شري من قبل اليهود لدفن الغرباء،وكان ثمنه ثلاثين قطعة فضية،ألقاها يهوذا في الهيكل،وطوال الوقت الذي كانوا فيه فقراء لم يرفضوا طاعة راعي دير القديسة مريم

للاتين واحترامه،لأنه هو الذي أسس المشفى سالف الذكر،وأطعم فقراء مرضاه من مائدته،وقد احترموا أيضاً احتراما زائداً القديس يوحنا المعطاء،لأنه راعيهم الأول ومعينهم،ولأنه المدافع المسؤول عنهم وعن مشفاهم أمام الرب،واعترفوا به شفيعاً لهم وسيداً،وفي الوقت نفسه أطاعوا بإخلاص السيد بطريرك القدس،ودفعوا له بدون تردد عشر بضائعهم وذلك تبعاً لقوانين ومفاهيم العهدين القديم والجديد،وكانوا ملازمين للصلاة،ينهكون أنفسهم بالصوم وبالسهر،ويكثرون من أعمال الرحمة،وعاشوا عيشة تميزت بالاقتصاد والتقشف بالنسبة لهم أنفسهم،غير أنهم اعتادوا على الانفاق بسخاء على الفقراء الذين اعتادوا على دعوتهم باسم«سادتهم»، وكانوا يؤثرون المرضى بخبز القمح النقي،ويبقون النخالة لاستخدامهم الشخصي،وكان إذا ما أذنب واحد منهم واقترف أي خطيئة،لم يتركوه مطلقاً دون عقوبة،خشية أن يؤدي التساهل تجاه الذنوب الى التشجيع على اقترافها، وكانوا يعالجون الأمر حسبما يقتضيه الحال، بالنسبة لدرجة الذنب ووضع المذنب،فبعض هؤلاء كان ينزع الصليب من على ملابسهم، ومن ثم يطردون وينبذون تماماً كأنهم أعضاء فاسدين،وكان بعضهم يصفدون بالسلاسل ويودعون في السجن،وكان يقضى على بعضهم الآخر بأكل وجبات ضئيلة جداً على الأرض عند أقدام أخوانهم،حتى يكونوا قد أدوا الكفارة المناسبة، وكانوا محبوبين من قبل الجميع،لأن الرب كان معهم،ولهذا مضى صوتهم في البلاد كلها، ووصل صيت تقواهم الى أواخر الدنيا،وكان بعدما جرى استرداد الأرض المقدسة أن تقاطر الناس المؤمنون من كل أمة، وعشيرة ولغة على القدس، لزيارة ضريح الرب،وأصبحوا بفضل مساعدات الأمراء وصدقات المؤمنين في وقت قصير أغنياء جداً، وحصلوا على موارد وافرة من كل بلد في الغرب، وصاروا متملكين لبلدات وقرى ،وتملكوهاوأداروها وكأنهم سادة البلاد.

- ٢١٣٠ -

الفصل الخامس والستون

والآن بعد هذا، أخذ الناس مع مضي الوقت من جميع أجزاء العالم، من بين غني وفقير، وشاب وفتاة،وشيخ وطفل، أخذوا بالذهاب الى القدس لزيارة الأماكن المقدسة، واعتاد بعض اللصوص، وعصابات الرجالة، وقطاع الطرق على نصب الكمائن للحجاج غير الحذرين، ونهبوا كثيراً منهم، كما قتلوا بعضهم، وهنا عزم بعض الفرسان الأتقياء، الذين أحبهم الرب،بدافع من العاطفة المتشوقة لأداء الاحسان، الأمر المشهور في العالم، فجعلوا من أنفسهم عبيداً مكرسين للمسيح،وبواسطة الاحتراف الديني، ويمين التكريس،أوقفوا أنفسهم على الدفاع عن الحجاج ضد اللصوص المتقدمي الذكر،وكذلك حراسة الطرق العامة، والعيش مثل الرهبان النظاميين في الفقر والعفة والطاعة،حسبما يليق بجنود ملك الملوك،وكان مقدمومهم رجالاً محترمين مبجلين، يحبهم الرب:هيودي بينزPayens ،وجيوفيري دي سينت أومر،وفقط انخرط في البداية تسعة في هذا المشروع المقدس، وظلوا يخدمون لمدة ثمانية أعوام، يرتدون لباساً مدنياً،وذلك حسب مانالوه من الصدقات، وقام الملك مع فرسانه، وقد رحموا وعطفوا على هؤلاء النبلاء السالفي الذكر،الذين تخلوا عن كل شيء من أجل المسيح، وتعاونوا مع السيد البطريرك،فدعموهم من مصادرهم الخاصة، وأعطوهم فيما بعد الهبات والمنح من أجل راحة أنفسهم،وبما أنهم لم يكونوا قد تملكوا بعد أية كنيسة خاصة بهم أو أي مقر إقامة محدد، سمح لهم مولانا الملك بالاقامة لبعض الوقت في قصره،قرب هيكل الرب،وأعطاهم راعي دير هيكل الر ب مع رهبانه مكاناً مكشوفاً،امتلكوه قرب قصر الملك لاستخدامه مكاتب لهم، وبما أنهم سكنوا قرب هيكل الرب، عرفوا فيما بعد باسم«أخوانية فرسان الهيكل» وبعدما أمضوا تسع سنوات في هذا الاحتراف ،وفي فقر

مقدس،عاشـوا حياتهم بشكل جماعي بفقـر مقدس،وبعدما أقـاموا بوئام وبتفكير واحد في البيـت،حدث في سنة النعمةلـ ١١٢٨، في ظل رعـاية مـولانا البـابا هـونوريـوس، والمولى ستيفـن بطريـرك القدس،أنهم منحـوا نظاماً(طريقة)ورداءً ابيض بدون صليـب مطلقاً،وجرى اقرار هذا في مجمع عام عقد في ترويTroyesفي شامبين تحت رئاسة المولى أسقف ألبا،نائب الكرسي المقدس،وذلـك بحضور رئيسا أساقفة الرايمـس وسنس،ورؤساء الديـرة السستر شيانية، ورؤسـاء كنائس آخـرين، وحدث بعـد هذا، أنهم قاموا في أيـام مولانا البابـا يوجينوس(الثالـث:١١٤٥—١١٥٣)، بتعليق صلبـان حمراء على الجوانب الخارجيـة مـن ملابسهـم، واستمـروا بارتـداء الملابـس البيضـاء بمثابـة رمـز على البراءة، وأشـاروا بوضعهـم للصلبـان الحمراء الى الشهادة، ووفقاً لشروط أحكام نظامهم، كانوا مكرسين لسفك دمائهـم دفاعاً عـن الارض المقدسة،وليتغلبوا بـرجولة على أعـداء صليب المسيح،ولطردهـم وابعادهم عن حـدود المسيحية، وكانوا يبـاشرون القتال بناء على أمر قائدهم، وليس الاندفـاع بشكل فوضوي، بل العمل بحكمة مـع جميـع الاحتياطـات، وذلـك أنهم كـانـوا أول مـن يهاجم وآخـر مـن يتراجع، ولم يكن مسمـوحاً لهم بادارة ظهورهم والفـرار ولا التراجع بدون أوامر، وهكذا بـاتوا جند المسيح الأقـوياء والشجعان، مثل جيـل ثان من المكابيين، الذيـن لم يعتمدوا على قواهم الخاصة،لكن كـان أملهم في قوة الرب، وكـانت ثقتهـم كلها في صليب يسـوع المسيح،ولقـد عرضـوا من أجله أجسادهم للموت، التي كانت ثمينـة جداً في نظر الرب،ولقد قاتل الرب معهم، وقاتـل من أجلهم، وهكذا باتوا مـرعبين جداً لأعداء الايمان المسيحـي،حتى اعتـاد واحد منهـم على مطاردة ألـف وألفين منهم،لابـل عشرة آلاف، ولدى استدعائهم لحمل السلاح، مـاكانوا يسألون كم عدد الأعـداء الـذيـن كـانـواهنـاك،لكـن أيـن هـم،فلقـد كـانـوا أسـوداً في الحرب،وودعاء مثـل الحملان في البيـت، وكانـوا على أرض القتال جنـوداً حـاديـن،وكـانـوا في الكنيسـة مثل النسـاك أو الـرهبـان، وكـانـوا قسـاة

ومتـوحشين نحـو أعـداء المسيـح، لكنهـم كـانـوا لطفـاء وخيريـن نحـو المسيحيين، وكانت رايتهـم بيضاء وسوداء،أسموهـا بوسنتBauceant، حملـوهـا أمـامهـم، وكـانت تـدلـل على أنهم كـانـوا لطفـاء ورحماء نحـو أصـدقائهـم، لكنهم سـود، ومـرعبين نحو أعـدائهم، والآن وقـد رأوا أن الحماسة الـدينية لايمكن الحفاظ عليهـا من دون نظام دقيق، أقـدم هؤلاء الـرجـال العقـلاء و المؤمنين منـذ البـدايـة على تحصين أنفسهـم، واتخاذ الاحتياطات مـن أجل الادارة الجيدة لخلفائهـم من بعدهم، وبـالعزم على عدم التراخـي المطلق، أو ترك أي اهمال أو خـرق لنظام أخوتهم، وكـانوا يزنـون بكل عنـاية، ويقيسـون بالتمام بشـاعة الجريمـة، وظروف المذنـب، ولقد انتزعوا مـن بعضهـم صلبانهم وطردوهم طرداً أبـدياً ،خشية أن ينقل الجدي المريض العدوى الى جميع قطيع الماشيـة، وحكموا على آخرين بأن يأكلـوا وجبات صغيرة جـداً على الارض، من دون غطـاء للمائدة، وذلك أن قيـامهـم بـالتكفير عـن ذنـوبهم بشكل منـاسـب،وبـوسيلـة الإهـانـة العلنيةهذه،يمكن أن يتوردوا خجلاً، ويمكـن للآخرين أن يخافوا، وزيادة في فوضـاهم وعقـوبتهم لم يكن يسمـح لهم بطرد الكـلاب الذيـن أكلوا معهم،وجرت العادة بـالنسبة لآخرين بصفدهم بالسـلاسل، وسجنهم إما لـوقت محدد، أو لمدى الحيـاة، وبعد هـذا،ووفقاً لما يـرونـه مناسبـاً، كـانـوا يطلقـون سراحهم مـن سجن جهنـم،ووفـق طرائق أخـرى، تبعاً لمـبادىء انظمتهم بشكـل عام، بما أنهم كـانوا متمرديـن ومعانـدين رافضين للسير وفقاً لطرائق وأحكـام النظام، والمحادثة المشرفـة، وقد أظهروا طاعـة لائقة واحتراماً وتـواضعاً للمـولى بطريـرك القدس، الـذي يدينـون له بتـأسيس حـركة رهبنتهـم، وتزويـدهم بـالأشياء الـدنيويـة،بإعطـاء العشور وبقيـة الأشيـاء الـدنيـويـة وفـق قـاعـدة:«أعـط مـاللـرب للـرب،ومـا لقيصر لقيصر»(لـوقـا:٢٠ متى:٢٣)،ولم يشكلـوا عبئاً على أي أحـد، بل كـانـوا محبوبين مـن قبل الجميع، بسبـب تقواهـم وتواضعهم، وهكـذا حدث أن انتشرت شهرتهم مع مجدهم،وسمعة قداستهـم في جميع أنحاء العالم، مثل

وعاء البخور ذي الرائحة الفواحة، ولقد ملأ عبيرهم جميع البيت للكنيسة المقدسة،وكانت ذكراهم حلوة مثل العسل في فم جميع المؤمنين،ولسوف تتم تلاوة أخبار شجاعتهم، ومعاركهم، وانتصاراتهم الرائعة على أعداء المسيح في جميع كنائس القديسين، وحذا حذوهم فرسان من جميع أجزاء العالم— ليس الفقراء فقط، بل دوقات وأمراء— فحطموا قيودهم الدنيوية، وتنازلوا عن كل شيء في سبيل المسيح، وتدفقوا عليهم،عن رغبة منهم بالانتماء الى رهبنتهم الدينية:لقد تخلوا بالكامل عن جميع مظاهر الابهة،وغرور هذه الدنيا، وجميع مسرات الجسد، ونظروا إليهم على أنهم مجرد قذارة، وفي ظل الهام رباني تبنوا بإيمان عظيم، خدمة المسيح، وتواضع الرهبان، ولهذا تزايد عددهم في وقت قصير كثيراً، حتى بات لديهم في ديرهم أكثر من ثلاثمائة فارس،جميعهم يرتدي الأردية البيضاء، وذلك دون أن نحسب رجال الخدمة الذين كانوا لا حصر لهم، وقد تزايدوا بشكل استثنائي بوساطة ممتلكاتهم على كل من هذا الجانب وفيما وراء البحار،ذلك أنهم تملكوا القرى،والمدن والبلدات،وذلك وفقاً لطرائق أخوانية مشفى القديس يوحنا،حيث اعتادوا على ارسال مبلغ محدد كل سنة من أجل الدفاع عن الارض المقدسة،وذلك الى مقدمهم الاعلى،الذي كان مقره الرئيسي في القدس،ووفق الطريقة نفسها أرسل أمناء صناديق بيوت رهبانية مشفى القديس يوحنا— الذين يدعونهم باسم المعلمين— مبلغاً محدداً سنوياً الى مقدمهم الاعلى، لأن أخوانية المشفى المتقدم الذكر،في تقليد منهم لفرسان الهيكل أذرعة الجسد،تقبلوا الفرسان مع أتباعهم في زمرتهم،ربما ليتحقق ماتكلم به النبي إشعيا حول قيام الكنيسة ووضعها الذي ستكون عليه:«سوف أجعلك فخراً أبدياً فرح دور فدور»(إشعيا:٦٠ / ١٥)،وقوله ثانية:«الذئب والحمل يرعيان معاً والأسد يأكل ومعهما ستسكن الأغنام»(إشعيا:٦٥).

الفصل السادس والستون

والآن،بما أنه ليس من السهل قطع الثلاثي البرم،تفضلت الحكمة الربانية باضافة بيت ثالث الى البيتين المتقدمي الذكر،وهو بيت كانت الارض المقدسة بحاجة ملحة إليه،وقدتشكل وفقاً لنظامي البيتين الآخرين، واتبع هؤلاء الرجال أحكام وتنظيمات رهبانية فرسان الهيكل في كل من السلم والحرب،وكانوا مثل أخوانية مشفى القديس يوحنا يقدمون العون الى المرضى والغرباء وآخرين في مشفاهم، الذي عرف باسم مشفى القديسة مريم للتيوتون في القدس،وأن يكونوا جيدين،ويقدموا خدمة كافية مع جميع التقوى والتبجيل بطاعة وتواضع للمولى البطريرك ولبقية رجال الكنيسة الآخرين،وقدموا الأعشار الكاملة عن كل ماامتلكوه، تماشياً مع متطلبات الشريعة والأوامر المقدسة،وألا يسيئوا الى رؤساء الكنائس، وهؤلاء الذين بدأوا من مصدر ضئيل ومتواضع،قد ازداد حجمهم الى نهر عظيم، وقد خدموا القديسة مريم راعيتهم بتقوى وتواضع،لأنها جعلتهم يزدهرون، وأعطتهم الزيادة في كل من الأشياء الدنيوية والروحية، وبعدما جرى استرداد المدينة المقدسة المتقدمة الذكر،سكنت هذه المدينة من قبل المسيحيين وكثير من التيوتون والألمان الذين ذهبوا الى القدس للحج، وكانوا غير قادرين على التحدث بلسان أهل المدينة، وهنا ألهم الرب واحداً من أعيان التيوتون ومتدينيهم،ممن سكن في المدينة مع زوجته، ألهمه لبناء مشفى على حسابه الخاص،حيث يمكن فيه استضافة فقراء ومرضى التيوتون،لكن بما أن كثيراً من فقراء الحجاج اعتادوا على ارتياد بيته،حتى يمكنهم التكلم باللغة التي عرفوها،قام بموافقة من البطريرك، بإرادة طيبة فبنى بيعة خاصة قرب المشفى المتقدم الذكر، وكرسها لأم الرب،مريم المباركة، وقام لوقت طويل، وفي ظل فقر عظيم، بمعالجة شؤون المرضى والمحتاجين

من مـوارده الخاصة، ومن المساعـدات التي كان يجمعها مـن المؤمنيين،ثم إن بعض النـاس، وبشكل رئيسي من أمـة الألمان، عندما رأوا صـدقات الرجـل المتقدم الذكـر، وأعماله الجيدة،تخلوا عـن كل ماامتلكـوه، وخلعوا ووضعـوا جانبـاً ثيابهم الـدنيـوية،وربطـوا أنفسهـم بعهد،حيـث كرسـوا أنفسهـم للـرب،وللمشفـى المتقـدم الذكـر، لخدمـة الفقـراء، ومـع مضي الوقت، وبما أنه ليـس فقط فقراء الناس،بل الفرسـان الأتقياء والنبلاء من ألمانيـا،قطعـوا على أنفسهـم عهـود المشفى السـالـف الـذكـر، واختـاروا لأنفسهـم عن طـواعية الفقـر،وفضلوا أن يسكنـوا كرجـال فقراء في بيـت ربهم على أن يسكنوا في خيـام غير الاتقياء، واعتقدوا أنـه سيكون مـرضياً للرب ومقبولاً لديه ليس مجرد معالجة شؤون المرضى والمحتاجين،بل أيضاً أن يكـرسوا حيـاتهم مـن أجل المسيـح،في أن يصبحـوا جنود المسيـح في الجسد وكذلـك بالروح، بالقيام بـالدفاع عن الأرض المقدسـة ضد أعداء المسيـح،وبناء عليـه،لقد تبنـوا—كما قلنا مـن قبل— أحكـام وممارسـات فـرسـان الهيكـل،وفضـلاً عـن هـذا حتـى لايتخلـوا عـن أعمال التقـوى والضيـافة التـي تـرضي الرب،مثـل مخلـوقات الكتـاب المقـدس، الذيـن امتلكوا في وقـت واحد وجـه انسان ووجـه أسد، صرفـوا أنفسهم بتقـوى عظيمة وبحماس للعمـل في المجالين معـاً،وبذلك نـالوا النعمـة والحظوة لـدى كل مـن الرب والانسـان،ولكي يتميـزوا ارتدوا صلبـاناً سـوداء على عبـاءات بيضاء فضفـاضة، واستمـروا حتى هـذه الأيام في فقـر وتواضـع وغيرة دينية، وإننـي أدعو الى الرب حتى يحميهـم من الثروة، التـي تجعل النـاس متكبريـن،وجشعين، ومشـاكسين، وممتلئين بالقلـق، ومـن أعـداء الدين،لأنه مالذي سيفيد الانسان إذا ربح العالم أجمع وخسر روحه.

الفصل السابع والستون

فضلاً عن هذا،ازدهرت الأرض المقدسة مثل حديقة للبهجة، وذلك بكثير من التنظيمات الكهنوتية، وبأشخاص متدينين،ونساك ورهبان،وكهنة، وراهبات، وعذارى منقطعات كرسن أنفسهن للرب،وأرامل عفيفات مقدسات، وعبقت بشذى عطر جميل كأنه صادر عن الورود، والزنبق،والبنفسج،وبارك الرب بداية السنة بخيراته، وجعل القفار زاخرة الى حد أن الأماكن التي كانت تقطنها التنينات والأفاعي كان هناك نباتات خضراء وقصب، ومع أن الرب كان قد تركها لبعض الوقت مقفرة،غير أنه بحبه العظيم ولطفه قد جمع أبناءها وحشدهم، وجعل الارض مكتظة بالسكان من مختلف الاعراق،ومختلف الالسن والامم،حيث بدا هناك تحقيق النبوءة القائلة:«يأتي بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الايدي،حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأن تتحول إليك ثروة البحر ويأتي غنى الامم»ورأت البلاد ذلك جليا، فتعجبت، وكان قلبها مسروراً،عندما تدفقت الحشود الى هناك من البحر،خاصة من جنوى،والبندقية وبيزا،وإليها جاءت قوى الامم لاسيما من فرنسا وألمانيا،وجاءها رجال الحرب، وكانت الامة الاولى أكثر قوة في البحر،أما الثانية فكانت أقوى على الارض،والامة الاولى أفضل في القتال البحري، وأحسن قدرة على القيام بمعارك فوق وجه الماء بوساطة ممارساتهم واستخداماتهم.

أما الآخرين فكانوا جنوداً أحسن على الارض، وبارعين في الحرب،ومقاتلين أشداء على ظهور الخيول بوساطة السيف والرمح، وكان مجد المتقدمين في غلايينهم،والمتأخرين في خيولهم.والايطاليون أكثر جدية وبراعة، ويتسمون بالحكمة والحذر،ومقتصدين بالاكل، ومعتدلين في الشراب،ويلقون خطابات طويلة ومنمقة،ويتسمون بالعقلانية في

استشاراتهم،وغيورين ومتحمسين على توسيع مصالح دولهم،ولديهم الحرص والزاد للمستقبل،ولا يرغبون بالخدمة تحت إمرة الآخرين، ويدافعون عن حريتهم فوق كل شيء، وهم يصنعون شرائعهم وأحكامهم الخاصة بهم تحت إمرة مقدم من اختيارهم، ويحافظون عليها بشكل دقيق،والارض المقدسة بحاجة إليهم،ليس فقط من أجل القتال،لكن من أجل أعمال الملاحة،ونقل التجارات،والحجاج،والأطعمة،ولأنهم يقتصدون بالطعام والشراب،أمكنهم العيش في الشرق أطول من الأمم الغربية الأخرى.

وإن الالمان، والفرنسيين،والبريتانيين، والانكليز،والآخرين من وراء الألب، أقل جدية، وأكثر كسلاً، وأقل عناية في معاملاتهم، وأكثر إسرافاً في المأكل والمشرب،وأكثر تبذيراً في النفقات،وأقل حذراً في الكلام،ومتسرعين وأقل حكمة في خططهم،وفي الكنيسة أتقياء، وأكثر إحساناً في تقديم الصدقات وبقية أعمال الرحمة،وكانوا أكثر شجاعة في القتال،ولاسيما البريتانيين منهم،فهؤلاء صالحين جداً للارض المقدسة،ويخافهم المسلمون الى أبعد الحدود، ونظراً لإفراطهم بالمسكرات ولطيشهم دعاهم البوليان باسم الحمقى،والبوليان هو اسم أطلق على الذين ولدوا في الارض المقدسة بعد تحريرها،إما لانهم كانوا قادمين جدد— وكأنهم فراخ، أو مقارنة بالسوريين— أو لأن القسم الأكبر من أمهاتهم— تبعاً للجسد— كن من الامة الأبولية،لأنه كان بين شعبنا الذين جلبوا الى الأرض المقدسة هناك عدد ضئيل من النساء،مقارنة بالرجال الذين كانوا في جيش الأمراء الغربيين، والذين بقيوا في الأراضي المقدسة استدعوا نساء من مملكة أبوليا،لأنها كانت الأقرب الى الأرض المقدسة من سواها،وتزوجوا منهن،وعلاوة على ذلك في الأراضي المقدسة المتقدمة الذكر كثير من الأمم الأخرى، مع عادات مختلفة، وهم يختلفون كثيراً عن بعضهم بعضاً في قداساتهم اللاهوتية وطقوسهم الدينية،ونذكر

منهـــم: السريـــان، والأرثـــوذكـــس، واليعـــاقبـــة.والموارنـــة، والنساطـرة،والارمن،والكـرج،الذين لهم فـائدة كبيرة للأرض المقـدسة،ولها بهم حاجـة عظيمة من أجـل التجارة، والزراعـة،والمصالح الأخـرى،ذلك أنهم يبذرون الأرض، ويغرسون الكروم،لتعطيهم غلالاً أكثر.

الفصل الثامن والستون

وعندمـا رأت الارض المقدسة أن الغيوم أنـزلت الخصب،بنـاء على أمر الـرب،أعطـت ثمارهـا،وركـض الناس هنـاك بمـرح،تماشيـاً مـع البهجـة بالحصـاد، وفعلوا كما يفعل الناس عنـدما يقتسمون الأسلاب،ونـادى نبي نبي آخـر، والذين سمعوه،سمعـوه يقول:« هلم نصعد الى جبـل الرب،الى بيت إله يعقوب»(إشعيا:٢ / ٣)،لأن الرب زار الأرض،وباركها، وجعلها مثمرة جداً، ليس فقـط من سبأ،بل من جميع أنحـاء العالم،جاءوا يحملون الـــذهـب والبخـــور الى القـــدس،معلنين الحمـــد للـرب،وكـــان ضريحه ممجداً،ولهذا إن النبوءة قد تحققت حرفيـاً:«سيتأسس جبل بيت الرب على قمة الجبال،وسوف يعلو على جميع التلال،وسـوف تتدفق جميع الأمم إليه، ولسوف يذهب كثير من الناس....... وسيقـولون عن القدس الذي نقرأه في سفـر طـوبيـا: تتـلألئين بسنـــى بهيـج، وجميـع شعـوب الأرض لـك يسجـدون . تـزورك الأمـــم مـن الأقـــاصي بقـرابينهـــا وتسجـد فيـــك للرب»(طوبيا:١٣ / ١٣— ١٤)،ثـم شوهد أنه قد تحقق فيهـا مالم يحققه الرب في أيام اليهود،حيـث ورد مكتوباً في سفر التثنية:«كل مكـان تدوسه بطون أقـدامكم يكون لكـم. من البريـة ولبنان.من النهـر نهر الفرات الى البحـر الغربي يكـون تخمكـم»(تثنيـه:١١ / ٢٤)،والآن عندمـا تنفثـت كروم الـرب المتقدمـة الذكر شـذى حلواً يصل حتـى الى نهاية البـلاد،لن يستطيع الثعبـان القديم، والتنين السام،عـدو البشرية،تحمل هـذا الأريج لـوقت طـويـل،ولاسيما عندمـا يـرى التغيير العظيم الـذي أحـدثته اليـد

اليمنى للعلي الأعلى في الشرق،والتهديد الخطير، ومن ذلك نذكر وجوب اتساع الكنيسة المقدسة،وانتشار العبادة اللاهوتية،واضطراب الكفار،وسرور المسيحيين وارتفاع شأنهم، ووجوب تجدد شارات ومعجزات،مثل نزول النار في عيد الفصح من السماء على كنيسة قيامة الرب،واجتماع الناس معاً بإيمان لإظهار مجد الرب،ولتعظيم أعماله الرائعة،ولكي يتقلص الكفار،وليبتهج المؤمنون بالرب،والذي أبهره النور العظيم، وأصيب بجرح مميت،بسبب شروره،بدأ يتحرك ويخطط، ويبدع خططاً متنوعة،يمكنه بوساطتها صب سمومه بشكل سري،ويجتث كرم الرب،ويبذر بيقية في حقل الرب.

الفصل التاسع والستون

وبحث(الشيطان عن مكان) يرتع فيه،فلم يجد في البداية أحداً بين أوائل الحجاج،الذين كانوا مايزالون فقراء،أضنتهم المتاعب الكثيرة،لكنه وجد في النهاية بيتاً كان فارغاً ،نظيفاً ومزيناً، والمقصود بهذا:رجال الترف، الذين كانوا يعيشون بدون خوف، والذين ازداد قمحهم وخمرهم وزيتهم،والذين كانوا ممتلئين حتى الثمالة بجميع الامتعة الدنيوية،ثم اتخذ سبعة أرواح أخرى أكثر شراً منه نفسه،أو بالحري أن تقول اتخذ سبعة ذنوب مميته،وقد دخل في هؤلاء الناس،الذين أدى بهم كفران النعمة الى الانحطاط،وباتت حالتهم الأخيرة أسوأ من حالتهم الأولى،ولقد أنتنت جراحهم، وفسدت بسبب حماقاتهم،ولقد سمنوا وغلظوا واكتسوا شحماً،ومن بين غناهم وترفهم ظهرت شرور الحماقات،وعندما أكلوا حتى شبعوا،اقترفوا الزنا،وحشدوا أنفسهم على شكل أرتال في مواخير الزواني، حتى أنهم تدفقوا مثل الماء،وسعوا وراء شهواتهم الجسدية،ولم يصبوا من إناء الى إناء،بل استلقوا مثل البهائم في روثهم، وكانوا مثل الخيول المعلوفة، يصهل كل واحد منهم خلف زوجة جاره، وقد تلاشوا وتبددوا،

ولم يعـودوا يرون الشمـس،ولقد أداروا عيـونهم نحـو الأرض، لأنهم كانـوا متكبريـن، ومتعجـرفين،ورافضين،ومتمـرديـن،يقـاتـل أحـدهـم الآخـر، ويـذرعـون الخلاف بين الأخـوة، وكـانـوا كـريهين،استسلمـوا الى السحـر والشعوذة، والى الغضـب وعدم العـدل،وعرفوا بـالكسل والفسـاد،وغلب عليهـم الجشـع، يكثرون مـن الشرب،تـراهـم سكـارى ،تلوثـوا بـالشرور والآثـــام،لصـــوص،وقطـــاع طـــرق،يمارســـون اللـــواطـــة،ورجـــال دمويين،وخـونة،وعاقين لـوالديهم وللشيوخ، وكـانوا حمقى سـاذجين،ليس لديهم، لااخـلاص،ولارحمة،ونستخدم بحقهم كلمات النبي:«لعـن وكذب وقتل وسرقـة وفسق يعتنفون ودماء تلحـق دماء»(هو شـع:٤ / ٢)، وبناء عليـه وسع الشيطـان حـدود نفسه بـلا نهايـة، وأعدّ أمـاكـن لكل رذيلـة وجريمـة ليسكن فيهـا، ووسع تعـذيبه كثيراً، وهكـذا اتجهت أفكـار جميع هؤلاء الناس الأشرار نحـو الشيطان، ولقد أفسدوا طـريقهم على الأرض، وتبددت جميع الطيبـة، والتدين الحقيقي، وفترت حماسـة الكثيرين وغدت باردة، ولم يجد ابـن الانسان إيماناً على الارض،لأنـه بات مـن النادر إيجاد أي واحـد يمكـن أن يبـدي تمييـزاً بين المقـدس والمدنـس،أو بين الثمين والرخيـص،وكان الجميـع منحدرين نحـو الدمـار،والفوضـى،ومن أخمص القدمين الى قمـة الرأس، لم تكن هنـاك سلامـة فيهم،وصار النـاس سواء الكهنة فيهم والناس العاديين.

الفصل السبعون

لنبدأ بمعبـد الرب،الذي يـدفع العالم كلة تقـريباً له الجزيـة على شكل صدقـات وتقاديـم قرابين،ويقـدمون مختلـف أنواع الأعطيـات الى رؤساء الكنـائس، والكهنة النظـاميين ،ولقـد أطعـم الرعـاة أنفسهـم بـأخذهـم الصوف والحليـب من قطعانهم،دون إعطاء أي اهتمام لأرواحهـم،بل إنهم ضربوا مثـلاً للذين أدنـى منهم،مثل ثـور سمين في جبال السامـرة ،ولقد

أصبحوا أثـرياء مـن خـلال فقـر المسيح،ومتكبريـن مـن خـلال تواضعه،ووقحين مـن خلال حيائه،وسمنوا، وازدادوا ثروة بـوساطة ميراث المصلـوب، وعنـدمـا قـال الـرب لبطـرس« ارع خـرافي»(يـوحنـا:٢١ / ١٦—١٧)،لم نجـد في أي مكـان أنـه قال:«جـز خـرافي»،ولقـد اهتمـوا بأربـاحهم، ولم يحرصـوا على الاشياء العائدة ليسـوع المسيح، وغـدوا قادة عميانـا لكلاب عميان وخرسـان، لايمكنها العواء،وذهبوا الى بيـت الرب بأبهة وفخـر،وكان معهم مفتاح المعـرفة،لكنهم لم ينهلوا منهـا،ولم يسمحوا للآخرين بالأخذ منها، ولقـد أصيبوا بجذام جيحزي(انظر الملوك الثاني:٥ / ٢٧)،ولقـد أقامـوا في كل مكـان في كنـائسهم كـراسي لهم،حيث يبـاع الحمام، وحيـث موائد مـال الصيارفـة،التي قلبهـا الرب،وقـالوا مثلما قـال يهوذا الخائن:«ماذا تـريدون أن تعطـوني وأنا أسلمـه لكم»؟(متـى:٢٦ / ١٥)،ولقد أحبـوا جميعاً الهدايـا،وسعوا وراء العـائدات المالية،وقـد أخذوا المفاتيح مـن سمعان بطرس وأعطوها الى سمعـان مجوس،وغرقوا في الترف مـن مختلـف الأنـواع، وبـاتـوا ضعفـاء وسـط كسـل مخزي، ولم يكتفـوا باستخـدام الفتات الـذي سقط من مـائدة الرب،بـل الأرغفة كلهـا التي توفرت لإطعـام النسل الذي حصلوا عليـه من الخليلات الفاجـرات، مع فجور أعظم لأنفسهم.

الفصل الحادي والسبعون

بعد ما تـأثر رجال الديـن النظاميين بعدوى سموم الأغنيـاء، وحصلوا على كثير من الممتلكات، تخلوا عن طـاعتهم لمن هم أعلى منهم، وحطموا روابطهم، وألقوا جـانباً بالتزامـاتهم نحو هؤلاء، وأصبحوا عـدوانيين ليس نحو الكنيسة فقط وشعب الكنيسة، بل أصبحوا يحسدون بعضهم بعضاً، ويقلل أحدهم من شأن الآخر، مما شكل فضيحة قاسية للمسيحية كلها، وسعـوا نحو الإهـانـات المكشوفـة، وأظهروا الكـراهيـة، ووصلوا إلى حـد

القتال بين أحدهم والآخر، وغالباً ما تشاجروا ليس فقط بالكلمات ولكن باللكمات، وعندما شرعوا ببناء برج بابل، كانوا منفصلين، ومنقسمين بين بعضهم بعضاً بتخليط اللسان، ولم يكونوا مختلفين فقط بين أحدهم والآخر، بل أقاموا تحزبات، وتجسسوا على بعضهم بعضاً.

ومع هذا كان العديد منهم يمتلكون طباعاً أحسن، وكانوا مستقيمين ويخشون الرب، ولقد حافظوا بقدر ما استطاعوا في ذلك الحين على الأنظمة بشكل عام، وعلى المؤسسات المقدسة لرهبانياتهم، وكانوا بذلك مثل القمح بين التبن، والسوسن بين الأشواك، ولقد أحزنهم هذا، وقطع نياط قلوبهم، وأصابهم الأسى الشديد ولم «يسلكوا في مشورة الأشرار، ولا في طريق الخطاة وقفوا، وفي مجلس المستهزئين لم يجلسوا» (المزامير: ٧١). وتعاظمت أعمال اللاتقوى والانحراف عن الطريق القويم لهؤلاء الرجال الأشرار، حتى أنهم لم يخشوا من الاقدام على تقديم القربان المقدس لأناس وضعوا تحت الحرمان من قبل الأساقفة، وجرموا بالاسم، وكان الذين توجب عليهم الابتهاج معهم عندما ابتهجوا، والبكاء معهم عندما بكوا، وحدهم الذين ابتهجوا عندما بكى الآخرون،، وبناء عليه إن الالتزام بأنظمة الكنيسة بدأ يتراخى، وضرب رجال الدنيا الفاسدون عرض الحائط بقرارات الإدانة التي صدرت بحقهم من قبل أساقفتهم، ولم يعبأوا قط بسيف العدالة الروحي، ورمى رعاة الديرة، ومقدموا الرهبان مع رهبانهم المأجورين، وصغار القساوسة، جانبا الخوف من الرب، ولم يترددوا في وضع منجلهم في قمح الآخرين، وتضافروا مع الخارجين على الشريعة، أو الأشخاص الأشرار في الزواج المقدس، وزاروا المرضى بدافع الجشع، وليس بدافع الشفقة، وأقاموا القداسات لهم ضد ارادة رعاة أبرشياتهم الشرعيين، وبذلك كانوا يربطون نفوساً ويطلقون حرياتهم، أمر العناية بها ليس معهوداً إليهم، وذلك مراغمة لشريعة الرب وللقوانين المقدسة حيث يقول الرسول: « من أنت الذي تدين عبد

غيرك». (روما: ١٤/ ٤)، واعتاد هؤلاء على السماح بدفن الموتى بحرية ضد إرادة الأساقفة، وبذلك منحوا بشكل غير قانوني أنفسهم حقوق كهنة الأبرشيات، فواجبات الرهبان البكاء والصلاة وليس القيام بأعمال القداسات لعوام الناس، وليس فقط الرهبان هم الذين لم يطيعوا رؤساءهم، بل الراهبات فعلن الشيء نفسه، حيث ألقين جانباً الالتزام بالنظام، وخرجن من عزلتهن «فانهالت حجارة المعبد في رأس كل شارع» (مراثي إرميا: ٤/ ١)، وترددن بشكل لاديني على الحمامات العامة برفقة أشخاص مدنيين، وأنا لم أدون الأشياء أعلاه لأنسب جرائم سلفهم إلى الأجيال التالية، أو إلى الأجيال الحالية، لكن لكي يقوموا بغسل أيديهم بدماء غير الأتقياء، وليتعلموا تقليد الأتقياء، ولكي يكرهوا الشر ويمقتوه، ويتوجب عليهم أن يتعلموا كيف يتواضعون بأنفسهم مع المسيح، وليحتضنوا فقره بشكل نقي، وكذلك إحسانه، ولكي يقوموا بالتخلي عن العالم الخارجي، ليس فقط في ملابسهم، فبصبرهم يمكنهم اقتناء أنفسهم.

الفصل الثاني والسبعون

وكانوا كلما ازدادوا قوة وأصبحوا أعظم مكانة بين الشخصيات الكنسية والعلمانية، كلما أصبحت طرقهم أكثر دماراً وفساداً، فلقد كانوا جيلاً شريراً ومنحرفاً، وأبناء أشرار ومنحطين، ورجالاً فاسدين، هؤلاء الذين انحدروا من الحجاج المتقدمي الذكر، ومن الرجال المتدينين، المقبولين من الرب والذين امتلأوا نعمة، صافين صفاء الخمرة من التفل، والزيت من العكارة ، والقمح من البيقية، والفضة من الصدأ، ولقد ورثوا آباءهم في ممتلكاتهم، لكنهم لم يرثوهم بأخلاقهم الحميدة، ولقد بعثروا الثروة الدنيوية التي كسبها أسلافهم بسفك دمائهم، وبقتالهم برجولة ضد الكفار في سبيل مجد الرب.

ونشأ أولادهم الذين يدعون باسم «بوليان» في ترف ورفاهية، ونعومة وفسولة، وكانوا معتادين على الحمامات أكثر من اعتيادهم على المعارك، وأدمنوا الاعتياد على الحياة القذرة والصاخبة، وكانوا يلبسون مثل النساء ثياباً ناعمة، ويتزينون حتى مثل زوايا الهيكل المزخرفة، ولكم كانوا بطيئين وكسالى وجبناء ومتراخين، فهذا ما برهنوه بأنفسهم أمام أعداء المسيح، ومامن أحد يشك بالقدر الكبير الذي هم فيه محط إزدراء المسلمين، فلقد كان الحشد من المسلمين يفر من أمام آبائهم حتى لو كان عددهم قليل، فلدى سماعهم لصوتهم الذي شابه الرعد كانوا يبادرون إلى الفرار، لكنهم لايخشون الآن من أبنائهم أكثر من خشيتهم من أية امرأة، ما لم يكن معهم بعض الفرنسيين أو غربيين آخرين، ولقد أقاموا معاهدات مع المسلمين، وتراهم مسرورين لكونهم يعيشون بسلام مع أعداء المسيح، تراهم يبادرون مسرعين إلى التخاصم أحدهم مع الآخر، ويتناوشون وينشبون الحرب الأهلية فيما بين بعضهم بعضاً، وغالباً ما يستنجدون بأعداء العقيدة ليساعدوهم ضد المسيحيين، ولايستحون من تبديد القوى والأموال التي يتوجب استخدامها ضد الكفار في سبيل مجد الرب، إنهم يبددونها في القتال ضد بعضهم بعضاً ولإيذاء المسيحية، ولقد أجادوا تعلم إخفاء مقاصدهم بكلمات منمقة ، مغطاة ومزينة بأوراق لكن بدون ثمار، مثل شجرة جوز عارية، وبلغ الأمر حداً أن الذين لم يجربونهم ويعرفونهم تمام المعرفة، يتعذر عليهم فهم مقاصدهم، وكشف خداع كلماتهم، أو النجاة من أحابيلهم، وهم يشكون بزوجاتهم ويغارون عليهن، ويغلقون عليهن في سجون مقفلة، ومحروسة بكل دقة وعناية إلى حد أن أخوانهن وأقربائهن المقربين يمكنهم بصعوبة القدوم إليهن، ويحظرون عليهن حظراً مطلقاً زيارة الكنائس، والمشاركة في المسيرات والاستماع للوعظ بكلمات الرب، ومسائل أخرى تتعلق بخلاصهن، حتى أنه من النادر بالنسبة لهن الحضور إلى الكنيسة مرة واحدة في السنة، ومع ذلك هناك بعض الأزواج يسمحون لزوجاتهم

بالذهـاب ثلاث مرات في الاسبوع إلى الحمام تحت حراسـة مشددة، وأقدم بعـض ذوي القوة منهـم، بقصـد اظهـار أنهم مسيحيين، ولكي يسـوغـوا سلوكهم بعض التسـويغ، على إقامة مذابح قـرب أسرة زوجاتهم، ومن ثم عقد القـداسات بـوساطـة بعض الشمامسـة المحتاجين والكهنـة أنصاف المشهـورين، لكـن كلما زاد البـوليان مـن تضييـق الخناق على زوجـاتهم، زادت هذه الـزوجات مـن ابداع آلاف الحيـل، ومالانهايـة له مـن وسائل النضـال حتـى يجدن طريقهـن الى الخروج، فلقـد تعلمـن بشكل مـريـع ولايمكن تصديقه، السحر، ومكائد لاعدّ لها ولا حصر، وقد تعلمن ذلك على أيدي النساء السـوريات، ونجد الآن أن الحجاج الذيـن جاءوا وسط مشاق عظيمة، ونفقات مدمرة، ومن أماكـن نائية، يدفعهم الايمان لتقديم المساعدة لهم، حيث يقدمون أنفسهم وكل ما يملكون إلى الرب، نجدهم لايُعاملون بالجحـود من قبل هؤلاء البوليان فقط، بـل جعلوا من أنفسهم عـدوانيين نحـوهـم بمختلـف الطـرق، ذلـك أنهم يـؤثـرون الانغماس في كسلهم، وإشباع رغباتهم الجسدية والـدنيوية على حرب المسلمين، عندما تخرق الهدنة أو تنتهي، ولقد أقدموا بجشعهـم على أخذ مبالغ كبيرة مقابل الإسكان، والنقل، وتبديل العملة، وأنواع أخرى كثيرة من التجارة، وتولوا غـش الحجـاج وسلبهم، وبـذلـك حصلـوا على ثروات كبيرة، ثـم صبـوا خساستهم على هؤلاء المحاربين، والمتغربين مـن أجل المسيح، وأهانوهم، ودعوهم بـ «الأغبياء»، وكأنهم حمقى وأنصـاف عقلاء، وتولوا لـوم هؤلاء الناس الـذين كـانوا على نية القتـال لصالحهم... والأعظـم من هـذا كله والأشد سـوءاً هو الفسـاد الذي لايمكـن مجاراته، والشرور الهائلـة لهؤلاء الناس الـذين يبتهجون بفعل الشر، وينتشـون في ممارسة الشرور، فلهـم تـمّ حفظ السـواد والظلام إلى الابـد، وهم في الحقيقة يمضـون أيامهـم وسط الأشياء الجيدة بالفعل، وسيمضـون في لحظة إلى أعماق الجحيم، والآن إننا لنكـره شرور غير الأتقياء، ونفعـل ذلك مثلما قـال النبي « إنـه ليحزننـي رؤية المعتديـن، لأنهم لايحافظون على شريعتك». (المزامير: ١١٩/ ١٥٨)،

ومرة أخـرى. (إنني أكرههـم كراهية تـامة، وأعدهـم أعدائي». (المزامير: ١٣٩/ ٢٢)، وهكذا نـودع الرب الأنـاس الطيبين إذا كان قـد بقي أحـد منهم، وإذا مـا غضب أحد ممـا قلته، عليه أن يبرهـن أنه هو نفسـه ليس كذلك.

الفصل الثالث والسبعون

وبالنسبـة لهؤلاء الناس الـذين هـم من المدن النبيلـة: جنوى، وبيـزا، والبندقيـة، مع بقية أجـزاء إيطاليا، والـذين يسكنـون في سورية، والـذين كسـب أبـاؤهـم وأجـدادهـم لأنفسهـم شهـرة لاتفنـى، وتـاجـاً أبـديـاً لانتصـاراتهم الرائعـة على أعـداء المسيح، سوف يكـونـون مرعبين جـداً بالنسبة للمسلمين لو أنهم توقفـوا عن غيرتهم وجشعهم، ولم يستمروا في القتـال والخصام فيما بين بعضهـم بعضـاً، ولكـن بما أنهم ينشبون القتـال أحدهـم ضد الآخـر وليس ضد الكفـار الخونة، ويهتمـون أكثر بـالتجارة والسلع من الاهتمام والانـزعاج من أجل المسيـح، فإن هؤلاء الذيـن كان آباؤهـم الشجعان والمولعين بالحرب مـرعبين جداً للكفار، قـد جعلوا الآن من أنفسهم سببا للبهجة ولانعدام الخوف.

الفصل الرابع والسبعون

هنـاك قوم آخـريـن ، قد سكنـوا البلاد منـذ العصـور القديمـة ، وعاشوا في ظل سادة متنوعين ، وحملـوا نير العبودية بشكل متتابع ، تحت سلطان الرومان ثم البيزنطيين (الإغـريق)، ثـم اللاتين والبرابرة ثم المسلمين والمسيحيين وهؤلاء النـاس عبيد في كل مكان ، ويـدفعون الجزية دوماً ، محتفظ بهم من قبل سـادتهم من أجل الأعمال الزراعية والاستخدامـات المرزولة الأخرى، وهـم جميعاً ليسوا مـن أهل الحرب ،

ومثل النساء بلا فائدة في القتال ، باستثناء بعضهم الذين يستخدمون القوس والنشاب ، وهم غير مسلحين وجاهزين للفرار ، ويعرف هؤلاء الناس باسم «السوريين» ، إما اشتقاقاً من اسم مدينة صور ، التي كانت في العصور القديمة المدينة الرئيسية بين مدن سورية ، أو من اسم Syriaبتبديل حرف yبحرف u، والذين عرفوا من قبل الكتاب القدماء باسم السوريين يعرفون الآن باسم «السريان» ، وهؤلاء على العموم لا يمكن الوثوق بهم، وذوي وجهين ، وثعالب ماكرين ، مثلهم مثل الاغريق ، كذبة ، يبدلون الولاءات ، ويحبون النجاح وخونه ، ومن السهل كسبهم بالرشوة ، وهم أناس يقولون شيئاً ويعنون شيئاً آخر ، ولا يكترثون بالسرقة والسلب ، ففي مقابل مبلغ صغير من المال يصبحون جواسيس ويخبرون بجميع أسرار الصليبيين الى المسلمين ، الذين نشأوا بينهم ، والذين يتكلمون بلغتهم بدلاً من الكلام بلغة أخرى ، كما أنهم يقلدونهم بطرقهم الملتوية ، ولقد اختلطوا بالكفار ، وتعلموا أعمالهم ، ويتولون حجر نسائهم تماشياً مع اسلوب المسلمين ، ويلفونهن مع بناتهم بالثياب حتى لا يمكن رؤيتهن ، وهم لا يحلقون لحاهم مثلما يفعل المسلمون والأرثوذكس ومعظم المشارقة ، بل يعتنون بهن عناية فائقة ،ويمجدوهن تمجيداً خاصاً ، ويرون في اللحى علامة على الرجولة ، وعلى شرف الوجه ، ودليلاً على إباء الانسان ومجده ، ومثل حال الخصيان الذين هم بلا لحى تماماً ، وينظر اليهم من قبل اللاتين على أنهم أخساء ومخنثين ، وهكذا يعتقد هؤلاء أن أعظم الإهانات لا في قص اللحى ، بل بانتزاع شعرة واحدة منهن ، ولهذا عندما حلق حانون ملك العمونيين أنصاف لحى عبيد داود ليظهر استخفافه بداود ، لم يقم هؤلاء بحلاقة البقية بل اختبأ وا في أريحا حتى نمت لحاهم . ومثل هذا ، عندما أطلق بلدوين ، كونت الرها لحيته وفق الأسلوب الشرقي ، وتزوج من ابنة دوق نبيل اسمه

جبرائيل ، وكان من أصل أرمني ، لكن أرثوذكسي الديانة ، ولأنه كان رجلاً فقيراً ، ولكي ينال المال من ختنه الغني ، عندها أخبره أنه أرغم على رهن لحيته لبعض الدائنين ، مقابل مبلغ كبير من المال ، وبناء عليه دهش جبرائيل كثيراً وحزن ، وبات على استعداد لإنقاذ ابنته وصهره من عار أبدي ، وأعطاه ثلاثين ألف قطعة نقدية bezants ، شريطة أن لا يقوم بعد الآن برهن لحيته مطلقاً، مهما كان فقيراً ، أو مهما كانت المشاكل التي نزلت به . ويستخدم السريان اللغة العربية في استخداماتهم العامة وحديثهم ، كما ويستخدمون الكتابة العربية في صكوكهم وأعمالهم مع الكتابات الأخرى ، باستثناء الكتابات المقدسة والكتب الدينية الأخرى حيث يستخدمون الحروف الإغريقية وبناء عليه فإن سوادهم الأعظم ، الذين يعرفون اللغة العربية فقط لا يفهمون عليهم لدى استخدامهم في القداسات الدينية الإغريقية هذه ، بينما نجد الاغريق الذين يستخدمون اللغة نفسها في محادثاتهم العامة وفي كتاباتهم ، يستطيعون أن يفهموا على كهنتهم في كنائسهم ، وفي لغتهم المكتوبة ، التي هي لغة الحديث نفسها ، ويتبع السوريون تماماً أحكام وعادات الاغريق في الطقوس الدينية والمسائل الروحية الأخرى ، ويطيعونهم على أنهم رؤساء لهم ، أما فيما يتعلق بالأساقفة اللاتين الذين يقيمون في أبرشياتهم ، فإنهم يطيعونهم كلاماً ، لكن ليس فعلاً ، ويظهرون فقط أنهم يطيعونهم ويقولون ذلك خوفاً من سادتهم تبعاً للجسد ، لأن لديهم أساقفة أرثوذكس (إغريق) خاصين بهم ولا يخشون من الحرمان أو أي قرار يتخذ ضدهم من قبل اللاتين ولا بشكل من الأشكال ، هذا ويتجنب السواد الأعظم من قومنا جميع المعاملات معهم أو العلاقات والشؤون الأخرى : لأنهم يقولون بين أنفسهم : إن جميع اللاتين واقع عليهم الحرمان ، وبناء عليه لا يمكنهم اصدار قرار عقوبة بحق أي كان ، وفي

مجمع نيقية الذي كان واحداً من المجامع الأربعة الرئيسية ، المتقبلة قراراتها من قبل جميع الكنائس كلياً مثل تقبل الأناجيل الأربعة، كان عدد الحضور في ذلك المجمع ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، وقد تقرر هناك بين نقاط عديدة ، بأن روح القدس انبثق عن الآب ، وأعلنوا في الختام أن أي واحد يضيف أي شيء ، أو يحذف أي شيء من أعمال المجمع سوف يكون محروماً من الكنيسة ، ومع أنهم قالوا مقررين أن روح القدس صادر عن الأب ، لم يقولوا : إنه غير صادر عن الابن : ذلك أن أشياء كثيرة لم تقرر أو تعلن في البداية غير أنها تقررت وحددت من قبل الرجال المقدسين في أوقات تالية لنفي أية غلط ، وبناء عليه في الوقت الذي لدى الأرثوذكس (الاغريق) في عقيدتهم : « إنني أومن بروح القدس ، وبالرب ، وبواهب الحياة » ، يقول الاغريق بوضوح أكبر : «انبثق عن الأب وعن الابن »، ومثل هذا عندما يقول الأرثوذكس :« إن روح القدس من الأب ، لم يصنع ، ولم يخلق ولم يولد ، لكن انبثق » ، يضيف اللاتين : «روح القدس من الأب ومن الابن » ، ولا يضيفون أي شيء مخالف : ولهذا توجب فهم الجملة الأخيرة ، وأنها موجهة ضد الذين أضافوا أية أشياء مضادة ، وهكذا قال القديس بولص في رسالته الى الغلاطيين : « إن كان أحد يبشركم بغير ما تلقيتم فليكن ملعوناً (أناثيما) » (غلاطيه : ١/ ٩) ، والآن من المؤكد أن القديسين بشروا بأشياء كثيرة الى جانب ما بشر به بولص ، لكن مضاد لما بشر به بولص : ولهذا ينبغي أن نفهم هذا التحريم ، ومن المحزن من أجل ذلك أن كل من السريان والأرثوذكس أساءوا فهم ما تمت صياغته من قبل الآباء المقدسين في مجمع نيقية ، وأعلنوا أن روح القدس لم ينبثق عن الابن ، ومهما يكن الحال لقد نفخ المولى يسوع على حوارييه وقال لهم : « اقبلوا الروح القدس » (يوحنا : ٢٠/ ٢٢) وبذلك يتبرهن بوضوح أنه نفخ روح القدس . وأن روح القدس قد انبثق

منه مع أنه انبثق من الأب ، وذلك بمثابة عهد محبة منهما ، وبناء عليه يقول هو نفسه في الانجيل :« إنني علمت أن قوة قد خرجت مني » (لوقا : ٨/٤٦)، لأنه بفضل قوة روح القدس التي خرجت منه شفى المرأة التي لمست طرف كسائه ، لأنه عندما قال للأب : « كل مالي هو لك ومالك هو لي » (يوحنا : ١٧/ ١٠) واضح أنه كما أن روح القدس من الأب ، إنه كذلك من الابن ، وهكذا قال القديس بولص : « أرسل الرب روح ابنه الى قلوبنا ، ولهذا ننادي أبا ، أيها الرب » (غلاطية : ٤/ ٦) ويقول القديس يوحنا أيضاً في رسالته العامة : « مسحته مسحتكم عن كل شيء » (يوحنا : ٢/ ٢٧) ويقول مرة أخرى : « المسحة التي نلتموها منه تتثبت فيكم » ومن هذا نرى بوضوح أن روح القدس ـ أو المسحة ،التي هي الشيء نفسه هو روح الابن مثلما هو روح الأب ، أي أن الابن أرسله ، مثلما أرسله الأب ، وذلك من خلال شهادته حيث قال :« إن ذهبت أرسله لكم » (يوحنا :١٦/ ٧) ، وعلى هذا روح القدس مشترك بين الشخصين وانبثق منهما معاً ، ويقول دانيال : « ومن أمامه يجري ويخرج نهر من نار » (دانيال :٧/ ١٠) ولهذا السبب نجد مثلما اللاتين يعتقدون كلهم أن روح القدس انبثق من الابن ، كذلك العقلاء من الأرثوذكس لا ينكرون هذا ، مع أنهم لا يؤكدون ذلك رسمياً ، لأن عبارة « انبثق من الابن » غير موجودة في عقيدتهم ، والآن بما أن الأرثوذكس والسريان ـ كما سلف القول ـ يرون أن اللاتين جميعاً محرومين ، اعتادوا على غسل المذابح ، حيث كان اللاتين يقيمون التداسات ، وذلك قبل قيامهم بقداساتهم ، زد على هذا ، هم لا يقيمون أدنى اعتبار لقرابيننا المقدسة ، ولا يقومون عندما يمر كهنتنا عابرين وهم يحملون خبز القربان لزيارة المرضى ، وفي الوقت الذي نجد فيه الكنيسة الرومانية المقدسة وجميع الغربيين ، يقومون تقليداً منهم للرب فيصنعون خبز القربان خبزاً فطيراً ، لأنه بعدما

أكل حمل الرب مع خبز فطير - وذلك تقليداً لليهود- تولى تحويل الخبز الذي استخدم عند العشاء الى جسده : نرى أن الأغريق من الجهة الأخرى ، يرفضون هذا الطقس ، ويحتفلون بالقربان المقدس بخبز مخمر ، ومع هذا تعلمنا : « لنعيّد ليس بخميرة عتيقة ، ولا بخميرة الشر والخبث، بل بفطير الاخلاص والحق »، (كورنثه: ٥/ ٨) ، هذا ويخالف هؤلاء المنشقون تعاليم كنيسة روما المقدسة ، والسامية في أشياء أخرى كثيرة ، منتهكين بذلك النظام الرباني الذي عين روما لتكون المطرانية والمدينة العاصمة للعالم أجمع ، ولحكم المؤمنين بالأمور الروحية مثلما تحكم بالأمور الدنيوية : لأن كيفاس — الذي معناه الحرفي : الرأس ، والمعني بهذا بطرس — قد عينه الرب رأساً لجميع العالم، عندما قال الرب ، دون أن يعطي أي استثناء « سأعطيك مفاتيح ملكو ت السموات ،فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السموات »(متى : ١٦ / ١٩) ، وقال أيضاً « ارع غنمي » (متى:٢١/ ١٧) ، وهو لم يقل اللاتين فقط أو الغربيين ، بل قال ببساطة : «غنمي» ، أي أن يكون هناك قطيع واحد وراعي واحد ، ثم إنه من الواضح أن كنيسة المسيح قد بنيت على هذه الصخرة ، أي بطرس الذي صلى من أجله الرب حتى لا ينقص إيمانه ، وكل الذين ابتعدوا عن كنيسة روما عبثاً يعملون ، لأنهم بنوا من دون أساس ، وانفصلوا عن الذي دعاه الرب باسم « كيفاس » ، وسوف يعدون تنينات رهيبة بلا رؤوس . ويتفق السريان مع الأرثوذكس بعدم السماح بزواج رابع ، والكهنة والشمامسة لديهم غير مسموح لهم أثناء ارتباطهم اللاهوتي بعقد الزواج ، ومع هذا مسموح لهم باستخدام الزوجات اللائي تزوجن منهن قبل رسامتهم، وهم لايعدون من كان بمرتبة مساعد شماس ضمن الهيئة المقدسة، ويقوم الكهنة برسم علامة الصليب بالزيت المقدس على جباه الأطفال بعد تعميدهم مباشرة،

الأمر غير المسموح بالقيام به لدى اللاتين إلا للأساقفة فقط ولرؤسائهم، لأن الأساقفة يقومون مقام الرسل في كنيسة الرب: لأنه بالاستلقاء على أيدي الرسل وهبت روح القدس للتقوية والراحة، ويعدون يوم السبت يوماً مقدساً جداً إلى حد عدم السماح بالصوم في يوم السبت إلا إذا كان السبت يوم عيد الفصح، ويقيمون القداسات العظيمة في يوم السبت مثل التي يقيمونها يوم الأحد، ويحتفلون بشكل رائع في ذلك اليوم، ويأكلون اللحوم تقليداً لليهود، لكن هذه المراعاة الطقوسية ملومة من قبل اللاتين خشية الظهور بمظهر المتبع لعادات اليهود.

الفصل الخامس والسبعون

فضلاً عن هذا، هناك في الأرض المقدسة، وفي أجزاء أخرى من الشرق أمماً بربرية أخرى، تختلف في كثير من النقاط عن الإغريق واللاتين، من هؤلاء قوم عرفوا باسم اليعاقبة، وقد نالوا اسمهم من معلم لهم اسمه يعقوب، وكان من تلاميذ بطريرك الاسكندرية، وكانوا قد تعرضوا منذ زمن بعيد إلى الحرمان الكنسي، وجرى طردهم من قبل الكنيسة الأرثوذكسية (الإغريقية) على يد ديوسكورس Dioscorus ، بطريرك الاسكندرية، وسكنوا بأجزاء كبيرة من آسيا وجميع الشرق: ويقطن بعضهم وسط المسلمين، ويمتلك بعضهم الآخر بلداناً خاصة بهم، دونما انسجام مع الكفار، ومن هذه البلدان: النوبة المتصلة بمصر، والجزء الأكبر من أثيوبيا، وكل البلاد امتداداً حتى الهند، وهي أكثر من أربعين مملكة، وقد أعلنوا أنها عائدة إليهم، وهم جميعاً مسيحيين وجرت هدايتهم من قبل الحواري القديس متى، وبعض الرسل الآخرين، لكن بعد أمد زرع العدو البيقية بينهم، وهم تاهوا لوقت طويل وسط ظلام محزن وخطيئة، ويقومون في أعظم الأجزاء بختن أولادهم من كلا الجنسين وفق طرائق المسلمين، دونما فهم أن نعمة التعميد قد جعلت الختان بلا

فعاليـة، مثل زهـور سقطت وذبلت عنـدما تكـون الثمار جاهـزة للقدوم، وهكذا يقول القديس بولص برسالته إلى غلاطية: «إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً» وقال ثـانية: «لكن أشهد أيضاً لكل انسـان مختتن أنه ملتزم أن يعمـل بكل النـامـوس. قد تبطلتـم عـن المسيـح أيها الذيـن تتبررون بالنـاموس، سقطتـم من النعمة» (غـلاطية: ٥/ ٢—٣)، وخطيئـة أخرى من أخطـائهم، ليست أقـل مما تقدم هـي أنهم يعترفون بذنـوبهم ليس إلى الكهنة بل إلى الـرب وحده بشكل سري، ويضعون البخـور على النار إلى جانبهـم، وكأن ذنـوبهم سوف تصعد مـن هناك مـع الدخـان إلى الرب، وهـم بهذا يخطئون بتعـاسـة، غير فاهمين للكتـابـات المقـدسة، ويهلكـون خلال عقيدة مزيفـة، ويخفون جراحهم عن أطبائهـم الروحانيين، ولفرض الكفارة عليهـم، وللربط وللحـل، وفقاً لما تسلموه مـن مفاتيح، وليقـوموا بتأديـة الصلوات خاصة للـذين اعترفوا لهم، ولهذا قال الـرب في الإنجيل للمجذومين: «إذهبـوا واعرضوا أنفسكـم على الكهنة» (لـوقا: ١٣/ ١٤)، وقرأنا عـن القديس يوحنا المعمـدان بأن رجالاً «كانوا يتعمـدون من قبله ويعترفـون بـذنـوبهم» (متـى: ٣/ ٦)، ثم إن الشعـور بـالخجـل، والقلـق والعار، والتـواضع، أثنـاء الاعتراف هو الجزء الأكبر مـن الكفارة، ويكـون النـاس أكثـر عـرضـة للـذنـب إذا اعتقـدوا أنهم لايحتـاجـون إلى إظهـار أفاعيلهـم الشريرة للناس، لأنـه قد كتب: «مـن يكتم خطايـاه لاينجح، ومن يقرّ بها ويتركها يرحم» (أمثـال: ٢٨/ ١٣)، والخطيئة الثالثة، والجهل القبيح مثل الظلام الذي يمكن الشعور بّه لهؤلاء اليعاقبة المتقدم ذكرهم، أن عدداً كبيراً منهم يقومـون قبل تعميد أولادهم، بوسم أولادهـم بحديدة محماة حتى الإحمرار، وبـذلك يـرسمون وسماً على جبـاههم، ويقـوم آخرون بـوســم أطفـالهم بشـارة الصليـب على الـوجنتين، أو على الصـدغين، مفترضين بشكـل خـاطـىء أنهم يقـومون بـالتكفير عـن ذنـوبهم بـالنـار الفعلية، لأنه كتب في إنجيل القديس متـى بأن القديس يوحنا المعمدان قـد قال عـن المسيح: «هـو سيعمدكـم بالـروح القدس وبـالنار» (متـى:

٣/ ١١) مع أنـه من الـواضح لجميـع المؤمنين أن غفران الخطـايا سـوف يكون بنار روحيـة، أي بالروح القدس، وليـس بنار مرئية، ونجـد في كتب الأنبياء أن الـرب غالباً مـا وجه اللوم إلى بنـي اسرائيل، وهددهـم بعنف لأنهم قامـوا ومرروا أولادهـم خلال النـار كما فعل غير اليهـود، لأن الرب يقـول في سفر التثنيـة على لسان النبـي مـوسى: «لاتتعلـم أن تفعل مثـل رجس أولئـك الأمم. لايوجـد فيك من يجيـز ابنه أو ابنته في النـار، ولامن يعـرف عـرافـة ولاعائف ولامتفـائل ولاسـاحـر» (التثنيـة: ١٨/ ٩-١٠) والمسيحيـون جميعـاً يعلمـون أنـه لاالـرب ولارسلـه، أو أي مـن الآبـاء المقدسين، تركوا أيـة عادة من هذا النوع في الكنيسة، أو أمـروا بعمل مثل هذا النوع من الـوسم، وأنا رأيت بنفسي كل من اليعاقبـة والسريان الذين يسكنون بين المسلمين، مـع صلبان وسمت على أذرعتهم بحـديدة محماة، وكأنهم يـريدون أن يقولوا إنهم يفعلـون ذلك لتمييز أنفسهـم عـن الكفار، وصدوراً عن الاحترام للصليب المقدس، قـاموا بطبع صورة الصليب على أنفسهـم، وتقصيت بـالبحث بين السريـان والأرثوذكـس، فوجـدت أنهم يبغضون اليعاقبـة، وقد طردوهم مـن جماعتهم، وقالوا إن السبـب الرئيس أنهم وقعـوا في أعمال الارتداد شراً وإدانـة، بإعـلانهم أن المسيـح كان لـه اقنوم واحد فقط، وبذلك له طبيعـة واحدة فقط، والهراطقة من هذا النوع محرومين كنسيا ومـدانين من قبـل مجمع خلقـدونية (سنـة ٤٥١م)، وأصر بعضهم بشكل خاطىء على أن المسيح بعدما اتخذ طبيعتنا لم يعد موجوداً بطبيعتين، بل بقيت فيـه الطبيعة اللاهوتية فقط، وجلـب هذه الخطيئة إلى الكنيسة يوتيخس Eutyches ، وكان راعي دير في القسطنطينية، وأعلن آخـرون أن الطبيعتين في المسيـح صـارتا واحـدة، ومقترف هـذه الخطيئـة وفاعلها أسقفـان من الاسكندرية اسمهما ثيـودوسيوس Theodosius ، وغالانـوس Galanus ، هـذا ونحن نعـرف بشكل مـؤكد أن يسـوع المسيـح: جاع، وعطـش، وشعر ببقيـة الحاجيات تبعـاً لطبيعته البشريـة، لابل حتـى إنه عانـى من الموت على الصليب، وقام بـالوقت نفسـه تبعاً

لطبيعته اللاهوتية، بإقامة الميت وعمل معجزات أخرى، ووفقاً لهذه الطبيعة قال: «قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن» وقال ثانية: «أنا من البدء ما أكلمكم به أيضاً» (يوحنا: ٨/ ٢٥، ٥٩)، ومرة أخرى: «أنا وأبي واحد» (يوحنا: ١٠/ ٣٠)، وقال الشيء نفسه بالنسبة لطبيعته البشرية: «أبي أعظم مني» ومرة أخرى عندما كان عليه تناول كأس المضي من الحياة: «ليس كما أريد بل كما أنت تريد»، والآن عندما يرون هناك طبيعة واحدة فقط في المسيح، قالوا بالنفي، وأنا لاأعرف هل هم قد تأثروا بالخوف أو بسبب آخر، وعندما سألتهم: لم يستخدمون اصبعاً واحداً ليصلبوا أنفسهم بها، أجابوا بأنهم يرمزون بالاصبع الواحد لكائن إلهي واحد هو الثالوث في ثلاثة أشخاص، وأنهم بذلك يحصنون أنفسهم بشارة الصليب باسم الثالوث المتحد، لكن الأرثوذكس والسريان يقولون في نقد لهم، بأنهم يرسمون على أنفسهم باصبع واحد بسبب الطبيعة الواحدة التي يمتلكها المسيح حسب اعتقادهم. ويستخدمون الأحرف الكلدانية، وبعضهم الآخر العربية التي ندعوها الاسلامية، ويستخدم سواد الناس منهم لهجات مختلفة في كلامهم العام، وذلك تبعاً لاختلاف أممهم وبلدانهم، ولايفهمون اللغة التي يستخدمها رجال الدين لديهم في الكتابات المقدسة، لأنه صحيح أن هؤلاء يستخدمون الأبجدية العربية، إن الذي يكتب ليس اللغة العامية العربية، بل لغة خاصة مفهومة فقط من قبل المتعلمين.

الفصل السادس والسبعون

هناك أمم أخرى لاتقطن فقط في الأرض المقدسة وبين المسلمين، بل يقطنون مستقلين بأنفسهم في الجزء الأكبر من الهند، وهم قوم يعرفون باسم النساطرة، صدوراً عن مهرطق رئيس اسمه نسطور، الذي أصاب معظم الشرق بالسموم القاتلة لعقيدته، وخاصة الذين يسكنون في بلاد

ذاك الأمير القوي جداً والهمجي الذي يعرف باسم «برسترجون» وجميع هؤلاء مع ملكهم نساطرة، وقد قيل إنهم مع اليعاقبة أكثر عدداً من اللاتين أو الأرثوذكس، وعن أولئك الذين سكنوا منفردين، والذين أعدادهم لاتحصى، سوف لن نتحدث، لكن هناك بين المسلمين كثير من المسيحيين وهم منسجمين مع المسلمين، ويخضعون لقانونهم مثل خضوع المسلمين أنفسهم، وصحيح أن هؤلاء الناس لم يأخذوا بالشريعة المثيرة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) إنهم مع ذلك فسدوا بشكل بائس بالهرطقات، ويذهب نسطور ابن الجحيم، الذي كان (رئيس) أساقفة القسطنطينية إلى القول مع زبانيته: إن مريم العذراء المباركة لم تكن أماً لرب، لكنهم يقرون أنها كانت أم المسيح الانسان، ويعلنون أنه لم يكن في المسيح شخص إلهي وشخص بشري، وأنه تبعاً لطبيعتيه يوجد في المسيح شخصين متميزين، وهم لايعتقدون أن كلمة الرب والجسد كانا مسيحاً واحداً، بل يؤمنون بوجود شخصين منفصلين متميزين: أحدهما ابن الرب، والآخر ابن الانسان؛ وكانت هذه الهرطقة البغيضة قد أدينت من قبل مجمع افسوس (٢٢ حزيران ٤٣١ م) الذي شهده ثلاثمائة من آباء الكنيسة، لأنه كما هو معقول النفس والجسد في انسان واحد، كذلك معقول وجود الرب والانسان في مسيح واحد، ومع أن طبيعة الروح تختلف عن طبيعة الجسد، ليس هناك انسان واحد تبعاً للروح وآخر تبعاً للجسد، ثم مع أن طبيعة الحديد شيء، وطبيعة النار شيء آخر، نجد أن الحديدة المحماة حتى اللون الأحمر شيء واحد، وتبعاً للهرطقة المتقدمة الذكر، ينبغي أن لايستخدم الانسان كلمات: «المسيح هو رب وانسان؛ وتوفي ابن الرب ودفن»، لأنه احتراماً له لكونه ابن الرب، لايمكنه أن يعاني ولا أن يموت، ومع هذا يقول إشعيا:«لأنه يولد لنا ولد....ويدعى اسمه....إلهاً قديراً»(إشعيا:٩ / ٦)،وكان هذا الرب طفلاً صغيراً، وهذا معارض لعقيدتهم الهرطقية،ويتحدث إرميا بالاسلوب نفسه عن ابن الرب قائلاً:«وتراءى فيما بعد على الأرض وتحادث مع الناس»(باروخ:٣ /

٣٧)،وذلك مع أنه كرب هو غير مرئي ،وقال القديس بولص:«أرسل الرب ابنه مولوداً من امرأة،مولوداً تحت الناموس»(غلاطية:٤/ ٤).وواضح من هذا أن ابن الرب ابن العذراء،وهكذا كانت مريم أم الرب،:« وسيقال هذا الانسان ولد فيها، وهي العلي يثبتها»(المزامير:٨٧/ ٥)،وهكذا فإن الانسان الذي ولد من العذراء مريم قد تولى أيضا خلقها،وأن ذلك الانسان كان هو الرب،وبالطريقة نفسها ينبغي أن نقّر أن ذلك الطفل قد خلق السموات، ومن أبد الآبدين كان من عنصر الآب نفسه ومساوياً له،لأن« الكلمة صارت جسداً وحل فينا»(يوحنا:١/ ١٤)الآن ونحن نرى أنه قد قال هو نفسه:« أنا ذلك الذي كلمتكم عنه منذ الابتداء»(يوحنا:٨/ ٢٥-الترجمة اللاتينية لجيروم)،مامن انسان عاقل يمكنه أن يشكك أن ذلك الشخص نفسه هو الابتداء والخالق لجميع الأشياء،وأنه تحدث مع البشر،وأنه بناء عليه واضح بدون أدنى شك أن الشخصين:الإلهي والبشري هما واحد ونفسه، الأمر الذي ينكره النساطرة التعساء.وهم يستخدمون الأبجدية الأكادية في الكتابات المقدسة،والخبز المخمر في القداس مثل الاغريق.

الفصل السابع والسبعون

هناك شعب آخر يسكن فوق جبال لبنان،في مقاطعة فينيقيا،ليس بعيداً عن مدينة جبيل ،وأعداد هذا الشعب كبيرة،ويستخدمون القسي والنشاب، ويتسمون بالسرعة والمهارة في القتال،ويعرفون باسم الموارنة نسبة الى معلمهم،وهو انسان اسمه مارون، وكان مهرطقاً،بشر بأن المسيح كانت له ارادة واحدة ونشاط واحد، وكان مقترف هذه الخطيئة أسقفاً لأنطاكية واسمه مكاريوس، وقد أدين مع أتباعه على أنه رأس للهرطقة،وطرد من كنيسة الشعب المؤمن بالمسيح،وقيد بقيد الحرمان واللعنة من قبل المجمع السادس للقسطنطينية،الذي اجتمع فيه مائة

وخمسين من آباء الكنيسة،لأنه كما يوجد في الانسان العادي إرادة عقل واحد وإرادة أخرى للشهوة، كذلك كان في المسيح إرادة بشرية جعلته يرغب بالأكل وبالشرب،الى أن عبرت الكأس عنه،ورغبة لاهوتيه أخرى، وهي التي كانت واحدة مع رغبة الآب، وقد أظهر بشكل واضح هاتين الرغبتين عندما قال:«ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت»(متى:٢٦/ ٣٩)،ومن الذي لايعرف أن الأكل والشرب والحاجيات الأخرى التي خضع لها المسيح كإنسان ليست سوى عمليات بشرية، وليس لها أدنى علاقة مع أبدية الرب ؟ لكن لأن يقيم الميت ، ولأن يستأنف الحياة بعد الموت لا علاقة لهما بالبشرية بل بالقدرة الإلهية فقط ، وبهذا إنه لمن الواضح أن عمل الانسان يختلف عن عمل الرب ، ووفق هذه الطريقة علمنا القديس بولص بوضوح أن ارادة الانسان مزدوجة ، وذلك عندما قال في رسالته الى الرومان : « إني لا أعرف ما أنا عامله ، لأن ما اريده من الخير لا أعلمه بل ما أكرهه من الشر إياه أعمل » (رومية : ٧/ ١٥, ١٩) وانظر كم هو الصراع عظيم هنا بين إرادة العقل وإرادة الشهوة ، وقال مرة ثانية : « الإرادة حاضرة عندي ، وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد » (رومية ٧/ ٨) « وأما الروح فنشيط » (متى : ٢٦/ ٤١) ولكن الجسد ضعيف ، لأنه يعمل وفقاً للارادة المنطقية ، وتبعاً لهذا أخذ أحدهم بطرس وقاده الى حيث لم يرغب ، ومع هذا فإنه بوساطة عمل إرادته العقلانية عاد الى روما طواعية ، واختار أن يصلب ، وبين الرسول بولص هاتين الارادتين على أنهما ناموسين متنازعين معاً داخل الانسان فقال :« ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني الى ناموس الخطية الكائن في أعضائي » . (رومية : ٧/ ٢٣) ، والآن إن مارون المتقدم الذكر ، الذي كان أعمى بقوة باهرة أرسلها الشيطان،كان له أتباع كثرة في خطيئته، وهم الذين عرفوا باسم الموارنة، وظلوا لقرابة الخمسمائة سنة

منفصلين عن الكنيسة الرومانية المقدسة، وعن الاتصال مع المؤمنين يقيمون القداسات بأنفسهم منعزلين:ومع هذا عادوا فيما بعد الى قلوبهم،وقاموا بحضور الأب المبجل أما لرك،بطريرك أنطاكية بالإعلان عن إيمانهم بالعقيدة الكاثوليكية، وأقلعوا عن الخطيئة المتقدمة الذكر، واتبعوا عادات كنيسة روما، ومعروف أن الأساقفة الشرقيين —باستثناء اللاتين فقط— لايستخدمون الخواتم،ولاالقلانس الأسقفية ،ولايحملون الصولجانات الأسقفية بأيديهم ولايستخدمون النواقيس بل اعتادوا على دعاء الناس الى الكنيسة، بالضرب على لوح من الخشب بعصا أو بمطرقة، وقام الموارنة المتقدم ذكرهم إظهاراً منهم للطاعة لروما،فاتبعوا عادات وطقوس اللاتين،وهكذا كان بطركهم حاضراً في المجمع الكنسي الذي انعقد في اللاتيران(١٢١٦م)وسط احتفال مهيب أيام ولاية البابا المبجل انوسنت الثالث،وهم يستخدمون الأبجدية الكلدانية،ولغة المسلمين الشائعة.

الفصل الثامن والسبعون

وللشعب الأرمني الذي يسكن لوحده في مقاطعة(دولة) أرمينيا(الصغرى) بين المسيحيين والمسلمين،تميز واختلاف عن جميع أمم المسيحيين، لامتلاكه لطقوس غريبة ولعادات شاذة خاصة به،وللأرمن المتقدمي الذكر رئيس خاص بهم يدعونه الجاثليق،وهم جميعاً من الأدنى الى أكثرهم علواً بينهم يطيعونه مع أقصى درجات التشريف، ويبجلونه وكأنه بابا آخر، وبينهم وبين الاغريق نزاعات لايمكن فضها، وخلافات لايمكن تسويتها،وتكره كل فئة وتمقت ممارسات وطقوس الطائفة الأخرى،ولهم لغتهم الخاصة، مع أبجدية، ويقرأون الكتابات المقدسة بلغة عامية،وبهذا بات من الممكن فهم كهنتهم ورجال الاكليروس منهم في كنائسهم من قبل العامة،وذلك حسبما تحدثناه عن الحالة مع

الاغريق،وهم لايحتفلون بعيد ميلاد الرب وفقاً للجسد،بل يصومون في يوم ميلاد الرب،وعندما ينتهي الصيام يحتفلون بعيد ميلاد الرب(٦— كانون ثاني) مع عيد القديس يوحنا المعمدان ويعلنون أنه في ذلك اليوم الذي يقيمون فيه العيد هو يوم ميلاد الرب تبعاً للروح، ومع هذا لايمكن القول بأن الرب قد تجدد روحياً أو ولد مرة ثانية،لأنه وهو الذي لم يقترف ذنباً لم يتطهر بماء التعميد« لم يفعل خطية ولاوجد في فمه مكر»(بطرس:١/ ٢/ ٢٢). وهم يقومون بالصيام قبل قيامة الرب،ويراعونه بشكل صارم حتى أنهم لايمتنعون عن اللحم والجبنة، والبيض،والحليب فقط،بل إنهم لايأكلون السمك،ويستخدمون الزيت،ولايشربون الخمرة:ومع هذا إنه لمن الصعب تسميته صوماً،لأنهم يأكلون الفواكه والخضار بقدر مايرغبون في اليوم،ولكي يختلفوا عن الطائفتين المنافستين:الاغريق(الارثوذكس)والسريان، يتولون أكل اللحوم في بعض أيام السبت،وهم لا يمزجون الماء بالخمرة في يوم القربان المقدس لدم المسيح، وهم يظهرون بهذا الطقس الهرطقي وقد اقترفوا إثماً عظيماً،لأن ربنا يسوع عندما وضع العشاء على المائدة مزج الخمرة ليس وفقاً لعادات جميع الشرقيين،الذين لايشربون الخمرة بدون مزج، وعمل قربانه من خمرة ممزوجة بالماء،وفي الحقيقة مامن أحد في هذه المناطق يمكنه أن يشرب الخمرة صرفة من دون ماءإلا ويقع مريضاً، وبناء عليه يقول القديس سيبريان cyprian حول مزج الماء بالخمرة:« إذا لم يراع واحد من أسلافي، سواء عن طريق الجهل أو السذاجة القانون الذي علمنا إياه الرب عن طريق ممارساته وسلطته، فإن سذاجته يمكن أن تنال الغفران من الرب،أما نحن فلا يمكن أن يغفر لنا،لأننا قد حذرنا، وتلقينا التعليمات من الرب في أن نقدم كأس الرب ممزوجة بالماء،مثلما قدم الرب الشيء نفسه»،ومن الواضح أن الرب قدم في العشاء الأخير كأساً من الخمر ممزوجاً بالماء،وبناء عليه فإن الأرمن المتقدمي الذكر لايقلدون الرب في عيد القربان المقدس في المذبح،ولم يدركوا أسرار

الطقس،لأن الماء الذي هـو شيء لايعرف الثبات،بل دوما ينساب،هـو يرمـز الى الشعب الفـاني،الذي لايعرف الثبـات،ولهذا يمزج الماء بـالخمرة ليبين أن الناس اتحدوا بـالمسيح،مثل الانضمام الى دم مخلصنا،لأنـه إذا ما قدم أحدهـم الخمر صرفاً،كأنه بـدأ بدم المسيح بدوننـا، وإذا ما قدم الماء لوحده سيكـون ذلك الناس لوحـدهم من دون المسيح،ولـن يحمل معنى المزج المتقدم الـذكر،ذلـك أن القربان ينبغـي أن يكون عـلامة على شيء مقدس،ولايجوز— بنـاء عليه— أن يكون الـرب المقدم لامن الماء لـوحده ولامن الخمرة لوحدها،لأننا نقرأ أنـه في آلامه صدر عنه من جانبه كلاهما معا.

ومهما يكـن من أمـر لقـد وعد الأرمـن الآن بـإطاعـة البـابا والكنيسـة المقـدسـة في رومـا،وذلـك عنـدمـا تلقـى ملكهـم(ليـون الكبير ١١٨٥—١٢١٩) بـلاده من الامبراطـور هنـري،امبراطـور، الامبراطوريـة الرومانية المقدسة،وجرى تتـويجه(في طرسوس سنة ١١٩٨) من قبل رئيس أساقفة مينزmainz،ومع ذلك لم يغيروا عاداتهم القديمة الراسخة.

الفصل التاسع والسبعون

ويـوجد في الشرق أيضـا شعب مسيحـي آخر،مـولع رجـاله بـالحرب كثيراً، وهم شجعـان في القتال،ذلـك أنهم أقويـاء في الجسد، وأشـداء في أعـداد مقـاتليهـم التـي لاتحصـى، وهــم مـرعبـون يخافهــم المسلمـون كثيراً،وغـالبـاً مـاأحـدثـوا بغـاراتهم أضراراً عظيمـة ألحقـوهـا بالفـرس،وبالميـديين، وبالآشوريين، الـذين سكنـوا على حدودهـم،ذلك أنهم مطوقـون تماماً مـن قبل الأمـم الكافـرة، ويعرف هـؤلاء القوم بـاسم الجورجيين(الكـرج)لأنهم يبجلـون بشكـل خـاص ويعبـدون القـديـس جورج،الذي هو شفيعهم وحامل رايتهـم في قتالهم مع الكفار،ويمجدونه

فوق جميع القديسين الآخرين، ويقرأون الكتابات المقدسة بالإغريقية،ويقدمون القرابين وفق الطريقة الإغريقية، ويحلق رجال الاكليروس لديهم رؤوسهم بشكل مستدير،أما السواد الأعظم منهم فبشكل مربع،وكلما جاءوا للحج الى ضريح الرب،يسيرون في المدينة المقدسة بأعلام مرفوعة دون أن يدفعوا الجزية لأي انسان،لأن المسلمين لايتجرأون أبداً على التحرش بهم، خشية أنهم عندما يعودون الى بلادهم يقومون بالانتقام لأنفسهم من مسلمين آخرين من جيرانهم، وتشبه نساؤهم النبيلات الأمازونيات ويحملن السلاح في القتال مثل الفرسان، وكان الجورجيون ساخطون جداً وهددوا المعظم عيسى، أمير دمشق، لأنه استأنف تدمير أسوار القدس ضد رغبتهم، وكان هذا عندما كان اللاتين يحاصرون دمياط، وهم يطلقون شعورهم وشعور لحاهم حتى تصل إلى طول ذراع تقريباً، ويرتدون قبعات على رؤوسهم.

الفصل الثمانون

يدعى المسيحيون الذي يسكنون في أفريقيا واسبانيا بين مسلمي العرب باسم المستعربين، وهم يستخدمون الأبجدية اللاتينية، ويقرأون الكتابات المقدسة باللغة اللاتينية، وهم مثل اللاتين الآخرين يطيعون بتواضع وعن إيمان الكنيسة الرومانية المقدسة، دون الانحراف في أي سبيل والابتعاد عن تعاليمها الدينية أو الطقوسية المتعلقة بالقربان المقدس، وهم يحتفلون بالقربان المقدس بخبز فطير، مثلما يفعل بقية اللاتين، ويقسم بعضهم — على كل حال— قداس القربان إلى سبعة أجزاء، وبعضهم إلى ثمانية، في حين تقسم الكنيسة الرومانية مع رعاياها الآخرين القربان المقدس إلى ثلاثة أجزاء فقط، وبما أن هذا التقسيم لاعلاقة له بجوهر القداس فإنه لايغيره أو يعيق فضيلته.

الفصل الحادي والثمانون

ويوجد في الشرق شعوب أخرى تعيسة، يبغضهم الرب، وهم أخساء يستحقوق الازدراء، ويدعى بعض هؤلاء باسم «الايسينيين*»، وهم انحدروا من أصل يهودي، ويرى بعضهم أن الحياة بعد الموت مسألة إيمانية، ويثقون أنهم سيحرزون الشيء نفسه مرة أخرى، وهم لايتزوجون خشية من فجور النساء، الذين يرون أنهن لم يكن قط مخلصات لرجل واحد، ويتزوج بعضهم الآخر، لكن لا يتحدثون مع زوجاتهم عندما يكن حوامل، ليظهروا أنهم اتصلوا بهن فقط من أجل الحصول على الذرية، وليس من أجل المتعة، ويقولون لاتتلقي الأرواح بعد الموت لاعقوبة ولاتمجيد، لكن وهم يسعون ضد هذه الطوائف، يبدد هؤلاء القوم المفتتنون جهودهم.

ومن هؤلاء الايسينيين طائفة الحشيشة المتقدمة الذكر، وقد قيل بأنها الطائفة الرئيسة بينهم، وهم يحتفظون بجزء من الأبجدية اليهودية، ويستخدمون مزيجاً من الحروف العبرية والكلدانية.

وآخرون هم الصدوقيين، الذين لايؤمنون ببعث الموتى، وهم قد تلقوا أسفار موسى، لكنهم لم يفهموها، وقد وبخهم الرب في الانجيل قائلاً: «تضلون إذ لاتعرفون الكتب ولاقوة الرب» (متى: ٢٢/ ٢٩)، وبعدما اقتبس سلطانه من أسفار موسى بقوله: «أنا رب إبراهيم، ورب اسحق،

*— الايسينيون: طائفة يهودية نشطت بشكل رئيسي في دير قمران على البحر الميت، وقد زالت هذه الطائفة مع سنة ٧٣م، وتعرف العلماء مجدداً عليها من خلال المخطوطات التي كشفت حديثاً في خرائب وكهوف دير قمران، ومزج المؤلف المعلومات وأخطأ كثيراً، ويرجح أنه أراد طائفة الحشيشية الاسماعيلية، وهو لم يفقه عقائد الاسماعيلية، واختلط عليه الأمر، وهذه لم تكن المرة الأولى ولن تكون الأخيرة.

وربّ يعقوب»، أفحمهم وأنهى كلامه على هذه الصورة بقوله: « هو ليس ربّ الأموات، بل ربّ الأحياء» وآخرون هم السامرة الذين يعتمدون الأبجدية العبرية مثل اليهود، وقد تقبلوا أسفار موسى الخمسة فقط (البنتاتوخ)، ولم يعترفوا بالأنبياء الآخرين أصحاب الأسفار اليهودية المقدسة الأخرى، وعندما اقتاد شلما نصر ملك آشور سبي الأسباط العشرة من بني اسرائيل ونفاهم، بعث بالسامرة المتقدم ذكرهم إلى بلاد السامرة لكي يقوموا بفلاحة الأرض في مكان اليهود، وعندما تلقى السامرة كلمة الرب بوساطة تبشير الرسل، استمر بعضهم بالتمسك بأخطائهم القديمة، ولهذا لعنهم الرب وعاقبهم بالرحم العقيم وبالصدور الجافة، ولعن كذلك تماما هذه الأرض الشريرة والفاسدة، وقضى عليها بالنار الأبدية مع الجفاف والقحط، ولهذا قيل لايوجد منهم أكثر من ثلاثمائة انسان حي يمكن العثور عليهم في جميع أنحاء العالم، وتقبل آخرون منهم أسفار موسى والأنبياء وجميع العهد القديم، لكن فقط بمعناه الحرفي، وهؤلاء هم الذين قال القديس بولص ضدهم: « لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحيي» (كورنثه: ٢/ ٣/ ٦)، ويقول الرب في الانجيل: « الروح هو الذي يحيى، أما الجسد فلا يفيد شيئاً» (يوحنا: ٦/ ٦٣)، ولهذا من الواضح أن الكتاب المقدس ليس له فائدة عند اليهود، لابل إنه يؤذيهم كما قال النبي داود: «لتصر مائدتهم قدامهم فخاً وللآمنين شركاً.لتظلم عيونهم عن البصر وقلقل متونهم دوماً. صب عليهم سخطك وليدركهم حمو غضبك. لتصر دارهم خراباً وفي خيامهم لايكن ساكن» (المزامير: ٦٩/ ٢٢— ٢٥)، وتعني هنا كلمة «مائدة » الكتابات المقدسة، هذا ومازال الجزء الأكبر منهم يسكن منعزلاً في ذلك الجزء من الشرق، حيث يحكى أن الاسكندر ملك مقدونيا قد حجزهم دون جبال قزوين، ومن هناك سوف يجلبون في أيام المسيح الدجال، ويقادون عائدين إلى الأرض المقدسة، وبين جبال قزوين تلك وبحر (قزوين) حبس هذا الاسكندر نفسه قوم يأجوج ومأجوج الذين

لايمكـن تعدادهـم لأنهم مثل رمـال البحـر، لأنه كـره عاداتهم البغيضـة بأكلهم لحوماً بشرية ولحوماً نيئة لحيوانات نجسة.

وفئة أخـرى من اليهـود، الذيـن كان آبـاؤهم قـد صرخوا: «دمـه علينا وعلى بنينا»(متـى: ٢٧/ ٢٥) قد تشتتوا في جميع أنحـاء العالم، وإلى حيثما هبت الرياح من السماء، « تراهـم في كل مكان عبيداً، ودافعين للجزية»، تحولـت قواهـم إلى رماد حسـب كلمات النبـي إشعيا، لأنهم أصبحـوا في الحقيقة ضعفـاء غير محبين للقتال مثل النسـاء، ولقد قيل بـأنهم يحيضون وتتدفـق منهم الدماء كـل شهر، ولقد ضربهم الرب في الأعضـاء الخلفية، وجعلهـم في عـار دائم، فمنذ أن قتلـوا أخـاهـم هـابيل جعلـوا هـائمين ومشردين على وجـه الأرض مثل قـابيل الملعون، الـذي له رأس مـرتعش، أي قلب خـائف ، يمضون أيامهم وليـاليهم في رعب، ويعيشـون في ظل الشعور بالخوف من الموت، ويكرههم المسلمـون الذين يعيشون فيما بينهم ويحتقـرونهم أكثـر مـن المسيحيين، ولما كـان الجشـع المقيـت لـلأمـراء المسيحيين جعلهم يتسـاهلون معهـم في سبيل الربـح الدنيـوي، وسمحوا لهم بالاحتفاظ بـرجال مسيحيين سجناء لديهم، وجعـل المسيحيين يعانون من السلب مـن قبلهم بوساطة الـربا الذي يمارسونه والـذي لايطاق، أما بين المسلمين فيعملون بأيديهم بالحرف الأسـوأ والأشد قساوة، وهكذا هم أقنان وعبيد للمسلمين ويعـانون ليعيشوا معهم في أدنى مرتبـة من الحياة، ومـع هذا لايتعـرضـون للقتـل على أيدي المسلمين مثلما يتعـرضـون على أيـدي المسيحيين، لأن الرب يبقيهـم للـوقت المنـاسـب مثلما يبقي جذع شجرة من الغـابة لكي يحرق في الشتاء، ومثـل كرم خبيث حتى النهـاية، أي نهايـة الدنيـا، عنـدما يتـم انقاذ بقـايـا اسرائيل، لكنـه تحول الآن إلى المرارة، وهو يعطي فقـط عنباً وحشياً، وهو ربما سيعطـي ثماراً ثمينة وعنباً حقيقياً، وهكـذا قال النبـي داود حولهم: « الرب سـوف يرينـي رغبتي في أعـدائي. لاتقتلهم لئـلا ينسى شعبـي، تيههـم وشردهم». الـخ (المزامير:

٥٩/ ١٠ــ ١١) لأنهم يذكروننا بموت المسيح، ولقد تلقينا شهادتهم من الكتابات المقدسة حول الأشياء التي صنعها الرب من أجلنا، حسبما يقول دانيال: «يُقطع المسيح، وليس له، وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس» (دانيال: ٩/ ٢٦)، ويقول داود: « بنو الغرباء يبلون ويزحفون من حصونهم» (المزامير: ١٨/ ٤٥)، هذا ولايوجد أي نبي لم يقدم لنا شهادة ضدهم، وقلب هذا الشعب أعمى إلى حد أنه يلتمس طريقه ويسلب وسط النهار، وكأنه في الظلام، ذلك أن آذانهم صماء، وعيونهم مغلقة، وكذلك لايفهم هذا الشعب الأحمق والمعاند، ولايعرف المدى المرعب الذي أغضب فيه الرب ضده بموت المسيح، لابل إنه قد أغضب الرب حتى قبل موت المسيح، بطرق مختلفة، منها عبادة الأصنام، واقتراف لمنكرات أخرى، ولهذا ألقى بهم الرب في أيدي أعدائهم، ليخدموهم أحياناً لمدة عشر سنوات، وأحيانا لمدة عشرين، وأحياناً أخرى لمدة أربعين، وذلك حسبما نجد في سفر القضاة، فقد مكثوا في احدى المرات في السبي في بابل لمدة سبعين سنة، وأطلق الرب بعد ذلك سراحهم، لكنهم بعد ما قتلوا الرب يسوع، لم نعد نسمع أنهم عبدوا الأصنام، لكنهم وقعوا في السبي لمدة تزيد على ألف سنة، ولم ينالوا بعد عفو الرب ومغفرته. ولكن كما صلى المسيح للرب قائلاً: « أما أنت فارحمني وأقمني فأجازيهم» (المزامير: ٤١/ ١٠)، وهكذا نال صلاته من الرب الآب، ومثل هذا كان قد تنبأ لهم قبل وقت طويل، قائلاً باسم الرب شخصيا: «الانتقام لي وأنا أجازي» (التثنية: ٣٢/ ٣٥)، وقال ثانية: «فيصيبكم الشر في آخر الأيام، لأنكم تقترفون الشر أمام الرب حتى تثيروا غيظة بما تجنيه أيديكم» التثنيه: ٣١/ ٢٩).

وتحدث النبي دانيال عن هذا السبي الأخير بهذه الكلمات: «وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس، وانتهاؤه بطوفان، وفي نهاية الحرب خراب قضي به. ولسوف يوقف الذبيحة والتقدمة. وفي الهيكل سيكون

هناك رجاسة الخراب، وسيستمر هذا الخراب حتى الاكتمال والنهاية» (دانيال: ٩/ ٢٧).

الفصل الثاني والثمانون

ومنذ بداية استرداد الأرض المقدسة وانقاذها، بات مؤكداً بشكل صحيح من قبل الذين عرفوا أوضاعها بشكل دقيق، وعرفوا تبدلات تقدمها وسعدها، ونظروا بعناية نحو ازدهارها وانتكاساتها، أنه ما من جنس من البشر، وما من وباء كان له قوة الأذى عليها أكثر من رجالها: المجرمين والآثمين، والأشرار، وغير التقاة، والمدنسين، واللصوص، والسارقين، وقتلة النفس، وقتله الأباء، وحانثي اليمين، والزناة، والخونة، والقراصنة — أي لصوص البحر— والداعرين، والسكيرين، والمغنين، ولاعبي النرد، والمهرجين، والممثلين، والرهبان المرتدين، والراهبات اللائي مثل المومسات العموميات، والنساء اللائي تخلين عن أزواجهن ليعشن في بيوت الدعارة، أو الرجال الذين هربوا من زوجاتهم الصحيحات واتخذوا أخريات بديلاً عنهن، ولقد عبر مثل هؤلاء الناس الأشرار الذين كانوا في الغرب، البحر المتوسط، واتخذوا ملاذاً لهم في الأرض المقدسة، حيث غيروا المناخ فقط، لكنهم لم يغيروا أخلاقهم، ولقد دنسوها بأعداد لاتحصى من الجرائم، والأفاعيل المخزية، لأنهم لم يخافوا لا الرب، ولم يقيموا أدنى اعتبار للناس، بل أذنبوا دونما خجل، واقترفوا ما اعتادوا عليه من آثام، وكلما ازدادوا وقاحة كلما ابتعدوا عن معارفهم وأقربائهم، كما أن السهولة التي جعلتهم ينجون من العقاب زادت وقاحتهم على اقتراف الإثم، وأطلقوا العنان لفسوقهم، ذلك أنهم بعد اقترافهم لشرور عظيمة يقومون إما بنكران المسيح، والالتحاق بالجيران من المسلمين، أو يعتلون ظهر غليون أو سفينة، ويحملون أنفسهم إلى جزر البحر، أو يتخذون ملاذاً في واحد من بيوت الكهنة النظاميين، ومثل هؤلاء الرجال

الهاربين من العدالة تجدهم في كل مكـان على طرقاتهم، حيث أن الامتياز المخرب يحمـي فاعلي الشر، وهكـذا يهربون من تسـديد المقتضـى عليهم، وينجح بعـض الرجـال الدمويين وأطفـال الموت بعد القبـض عليهم في بلادهـم وهم متلبسون بجـرائمهم، وبعد مـا يحكم عليهم بفقـدان عضو من الأعضاء أو الشنـق، هؤلاء ينجحون عن طـريق الوساطـة أو الرشوة، حسبما جـرت العـادة في الحصـول على حكم بـالنفـي المؤبـد إلى الأرض المقـدسة دونما أمـل بـالعـودة. وصار هـؤلاء النـاس متجنسين في الأرض المقدسـة، ليس عـن طريـق التوبـة بل بـالقوة، ولقـد اعتادوا على تـأجير مساكـن الحجاج بأسعار معتـدلة، والقيام بخديعـة الغرباء الأبريـاء بكل طريقـة يمكنهم فعلهـا، ينتزعون المال منهـم بالحيلة لأجـل الديـون التي لايمكنهم الوفاء بها، وهكذا نجدهـم يعيشـون حياة بائسة بنهب ضيوفهم وسلبهـم، ولقـد اعتـادوا على إيــواء القتلـة واللصـوص، ولاعبـي الميسر، والعـاهـرات العموميـات، على أمـل الحصـول على مـرابح أعظـم، وهـم يـدفعون جـزيـة سنويـة للرجـال الأغنيـاء والأقويـاء حتـى يتمكنوا مـن الحصول على حمايتهـم، ودعمهم في آثامهم المتقـدمة الذكر، وكـل هذا في سبيـل الشرور الأعظم واللعنـة والخزي لكلا الفئتين: لأن الـذين حصلـوا مقابل دفع مبلغ كبير مـن المال على امتياز الحفاظ على المومسات ولاعبي الميسر، يستخرجـون المزيد من الأمـوال من هـؤلاء المومسات والمقامـرين، هذا وإن الـذين يتسلمـون إيجار المومسات، معانـدة منهم لأوامـر الرب، يتولون بـأنفسهم مشاركتهن في جميـع ذنوبهن وآثامهن، ذلـك أن الشريك في الجريمة يتلقـى العقوبة نفسهـا التي يتلقـاها المجرمين، وذهـب بعض الناس من ذوي العقول الخفيفة، للقيام بالحج إلى الأماكن المقدسة، ليس بدافع التقـوى، بل بدافع الفضـول ومحبة الأشياء الجديدة، أي أن يـرتحلوا إلى بـلاد غير معروفـة، ويمكنهـم مـع جهد كبير أن يبرهنـوا على صحـة الحكايات الغريبة الاعجازيـة التي سمعوها عن الشرق، للناس الجاهلين، وفي الحقيقة صنـع الرب الكثير من الأعمال الاعجـازية المدهشـة في هذه

المناطق، التي تجعل العقلاء وذوي التفكير السليم من الناس ينبرون نحو حمد الرب وتمجيده، حتى أن القديس براندان Brandan(٤٨٤— ٥٧٦م) أبحر حول البحار لمدة طويلة (سبع سنوات) حتى يرى عجائب الرب في الأعماق، غير أن ذوي العقول الخفيفة، والرجال ذوي الفضول حولوا إلى حماقات هذه الاشياء التي تفضل الرب وتنازل بالبرهنة بها على قوته ولإظهار حمده وشكرانه، ورأينا أنه من المناسب إضافة قليل من هذه الأشياء إلى الكتاب الحالي، لعل ذلك يكون نافعاً إلى القراء النبهاء والمتيقظين.

الفصل الثالث والثمانون

غالباً ما تحدث زلازل خطيرة ومرعبة، ليس فقط في مملكة القدس بل أيضاً في البلدان من حولها، خاصة على شواطىء البحار، وذلك بسبب عنف الرياح، التي تتشكل من هياج الأمواج وقوة اندفاعها في الأماكن الكائنة تحت الأرض وفي الكهوف في الأرض، وبما أن الهواء المضغوط والمندفع لايجد فتحات متيسرة يقوم بهز الأرض بضربات قوية ومقلقلة، وإذا لم تستطع الأرض مقاومة هذا الضغط، تنفجر منفتحة، ويكون هناك خليجاً عظيماً، ولهذا يتم أحياناًابتلاع بعض المدن ونزولها إلى الهاوية، وعندما لاتنفجر الأرض، تهتز بمثل هذه الضربات العنيفة الناجمة عن الرياح، مما يجعل مدناً تنهار فجأة هي وأسوارها وأبراجها والأبنية الأخرى فيها، وتفاجىء الناس، وتأخذهم على حين غرة، فتغمرهم وتقهرهم، وبناء عليه فإن الناس العقلاء في هذه المناطق، الذين لايعرفون الساعة التي ستهب فيها العاصفة سالفة الذكر عليهم، يترقبون ذلك بكل يقظة، ولا يهملون إعداد أنفسهم للموت، غير مفترضين القدرة على العيش في وضع لايتجرأون فيه على الموت، وكان بمثل هذا النوع من الدمار الشامل قد دمرت مدينة صور، بعدما

أصبحت في أيـدي اللاتين، فلقد دمـرت كلها تقـريباً مع جميـع سكانها. وفي الـوقـت الـذي يحدث فيـه البرق والرعـد في الغـرب أثنـاء الصيـف، يحدثان في الأرض المقدسـة أثناء الشتاء، لأن الأمطار لاتهطـل في الصيف فيها، أو نادراً مايحدث ذلك،لكن غالباً ماتتساقط الأمطار لمدة ثلاثة أيام أو أربعة معا،وينتج عـن هذه الأمطار فيضانات مياه عظيمـة،مثل طوفان آخـر يغرق الأرض كلهـا ويوحلهـا،ونـادراً ماتتسـاقط الثلـوج في الأرض المقدسة،باستثناء على قمم الجبال العالية،كما في لبنان،وفي خلال الصيف كله،لاسيما في أوقات الحر الشديـد أيام الشعرى dog-days ،وفي شهر آب،يجلب الثلج البـارد الى القدس، ويحمل إليها خلال رحلـة يومين من لبنـان، وعندمـا يمزج هـذا الثلج مـع الخمـرة يجعلها بـاردة مثل الثلـج، ويحفـظ هذا الثلـج بتغطيته بـالقـش،حتى لايـذوب بحرارة الشمـس أو بدفء الهواء.

الفصل الرابع والثمانون

وجدت الينابيـع التي تتدفق بماء عذب في كل مـن البحر والبر،وواحد من هذه الينابيع في السامرة(نابلس)،قيل بأن مياهه تتبدل الى أربعة ألوان مختلفة في السنـة، وهذه الألـوان هي:الأخضر،ولـون الدم،ولـون الصدأ أو لون الوحل،واللون النقي تماماً، وهكـذا توفر تغييراً مدهشاً ومبهجاً للعيون أن تـراه ،ولايرسـل نبع سلـوان ميـاهه العـذبـة كل يـوم من القعـر دونما انقطاع،بل يرسلها على دفعات،لمدة ثلاثة أيام أو أربعة في الأسبوع،وهناك في قرب جبـل لبنان،بين بلدتي عـرقة ورفنية(بـارين،أو بعريـن) نهر سريع الجريان وكثير الميـاه يدعـونه نهر السبعتـا كال sabbatical (أي نهر السبعـة أوفـوار الـديـر) لأنـه لايعطي أيـة مـاء خـلا ل ستـة أيـام مـن الاسبوع،وتتـدفق المياه منـه فجأة في اليوم السـابع وتجري في مجراه الجاف، ويصنعون في منطقـة صور وعكا الـزجاج النقي جـداً،ببراعة حرفيـة،ويتم

التصنيع من رمال البحر، أي أن تقول من رمل البحر وحصبائه.

×× ×× ××

الفصل الثاني والتسعون

وهكذا سلم الرب شعبه تماماً للسيف ،وكان حانقاً جداً على ورثته، وهكذا صار أعداؤنا بشكل تام هم الرأس ونحن الذنب،وهكذا أخذوا منا بالقوة ليس فقط أرض الميعاد،بل جل المناطق، والمدن،والقلاع من تخوم مصر حتى الجزيرة،وتركوا لنا من مدن شاطىء البحر مدينتين فقط هما:صور وطرابلس،وذلك بالإضافة الى انطاكية،وعدد قليل من الأماكن الحصينة،مثل قلعة تعرف باسم قورس،قرب أنطاكية وحصن (الأكراد) والمرقب،والحصن الأبيض (برج صافيتا) وعرقة ، وبرج طرطوس ، وقلعة نفين (رأس شكا) في منطقة طرابلس وسقطت جميع المدن والأماكن الحصينة في الداخل في أيديهم الآثمة ، وكانت البداية التعيسة بالنسبة لهذه الكارثة ، والمحنة المريرة ، والبلوى ، مع كونتية الرها : لأنه بعد وفاة جوسلين الشجاع والحكيم ، الذي كان كونت الرها ، قام ابنه جوسلين الثاني الذي انحرف عن طريق والده في المكانة والشرف وأسلم نفسه الى الفسوق المشين ، وأهمل الدفاع عن مدينة الرها ، ففقدها لصالح زنكي صاحب الموصل ، التي هي عاصمة ومطرانية اقليم آشور ، فقد قام زنكي بحصار المدينة ، وشق طريقه بالقوة الى داخلها من خلال الأسوار واستولى عليها ، وبعد هذا أنزل انتقام السماء حكمه على جوسلين المتقدم الذكر ، وقد أخذ أسيراً من قبل المسلمين ، ومات بشكل تعيس ، حيث جاع حتى الموت في السجن في حلب ، وبناء عليه قامت زوجته بالتنازل عما بقي لها من مناطق لصالح امبراطور القسطنطينية ، مقابل دخل سنوي وأرسل الامبراطور حشداً جباراً من الاغريق ، ووعد أنه سوف يدافع عن البلاد ضد المسلمين وفرح نور الدين بن زنكي

المتقد م الذكر ، لدى تراجع اللاتين ، مع أنهم كانوا قلة ، واكترث قليلاً بحشد الاغريق غير المولع بالحرب ، والذي كان يعرف أنه كان ضعيفاً وجباناً ، وبناء عليه أدخل المنطقة كلها تحت سلطانه ، وقتل بعضاً من رجال جيش الاغريق الغرير وأسر البقية، وقام نور الدين هذا نفسه أيضاً بحصار قلعة اسمها حارم ، كان تعود بملكيتها الى امارة انطاكية ، وتبعد مسافة عشرة أميال عن مدينة انطاكية ، وقتل في تلك الآونة ريموند أمير انطاكية في معركة ، وكان ابنه بوهيموند وخليفته في حكم الإمارة أسيراً في أيدي المسلمين، وبسهولة اقتحم نور الدين القلعة ، وقد واجه القليل من المقاومة ، ومثل هذا انتزع من ايدينا بالقوة مدينة بانياس وأضافها الى ممتلكاته، لأن عموري ملك القدس كان آنذاك بعيداً متغيباً في مصر ، ومنذ ذلك الحين بدأت قوانا تنهار ، ومع هذا دافع شعبنا عما بقي لنا من أرض ، ما دامت مملكتي مصر ودمشق باقيتان في أيدي حكام مختلفين ومتنازعين ، لكن عندما - بسبب آثامنا — قامت المملكتان المتقدمتا الذكر بمضاعفة قواهما عن طريق الاتحاد تحت قيادة سيد واحد، بدأت مملكة القدس التي قامت فيما بينهما تعيش في فوضى واضطراب عظيم ، وجعل شيركوه — وكان واحداً من القادة لدى نور الدين — من نفسه بالقوة سيداً لمملكة مصر ، وتركها عند موته الى ابن أخيه صلاح الدين وكان صلاح الدين هذا حكيماً في تصرفاته، وبارعاً في السلاح والحرب بعيد النظر ، وحازماً في عمله ، وكان كريماً جداً، ومبسوط اليدين ، ليس فقط لشعبه، بل أيضاً لبعض من شعبنا، الذي جذبهم إلى جانبه بالهدايا والوعود، ويعلم العالم كله كم من الأذى ألحقه بنا ، مثل سوط عذاب الرب ، وقد دمر الصليبيين ومزقهم إرباً إرباً ، لأنه بعدما قام هذا المتقدم الذكر بقتل (اقرأ : بعزل) مولاه خليفة مصر بشكل خياني (كذا) ، استولى على مملكة دمشق ، وانتزعها من مولاه الطفل الذي

كان يعيش في حلب ، وهو ابن نور الدين الذي كان الآن متوفى ، ذلك أنه كسب الى جانبه أعيان المملكة إما بوساطة الهدايا ، أو أرعبوا بوساطة العنف ، حتى يوافقوا على خيانته ، وقد مضى في سبيله للاستيلاء على بعض المدن الغنية العائدة للمولى المتقدم الذكر ، مع أنه كان شخصياً وأبوه من قبله عبيداً له، ومن هذه المدن : حماه، ومنبج، ومدينة حمص، التي تعرف بشكل عام باسم كاميلا، وقيسارية الكبرى، وكان بعد وفاة نور الدين قد وقع الابن المتقدم الذكر صاحب حلب ، تحت سيطرة عمه، صاحب الموصل، بموجب حق الوراثة، وقد انتزع صلاح الدين من صاحب الموصل المتقدم الذكر بالقوة ليس فقط حلب، بل منطقة الرها أيضاً، والبلاد جميعها حتى الفرات ، وكذلك مدن الجزيرة الجليلة مثل الرها، وجعبر، وجميع البلاد تقريباً ، وشكل قيامه ونجاحه رعباً بالنسبة لشعبنا وخطراً واكتئاباً ، خاصة وأن المسلمين كانوا في البداية — عندما قدم اللاتين الى البلاد أولاً— غير بارعين في الحرب ، وكانوا يذهبون نحو القتال وكأنهم غير مسلحين ، لا يحملون شيئاً سوى القسي والنشاب،ومن خلال الممارسات المستمرة ، والمواجهات المتوالية مع شعبنا في أرض المعركة، تعلموا النظام العسكري، وقلدوا اللاتين في استخدام الدروع والخوذ، والرماح والسيوف والترسة، ولزيادة مصائبنا وتتويجها آلت مملكة القدس ووقعت في يدي واحد لم يكن من ذرية الذين تولوا تحرير أرض الميعاد، ولهذا كانت هناك صراعات كبيرة وانشقاقات بين بارونات المملكة .

الفصل الثالث والتسعون

وكان أول اللاتين الذين تولوا الحكم في مملكة القدس هو غودفري، المحبوب من السماء، الذي حقق الرب من خلاله وصنع

واحدة ، وقد ألحق الهزيمة أثناء القتال بالقائد الأعلى لدى سلطان مصر، مع عدد لا يحصى من الكفار، وبعدما غادرت روحه الجسد، خلفه أخوه بلدوين كونت الرها، في حكم المملكة، فكان الملك الأول للقدس، لأن أخاه رفض ارتداء التاج الملكي في البقعة التي ارتدى فيها معلمه تاجاً من شوك، وتمكن بلدوين هذا مع مائتين وستين فارساً وتسعمائة من الرجالة، من الحاق الهزيمة بالقائد الأعلى لدى خليفة مصر، الذي قاد أحد عشر ألفاً من الخيالة وثلاثين ألفاً من الرجالة ضده، وقتل بلدوين القائد الأعلى نفسه مع خمسة آلاف من قومه، بينما أخذ بعضاً من البقية أسرى، وتمكن بعضهم من انقاذ أنفسهم عن طريق الفرار، وتمكن في معركة أخرى مع قوة صغيرة جداً من هزيمة حشد كبير من الناس من عسقلان ومن مصر، واستطاع في المعركة الثالثة ومعه خمسمائة فارس وألفين من الرجالة، أن يهزم عشرين ألفاً من المصريين، وقد قتل أربعة آلاف منهم، كان بينهم صاحب عسقلان، وأرغم البقية على الفرار . ولقد حكم لمدة ثمانية عشر عاماً ثم مات. وكان خليفته، والملك اللاتيني الثاني للقدس، بلدوين بورغ، وكان من أقربائه، وهو الذي التحم في السنة الثانية من حكمه بمعركة ضد (ايل) غازي أحد امراء الأتراك الأشداء جداً ، وكان بلدوين وقتها على رأس سبعمائة فارس.

وهزم غازي هذا في القتال، وكان يقود حشداً لا يحصى من الأتراك، وقد قُتل أربعة آلاف من قومه، ووقع بالأسر عدد كبير، وهو نفسه نجا بكل صعوبة مع البقية، وهزم في المعركة الثانية ، وهو على رأس ألف ومائة فارس وألفين من الرجالة، ملك دمشق، الذي قيل كان معه خمسة عشر ألفاً من الفرسان، الذي قتل منهم ألفين، وأسر عدداً كبيراً ، وجرح عدداً كبيراً جداً، وهرب البقية مع قائدهم، وسقط من جانبنا أربعة وعشرون. وفي المعركة الثالثة هزم هذا الملك العسقلانيين مع المصريين

الذيـن جاءوا لمساعـدتهم، وقد سحق في المعـركة الرابعـة طغتكين، ملك دمشـق، وقتـل ألفين من الأعـداء ، وخسر فقـط أربعـة وعشرين فـارسـاً وثمانين من الجنود الرجالة . ولقد حكم لمدة ثلاثة عشر عاماً، ثم مات.

وكان خليفتة على العـرش فولك، كونـت أنجو، ولا مانس وتـور، وهو الذي زوّجـه الملك المتقدم الذكـر ابنته الكبرى ميليساند، وقـد خاض معركة قاتـل فيها قرب أنطاكية ضد حشـد لايحصي تعداده من الترك، الذين تقـاطروا من منطقة الخليـج العربي، ونال نصراً مدويـاً، حيث قتل ثـلاثة آلاف منهـم، وأخـذو عـدداً كبيراًمن الأسرى وأرغـم البقيـة على الفرار ، وقد حكم لمدة أحد عشر عاماً ، لكن عندما كان يصطاد أرنباً بـرياً قـرب عكـا، تقنطـر فرسـه معـه، وهلـك بشكل مفـاجـىء ومحزن ومأساوي، وقد خلف من بعده ولـدين: كان الأكبر بينهما بلدوين الذي خلفه على العرش، ثـم عموري، ونال بلدويـن هذا في السنة الثالثـة من حكمـه وهـو على رأس جيشـه كلـه، نصراً على عـدد مـن نبـلاء القـادة الأتـراك، في هـذا الجانـب من أريحا، وقتـل خمسـة آلاف منهـم، وجعـل البقيـة يفرون وهـم مجللين بالعـار، وفي السنة الخامسـة عشرة من حكمـه قاتل هـذا الملك نور الديـن، أمير دمشق، وبقي سيداً للمعـركة، في حين هرب نـور الدين مـع بعض قواته، بينما تعـرض البقية للقتل، وقـد حكم لمدة أربعة وعشريـن عاماً، ومات بـدون أولاد، وقد خلفه أخـوه عموري، وحـارب عمـوري في السنـة الأولى مـن حكمـه ضرغـام، أمير الجيـوش المصرية، في أرض مصر، ونـال النصر بشكل عجـائبي ، بعـدما قتـل من الأعداء أعـدادا كبيرة ، وقاتـل في السنة الثـانية في قفـار مصر، وهو على رأس ثلاثمائة وسبعين فـارساً، ضـد شيركوه ، الـذي كان القـائد الرئيسي لـدى سلطان دمشـق، وكان في جيـش شيركـوه هذا اثنـي عشر ألفاً مـن الأتراك ، وأحـد عشر ألفاً من العـرب، ولقد غـادروا ، عندما قتـل مائة من رجالنا، ولقد قيل بأن ألفـاً من الأعداد قد هلكوا، ولقد حكم لمدة

اثني عشر عاماً، وعندما مات خلفه ابنه بلدوين على العرش، ولقد قدرت عليه السماء الإصابة بمرض الجذام، ومع هذا كان ملكاً قديراً، وفي السنة الثالثة من حكمه، التقى بصلاح الدين قرب عسقلان، وكان معه ثلاثمائة وخمسة وسبعين فارساً، بينما كان مع صلاح الدين ستة وعشرين الف فارس، وقد ألحق الهزيمة به، وهرب صلاح الدين مع بعض رجاله، أما البقية فقد قتلوا أو وقعوابالأسر، وفقط أربعة أو خمسة من رجالنا — كما قيل — قتلوا. وتواجه مع صلاح الدين في معركة أخرى قرب طبرية، وقد هزمه، وكان معه سبعمائة فارس، في حين قيل كان مع صلاح الدين عشرين ألف فارس، وقتل بلدوين ألفاً من الأعداء، ومات من جانبنا عدد ضئيل فقط، ولم يكن بإمكان هذا الملك الزواج بسبب مرضه، وقام بتزويج أختيه: سيبيلا وكانت الكبرى، وايزابيلا، وكانت الصغرى، من اثنين من النبلاء: وأعطى سيبيلا الى وليم صاحب السيف الطويل، مركيز مونتفرات، وايزابيلا الى همفري صاحب تيرون (تبنين)، وعندما توفي وليم المتقدم الذكر، خلف طفلاً صغيراً اسمه بلدوين، وقد زوج الملك أخته المتقدمة الذكر من شاب من بواتو اسمه غي لوزغنان، وبسبب إزدياد مرضه وإثقاله له ، سلم ادارة المملكة كلها اليه، لكن بعد أمد أغضب غي الملك، وهكذا فقد الاشراف على المملكة ، ثم دعا الملك الى الاجتماع أعيان المملكة، وجعل ابن اخته بلدوين يرسم ملكاً، وعهد ببلدوين وبالاشراف على المملكة والدفاع عنها الى كونت طرابلس، وبعد مدة وجيزة غادر الملك بلدوين المجذوم هذه الحياة، وكان الملك بلدوين الصغير قد مات أيضاً واعتلى غي العرش، من خلال مساعي زوجته سيبيلا، وبموجب حقها بالوراثة، وذلك دون أخذ موافقة كونت طرابلس، الذي كان الوصي على المملكة كلها، وبناء عليه كان الكونت ساخطاً جداً، لا سيما وأنه كان يحدث نفسه بالوصول الى العرش ، ولهذا عقد هدنة مع صلاح الدين، دون موافقة الملك ، الذي بات عدوه اللدود، ولكي يزيد من

قوته في المملكة، حتى يتمكن من مقاومة الملك، ومن أجل امتلاك الوسائل لإثارة النزاع، تزوج من الوارثة لطبرية وجميع الجليل، ومن هنا برز خطر عظيم وخلاف مدمر في المملكة ، حيث وقف بعضهم الى جانب الكونت ، وبعضهم الآخر الى جانب الملك .

الفصل الرابع والتسعون

كان صلاح الدين رجلاً عاقلاً، عارفاً بتجارب الحرب وقدأدرك من خلال الخبرة أن المملكة المنقسمة على نفسها لا يمكنها الصمود ، وأن بإمكان الخلاف أن يدخل بسهولة من خلال ثغرةعظيمة، واستغل بشكل خاص الفرصة، بسبب أن (أرناط) صاحب الكرك قد خرق الهدنة التي عقدها شعبنا مع المسلمين، واستولى على الكثير من الأسلاب، وقد حشد حشداً عظيماً من المحاربين من جميع البلدان الواقعة تحت حكمه ، واستدعى كل من الفرسان والرجالة من مصر، ومن العربية ، ومن دمشق، ومن حلب، ومن الجزيرة، للقتال ضدنا ، وبعث أمامه عشرة آلاف من نخبة فرسانه، الذين عبروا خلال أراضي بلاد طبرية والناصرة حتى حدود عكا، وذلك أنهم أرادوا — حسب عادتهم— اثارة معركة مع شعبنا بغاية استدراجه وجعله يلاحقهم باندفاع وبدون نظام، ومن ثم الاطاحة برجالنا أو أخذهم أسرى، ولم تنطل خديعة المسلمين هذه علينا ، وأخفقوا في تحقيقها، لكن اندفع نحوهم المقدم الأعلى لفرسان الداوية ومعه أكثر من سبعمائة فارس، وذلك مع المقدم الأعلى لفرسان الاسبتارية، الذي كان عائداً مع عشرة من الفرسان من قلعته كوكب الهوا، وقد كانوا قد فصلوا بوساطتهم عنهم قرب قلعة كفركنا (روبرتي)، ومع أنه كان برفقتهما مائة وعشرين فارساً فقط وقفوا في وجه عشرة آلاف من المسلمين، فإنهم قاوموا برجولة، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، لكنهم أنفسهم إما قتلوا أو أخذوا أسرى، ونجا المقدم

الأعلى للـداويـة مـع عـدد قليـل مـن الأتبـاع، وقـد قتـل المقـدم الأعلى للاسبتـارية، وهكذا نـال العدو في اليـوم الأول من أيار نصراً دمـوياً على شعبنـا، وقام المسلمـون، الـذين تشجعـوا بهذا، فحشـدوا جميع قواهـم، وقامـوا في حزيران التـالي بحصار أقصى مـدينة في مملكتنا بـاتجاه دمشق، وأعنـى بهذا مدينـة طبريـة، لأن كـونت طـرابلـس، التـي عادت المدينـة بملكيتهـا إليه، قـد انسحب مـن التعامـل مـع المسلمين عندمـا خرقـت الهدنـة، لأنه قـد قيل لـه بأنـه كان حليفـاً للمسلمين، وأنه جلـب شروراً كثيرة ضد الملـك وضد المملكة، وبناء عليـه تولى تحصين المدينة المتقـدمة الذكر ضـد المسلمين، وترك زوجته فيها مـع حامية من الجنـد. وقام الآن اللـورد غي، ملـك القدس، وريمـونـد كونـت طـرابلس مـع جميع نبـلاء المملكة وكل الفـرسان والرجالة الذيـن كان بإمكانهم حشدهـم، قاموا في ساعة نحس، وقد حرموا من مسـاعدة السماء، وتوجهوا نحو قتال صلاح الديـن وقومـه، ونصبوا خيمهـم قرب نبع الصفـورية، ووثقـوا بأعـدادهم الكبيرة واعتمدوا عليهـا أكثر مـن اعتمادهم على المعـونة السماويـة، لأنه منذ دخـول شعبنا الأول إلى الأرض المقـدسة لم يكـونوا قـط قادريـن على حشد مثلما حشـدوه الآن من جنـود للقتال في معـركة واحـدة، وقد قيـل كان معهـم اثني عشر مائة مـن الفرسـان الدارعين وحوالي العشريـن ألفاً من الـرجالة المسلحين بـالسيوف والقسي، والقسي العقارة ، فهـؤلاء جميعاً شـاركوا في هـذه الحملـة التعيسـة، وفي اليوم التـالي عنـدمـا كان جيشنـا يزحـف باتجاه المدينة المحـاصرة، هاجمه حشد مـن فرسان جيـش صلاح الـديـن الخفـاف بشكـل شرس جـداً مـن على اليمين ومـن على اليسار،وضـاعفوا الجراحـات التي أصيـب بها كل مـن الخيول والفـرسان حتى أرغموا الجيش على العسكرة ونصب خيامـه في بقعة جافة ليس فيها ماء،وراقب صـلاح الدين بحكمة هـذا كله،وواجه جيشنا في اليـوم التالي قبل أن يستطيـع الوصول الى الماء،وكـانت المواجهة في حطين،على مقـربة مـن ترعـان،وانقض بقـواته المعبـأة بصفوف وفـق النظام العسكـري،على

عساكرنا،الذين كاد الفرسان فيهم والخيول يهلكون عطشاً،وكان اليوم آنذاك حاراً جداً،لأن المعركة كانت في شهر تموز في اليوم الرابع منه،وهو يوم عيد انتقال القديس مارتن،وذلك في عام ألف ومائة وثمانية وسبعين لتجسيد الرب،ولذنوبهم الكثيرة ألقى الرب الشعب المسيحي في أيدي المسلمين،لأن شعبنا فرّ لدى تلقيه الصدمة،وكان أفراده كلهم من الكبير الى الصغير إما أن قتلوا أو وقعوا أسرى، وجللهم الرب بالعار، مع الرعب والجبن، وبات الآن دور كل واحد من الأعداء ليقوم بمطاردة مائة من رجالنا، وقد رمى بعضهم بأسلحتهم، وألقوا بأيديهم واستسلموا عن طواعية الى أيدي المسلمين، وبعد مقتله كبيرة اقتيد غي دي لوزغنان مع المقدم الأعلى للداوية وأعداد أخرى كبيرة من ذوي المراتب العليا،اقتيدوا أسرى، وكانوا قد فروا بشكل جبان من أمام مطارديهم، ولهم أن يعرفوا بعلامة مؤكدة،وبرهان واضح، أن الرب كان غاضباً عظيم الغضب منهم، وأن ستر وقايته الربانية قد سحب عنهم،ولقد واجهوا حظاً عاثراً في ذلك اليوم الأسود بفقدانهم خشبة صليب انقاذنا،الذي كانوا قد حملوه معهم الى المعركة، وارتأى صلاح الدين أن يقوم بتدمير كلي لرهبنتي الداوية والاسبتارية في الشرق،لذلك أصدر الأوامر بقطع رأس كل واحد منهم يقع في أيدي رجاله.

الفصل الخامس والتسعون

بعد مضي وقت طويل على هذه الكارثة، بذل عدد كبير من المسيحيين جهودهم للنجاة،وغدا الذين بقيوا في المدن وفي الأماكن الحصينة جبناء مثل النساء وانقبضت قلوبهم، ولهذا لم يتجرأ العديد منهم على انتظار الهجوم من قبل أعداد قليلة من المسلمين،وهكذا،إثر الانتصار المتقدم الذكر،وصل صلاح الدين الى أمام عكا،فاستسلموا إليه على شرط الإبقاء على حياتهم،وزحف من هناك الى بيروت،واستسلمت

تلك المدينة اليه بدون أدنى مقاومة من قبل سكانها القانطين رعباً،وكذلك حصل على جبيل بدون صعوبة، ولم تتجرأ مدينة من المدن القائمة على الساحل من عكا الى عسقلان على مقاومته،هذا وقام شعب قيسارية الذين اعتقدوا أن مدينتهم لاتزام بإيقاف تقدمه لبعض الوقت،وأجابوا أنهم لن يستسلموا حتى يعلموا هل شعب القدس سيبقى صامداً أم سيستسلم، وعندما نصب خيامه أمام القدس،تخلوا عن المدينة إليه على شرط أن يخرجوا منها أحراراً، وأن يحملوا من مقتنياتهم ما يمكنهم حمله،وأن تجري مرافقتهم الى أرض يأمنون فيها،وهكذا نجوا من أيدي الأعداء، لكنهم عندما وصلوا الى طرابلس وقعوا في أيدي أعظم سوءاً،وهي أيدي آثمة مدنسة،فكل ما جلبوه معهم أخذه بأكمله وانتزعه منهم بوهيموند كونت طرابلس،مع أبناء الشيطان من أتباعه، الذين كان من المتوجب عليهم اظهار الرحمة نحو اخوانهم المنفيين،غير أنهم برهنوا أنهم أكثر وحشية تجاه المسيحيين من المسلمين،ولقد قيل فعلت هناك أفاعيل خسيسة لم يسمع بمثلها في القرون الخالية،فقد كانت هناك أم تحمل على كتفها طفل صغير لها،فسلبت من قبل هؤلاء الأعداء الأشرار، ذلك أنهم لم يوفروا أحداً لالمنصبه ولا لجنسه(رجلاً كان أم امرأة)،ولم يتحلوا لابالحياء ولا بالخجل اثنار سلبهم،وعندما رأت هذه المرأة أن مقنياتها التي تركها لها المسلمون،للحفاظ على نفسها وعلى طفلها،قد أخذت منها وانتزعها الذين فرت إليهم للالتجاء، تحولت الى حالة من اليأس والألم والهياج والقنرط،الى حد أنها قذفت بولدها الى البحر.

وعاد صلاح الدين الى عسقلان،واستسلمت المدينة اليه على شرط أن يطلق سراح الملك والمقدم الأعلى للداوية،اللذان كانا مسجونين لديه،ثم تابع زحفه كعسكري نشيط وفعال الى طرابلس حيث وجد سكان المدينة مع اللاجئين جاهزين لمقاومته، ولاعتقاده أن هذه المدينة لن تنجو منه

إذا ما عاد إليها في وقت آخر مناسب،بعد احتلاله لبقية الأماكن الحصينة، زحف نحو أنطاكية،لأنه في ذلك الوقت لم يكن مهتماً بشغل وقته كثيراً مع القلاع القائمة على شاطىء البحر،ذلك أن زعيم القراصنة واسمه«مرجريت» وكان رجلاً واسع النفوذ في البحر،قدم من مملكة صقلية مع ثمانين من الغلايين لمساعدة شعبنا، حيث أنه أرسل من قبل الملك الشجاع والشهير وليم صاحب صقلية،فعندما سمع هذا الملك بالسقوط المحزن لمملكة القدس، من الذين هربوا بوساطة البحر والتجأوا الى بلاده،بادر على الفور في ذلك الصيف، ولم يكتف بارسال الغلايين المتقدمة الذكر،بل بعث بخمسمائة من الجنود،وثلاثمائة من التوركبلي،وكميات هائلة من المؤن لمساعدة المتبقي من البلاد،وللأناس الطيبين والذين يخشون الرب.

ودفعت روح صلاح الدين اللجوجة به للقيام بمتابعة نجاحاته بكل نشاط، فاستطاع خلال ثلاثة أشهر أن ينال إمارة أنطاكية كلها باستثناء قلعة بطريرك أنطاكية التي كانت لاترام واسمها قورس Cursatus ، ومدينة أنطاكية نفسها، التي رفع الحصار عنها لدى تسلمه مبلغاً كبيراً من المال من البطريرك، مع القناعة والتأكد أنه بعد الاستيلاء على الأماكن الحصينة المنتشرة هناك، فإن مدينة واحدة لن يكون بإمكانها مقاومته، لأنه جعل نفسه سيداً لأكثر من خمس وعشرين مدينة وبلدة في تلك الإمارة، ولهذا عاد إلى مملكة القدس، وقام مستخدماً جيشه بأكمله، فحاصر مدينة صور براً وبحراً، وهي المدينة الوحيدة التي تركت بين مدن الأرض المقدسة، وكان في صور آنذاك نبيلاً شجاعاً هو كونراد مركيز مونتفرات، الذي أبحر إلى هناك على ظهر سفينة من القسطنطينية، وكان ذلك في اليوم نفسه الذي أطيح به بشعبنا في المعركة المتقدمة الذكر، ووعد هذا الرجل سكان المدينة أنه سيتولى الدفاع عن المدينة إذا وعدوا بتسليمه إياها إذا تولى حفظها من العدو، ووافق سكان المدينة

متطوعين وشاكرين على فعل ذلك،لأنهم كانوا قانطين،ولم يعتقدوا أنه كان من الممكن لهم الصمود في وجه جبروت صلاح الدين،الذي جعل الآن من نفسه سيداً لجميع البلاد،وقاوم كونراد صلاح الدين برجولة من جانب البر،وألقى النار في غلايينه في البحر،ولهذا قام وهو غاضب ومضطرب برفع الحصار والمغادرة على الفور، وكان قد فكر بتضييق الحصار على سكان صور،وارغامهم على الاستسلام دونما تكاليف كبيرة وخسائر،وبدون سفك لأي من الدماء، وكان من الممكن له أن يحقق هذا بسهولة لولا أن الرب أمدّ بالعكس، لأن صلاح الدين كان قد أرغم قلاعاً قوية مثل: صفد، وكوكب الهوا، وتبنين، والشقيف في الجبال، على الاستسلام، وعلى كل حال كان بإمكان هذه القلاع المقاومة طيلة الوقت الذي توفر فيها المؤن، وكيف كان بالحقيقة لعدد قليل من الرجال المرعوبين والذين بلا عون الصمود من دون هذا الأمير الشجاع، في وجه الذي جعل من نفسه سيداً، ليس فقط لأرض مصر بل لكل سورية تقريباً، أي من نهر الدجلة حتى مصر، ومن قليقيا حتى البحر الأحمر.

الفصل السادس والتسعون

يدعى القسم الأول من سورية، القائم بين نهري الفرات والدجلة باسم الجزيرة السورية، ويدعى القسم الآخر باسم سورية المجوفة، ويقوم في هذا الجزء مدينة أنطاكية، مع المدن الخاضعة لها، وهي تصل حتى نهر بانياس تحت قلعة المرقب، ويدعى القسم الثالث من سورية باسم سورية الساحلية أو سورية الفينيقية، وفيه يقع مدن: طرابلس، وصور، وعكا، وهو يبدأ عند النهر المتقدم الذكر، وينتهي عند lapis In-cisa التي تعرف باسم عثليت Districtum ، واسمها في هذه الأيام قلعة الحجاج، ويدعى القسم الرابع باسم سورية اللبنانية، حيث يقوم جبل لبنان، وكذلك يعرف باسم سورية دمشق، لأن دمشق هي

العاصمـة، ويعرف أحيانا بكـل بساطة بـاسم سورية، ذلـك أن الجزء قد يأخذ اسم الكل، حسبما في جـاء القول: «رأس آرام— سورية— دمشق» (اشعيا: ٧/ ٨)، وهنـاك ثلاث فلسطينيـات، التي هـي جزء مـن سوريـة الكبرى وعاصمة الجزء الأول القـدس، ويدعى هذا الجزء بشكـل خاص باسم «اليهوديـة»، والجزء الثاني هو الذي عاصمته قيسـارية فيليب (اقرا: فلسطين)، والقسم الثالث هـو الذي عاصمته سكيثوبولـس، التي تعرف في هذه الأيـام باسم بيسـان، زد على هذا إن كـل من العربيتين جـزء من سوريـة: والجزء الأول هو الذي عـاصمته بصرى، والجزء الثاني هـو الذي عاصمتـه البتراء في القفار، هذا وإن سـورية سـوبال Sobal ، (النقب) التي عـاصمتها سوبـال هي جـزء من سوريـة الكبرى، والجزء الأخير من سورية هو أدوم، المتجهة نحو مصر، وهكـذا فالعدو بهذه العظمة والقوة، ذلك أنه يسيطر على مثل هذا العدد من الممالك؛ وعدد كبير من الرؤوس الهمجية، أقـامها الـرب ضدنـا، كما هو الحال الآن، لتكـون سوط انتقـام الرب بسبب آثامنا.

الفصل السابع والتسعون

وهكـذا هزت مصـائبنا المؤسفـة، والأخبار المحـزنة لما حـل بنا، جميـع بلـدان الغرب، ولقـد ارتـاع كل مـن سمـع بما حـدث، وأصيب النـاس بجراح محزنـة، وتقدم هـؤلاء وتصدّرهم أوربـان الأب المبجل، الـذي كان آنذاك بابا الكنيسة الرومانية المقدسـة، فعندما سمع بالأخبار استولى عليه حزن لاعزاء له، لأن الكنيسة الشرقية قد تعـرضت للدمار بشكل مؤسف، وباتـت مشعثة بشكل لايمكـن ترميمها فيـه، وعندمـا علم بأن الأمـاكن المقـدسة قـد تدنسـت، وديست مـن قبل كـلاب غير نظيفة، وأن خشبـة الصليب الثمينـة، صليب خـلاصنا قد استـولى عليها وتـداولها أناس غير أتقيـاء وغير جـديريـن بـالاحترام، وأن الأرض المقـدسة — التي سلـف

وحررت لقاء سفك الكثير من الدماء المسيحية — قد احتلت ثانية من قبل القوم الكفار والمدنسين، أثر بـه الحزن وأزعجه كثيراً إلى درجة أنه وقع مريضاً مصاباً بالحمى، ولم يمض وقت طويل حتى مات، بسبب الحمى، وبسبب الحزن، وبسبب الضعف، وكان خليفته على العرش البابوي غريغوري (الثامن ٢٩ت١ — ١٧ك١ ١١٨٧)، وكان رجلاً جيداً، وجديراً بالقبول التام، لكن لذنوبنا توفي بعد سبعة أشهر، وجاء بعده كليمنت الثالث (١٩ك١ ١١٨٧— ٢٧آذار ١١٩١)، الذي رفع إلى أعلى مقام لاهوتي، وقد عمل مع أخوانه الكرادلة في جميع السبل الممكنة للحفاظ على المسيحيين الذين تركوا في أعداد قليلة، بمثابة شياه وسط ذئاب، ولقد دعا أمراء الغرب وهددهم وناشدهم،وكذلك جميع الشعب المسيحي المؤمن، للقيام بتحرير الأرض المقدسة، ومنحهم غفراناً تاماً من جميع ذنوبهم، وذلك بالإضافة إلى أنهم سينالون التأييد من السماء، وحثهم على عدم التأخر في القدوم لإنقاذ كنيسة المسيح ومدينة خلاصنا، وبناء عليه حدث أن قام: فردريك امبراطور الامبراطورية الرومانية، وفيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا،، مع جميع الأمراء تقريباً والدوقات، والإيرلات، والنبلاء في ممالكهم، وبرفقة رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، وبقية الشخصيات اللاهوتية، والناس من الأنواع المنحطة، وكانوا أكثر من أن يستطيع انسان تعدادهم، هؤلاء جميعاً قاموا فوضعوا على أكتافهم رباط الصليب المانح للحياة، وأعطوا عهداً مقدساً أكيداً بالحفاظ على الأرض المقدسة، وشجع أحدهم الآخر بالكلام وبالفعل بضرب المثل بنفسه وبإلهاب الحماس لدى الآخرين، حتى بدا من العار ومن المهانة بالنسبة لهم البقاء في الوطن مثل الكسالى والجبناء في حين كان الآخرون ذاهبون لأداء صليبيتهم.

- ٢١٨٥ -

الفصل الثامن والتسعون

وكان الملك غـي في الصيف الذي أعقب فقـدان الأرض المقدسة غير قادر على استرداد صور، لان المركيز المتقدم الذكـر قد تولى الحفاظ عليها، وادعى ملكيتهـا بموجب الاتفـاق الذي عقـده (مع أهلها)، ومـن جميع المملكـة التي كـانت بحـوزته لم يبـق لغي ولا حتـى مقدار قـرية واحـدة يتخـذها مقـراً له، وكـان ممتلئا بـالشعور بـالعار وبـالفوضـى، لاسيما وأن الأرض المقدسـة قد ضاعت أثنـاء حكمه، وبما أنه لم يعـرف الاستقرار في حياته، قام مع عدد صغير جداً من الأتباع تولى حشدهم، بإلقاء الحصار على عكـا، ونصب خيمتـه على هضبة مـرتفعـة قرب المدينـة، وكان معـه أخوه غيـوفري دي لوزغنـان، وكان رجلاً شجاعـاً ومقداماً، وقـد استطاع بفضل أخيـه أن يصبح المقـدم على جميع الحجاج الآخـرين، ويحكـى أنه عنـدما سمـع صلاح الـدين بهذا حمد اللـه لإيقاعـه بقية الصليبيين مـع ملكهم بين يديه، وفي الحقيقة لم يكن بإمكان مثل هذا العدد الضئيل من الـرجـال أن يصمد في وجـه سكـان عكـا، فكيـف أمـام صلاح الـديـن وحشوده التـي لاتعد ولاتحصى، وعنـدما طلـب منه أمراؤه الاسراع بـأخذ الجائزة التي وضعها اللـه على طريقه، يحكى أنه أجابهم، بـأنهم لن يفلتوا منه، وأنه يرغب في انتظار وصول أخيه— الـذي كان متوقعاً وصوله قريباً — ليشارك في متعة النصر، لكنـه علم من خلال التجربـة بعد مضي عدة أيام أن التأخير والتقاعس عن العمـل سوف يسبب الضرر، ذلك أن أحد النبلاء، وكـان من عبيد الرب المجـربين جداً اسمه جيمس أوفـرين Auvergne ، جـاء وقـت الحاجـة، وعسكـر أمـام عكـا ومعـه قـوة مـن الفلمنكيين، والبرابـانتيين والفريـزيين، فضـلاً عن هـذا لم يمـض طويـل وقت حتـى وصل حشـد من النبلاء مـع آخريـن من شـامبين وبيرغندي وبعض الناس مـن إيطاليا، وعسكروا أمـام المدينة السالفة الـذكر، ولكي

يتجنبوا هجمات غير متوقعة ومفاجئة من قبل المسلمين حصنوا معسكرهم بخندق امتد على جميع الجوانب، وتحتاج المسألة إلى وقت طويل للحديث عن المآسي والمصاعب والمخاطر والخسائر التي عانوا منها قبل قدوم ملكي فرنسا وانكلترا، لأن المسلمين غالباً ما أحرقوا أدوات حصارهم، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وأصابوا الكثيرين منهم بجراحات مميتة بوساطة النشاب والحراب، في حين مات كثير منهم على الرمل أمام المدينة من الجوع، ومن الإعياء، وبالوباء، والآن وقد رأى رجال شعبنا أنه ليس من السهل عليهم الاستيلاء على المدينة، وأن صلاح الدين مع جيشه يناوشهم دوماً حول خندق معسكرهم، قرروا في أحد الأيام الزحف والخروج من معسكرهم لقتال العدو، ومع أن المسلمين كانوا كثرة متفوقة بالعدد على شعبنا، لم يتجرأوا على انتظار هجوم رجالنا، وهربوا تاركيين معسكرهم خلفهم، وعندما وصل شعبنا إلى معسكر المسلمين بدون مقاومة، خافوا واستبدبهم الرعب، وكأنما كان ذلك صادر عن حكم سري من الرب، فهربوا، مع أن ما من انسان طاردهم.

وعندما رأى المسلمون هذا استردوا ثقتهم بأنفسهم وجرأتهم، وعادوا يطاردون شعبنا، وبدأوا في عقر الخيول وجراحة الفرسان بوساطة موجات متواصلة من السهام المتطايرة، وتمكن المسلمون من تطويقنا بفضل عددهم، وقتلوا عدداً لابأس به من نبلائنا الكبار، الذين ثبتوا في مواقعهم، ورأوا من العيب والعار إدارة ظهورهم، وكان بين هؤلاء المقدم الأعلى للداوية، وأندرو دي بريين، اللذان قتلا في هذا اليوم مع آخرين كثر، وكان الخوف الذي استبد بشعبنا هائلاً، وكذلك الفوضى، وكان الذي أصاب رجالنا أثناء فرارهم من رعب كبيراً جداً، ووصل الأمر إلى حد أنه ما كان بإمكان واحد من الذين زحفوا النجاة، لولا قيام غيوفري دي لوزغنان، الرجل الشجاع، والجندي المجرب، السالف الذكر— الذي

بقي في المعسكر لحراسته — بالمبادرة لتقديم العون إلى شعبنا مع ما قدر على جمعه من الرجال.

ويحكى أن شعبنا دبت بين صفوفه الفوضى في ذلك اليوم بسبب حادث غريب، فقد شرد فرس من صاحبه وهرب، وعندما ركض عدد كبير خلفه وهم يصرخون، اعتقد الآخرون أن رجال شعبنا كانوا يفرون من أمام العدو، وهكذا فر الجميع واتخذوا طريقهم نحو المعسكر إلى خيمهم، أو لنقل إلى عارهم العظيم وإلى إلحاقهم الأذى العظيم بقضية المسيحيين.

وبعدما انتظر شعبنا في أرض المعركة لمدة سنة ونصف السنة وصول الامبراطور والأمراء الآخرين الذين كانوا سيتبعونهم، عانى أفراده من مجاعة شديدة وندرة في الأطعمة داخل المعسكر وصلت إلى حد إرغامهم على أكل لحوم الخيول وأجساد الحيوانات الميتة، لأن مكيال (بوشل) الدقيق الواحد الذي كان يباع في الأوقات العادية بنصف قطعة نقدية (بيزنت) بيع وقتذاك بستين قطعة، وبناء عليه أعلن الجنود الرجالة في الجيش أنهم لايمكنهم الاستمرار بتحمل مثل هذا العوز، فانطلق منهم ثلاثون ألفاً في عددهم ضد أوامر قادتهم، بغية مهاجمة المسلمين، ونهب الأطعمة من معسكرهم، وتظاهر العدو الماكر بالفرار، وجعل هؤلاء الناس الطائشين يثقلون أنفسهم ليس فقط بالأطعمة، بل أيضاً بالذهب وبالفضة وبالأثاث من مختلف الأنواع، وعندما كانوا في طريق عودتهم مثقلين هكذا، ومعاقين بالأوزان الثقيلة تحولت قيثارتهم إلى النحيب والمناحة (يعقوب: ٣٠/ ٣١ — الأمثال: ١٤/ ١٣)، وكانت نهاية هذا المرح التعاسة: لأن المسلمين حملوا عليهم بأصوات عالية، ولم يوجد بينهم واحد كان قادراً على مقاومة الأعداء، فلقد ألقوا بأثقالهم وتخلوا ليس فقط عن الذهب والفضة، بل حتى عن سلاحهم، وسقط تقريباً كلهم على الطريق أو سيقوا إلى داخل البحر وغرقوا، وأصيب بعض

الذيـن نجوا منهم لـرعبهم بالجنـون، وهكذا جعل الـرب تذمرهـم وعدم طـاعتهم سبباً لعقـابهم، وفي تلك الأثنـاء توفيـت سيبيـلا زوجة الملـك السالف الذكر، في داخل المعسكر، وهكـذا آل التاج بموجب حق الوراثة إلى أختها ايـزابيلا، زوجة همفـري أوف تيرون (تبنين)، ويحكى أنه عنـدما سمع بهذا مركيـز مونتفرات، الذي كـان قد جعل من نفسـه سيداً لصور، استبدت به مطامحه السلطـوية والرغبة في العرش، فانتزع ايـزابيلا المتقدمة الذكـر من زوجهـا، وتزوجها على الفـور، ومهما يكن الحال، كـان الحجاج غير راضين ومزعـوجين كثيراً تجاه مثل هذه الجريمـة العظيمة، ومـع هذا، لقد رفضوا طلـب الكونت المتقدم الذكـر، وصرفوه بأعذار، عنـدما سألهم الإنصاف ورفـع الغبن عنـه، لأنه لم يكن بـإمكانهم الحصـول على الطعام من أي مكان غير صـور، وذلك عبر يدي المركيز السالف الـذكر، فضلاً عن هذا لقد رشا بعضا من مقدمي الجيش لدعم قضيته.

الفصل التاسع والتسعون

بينما كـانت هـذه الأقـدار المتغيرة هي حـال الـذيـن كانـوا على أرض المعركة، انطلـق فردريك، امبراطور الرومان، وشرع بـرحلته عبر البر ومعه قـدرات عظيمة، وحشـد مـن المقاتلين لايحصـى تعـداده، وبعد مـا عبر حدود ألمانيا، اجتـاز هنغاريا، ومكدونيـا، وبلاد الاغريق، وزحـف خلال بـلاد المسلمين بقوة وجبروت وسيطـرة، واستولى على قـونية ثـم فيلومينـا، (الغين) ومدناً أخـرى كثيرة، ووصل إلى أرمينية (كليكيا)، ونـزل وسط حر عظيـم إلى نهر يـدعـوه السكـان المحليـون بـاسـم (نهر الحديـد) «النهـر الأزرق»، وكـان يـريد الاستحمام، لكنـه غـرق بشكـل مأسـاوي، بسبـب ذنوبنا، ومات مما شكـل خسارة عظيمة لجميع المسيحيين، وخشي صلاح الـديـن كثيراً مـــن وصـولـه لهذا أمـر بهدم أسـوار: الـلاذقيـة، وجبلـة ، وطرطوس، وجبيل، وبيروت، وأبقى الحصون فقط أي القلاع والأبراج.

والآن بعد ما أمضى كل من فيليب، ملك فرنسا، ورتشارد، ملك انكلترا الشتاء في برنديزي، بإنتظار إلتحاق ساقة جيشهما بهما، بعد هذا أبحرا إلى ميناء عكا، وكان ذلك في الربيع الذي جاء إثر ذلك الشتاء، وكان معهما سفن وغلايين، وخيول كثيرة، وآلات حرب، ومخزونات من المؤن، وقد جعلا جيش شعبنا يمتلىء بسرور هائل. وكان أولهما بالقدوم ملك فرنسا، لأن رتشارد، ملك انكلترا، قام قبيل وصوله، بالاستيلاء على جزيرة قبرص، وأطاح بالاغريق الذين كانوا هناك.

وقاموا الآن بإلقاء الحصار على عكا، رطوقوها من جميع الجهات، وهاجموها بشكل متواصل خلال الصيف كله، في حين قاوم الذين كانوا بداخلها برجولة، وكانت آلاتهم مكافئة لآلاتنا، وأحرقوا بالنار الاغريقية القلاع الخشبية التي بناها شعبنا مقابل نفقات عالية، وألحقوا بشعبنا الكثير من الأضرار، لكن حدث في أحد الأيام، أن صلاح الدين كان مرسلاً بنجدات من الرجال الجدد المسلحين إلى المدينة، ومعهم عتاد وسلاح ومؤن، على ظهر سفينة كبيرة جداً تدعى «درمون» فالتقى ملك انكلترا بهذه السفينة عند مدخل ميناء عكا، وكان معه غلايينه، ولقد أغرقها وأنزلها إلى قاع البحر مع جميع الجنود الذين كانوا فيها، مما بعث السرور العظيم وسط المسيحيين، وسبب اضطراباً بين المسلمين، وقد قيل إنها حملت بالاضافة إلى بقية حمولتها بعض الثعابين، كانوا عازمين على إرسالها ونشرها في جيشنا، وأعتقدوا أنهم بذلك سيلحقون بنا أذى عظيماً، وقصف فيليب ملك فرنسا أسوار المدينة، وأبراجها، ودفاعاتها بشكل متواصل في كل من الليل والنهار، بوساطة حجارة ضخمة، وبذلك دمر آلات العدو، مع أبنية في داخل المدينة، ولم يعط المحاصرين راحة، ومن جانب آخر قام ملك انكلترا بحملات متوالية مرعبة على المحاصرين، ونتيجة لهذا، أخذ السور يضعف ويترنح نتيجة القصف بالحجارة المستمر ضده، واقتنع سكان المدينة أنه لن يمكنهم متابعة

بالحجارة المستمر ضده، واقتنع سكان المدينة أنه لن يمكنهم متابعة المقاومة لمدة طويلة، لهذا قاموا بتسليم المدينة على شرط أن يتمكنوا من الزحف منها بحرية وبدون إعاقة ولا أذى، وتعهدوا أنهم سوف يسلمون صليب الصلبوت ويعيدونه وهو الذي خسره الصليبيون في المعركة، لكن بما أنهم لم يتمكنوا من العثور عليه، غضب ملك انكلترا غضباً عظيماً، وأمر بجعل الأسرى الذين هم في شطره من المدينة طعمة للسيف، لكن ملك فرنسا تعامل مع المسملين الذين كانوا في أسره بشكل أكثر لطفاً، وألقى بهم في السجن لمبادلتهم مع شعبنا، ومع هذا عمل ملك انكلترا المزيد من الأعمال لإيذاء العدو واضعافه بقتل عدة آلاف منه، الذين لو أنهم عاشوا لأمكنهم فيما بعد الحاق الكثير من الأذى بالصليبيين، وعندما رأى صلاح الدين أن المدينة قد جرى الاستيلاء عليها، وأن قسماً كبيراً من قواته قد دمر، شعر بالإحباط إلى حد كبير، وفقد الأمل بالقدرة على الدفاع عن المدن الأخرى ضدنا، ولهذا أمر بتدمير أسوار المدن القائمة على شاطىء البحر، وهي مدن: بروفيريا (قرب حيفا)، وقيسارية، ويافا، وعسقلان، وغزة، والداورن (دير البلح)، وأعاد الملك رتشارد بناء يافا وحصنها، وألقى بعد هذا صلاح الدين الحصار عليها، لكن الملك بادر الى هناك على متن غلايين بوساطة البحر، وتبعه جيشه بصعوبة كبيرة على الطرق البرية، وتمكن من انقاذ المحاصرين، وطرد حشد المسلمين، وارتعب المسلمون الآن كثيراً، وحلت بين صفوفهم الفوضى، وانهزموا مع أميرهم من أمام وجه شعبنا، وبات الآن بإمكان شعبنا بسهولة ليس فقط نيل مملكة القدس، بل الأجزاء الكبرى من بلادهم، لولا أن عدو الجنس البشري، وأعني به الغيرة، حقق نجاحات كبيرة بين المسيحيين، وبذر الزوان بين الملكين، وكان هناك توتر شديد بين الأمراء، وسبب هذا تيههم في القفار حيث لم تكن هناك طرقات، وحاولت كل مجموعة أن تنال مجداً لنفسها، وسعت وراء مصالحها، وليس وراء الأشياء العائدة ليسوع المسيح، وأدخلت إهاناتهم لبعضهم

بعضاً، وغيرة أحدهـم من الأخر السرور الى قلوب أعدائهـم، وأنزلت بين صفـوف المسيحيين والمسيحيـة اضطرابـاً عظيماً، وكـان الخلاف والحسـد، والتباغض،وانعدام الـوفاق بين الملكين قد وصل إلى حد، أنه عنـدما كان ملـك فرنسـا يقوم بـالهجوم على واحـد من جـوانب المدينـة، كان ملـك انكلترا يرجع شعبه ويمنعه من الحملـة، ويحول بينهم وبين معاناة الهجوم والقيام بـه على جانـب آخر، فضـلاً عن هـذا ربح إلى جـانبه أكبر عـدد ممكـن من الأمـراء والبـارونات بـالهدايـا وبالـوعـود، وجعلهم يقفـون إلى جانبـه، وانزعج ملك فـرنسا كثيراً وتوجـس شراً من كل هذا، ولأنـه كان مريضـاً، ذهب عـائداً إلى بلاده مباشرة بعـد الاستيلاء على عكـا، وخلف من ورائه دوق بيرغندي مـع جزء كبير من جيشه، لكنـه لم يكن حكيماً في نشره أخبار عـودته المبكرة إلى وطنه، فقـد قيل: كان صـلاح على استعداد للتخلي عن البـلاد كلها لنـا، لو أن الملكين تظـاهرا بـأنهما كانـا على وئام بالنسبـة لغزوها، وكانـا متسالمين وعلى وفاق بين بعضهما بعضـاً. وانطلق الآن ملك انكلترا مع جيشـه، وبرفقته دوق بيرغندي، من عكا نحـو يافا، وذلك بنيـة إلقاء الحصـار على القدس، وواجهـا وهما على الطريـق عدداً كبيراً مـن المشـاكل، لأن صـلاح الـديـن لاحـق القـوات الزاحفـة بعـدد لايحصى من الجنـود والتوركبلية مع مسلمين كانوا يطلقـون النشاب عليها من الجانبين مثـل السحب، ولهذا تمكن شعبنـا بصعوبـة بالغة جـداً من الوصول إلى مدينة أرسوف، بين قيساريـة ويافا، وذلك بعد عقرعدد كبير من الخيـول، وإصابة فـرسانها بجراحـات خطيرة، وقد جرح الملـك نفسه بنشابة أثنـاء ذلك الزحف، وقام عندمـا كان قرب القلعة المتقدمـة الذكر بحملـة عنيفـة جـداً على المسلمين، وأراد من ذلـك دفعهـم إلى الخلـف، وتولى الضغط عليهـم أثناء التراجع فقتل عدداً كبيراً منهـم، لكن ذلك لم يكن بدون خسائر فادحة عانى منها الجيش المسيحي، لأنه في ذلك اليوم سقط الفـارس النبيل، والمقاتل الشجـاع جيمس أوف أو فرين مـع عدد كبير من الآخرين الـذين نالوا تاج الشهادة، وذلـك أثناء قتالهم المسلمين

في مكان منعزل، لم يكن معروفاً من قبل شعبنا، وحمل صلاح الدين نفسه مع الفارين الى القدس وفي الوقت نفسه أقام شعبنا معسكره في مكان يدعى بيت نوبة بين يافا والقدس، على نية الزحف من هناك الى القدس لإلقاء الحصار عليها ، وفي هذا المكان وصلت أخبارالى الملك رتشارد تحدثت عن قافلة عظيمة قادمة الى جيش صلاح الدين من مصر، مع أعداد لا تحصى من البغال، والخيول، والجمال، محملة بالأطعمة والبضائع الأخرى،وشرع على الفور مبادراً لاعتراض سبيلها، وزحف خلال الليل، وعاد الى جيشه وقد جلب معه الكثير من الأسلاب، غير أنه كان قد ترك جيشه في حالة رعب عظيم، لأنه أخذ الجزء الأعظم من أتباعه معه، وخلف وراءه عدداً ضئيلاً مقارنة بقوات صلاح الدين، وبعد هذا عقد شعبنا مجلساً حربياً، قرروا فيه عدم القاء الحصار على القدس في الشتاء، ذلك أنهم رأوا أنهم لا يمتلكون بين القدس وعكا موقعاً حصيناً باستثناء يافا، وأنه لا يمكنهم جلب المؤن لإطعام الجيش من دون خطر عظيم واضح، ولهذا تخلوا عن مغامرتهم مع أن ذلك كان وسط بكاء الكثيرين، والحزن المرير للجزء الأعظم من الجيش، وفي الحقيقة قال كثير من الناس، وأناس عرفوا بشكل دقيق أوضاع المسلمين أن صلاح الدين لم يكن متوقعاً قدوم جيشنا، وأنه ما كان بإمكانه ايجاد أي انسان يفكر بأخذ موقف الدفاع في القدس، أو يتجرأ على البقاء فيها وتحمل الحصار هناك: ذلك أن المسلمين كانوا مرعوبين تجاه حادثة رجال جماعة عكا ، الذين لم يستطع صلاح الدين تقديم العون لهم، ولهذا عانوا إما من جعلهم طعمة للسيف ، أو من القائهم في السجن، مع أنه كان بإمكانه شراء حريتهم. وذهب ملك انكلترا الآن مع جيشه الى عسقلان، ولم يتوقف عن ترميم أسوارها، وذلك خلال الشتاء كله، مقابل جهد كبير ونفقات عالية ، فضلاً عن هذا قام بإعادة بناء بلدة الدارون الصغيرة، وبتحصينها، ورمم غزة ومنحها الى الداوية، الذين كانت ملكيتها عائدة اليهم من قبل ولقد منحهم إياها للاحتفاظ بها،

وحدث خلاف بين دوق بيرغندي والفرنسيون الـذين بقيوا معه من جهة وبين الانكليزمن جهـة أخرى، لذلك تـركوهـم وذهبوا الى صـور، وأمضوا الشتاء هناك مع المركيـز، وعندما اجتمع الجيشان في الربيـع التالي في بيت نوبة للقيـام بحصار القدس، تبدل الملك رتشـاد وتغير الى انسان آخر، فقد قال إنـه يتوجب عليه بكل الـوسائل العودة الى بلاده ثانيـة، مدعياً أن أخاه جون يطمـح بالمملكة ويتطلع لـلاستيلاء عليها، وقد جعـل من نفسه سيداً لجزء من بـلاده، وكان من جانب آخر محقـاً في ريبته في ملك فرنسـا، الذي افترق عنه وهـو غاضب، ولقـد كان يخشى أن يقـوم الملك فيليب في أثناء غيابه بغزو دوقية نـورماندي بالقوة، ولدى سماع المسلمين بهذه الأخبـار امتلأوا بـالسرور، وتشجعـوا وكأنهم استفـاقـوا من سبـات عميق، بينما اضطـربت أحوال عنـاصر شعبنا وحـزنوا وفقدوا كـل أمل في استرداد المدينة المقدسة، ولقد بكـوا وانتحبوا بسبب أن خاتمة تضحياتهم قد بترت، ورأوا أن جهودهـم قد بـدأت لكن لم تنته، وأنها وصلت الى لا شيء، ولـو أن ملـك انكلترا، قام قبيـل مغـادرتـه بإخفاء نيتـه لبعـض الوقـت، لربما كان من الممكـن لنا الحصول على شروط أفضـل وسلام مشرف مع المسلمين، لكنه وهو الرجل العنيـد، كان على الرغم من تسببه بحدوث ضرر عظيم للمسيحيـة كلها ، متشوقاً ومتعجـلاً للمغادرة، ولهذا وافـق على الشروط التي عـرضهـا عليه صـلاح الديـن للهـدنة مهما كـان نوعهـا، ولم يثر أي اعتراض، كما لم يسبـب أية مصـاعب، وهكـذا قضت الشروط بارغام شعبنا على تخريب عسقلان، والـدارون وغزة، وقد تركوا لنا أمر الاحتفاظ بيـافا ، وببقية الساحل حتى عكـا، وبهذا أظهر المسلمون بشكل مـؤكد أنه عنـدما تكون أمـاكننا الحصينـة قد دُمرت، لـن نستطيع بعـد ذلك الـدفـاع عن المنطقـة السهليـة، وحمايتهـا ضدهـم، ولا سيما أيضاًبعـد ذهاب جيشنا وعودتـه الى الوطن، وكان بـالوقت نفسه مـركيز مونتفرات قـد قتل من قبل مسلمين كانـا تعمدا، وعملا لوقـت طويل في خـدمته في بيتـه، كما أن هنـري كـونت شـامبين كـان قـد تزوج مـن

ايزابيـلا، أرملة كونراد، وذلـك بناء على اقتراح ملك انكلترا، وقـد بقي في الأرض المقدسـة، وعندمـا كان ملك انكلترا في طـريقه عـائداً الى وطنه اعتقل وبات سجيناً في ألمانيا ، وقد احتفظ بـه الامبراطور حتى دفع فدية مقدارها مبلغ كبير مـن المال، وهكذا تمكن بعد صعوبة مـن الوصول الى انكلترا.

ومع أن الكونت هنـري قد تزوج من الملكة وبات سيـدًا لكل من عكا وصور، رفـض أن يتوج ملكـاً، لأنه كـان مثل البقيـة متشوقـاً للعودة الى الـوطـن ، ثم إنـه بعـدمـا أقـام في الأرض لعـدة سنوات، وعمـل جميـع الاستعـدادات للعودة الى الـوطـن، سقـط من احـدى نـوافـذ بيته فـوق حجـارة الخندق العـائد لمدينـة عكـا،فانـدقـت رقبتـه ومات، وقـام الآن عموري ملك قبرص، الـذي هو أخ لغي لوزغنـان— وكان الآن متوفى— بالزواج مـن الملكة ايزابيلا، وهكـذا تولى حكم وحكومـة الأرض المقدسة خليفة للكونت السالف الذكر.

وكان المسلمون بعد مغادرة ملـك انكلترا وبقية الحجاج، قادرون على الفـور على اظهار مـدى الـرعـب الذي أحـاط بحـال القلـة المتبقية مـن المسيحيين مع بقـايـاهـم في الأرض المقدسـة وإيضاحـه، لولا أن صـلاح الديـن قد مـات، وبناء عليـه انبعث الخلاف والتمـزق فيما بينهم، الأمـر الذي قـاد الى خصام وحـرب أهلية، مما كـان له عظيـم الفائدة بـالنسبة للمسيحين، وانتـزع أخو صـلاح الـدين مـن أبناء أخيـه جميـع ممالكهـم باستثنـاء مملكة حلـب فقط، وأثار بعملـه هذا جميـع المسلمين ضده، ولم يستطع شعبنـا القيام بأي عمل ضـده، كما أنه لم يتجرأ على محاولـة ذلك: ولقـد اعتقـدوا أنـه مـن الخير لهم العيـش والحفـاظ على امتـلاكهـم لأراضيهم الى جانب المسلمين في جميع الأحـوال، مع أنهم تلقوا اهانات كثيرة مـن قبلهـم، وكان بعـض رجـال المسلمين قـد أبدوا استعـدادهـم لتسليمنا مدينة جبيل وحصنها مقابـل رشوات تلقوها، وذلك بدون إعلام

السلطان، التي هي ملك له بحق الوراثة، وحدث مثل هذا مع مدينة بيروت وقلعتها، حيث تخلت عنها حاميتها المسلمة، فأعيدت الى المسيحية.

وأرسل الامبراطور الروماني هنري (السادس: ١١٩٠— ١١٩٧) حشداً من الألمان الى الأرض المقدسة، وأمر رجاله بخرق الهدنة، وبناء عليه ألقوا الحصار على حصن يدعى تبنين قرب صور، وكانت حامية القلعة على استعداد للاستسلام شرط الإبقاء على حياة أفرادها، لكن الألمان أجلوا استسلام المكان لليلة واحدة، معتقدين أنه لا القلعة ولا حاميتها يمكن لهم النجاة من بين أيديهم، لكن حدث في اليوم التالي أن تجمع حشد لا يحصى من المسلمين للقيام بالتفريج عن القلعة، وهكذا تراجع الألمان في فوضى، وعندما اقتربوا من بيروت فر المسلمون الذين كانوا باقين فيها ، برعب، وتركوا المدينة والقلعة لهم، لكن عندما سمعوا أن سيدهم وامبراطورهم هنري قد مات (في صقلية، وخلفه فردريك الثاني) لم يقوموا بأية أعمال أخرى وعادوا مسرعين الى وطنهم.

وفي ظل هذه الأوضاع تشجع بعض قومنا بحضورهم، فتولوا تحصين يافا ضد المسلمين، لكن تمكن المسلمون بعد ذلك في وقت قصير، وبدون الكثير من المتاعب من الاستيلاء على القلعة التي بنوها ، وسووها بالأرض، وأسرو جميع الذين وجدوهم فيها ، وبناء عليه أعيد تجديد الهدنة،الأمر الذي وافق عليه المسلمون برغبة، لأن جميع مملكة القدس تقريباً كانت في أيديهم، وكانوا ممزقين ، ومتخاصمين بشكل حاد فيما بينهم، ولم يعد قومنا تواقين أبداً لخرق الهدنة في أية مناسبة مهما كان نوعها، لإنجاز حصار أي موقع حصين، أو لإعادة بناء أية قلعة مهدمة، وهكذا عندما جاء بعد وقت قصير بعض النبلاء من شامبين ومقاطعات فرنسا الأخرى، ووصلوا بحراً ، رفض قومنا خرق الهدنة، وذهبوا إلى انطاكية لخدمة أميرها، الذي كان آنذاك في حالة حرب،

لكنهم وقعوا فيها بين طرابلس وأنطاكيـة في أسر المسلمين، الذين حملوهم الى حلب، ولقد قام قومنا بخرق الهدنة مرتين بعد مغادرة الألمان السالفي الذكـر: مرة عندما جـاء بعض النبلاء من فـرنسا، وأعني بذلـك سيمون دي مونتفورت— وهو مـن أصل نبيل، وكان رجلاً تقياً، وجنـدياً جيداً مع أخيه غـي، وبعض الآخرين الذيـن كان منهم كونتسه فـلاندرز، التي تبعـت زوجها(بلـدويـن) الذي تـم (سنـة١٢٠٤) تتويجه امبراطـوراً على القسطنطينية ، والمرة الثانية، إثر وفاة الملـك عموري وزوجته، حيث جرى استدعاء جون، كونت بريينBrienne لتسلم عرش القدس، فعبر البحر، وتزوج من وارثة المملكة، ابنة المركيز كـونراد والملكة ايزابيلا، لكنهما أنجزا القليل، أو بـالحري لم يفعلا شيئاً مفيداً، لأنهما لم يلقيـا الحصار على أي مكـان حصين، ولم يرممـا أية قلعـة مهـدمة ، وكـل ما فعـلاه اقتصر على الدخول الى الأراضي الاسلامية وإحراق عـدد قليل من القرى والاستيلاء على بعض الأسلاب.

وإثر تتويج جون المتقدم الذكر، وتعميده ملكاً قام المسلمون بتحصين جبل الطـور ضدنـا،وذلك من أجـل إهانـة المسيحية وإلحاق الضرر بها ، وأكثر من هـذا بغية تضييق الخناق على مـدينة عكا، وجدد رجـال شعبنا هدنتهـم مع المسلمين، وعـاشوا في ظـل الحزن والنحيب، مـع كثير من المآسي والمظالم ، وطلبـوا العون من عليين يومـاً إثر يوم، وانتظـروا الغفران والمدد من الرب، ومن الكنيسة الرومانية المقدسة .

هنا انتهى تاريخ القدس

رهبان تحت السلاح

(ملاحق كتاب الاسبتارية في الأرض المقدسة . تأليف إ . ج. كنغ)

الملحق أ

التنظيمات العسكرية الدينية

لما كانت التنظيمات العسكرية الدينية للعصور الوسطى قد ولدت من خلال الحروب التي لم تتوقف بين المسيحية والاسلام، كان من الطبيعي أن تنقسم الى مجموعتين متميزتين، وقد قامت أشكال تنظيمها جميعاً في جميع الأحوال على التنظيمات التي أرساها كل من الاسبتارية والداوية ،وهؤلاء هم :

١— الذين تأسسوا في سورية وهم : الاسبتارية ، والداوية ، وفرسان القديس لازاروس (لعازر)، وفرسان التيوتون، وفرسان القديس توما س لعكا، هذا ولا ينبغي أن يخلط بهم تنظيم فرسان الضريح المقدس، الذي أخذ اللون العسكري في القرن الخامس عشر فقط

٢— الذين تأسسوا في شبه الجزيرة الاسبانية ، وهم : فرسان قلعة رباح(كالاترافا Calatvava) وفرسان القديس جيمس أوف كومبو ستيلا compostella ، وفرسان القنطرة،وتنظيمات فرسان المسيح، وفرسان سيدتنا أوف مونتيزا Monteza، والمجموعتان الأخيرتان قد نبعتا عن فرسان الداوية.

وهناك تنظيمان اسبانيان كانا أدنى أهمية ، وقد ذابا فيما بعد في التنظيمات الأكبر،وهما : فرسان القديسة مريم لجبل البهجة، وقد تأسس سنة ١١٨٠ ، وصار تنظيمهم يعرف بعد ١١٩٨ باسم فرسان مونتفراك Montfrac، وقد اندمج في سنة ١٢٢١ في تنظيمهم فرسان قلعة رباح، والثاني هو تنظيم فرسان أرغون للقديس جورج أوف ألفاما

ALFAMA، وقد تـأسس في سنـة ١٢٠١، ثم اندمـج في تنظيم فـرسان مونتيزا في سنة١٣٩٩ .

والى جانـب هاتين المجموعتين الكبيرتين ، كـان هناك تنظيمان تـأسسا على شـواطـىء البلطيـق بقصـد شـن الحرب ضـد الـوثنيين الصقـالبـة (السـلاف) لشمالي شرقي أوروبـا ،وأولهما فرسـان السيـف في ليفونيـا -Li vonia وقد تأسس تنظيمهم سنـة ١٢٠١ من قبل البرت أسقف ريغا Riga، وقد اندمجوا في فـرسان التيوتون في سنـة ١٢٣٧، وقد ارتدوا رداءً أبيـض عليه سيـف أحمر ونجمـة، والتنظيم الثـاني هـو تنظيـم دوبرزيـن Dobrzinفي فيستولا vistula، وقـد أسسـه كـرستيان أسقـف بـروسيـا، وذلك بعـد وقت قصير مـن التنظيم الأول، وقد انـدمج فـرسانـه في سنة ١٢٣٥ في فرسان التيوتون.

١ — المجموعة السورية

١ — الاسبتارية :

٢ — الداوية :

ان تـاريخ هـذين التنظيمين متسـاوق ومتقارب كثيراً منـذ تأسيـس الداويـة في ١١١٨ حتى سنـة ١٣١٢، وهي سنـة سحقهما، ولذلـك لا يمكن فصلهما عـن بعضهما بعضاً، ولا يمكن كتابـة تاريخ للاسبتـارية دون تضمينـه خلاصـة كافيـة وافية عـن تاريـخ رفاقهـم وأندادهـم ، أي الداويـة ، ولهذا لا توجـد حاجـة للحديـث أكثر عنهما في هـذا الملحق، (فلقد تقدم الكثير من أخبارهما في الأجزاء المتقدمة من موسوعتنا).

٣— تنظيم القديس لازاروس (العازر)

توجد أصول تنظيم القديس لازاروس لدى الاسبتارية في القدس من أجل المجذومين، وهو تنظيم قديم جداً، وصار بعد استيلاء اللاتين على المدينة مثله مثل تنظيم مشفى القديس يوحنا رهبنه دينية نظامية، وكان هدف هذا التنظيم العناية بالمجذومين ، وقد أضاف أصحابه الى مؤسستهم فرعاً يضم أخوانية دينية، وأدخل لويس السابع هذا التنظيم الى فرنسا في سنة ١١٥٤، ومنحه قلعة بويني Bogінy قرب أورلين Orleans، وفي سنة ١٢٥٣ نقل مقدم التنظيم مركز قيادة رهبانيته من عكا الى فرنسا، وكان ذلك بموافقة القديس لويس التاسع، الذي عهد بحماية ميناء ايوس — مورت- Aigues mortes إليه، ومنحه بيتاً في باريس، غير أنه تبنى الآن أحكام وقوانين القديس أوغسطين، ومع انتقاله الى فرنسا، انتشر سريعاً في جميع أنحاء أوروبا، حتى بات يمتلك مع منتصف القرن الرابع عشر ما يزيد على ثلاثمائة مؤسسة، وقمع البابا انوسنت الثامن في سنة ١٤٩٠، التنظيم وألغاه وحول ممتلكاته الى تنظيم القديس يوحنا، لكن مرسومه لم يتم تسلمه في فرنسا، ولم يكن له تأثير في تلك البلاد، وأعاد في سنة ١٥٦٥— البابا بيوس الرابع تأسيس التنظيم، وأكد امتيازاته القديمة، ودمجه في سنة ١٦٠٨ هنري الرابع ملك فرنسا، في تلك البلاد مع تنظيمه الجديدالذي اسمه فرسان سيدتنا سيدة جبل الكرمل، وقضي في فرنسا على التنظيم المدموج في أيام الثورة، وكان يمتلك في ذلك الوقت خمسة قادة عظام ومائة وأربعين قيادة أدنى ، وكان شعار فرسان القديس لازاروس عبارة عن صليب له ثماني نقاط (رؤوس) ملونة بالأخضر وقد رسم عليه قيامه لازاروس، وكان يتدلى بوساطة شريط أخضر ، أما شعار فرسان سيدتنا سيدة جبل الكرمل فكان أرجوانياً مزيناً بتمثال سيدتنا، ويتدلى أيضاً من شريط أرجواني ، ودمج التنظيمان

المندمجان الشعارين واللونين.

وفي إيطاليا ، تميز تاريخ فرسان القديس لازاروس تماماً عن تاريخ هذا التنظيم في فرنسا، وكانت بقايا التنظيم التي تركت في الأرض المقدسة قد استقرت أخيراً في نابل في سنة ١٣١١، وعدّ هذا الفرع وحده فيما بعد على أنه المنحدر الشرعي الوحيد للتنظيم الأصيل، وأضعفته تمزقاته الداخلية ومشاكله خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مع قمعه ثم إعادة تأسيسه، فتحول الى وضع هامشي، وفي سنة ١٥٧٣، اندمج هذا التنظيم في تنظيم سافوا لفرسان القديس موريس، الذي كان قد تأسس قبل سنوات من أجل الحماية ضد الكلفينيين Calvinists من جنيف، وكان دوق سافوا هو المقدم الأعلى لهذا التنظيم، فأمادوسAmadeus الثامن، دوق سافوا هو الذي أسس هذا التنظيم في سنة ١٤٣٤ ، وقد تولى خلفاؤه من بعده مقدمية هذا التنظيم ، مع أن بعضهم وصفه باللاعسكري، وأنه توقف فعلياً عندما اختير دوق سافوا ليكون بابا باسم فيلكس الخامس في سنة ١٤٣٩، وكان هدف التنظيم المندمج العناية بالمجذومين، كما كان الحال من قبل، والمشاركة في الأعمال الحربية ضد غير المسيحيين، وقد شاركت غلايينه في عدة حملات ضد الأتراك والأنواع الأخرى من القرصان، ومع نهاية القرن الثامن عشر فقد التنظيم سماته العسكرية ، وكان قبل زوال الملكية من ايطالياً موجهاً من قبل ملك ايطاليا للقيام بخدمات متميزة ، لا سيما الخدمات ذات الطبيعة الخيرية، وكرس دخل التنظيم كلياً لأعمال الاحسان، وكان شعاره صليب القديس موريس الأبيض وهو متوضع فوق الصليب الأخضر للقديس لازاروس متدلياً من شريط أخضر قاتم.

٤— *فرسان التيوتون*

يمكن العثور على أصل فرسان التيوتون في مشفى القديسة مريم

للألمان، الـذي تأسـس في القدس مـن قبل واحـد من حجـاج الألمان في سنة ١١٢٧، لصالـح أبناء بلاده، وفي أثناء حصـار عكا في سنة ١١٩٠، أسـس بعض التجـار مـن بريمـن Bremen،ولوبـك Lubeek، مشفـى ميـدانيـا مـن أجـل استخـدامـات الصليبيين الألمان، وقـام الآن الـرهبان الألمان الـذين طـردوا من القـدس بربـط أنفسهم بهذا المشفـى، وتحول هـؤلاء الاسبتـاريــة الألمان في آذار ١١٩٨، إلى تنظيـم عسكـري، قصد منـه أن يكون مكافئاً ألمانيا لكل من الاسبتـارية والداويـة، اللذان كانا لاتينين بالدرجة الأولى،وقد ارتـدى هؤلاء أردية بيضاء عليها صلبان سـوداء، واتبعـوا أحكـام القـديـس أوغسطين، وكـان الاسـم الكـامـل والعنوان لهذا التنظيم الجديـد هو «فرسان التيـوتون لمشفى القديسـة مريم المقـدسة»، وكـان مسمـوحاً بنيـل العضـوية فيـه لـلألمان فقط، ووطـدوا أوضاعهـم في عكا، وفي سنة ١٢٢٧، بنـوا قلعتهم الكبرى ستـاركن بيرغ Starkenburgأو مونتفورت Montfort(القريـن) على الجانب الغـربي من تخوم الجليـل، وهـي قلعـة استولى عليهـا السلطـان بيبرس في سنة١٢٧١، وكان الامبراطور فردريك الثـاني قد جعل في سنة ١٢٢٦ من مقدم التيـوتون أميراً في امبراطـوريته، ومنـح التنظيم امتيـاز وضع النسر الامبراطـوري على أسلحته، وكـذلـك أهدى المقـدم خـاتماً ثميناً جـداً، جرت العادة بعرضه يوم تنصيب كل مقدم أعلى جديد.

وفي سنـة ١٢١١، دعـا الملـك أنـدرو الثاني ملـك هنغـاريـا فـرسـان التيوتون لمسـاعدته ضد جيرانه الـوثنيين من الكومان، ثـم طلب في سنة ١٢٢٨ أسقف بروسيـا مساعدتهم في حروبـه ضد الوثنية، الأمـر الذي نتج عنه دمجهم فيهـم لتنظيم دوبرزين dobrzinالذي كان قائماً آنذاك ، وازدادت قوة هؤلاء الفـرسان بسرعة كبيرةعلى البلطيق حتـى أنهم في سنة ١٢٦٠، كانوا يحكمون كل ما بات يعرف فيما بعد باسم مقاطعتي شرقي بروسيـا وغربها، وحصلـوا أيضاً في سنـة ١٢٣٧ على ليفونيـا Livonia،

باتحادهم مع فرسان السيف، وقبل سنوات طويلة من فقدان الأرض المقدسة، أخذت اهتمامات فرسان التيوتون في مناطق البلطيق تحتل المقام الأول وتفضل على عملهم الأساسي في سورية، وعندما سقطت عكا جرى نقل ديرهم الى البندقية، وذلك لبضع سنوات فقط، ثم أسس هذا الدير نفسه في سنة ١٣٠٩ في مارينبيرغ Mrienburgعلى الفستولا، وهناك حكم المقدم الأعلى بمثابة حاكم اقليمي قوي، وكان تحت سلطانه مقدمين أدنى مرتبة في ليفونيا وألمانيا، وكان مقر الأخير في ميرنثيم mergentheimفي سوابيا

وأوقف تحول ليتوانيا الى المسيحية في القرن الرابع عشر الحروب الدينية ضد الوثنيين، وأنهى بذلك الهدف الحقيقي لفرسان التيوتون، وتلا ذلك نهضة سلافية كبيرة، ودمرت معركة تاننبيرغTannenbergالمأساوية في سنة ١٤١٠ سمعة الفرسان ، وجرى الاستيلاء على غربي بروسيا سنة ١٤٦٦ من قبل البولنديين، وتمّ فقدان مارينبيرغ، ومع ذلك استمر المقدم الأعلى يحكم شرقي بروسيا بمثابة تابع لملك بولاندا، وكانت عاصمته في كونسبيرغkonigsberg وفي سنة ١٥٢٦ تحول البرت أوف براند نبيرغBrandenburgالى البروستنتانية، ,وكان هو المقدم الحاكم، كما كان من اسرة هوهنزليرنHohenzollern،وجعل مقاطعاته علمانية، كما حولها الى دوقية وراثية، وبذلك توقف تنظيم فرسان التيوتون عن الوجود في شرقي بروسيا، وفي سنة ١٥٦١ حذا غوتهارد كتلر Ketteller Gotthardالذي كان مقدم ليفونيا ، حذو ألبرت أوف براندينبيرغ، وأصبح بروتستنتياً، وصار دوقاً وراثياً لـ «كورلاندGourlandå .

وانفصل في الوقت نفسه المقدم في المانيا عن المقدم الأعظم، عندما صار تابعاً بولندياً، وأخذ مكانه بمثابة أمير تابع للامبراطورية، وعندما صار ألبرت أوف براندينبيرغ بروتستنتياً ، جرى انتخاب وولتر فون كرونبيرغ Kronberg مقدم المانيا مقدماً أعظم للتنظيم، وصارت ميرنثيم

المقر، ووجهت الثورة الفرنسية الى فرسان التيوتون ضربة مميتة، حيث انتزعت منهم ممتلكاتهم على الراين ، وفي سنة ١٨٠٩، قمع التنظيم وألغي، ثم أعيد من قبل امبراطور النمسا في سنة ١٨٤٠، واستمر هذا التنظيم موجوداً حتى تفجر الحرب العالمية الأولى،بمثابة تنظيم فرساني نصف ديني،مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً مع أسرةهابسبورغ،وكان الدوق الأعظم وليم هو المقدم الأعظم حتى سنة ١٨٩٤،عندما خلفه الدوق الأعظم يوجين،الذي كان معاونه، وجرى في ٤—كانون الثاني ١٩٢٦ انتخاب الموسنيور نوربيرت كلين مقدماً أعظم في مكان الدوق الأعظم يوجين الذي أقيل،وكان كلين أسقفاً معلماً للسين،ومن قبل أسقفاً لبرن، والآن وقد تذكر فرسان التيوتون هدفهم الأساسي،كرسوا أنفسهم تماماً لأعمال الإحسان المرتبطة بالمشافي،وخاصة بأعمال الاسعاف في أوقات الحرب،

٥—*تنظيم القديس توماس في عكا:*

تأسس تنظيم القديس توماس أكون— حسبما يعرف بالعادة— في عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة،وكان تنظيما انكليزياً محضاً،مثلما كان تنظيم فرسان التيوتون تنظيماً ألمانيا،فقد قام واحد من الكهنة الانكليز واسمه وليم،وكان شماساً لدى رالف ديسيتو،الذي كان عميد كاتدرائية القديس بولص،تنفيذا لعهد قطعه على نفسه ببناء بيعة ومقبرة في عكا من أجل الصليبيين الانكليز الذين قتلوا أثناء حصار عكا،وكرسها على اسم القديس توماس رئيس أساقفة كانتربري،وتعاونت معه مجموعة صغيرة من الرجال الانكليز، وشكلوا من أنفسهم تنظيماً دينياً،صار وليم مقدمه،وكانت أهدافهم تأمين طقوس دفن مسيحيه للموتى من الصليبيين، والدفاع عن العقيدة المسيحية ، ولقي تأسيس التنظيم الجديد ترحيباً حاراً من قبل أسرة القديس توماس بكت ، وباتت أخته وختنه المؤسسين والممولين ، وصار مشفى القديس توماس أكون، المشفى الرئيس للتنظيم في انكلترا،وقد بني في لندن في موقع البيت التي كان

في آيونمنرلين luonmonger حيث كـان رئيس الأسـاقفة الشهيـد قد ولد، وكـان هذا التنظيـم دوماً صغيراً جـداً، ولم يكن عـدد الفرسـان فيه كبيراً، ومن المؤكـد أنه كان دوماً فقيراً، وقـد امتلك هؤلاء الفرسـان بعض الممتلكـات في يـوركشير، ومـدلسكــس، وسري، وايـرلانـدا، وفي بعـض البلدان الأجنبيـة، ونعلم هـذا من أوصـاف مقدمهـم، الذي وصـف على أنه«مقدم جميع فرسان القديـس توماس الشهيد، في مملكة قبرص، وأبوليا، وصقليـة، وكـالبيرا، وبرونـدوسيـوم Brundusiun،وانكلترا، وفلانـدرز، وبرابانــت، وسكوتلندا، وويلز، وايـرلندا، وكورنول»، وقـام في سنة ١٢٣١ بطرس دي روشي Roches،أسقـف ونشستر، وكان وقتـذاك في فلسطين، ببناء كنيسة جديدة للتنظيم، ووضعهـا تحت اشراف الداوية، وترك لها هبة قدرها خمسمائة مارك، أودعهـا في وصيته، وأسهم فرسان القديـس توماس بدور فعـال في الدفاع عـن عكا، وإثـرفقدان الأرض المقدسـة، تمركزوا في نيقـوسيـا في قبرص، حيــث عـرفـت كنيستهـم بـاســم كنيسـة «نيقـولا الانكليزي»، وهي ما تزال قائمـة، وتستخدم بمثابة مخزن للحبوب ، ولابد أن قمع الداوية والغـاء تنظيمهم قد وجه ضربة قاصمـة لتنظيم القديس توماس، وذلـك للعلاقة الوشيـجـة لفرسان القديـس توماس مع الـداوية، ومنذ ذلك الحين صـار بيتهم في لندن، أي مشفى القديس تـوماس أكون مشفـى عـادياً حسـب أحكـام القـديـس أوغسطين، وانتقل اثنـاء حقبـة المواصلات الـدينية الى أيـدي شركة ميرسيرز Mercers وسمعنا أنـه في سنـة ١٣٥٧ أن رجـلاً اسمه رتشـارد أوف تكهـل Tickhill قد قبـل في تنظيم كنيســة القديس نيقولا الانكليـزي، لكن لابد أن التنظيم كـان قد اختفى من الوجود قبل سنوات طوال، ولقـد اتبع فرسان القديس توماس أحكام القـديس أوغسطين، وارتدى أحدهـم عباءة بيضاء عليهـا صلبان حمراء مزينة بما يشبه الصدفة من الفضة، لتمييزها عن عباءة الداوية .

٦ — تنظيم الضريح المقدس:

لم يصبح هذا التنظيم تنظيماً عسكرياً إلاّ بعد مدة طويلة من فقدان الأرض المقدسة،ثم إنه لم يحتوقط على رهبان عسكريين مثل الاسبتارية والداوية، وكانت قوانين تنظيم الضريح المقدس قوانين أخوية تسير وفق أحكام القديس أوغسطين،وقد تأسس من قبل غودفري دي بوليون،وكان رئيس رهبان هذا التنظيم هو بطريرك القدس،الذي تشاركوا معه وتقاسموا ممتلكات الضريح المقدس،وبسرعة أصبحوا واسعي الشعبية،فتلقوا هبات هامة من الأراضي والبيوت في كل بلد من بلدان أوربا، لابل حتى أنهم حاصصوا الاسبتارية والداوية في الأعطية الشهيرة لألفونسو صاحب أراغون، ودمج في سنة ١٤٥٩ البابا بيوس الثاني هذه الرهبانية مع رهبانية عسكرية جديدة حملت اسم«تنظيم سيدتنا لبيت لحم»،ودمجها في سنة ١٤٨٩ البابا انوسنت الثامن مع تنظيم القديس يوحنا،الذي مايزال مقدموه يحملون حتى اليوم الحالي اللقب الاضافي التالي:« مقدم التنظيم العسكري لضريح ربنا المقدس»، لكن مع هذا قام البابا الاسكندر السادس،دونما نقض لأعمال الدمج المتقدمة،وبغيةتشجيع الحجاج الى الأرض المقدسة،فنظم قوانين رهبانية الضريح المقدس، بحيث غدت رهبانية عسكرية،واحتفظ لنفسه ولخلفائه بمنصب المقدم الأعظم،وأوكل البابوات دوماً حق منح التنظيم الى «منظمة الفرنسيسكان لحماية الأرض المقدسة»،وهو حق جرى تحويله الى البطريرك اللاتيني،عندما قام البابابيوس التاسع في سنة ١٨٤٧،بإعادة تأسيس بطركية القدس،وجرى الاعتراف رسمياً برهبانية تنظيم فرسان الضريح المقدس من قبل البابابيوس التاسع في ٢٤ كانون الثاني عام ١٨٦٨، ومن قبل البابابيوس العاشر في ٣— أيار ١٩٠٧،على أساس أن البابا هوالمقدم الأعلى،والبطريرك اللاتيني هو المقدم المساعد للمقدم الأعلى للأرض المقدسة،وكان الشعار هو صليب القدس الأحمر،مع

صلبان لاتينية متوضعة في الزوايا،وهو معلق بوساطة شريط أسود.

وينبغي عدم مزج هذا التنظيم مع التنظيم الفرنسي لإعمار الضريح المقدس، الذي تأسس من قبل لويس السابع في سنة ١١٤٩،وكان يحتوي على عشرين راهباً ،وقد عهد إليهم القديس لويس التاسع في سنة ١٢٥٤ بأمور بيعة القديسين مع آثارها المقدسة،وقد أزيلوا من الوجود بوساطة الثورة الفرنسية،وأعاد لويس الثامن عشر تنظيم الضريح المقدس في فرنسا مع تنظيم الإعمار، ودمج التنظيمان فيما بات فعلياً تنظيماً جديداً،لكنهما قمعا معا وأزيلا في سنة ١٨٢٣ بفضل نشاط وفعالية تنظيم الفرنسيسكان.

٢ — المجموعة الإيبيرية

١ — فرسان أفيز Aviz

هو التنظيم البرتغالي للقديس بندكت أوف أفيز،تأسس بالأصل من قبل عصابة من المحاربين، الذين كرسواأنفسهم في سنة ١١٤٧ لاتباع الملك ألفونسو الأول في حروبه ضد المسلمين، لكن دون أخذ أية تعهدات دينية،لكنهم تحولوا في سنة ١١٦٢ الى تنظيم ديني كامل، وقد اتبعوا الأحكام السسترشيانية،وقد عرفوا أولاً باسم فرسان يابرة Evora، ثم بعد ذلك باسم فرسان أفيز، نسبة الى حصنهم الذي قام على الحدود الاسلامية، وهو الذي اتخذ مقراً للتنظيم، ونقل فرسان قلعة رباح(كالاترافا Calatrava) في سنة ١٢١٢ ممتلكاتهم في البرتغال الى فرسان أفيز، على شرط أن يكون مقدمهم الزائر لدى التنظيم الأخير، لكن فرسان أفيز مالوا نحو عدم مراعاة هذا الشرط،مما نجم عنه خلاف حاد وطويل بين التنظيمين، وفقط وجد حلاً في القرن الخامس عشر،عندما قرر مجمع بازل Basle وجوب التزام فرسان أفيز باتفاقيتهما، وفي النهاية تولى البابوات حق تسمية المقدم الأعظم للتنظيم حتى سنة

١٥٤٠، عندما دمج البابا بولص الثالث المقدمية بالتاج البرتغالي، وفي سنة ١٧٨٩ صار التنظيم علمانيا، له سمة عسكرية فقط، ونظم في أربع طبقات، وشعار هذا التنظيم صليب أخضر ليلكي، معلق بوساطة شريط أخضر.

٢—فرسان (كالاترافا)قلعة رباح

قام الملك شانجة الثالث ملك كاستيلا في سنة ١١٥٨، بإهداء قلعة رباح وهي مدينة حدودية تقع الى الجنوب من طليطلة الى دير الرهبان السسترشيان في فيترو Fitero في نافار، وذلك بناء على اقتراح واحد من رهبانها، واسمه ديغو فيلازقويز Diego velaś guezعلى شرط أن يتولوا حمايتها، وجنّد راعي الدير ريموند عصابة من الفرسان لتتولى الدفاع عنها، وإثر موته التمسوا من البابا أن يعترف بهم بمثابة تنظيم ديني عسكري،وتمت الاستجابة لهذا الالتماس من قبل البابا الاسكندر الثالث في سنة ١١٦٤، واتبع فرسان قلعة رباح الأحكام السسترشيانية، وقد ارتدوا أردية بيضاء عليها صلبان حمراء، وبفضل أصلهم، كانوا عندما يزورون سيتيو Citeaux ،لم يكونوا يعاملون مثل الغرباء الآخرين،بل كانوا يقبلون داخل الدير بمثابة أخوة من الرهبان السسترشيان، وعانى فرسان قلعة رباح من خسائر فادحة أثناء معركة الأرك في سنة ١١٩٥،التي حقق فيها الموحدون نصراً عظيماً،وبعد عامين، استولى الموحدون على قلعة رباح، حيث قاموا بقتل جميع أعضاء التنظيم الذين وجدوهم، وصارت قلعة شلبطرة (سالفاتيرا Salvatierra) مقراً للتنظيم،حتى أعيد الاستيلاء على قلعة رباح واستردت من الموحدين في ١٢١٢ .

اندمج في سنة ١٢٢١،تنظيم مونتفراك Montfracالصغير— وهو ماكان قد تبقى من التنظيم الديني العسكري للقديسة مريم لجبل البهجة— مع تنظيم قلعة رباح، وتولى عملية الدمج القديس فردناند

ملك كاستيلا، وكان التنظيم الأصيل قد تأسس بموجب مرسوم صدر عن البابا الاسكندر الثالث في ١٥— أيار سنة ١١٨٠، وكان شعاره صليباً مؤلفاً من اللونين الأحمر والأبيض، وكان أول مقدم له كونت اسمه رودريو Rodriguez، وكان من قبل فارساً من فرسان سانتياغو Santiago، وقد اتبع الأحكام السسترشيانية، وامتلك التنظيم بيتا مع كنيسة في القدس، وكان معهوداً إليه بالدفاع عن برج الفتيات مع ثلاثة أبراج أخرى في عسقلان،وكان قد وهب ممتلكات قيمة في اسبانيا، وذلك مع مركزه في الفمبرا Alfambra ،وفي سنة ١١٩٨ سلمت الأراضي العائدة للتنظيم في أراغون الى الداوية، وجرى تأكيد هذا التسليم في مرسوم صدر عن البابا انوسنت الثالث في ٢٤— تشرين أول ١١٩٨، وأصبح بعد هذا التاريخ فرسان هذا التنظيم في كاستيلا يعرفون باسم فرسان رهبانية مونتفراك.

وفي القرن الرابع عشر أصبح فرسان قلعة رباح متورطين في الحروب الأهلية لبلادهم، وكانت هناك خلافات حول انتخاب المقدمين، الذي كان له أثره الحاسم على سمعة تنظيمهم،ونالوا أثناء الحروب ضد المسلمين وكسبوا شهرة واسعة لأنفسهم،ومن أجل تجنب المؤامرات والخلافات أثناءانتخاب المقدمين أعطى البابا نفسه الحق في تسمية المقدمين الكبار، وفي سنة١٤٨٩،استحوذ الملك فردناند الكاثوليكي على المقدمية لنفسه،التي منحت أخيراً للتاج الاسباني في سنة ١٥٢٣، وأعطي الفرسان حق الزواج في سنة ١٥٤٠، وصار التنظيم في سنة ١٨٠٨ تنظيماً عسكرياً محضاً، وقد أعيد تنظيمه في سنة ١٨٧٤،وله طبقة واحدة،وشعاره صليب أخضر ليلكي،معلق بوساطة شريط أخضر.

٣— *فرسان القديس جيمس أوف كومبو ستيلا* Compostella

كان هذا الموقع واحداً من أهم المواقع التي قصدها الحجاج في العصور الوسطى،حيث كان مزار القديس جيمس أوف كومبو ستيلا في

غاليشيا Galicia،فهناك يفترض أن جسد الحواري القـديس جيمس بن زبدي قد دفن ،وكان الحج الى هذا المزار هاماً وشعبياً،وقد تفوق بأولويته على جميع المزارات الأخرى، باستثناء :روما والقدس،وكان دوما مفضلاً بشكل خاص من قبل الانكليز،وكانت الطرق في الأزمان المبكرة مليئة بقطاع الطرق،كما كانت عرضة للغارات من قبل المسلمين،ونتيجة لهذا قرر ثلاثون من الفرسان،الذين بلا شك قد تأثروا بالمثل الذي ضربه الداوية في الأرض المقدسة،أن يكرسوا أنفسهم للواجب المقدس القاضي بحماية الحجاج وهم على طريقهم الى كومبو ستيلا،وشكلوا أنفسهم أخيراً في تنظيم ديني له أحكامه، وفي سنة ١١٧٥(*)،تلقوا قانوناً وتنظيماً من البابا الاسكندر الثالث،وباتوا يعرفون باسم فرسان القديس جيمس أوف كومبوستيلا،أو فرسان السيف للقديس جيمس،لكنهم شهروا أكثر باسمهم بالصياغة الاسبانية، وهو فرسان سانتاغيو، وحصل هذا التنظيم على احترام كبير خلال الحروب ضد المسلمين،وبات ثرياً الى ابعد الحدود، وأخذت أحكامه القديمة بالتغيير لتلبية التبدلات التي تطلبتها الأيام،وتسلم الفرسان في سنة ١٣٩٦ الأذن بالزواج،وفي سنة ١٤٩٣،استحوذ الملك فردناند الكاثوليكي على المقدمية،وفي١٥٢٢ منحت المقدمية بشكل دائم الى التاج الاسباني من قبل البابا أدريان السادس ،وفي هذه الأيام يتألف التنظيم من ثلاث طبقات، وشعاره سيف له قراب ليلكي، هوسيف القديس جيمس، ويتدلى من شريط أحمر.

وتأسس فرع لهذا التنظيم في البرتغال في تاريخ مبكر، وكان الحديث يتناول بشكل عام تنظيم سيف القديس جيمس أكثر من كومبو ستيلا،وجرى تحرير فرسان البرتغال من إشراف مقدم كومبوستيلا، من

---

*—تبعاً لإحدى الروايات أوجد الملك راميرو الثاني صاحب ليون تنظيم فرسان القديس جيمس أوف كومبوستيلا في القرن العاشر،تخليداً لذكرى انتصار له على المسلمين.

قبل البـابا نيقـولا الرابع،وكـان ذلك في نهاية القـرن الثالـث عشر، وبات هـؤلاء يقفون مستقلين عـن سواهـم،وتحول تنظيمهم الى الـوضع العلماني سنــــــــة١٧٨٩، وفي سنــــــــة ١٨٦٢ بــــــــات تنظيماً يهتــــم بـالعلوم،والآداب،والفنـون،يتكـون من خمس طبقـات،وشعـاره سيف لـه قـراب ليلكي هـو سيف القـديس جيمـس،ومـزيـن بخيـوط حمراء ومذهبة،ويتدلى من شريط أرجواني.

ويـذكـر أن التنظيمات البرتغاليـة الثـلاثـة:تنظيم البرج،وتنظيـم سيف القـديس بندكـت أوف أفيز، وتنظيم سيـف القديـس جيمس قد منحـوا شعـاراً واحـداً في سنـة ١٧٨٩، حيـث وحـد فيها بين الصلبـان الثـلاثـة المنفصلة عن بعضها في ميداليـة ذهبية كبيرة، وصار الشريط أحمر وأخضر وأرجواني، ومـن أجل فصل الصلبـان أضيف قلب مقـدس أحمر وصليب أبيض صغير.

٤— *فرسان القنطرة:*

قام في سنة ١١٦٥ أخوان هما:دون سواريز Don Suarez ،ودون غومس دي بارنتوس Gomez de Barrientos ببناء قلعة القديس يوليان ديل بيريرو Pereyroعلى حدود ليون،لحمايـة المنطقة من غارات المسلمين،وشكلـوا جماعة مـن الفرسـان للـدفـاع عنها،وقـد منحت هـذه الجماعة نظاماً من قبل رئيـس أساقفة سلامنكا Salamanca،وتأكد في سنـة ١١٧٧ تشكيل الـرهبـانيـة بمـرسـوم صـدر عن البـابـا الاسكنـدر الثالـث،الذي وضعهـا تحت أحكام رهبـانية القـديس بندكـت، ومنحها الإعفاء من سلطات الأسـاقفةوارتدى كل واحد من الفـرسان رداءً أبيض مع صليب أخضر ،واستـولى في سنة١٢٠٠ الملك ألفونسو التـاسع، ملك ليون—المعروف بلقبه الكريه:Slobberer—على القنطرة القائمة على نهر تاجـة، وانتزعها من المسلمين، ومنحهـا الى فرسان قلعة ربـاح،شريطة أن يجعلـوهـا المركـز الـرئيسي لهم ولتنظيمهم في ليـون،غير أن فـرسـان قلعـة

رباح،وجـدوها بعيدة جـداً عن ديرهـم،فتنازلوا عنهـا في سنة ١٢١٣ الى فرسـان القديس يـوليان ديل بيريـرو،شريطة قيـام التنظيمين بالاتحاد، ولم يكن الاتحاد بالفعـل مؤثراً، وكل مـا في الأمر أنه منـذ هذا التاريـخ بات فرسان القديس يوليان ديل بيريرو يعـرفون باسم فرسان القنطرةولقد بقيوا لبعض الوقت،والى حـد ما خاضعين لفرسان قلعـة رباح،لكنهم أكدوا في النهـاية استقـلالهم، وانتخبـوا مقدمـاً خاصـاً بهم،وأدى فـرسان القنطـرة واجبهم كاملاً في الحروب ضد المسلمين،وازدادت ثـروتهم وتعاظم نفوذهم الى حد بـاتوا فيه ليسـوا أقل قوة من الملك نفسـه،غير أن تنظيمهم دخل في خـلال القـرن الـرابع عشر حقبـة من الانحـدار،وشـارك الفـرسـان في الحروب الأهليـة لتلك الأيـام، وكـانـت هناك خـلافـات مستمـرة حـول المقدمية،التي غالباً مانجم عنها مؤامرات من قبل المقدمين المعارضين،ولا تتحدث أخبار التنظيم إلا عن النزاعـات وسفك الدماء،وفي سنة ١٤٩٥ أضفـي منصب المقـدم الأعظم على التـاج،من قبـل الملـك فـردنـانـد الكـاثـوليكي،وأكـد هـذه الترتيبـات البـابا الاسكنـدر السـادس،وبـات الاضفاء دائميـاً في سنة ١٥٢٣ بأمر من البـابا أدريان السـادس،وفي سنة ١٥٤٠ منح البـابا بـولص الثالـث الفرسان أذنـا بالـزواج، مع أنـه حرم الزواج الثاني،وتغيرت التعهدات الثلاثة:بالاحسان،والطاعة،والفقر الى :

Obedientiea,Castitas con jugalis and conversio morum

وعندما في سنـة ١٨٠٨ صار جوزف بونـابرت ملكاً على اسبانيـا،حرم التنظيم من مـوارده، وجزء فقط مـن الفرسان كـانوا قادريـن على التعافي عندما أعيد فردناند السـابع الى عرشه في سنة ١٨١٤،وتوقف التنظيـم عن كـونه تنظيما روحيـا في سنـة ١٨٣٥، والتنظيم الآن هـو تنظيم عسكـري مؤلف من طبقة واحدة، شعـاره هو صليب أحمر ليلكي،يتدلى من شريط أحمر.

٥ــ تنظيم المسيح:

انحدر تنظيم المسيح مباشرة من الداوية،ومن الممكن القول إنه تنظيم الداوية تحت اسم آخر،وعندما جرى قمع الداوية في سنة ١٣١٢،رفض الملك دنس ملك البرتغال بشكل صريح تصديق تهمة الارتداد التي اتهموا بها،كما رفض الانضمام الى أعمال تعذيبهم،ووضعهم تحت حمايته الملكية، لكن كان من غير الممكن بالنسبة للبابوية السماح بتحدي سلطاتها هكذا بشكل علني مكشوف،ولكي يواجه دنس هذه المشكلة توصل في سنة ١٣١٨ الى تسوية،بتأسيس تنظيم عسكري ديني جديد،أطلق عليه اسم تنظيم المسيح،والى هذا التنظيم نقل الداويةومعهم ممتلكاتهم،وأكد البابا يوحنا الثاني والعشرين عملية التأسيس هذه للتنظيم الجديد،واحتفظ لنفسه بحق الانتساب إليه،وحول إليه الفرسان الداوية الذين وجدوا ضمن ممتلكاته والذين كانوا ذوي أخلاق حميدة وسمعة جيدة،وتألف هذا التنظيم من طبقة واحدة،وكان شعاره صليب أحمر طويل مع نهايات مسطحة طويلة تحمل صليباً صغيراً لونه أبيض، وهو معلق بوساطة شريط أحمر.

وأصبح تنظيم المسيح في البرتغال تنظيماً وطنياً مستقلاً،وكان ذلك سنة ١٥٢٢، وتميز تماماً عن التنظيم البابوي، وأضفي في سنة ١٥٤٠ منصب المقدم الأعلى على التاج البرتغالي، وتوقف في سنة ١٧٨٩ عن كونه تنظيماً روحياً، وبات علمانياً تماماً،مع استثناءواحد،هو وجوب انتماء أعضائه الى عقيدةالكنيسة الكاثوليكية الرومانية،وقد جرى تنظيمه في طبقات ثلاث،ويمتلك الآن شعاراً يختلف عن شعار التنظيم البابوي،وهذا الشعارهو صليب أزرق مطرز فوق إكليل من الغار الأخضر،وتحتوي الميدالية البيضاء القائمة في الوسط على الصليب الأبيض والأحمر القديم،لكن الشكل البابوي القديم يرتدى مع ياقة من قبل الصلبان الأعظم للتنظيم.

٦ — *تنظيم سيدتنا أوف مونتيزا* Monteza :

انحدر تنظيم مونتيزا مباشرة من الداوية،حسب الطريقة نفسها التي انحدر فيها تنظيم المسيح،فقد حذا الملك جيمس الثاني،ملك أراغون، حذو الملك دنس،ملك البرتغال،فأوجد في ٢٢— تموز ١٣١٩ تنظيماً دينياً عسكرياً جديداً،دعاه باسم تنظيم سيدتنا أوف مونتيزا،والى هذا التنظيم حول الداوية مع ممتلكاتهم في بلنسية،وكان مقر التنظيم الجديد في مونتيزا، ومثله مثل الداوية تبع أحكام رهبانية القديس بندكت، وتبنى ارتداء العباءة البيضاء والصليب الأحمر الساذج،العائد لأسلافه واستوعب في داخله في سنة ١٣٩٩ التنظيم الديني العسكري الأقدم منه،المعروف باسم تنظيم القديس جورج أوف ألفاما Alfama، الذي كان قد تأسس سنة ١٢٠١ من قبل الملك بطرس الثاني،ملك أراغون، وكان فرسان مونتيزا آخر فرسان التنظيمات العسكرية الاسبانيةالذين فقدوا استقلالهم،وقد منح هؤلاء الفرسان الأذن بالزواج في سنة ١٥٧٢، وفي سنة ١٥٨٧ أضفيت المقدمية على التاج الاسباني،وكان شريط التنظيم أحمر قانىء.

الملحق ب
تاريخ وفيات المقدمين

(ملاحظة— إن هذا التاريخ هو إطراء رسمي لمقدمي الاسبتارية، وهو موجود على رأس معظم المخطوطات القديمة حول أنظمة وأحكام الاسبتارية، ولعله صنف فيها بين ١٣٥٣ و١٣٥٥، وذلك لأنه اختتم بهذه الكلمات: «بعد مقدمية بطرس كورنلين Cornelian » وهو لم يعط تفاصيل حوله، وتم التقليل أحياناً من قيمة هذا السجل الذي هو الرواية المدونة الأقدم حول الاسبتارية، بسبب أخطاء الناسخ، الذي شوش تسلسل الأسماء، وعزا إلى بعض المقدمين أوصافاً، من الواضح أنها عائدة إلى آخرين، غير أن الأخطاء بشكل عام هي بديهية، ومن السهل تقويمها بدون جهد كبير؛ وقد نشر هذا التاريخ باللاتينية في:

Dygdale's Monasticon, Vol VI, part 2 pp 796 _ 797

— كان المقدم الأول هو جيرارد، الذي كان رئيس مشفى الفقراء في القدس، وقد كان موجوداً هناك عندما استولى غودفري دي بوليون مع الحجاج المسيحيين الآخرين على المدينة.

٢— وكان بعده ريموند دوبوي، الذي كان الراهب الأول في المشفى، وهو الذي نظم الأحكام وأسسها وذلك مع الأنظمة، وجعلهم يتأكدون بوساطة البابا يوجين (الثالث، ١١٤٥ — ١١٥٣)، وقد فقدوا في القدس.

٣— وكان المقدم من بعده يوغردي بالن Auger de Ballen ، وكان رجلاً يفيض بالتقوى، وعظيم الاستقامة.

٤— وكـان المقـدم مـن بعـده أرنـولـد دي كـومـب Arnold de Comps، وكان رجـلاً عالي المقاصـد، وفي ظله إزدادت الرهبـانية في كل من عدد الرهبان وفي حجم الممتلكات، وقد صنع تنظيمات جيدة، الخ..

٥— وكان من بعده غلبرت أسيلي Gilbert Assilli هو المقدم، وكان رجلاً متقـدماً جـداً بالسن، وحصـل خلال الوقـت القصير الذي عـاشه على كثير من المنافع للرهبانية، وخدم ساداتنا المرضى بلطف عظيم (١).

٦— وكان المقـدم من بعده هو كـاست Caste ، وكان رجـلاً مليئاً بالفضـائل ذات العمق الانسـاني، ونافعاً جـداً، ولطيفاً في قلبـه، وبفضل معامـلاته المستقيمة، وسمعتـه الطيبة، جلب منافـع عظيمة لرهبـانيتنا في جميع أنحاء العالم.

٧— وكـان جـوبـرت Jobert ، هـو المقـدم من بعـده، وقـد وضـع أحكاماً جيدة من أجل خدمة (الـرب والكنيسة، ومن أجل خدمة مرضى بلادنا).

٨— وكان مـن بعده غيوفـري دي دنسون (٢) Dinson ، هو المقدم وهـو الذي استـولى على الحصن (حصـن الأكراد) والمرقـب، وكان رجـلاً جيـداً، وتقياً، وصـاحب تفكير رفيـع، وقد أحـب أخوانـه كثيراً، وكـذلك ساداتنا المرضى.

١— من الـواضح أن الـوصف الذي أعطـي لغلبرت دي أسيلي، يعود إلى سلفـه آرنولـد دي كومـب، بسبب الاشارة إلى سنـه المتقدم، وإلى قصر مـدة حكمه، وبناء عليـه إن الوصـف الذي أعطي لآرنولد دي كومب يعود تماماً إلى غلبرت دي أسيلي.

٢— ينبغي قـراءة الاسم: روجر دي مـولين، الذي تنطبق عليـه الأوصاف، فهو الـذي امتلك المرقب في سنة ١١٨٦، لكـن ليس بالقوة، بيـد أن حصن الأكراد كان متملكـاً قبله بزمـن طويل، ومن الـواضح أن الوصف الـذي سيرد في الفقرة العاشرة بعـد الحديث عن آرمنغود داب هـو جزء من الفقـرة الثامنـة، خرج من مكـانه الصحيح بطريقة مـا، لأن البابـا لوشيـوس الثالـث كان في السلطة من ١١٨١ حتى ١١٨٥.

٩— وكـان مـن بعـده آرمنغـود داب Armengaud Daps ، هـو المقدم، ولقد عذب كثيراً من قبـل أعداء الإيمان (١)، وفقد المسيحيون في أيامه القدس، وقد عاش أمداً قصيراً بعد ذلك.

١٠— وكان مـن بعده روجـر دي مولين Molins ، هو المقـدم، وهو الـذي حصل على تثبيت لـلأحكام من البـابـا لوشيـوس، وأرسى قواعـد الأنظمة الجيدة.

١١— وكان من بعده غـارنيير دي نابلس Garnier de Nablus، هو المقـدم، وقد أظهر شجـاعة كبيرة في أعمال القتال ضـد أعداء الإيمان (٢)، وحافظ بنشاط على المنح المعطاة للرهبـانية، وحكم الرهبان وقادهم بإباء.

١٢— وكـان من بعده ألفـونسـو البرتغالي هـو المقدم، وفي أيـامـه تم ترسيـخ العادات الجيدة التي كـان قد وضعها المقـدم روجر وتأكيـدها في المرقب، وقـد عمـل نظماً جيـدة، وحـدث أنـه أصـدر بعض الأوامـر إلى رهبـانيته، ولأن الـرهبـانية لم تطعـه، استقـال من منصبـه، ورمى بخـاتمه، فتناول الخاتم أعيان الفـرسان، وقاموا بانتخاب مقـدم آخر، ثم إنه انطلق عائداً إلى البرتغال، وقد سقي السم من قبل أبناء جلدته، الخ ...

١٣— وكـان من بعده غيـوفري لى رات هـو المقدم، وقـد كان رجـلاً مستقيماً جداً، وقد انـزعج كثيراً بسبب استقالة المقدم ألفونسـو، لأنه كان

١—يفترض أن هذا يعني أنه كان في وقت من الأوقات أسير حرب لدى المسلمين، مالم تكن الاشارة هنا إلى أنه أرغم على الاستقالة من منصبه كمقدم.

٢— لعله ينبغي علينا أن نقحم الكلمات التـالية من الفقرة الثامنة: «وكان مـن بعده غيوفري دي دنسون، هـو المقدم»، ومن ثـم فإن الجملة التـالية تكـون مرتبطة بـه، وذلك أنـه من الصعب ربطهـا بغارنيير دي نـابلس، الـذي انحصرت مقدميتـه بالأعمال العسكـرية فقـط، وهي الأعمال المتعلقة بالحملة الصليبية الثالثة.

يقـدره كثيراً بسبب أخـلاقه الحميـدة، وفي هـذه الآونة قـدمت أعطيـات كثيرة لرهبانيتنا في مملكة فرنسا.

١٤— وكان من بعـده غارن دي مونتـاغيو Garinde Montagu ، هـو المقدم، وكـان في شخصـه قويـاً ونشيطاً وحـامياً متيقظاً لممتلكـات الرهبنة، وقد عاش لمدة قصيرة فقط (١).

١٥— وكان من بعده بـرتراند دي جكسي Gexi ، (اقرأ تكسي) هو المقدم، وكـان صاحـب سمعة مستقيمـة جداً، وتقيـاً، وخلوقـاً، ولقد زاد ذلك كثيراً، وقـدم للرهبانيـة في سوريـة كثيراً من الممتلكات، وكـان غيوراً جداً في تأدية واجباته نحو ساداتنا المرضى.

١٦— وكـان من بعـده غـوريـن Guerin ، هـو المقـدم، وقـد كـان اقتصادياً مـدبراً إلى أبعد الحدود، ومتواضعـاً لايحب الأبهة والتفاخر، وجمع أموالاً كثيرة، لأنه حافظ على السلم مع أعدائه.

١٧— وكان من بعده بيرتراند دي كون cons ، هو المقدم، وقد تمكن باستقـامته وتصريفـه الأمور بحكمة من إعـادة اخضاع كثير من المنـاطق الاسلامية ووضعها تحت سيطرة الرهبـانية، واستطاع بفضل ثروته العظيمة اعـادة كثيرة من الامتيـازات لصـالح الـرهبنـة وزيـادتها، وقـام بكثير من التنازلات لصـالح أخوانه الرهبـان الفرسان، وأعلى شأنهم داخل الـرهبنة، وزاد منّ مكانتهم، وجعلهم أعلى من بقية أنـواع الفرسان، وذلك أكثر مما فعله أي مقدم آخر.

١٨— وكان من بعده بطرس دي فيلا بريدا Villa Brida هو المقدم، وقـد مارس نفـوذاً عظيماً بـاستقـامته، وبـأخلاقـه الحميـدة، وحـافظ على

١— الوصف الذي أعطي هنا إلى غارن دي مونتاغيو، واضح تمام الوضوح أنه يعود إلى سلفه غيوفـري لى رات، بسبب الحديث عن أن حكمه كـان قصيراً، وعلى هذا إن الوصـف الذي أعطي إلى غيوفري لى رات، أحق أن يعطى إلى غارن دي مونتاغيو.

النظـام بكل دقـة، وجرى نتيجـة لجهـوده تأسيـس ثلاثـة فـروع للرهبنـة والحصول على كثير من الممتلكات.

١٩— وكان من بعده وليم دي كاستلو نوفو Castello Novo ، هو المقدم، وكان نموذجاً بالاستقـامة الخلقية، وقام بأعمال شجاعة كثيرة، وفي أيامه استأنف الاسبتارية التوازن بـالحقوق مع الداوية، الأمر الذي اشتراه فيما بعد من مقدم الـداوية، الذي كان أخاه، مقـابل ثمن حصان، الخ.. (١)

٢٠— وكان من بعـده هيوج دي رايفل Ryvell ، هو المقـدم، وكان رجلاً مدهشاً بـالنسبة لصحة أحكامه ولطاقاته، وقـد أرسى شؤون الرهبنة على قـواعـد صحيحة، لأن المقـدمين الآخـريـن أسـلافـه لم يقـومـوا بالاصـلاحات، بل حـافظوا على العادات الجيـدة للرهبنة، غير أنـه رسخ كل شيء مـن جـديد، ليـس فقط بتنسيق أحكـام الآخـرين، بـل بـوضع أحكام جديدة ومفيدة هو أبدعها.

٢١— وكان من بعـده نيقولا دي لورن Lorgn هو المقدم، وفي أيـامه جـرى استخـدام الترسة الحمـراء مـع صليب أبيـض، وتقرر أن يـرتـدي الرهبان أردية سـوداء، كما جرى اعتماد خاتم الرهبنة، وذلك بـالاضافة إلى كثير من الأحكام الجيدة التي عادت بالنفع على الرهبنة.(٢)

٢٢— وكان من بعده أودو Odo ، هو المقدم و ..... و ....

١— من الـواضح أن الحادث الأخير يعود إلى ولايـة غارين دي مـونتاغيـو، الذي كـان أخوه الأصغر بطرس دي مونتاغيو هو مقدم الداوية، وذلك من سنة ١٢١٨ حتى سنة ١٢٣٣.

٢— كان ينبغي أن يتبع هذا ذكر اسم جون دي فيلير Villirs، وهو الذي في أيامه فقدت عكا، لكنه حذف.

الملحق ج

أختام المقدمين وأعيان الرهبنة

جرى خلال القرنين اللذين أقام فيهما الاسبتارية في الأرض المقدسة استخدام ثلاثة أختام من قبل مقدمي الاسبتارية:

١-الختم الكبير للمقدم،أو Leaden bulla (ختم الرصاص)

٢-الختم الخاص بالمقدم،أو Seal in wax (ختم الشمع)

٣-الختم الكبير للرهبنة،أو Leaden bulla (ختم الرصاص)

وفي استخدام مقدم الاسبتارية للختم المعدني،كان يقلد البابوات ويحذو حذوهم،وأيضا أباطرة الشرق،وبعض البطاركة الشرقيين، ولايشمل اصطلاح ختم الطبعة فقط بل الوثيقة التي أثبت عليها.

١—الختم الكبير للمقدم

صنع هذا الختم من الرصاص، ومساحته أنش ونصف الأنش،وله وجهين،ويربط بالوثائق بشريط أو بخيط يمر خلالها،ولابد أنه كان بالاستخدام منذ أول تأسيس الرهبنة،وأقدم ختم معروف بالوجود هو ختم المقدم كاست مورول Caste de murols(١١٧٠—١١٧٢) وهوعلى الشكل التالي:

الوجه: مقدم الاستبارية متوجه نحو اليمين، ويداه متشابكتان وهو يصلي، حيث جثا على ركبتيه أمام صليب بطريركي،على كل طرف من طرفيه الحرفين: AW، والجميع محاط بدائرتين خطاهما عبارة عن حبيبات، وقد نقش بينهما:(كاست) CASTVS : CVSTOS +

الظهر: هناك أمام خيمة للعهد جسد ممدد على محفة ،والرأس متجه الى

اليمين، ويوجد صليب عند رأسه وعند قدميه،وفوقه قبة تغطيه مع ثلاث قبب صغيرة، ويتدلى من القبة مصباح،والجميع محاط بدائرتين خطاهما عبارة من حبيبات،وقد نقش بينهما:

+اسبتارية • القدس

ولقد بقي هذا التصميم للختم بدون تغيير تقريباً حتى مابعد وفاة المقدم غارين دي مونتاغيو(١٢٠٧—١٢٢٨)،لكن واحداً من خلفائه عدل تصميم الوجه بجعل مقدم الاسبتارية يتجه نحو اليساربدلاً من اليمين، مضيفاً الى مانقش كلمة«أخ»وواضعاً تحت الصليب البطريركي جمجمة آدم، فهكذا وصلنا تصميم ختم المقدم نيقولا دي لورن(١٢٧٧ — ١٢٨٥)، لكن من غير المؤكد أهو الذي غير التصميم أو مقدم آخر تقدم عليه، وذلك بسبب فقدان كثير من الأختام.

وبالنسبة للتعديلات التالية في تصاميم هذه الأختام فإنها تعود الى حقبة متأخرة ، عندما صار فرسان الاسبتارية فرسان رودس.

٢— الختم الخاص بالمقدم

دعي هذا الختم بالعادة باسم الختم بوساطة الشمع، ولقد ورد ذكره للمرة الأولى في أحكام المقدم ألفونسو البرتغالي (١٢٠٣ — ١٢٠٦)، ووصلتنانماذج فريدة منه تعود الى المقدمين غارين دي مونتاغيو، وهيوج رايفل(١٢٥٨ — ١٢٧٧) ، والختم على شمع أسود، ومساحته إنش وربع الإنش، وبما أنه مثبت على وثائق بطريقة عادية ، فله وجه واحد، وقد تطور في النهاية وفي تاريخ متأخر الى ختم على الورق، وجاء تصميم أقدم الأختام التي وصلتنا، وهو العائد الى غارين دي مونتاغيو كما يلي:

الوسط الأعلى لمقدم الاسبتارية مع الوجه الكامل، وهناك صليب على الجانب اليساري من ثوبه، والجميع محاط بخيطين دائريين من

الحبيبات ، نقش بينهما:

Cvstos(غارين) Gvarinvs

ونقش على الختم المشابه له والعائد الى هيوج رايفل ما يلي :

+Frater : Hvgo (الأخ هيوج) Gvarinvs

وهناك تنوع في عرض المقدم.

وتبعاً لأحكام ألفونسو البرتغالي ، كان بإمكان القائد الأعلى استخدام ختم المقدم على الشمع في أي مكان ، حيث يحدث أن يكون المقدم غير موجود فيه، أي أن تقول أنه كان يقوم مقام المقدم، هذا وكان بامكان المتسلم للخزينة أن يقوم بختم الوثائق باسم المقدم، وذلك بختمه على الشمع.

ولا شك أنه جرى بعد هذا تبني ختم أقل أهمية ، وحصر استخدام «الختم الكبير للمقدم» في عمليات نقل الملكيات ، والتعليمات القانونية، ووثائق الدولة الهامة، في حين جرى استخدام الختم الصغير في المراسلات ، والمسائل العادية لأعمال الادارة اليومية،

٣— *الختم الكبير للرهبنة*

ان الحديث بشكل عام عن « الختم الكبير للرهبنة» هو حديث عن ختم مقدم الرهبنة ، الذي يعني المقدم في الاجتماع والتداول، وقد أوجد هذا الختم المقدم نيقولا دي لورين في سنة ١٢٧٨، وكان مصنوعاً من الرصاص مثل الختم الكبير للمقدم ، وبالحجم نفسه، وكان له أيضاً وجهين، ويثبت على الوثائق بالطريقة نفسها ، وبما أن هذا الختم لا يذكر اسم المقدم ، لم يكن من الضروري تبديله لدى موته، وأقدم تصاميمه هي كما يلي:

الوجه: المقدم وستة من أعيان الرهبنة متوجهين نحو اليسار ، وأيديهم متشابكة في الصلاة، وهم جاثين أمام صليب بطريركي، على كل طرف من طرفيه الحرفين A W ، وتحته جمجمة آدم ، والجميع محاط بدائرتين من الحبيبات، نقش بينهما العبارة التالية:

+ ختم المقدم والرهبنة

الظهر : التصميم والكتابة هما متطابقان مع ما جاء على ظهر الختم الكبير للمقدم. وأعيان الرهبنة الستة الممثلين على هذا الختم هم : راعي الدير، والقائد الأعلى، والمارشال ، واسبتاري ، ومسؤول عن الأكسية، ومسؤول عن الخزينة، وذكر ديلا فيل لي رول

Dela Vill leRoulx أن عدد الأشخاص الممثلين على الوجه قد ازداد في أوقات متأخرة مع ازدياد عدد أعيان الرهبنة، ولحق تصميم الختم القليل من التغيير وهو ما زال قيد الاستعمال حتى هذا اليوم.

وذكرت أحكام نيقولادي لورن أن الختم الكبير للرهبنة كان لا يستخدم إلا على الوثائق المتعلقة بالمنح، والبيع، ونقل عمليات الممتلكات، التي تكون لها فعالية مع موافقة المقدم والرهبنة ، وعلى وثائق الإرغام والمصادرة ، والشراء، التي تتطلب السلطات نفسها، لكن بالنسبة للقضايا الأخرى فإن ختمي المقدم يكونا كافيين ، سواء الختم المصنوع من الرصاص أو المختوم على الشمع.

وفيما يتعلق بأختام أعيان الاسبتارية فقد أعطيت في الوثيقة التالية ، التي ربما أعدت في منتصف القرن الثالث عشر، بحكم أنها تتضمن ذكر قسطلان (شحنة) المرقب وقسطلان حصن الأكراد ، ولم تأت على ذكر ختم الرهبنة ، وتضمنها لذكر رعاة ديرة كاتا لونيا، الذين أقيموا وأعترف بهم في حوالي ١٣١٩، لابد أنه جاء بمثابة إضافة متأخرة.

ما يتعلق بالأختام التي استخدمت من قبل مقدم الاسبتارية والآعيان الآخرين

١ــ في المقام الأول أختام المقدم مع ختمين أولهما من الرصاص، والآخر على الشمع، وعلى الذي هو من الرصاص: من الجانب الأول المقدم وهو جاث أمام الصليب ، وعلى الجانب الآخر جسد انسان ميت أمام خيمة للعهد، وعلى الختم الآخر طبع على شمع أسود نصف انسان.

٢ــ ثم أختام القائد الأعلى، أي أختام قائد ما وراء البحار مع ختم ، مثل ختم المقدم على الشمع.

٣ــ القائد الأعلى على الجانب من هذا البحر مع ختم على شمع أخضر مع طائر الغريفن .

٤ــ ختم المارشال على شمع أخضر مع فارس شاكي السلاح ومعه علم بيده.

٥ــ الاسبتاري مع ختم على شمع أسود مع فراش عليه رجل مريض ، ومع راهب يقدم له الطعام.

٦ــ أختام قائد قبرص، مع ختم عليه قارب بدون سارية وبدون أشرعة.

٧ــ أختام قائد أرمينية، مع نصف أسد.

٨ــ أختام قسطلان(شحنة) المرقب، مع علم ملكي .

٩ــ قسطلان الحصن مع قلعة.

١٠ــ ختم كل من صاحب الكسوة والخازن، مع أختامهما.

١١— راعي ديـر القـديس جـايل (صنجيـل) مع واحـد على الشمع الأسود مع حمل الرب.

١٢ — الـراهـب الأول لفـرنسـا مـع ختـم على الشمع الأخضر مـع نسرين بين زهرتي زنبق .

١٣— أختـام القائد الأعلى لألمانيـا مع ختم على شمع أخضر عليـه القديس يوحنا المعمدان .

١٤— أختـام قـائد اسبـانيا مـع ختم عليـه نسر ليختـم على شمع أخضر.

١٥— قسطـلان أمبـوستـاAmposta، مع ختـم يختم على شمـع أخضر عليه قلعة .

١٦— أختام الراهب الأول لنافار مع ختمه.

١٧— الراهب الأول لكاستيل مع قلعة على شمع أسود

١٨— الـراهب الأول لكاتـوليـا (أي كاتـالونيـا) (١) مع ختـم يختم على شمـع أخضر، ونصف ختـم ملـك أراغـون، والنصـف الآخـر هـو صليب.

---

(١) تبعاً لديـلافيل لى رول ، لم يكن مقـام الراهـب الأول لكاتـالونيـا قـد أوجد حتى سنـة ١٣١٩ انظر «الاسبتارية في الأرض المقدسة ص : ٣٧٩ ، ٣٨١ ».

الملحق د

حول رنوك المقدمين

بدأ اتخاذ الرنوك واستخدم بشكل عام في أوروبا الغربية خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وبينما كان اعتماد هذه العادة متأرجحاً ، سبب تجمع الفرسان من كل أمة تحت رايات الحملة الصليبية الثالثة، تبلوراً مفاجئاً، وصار الأمر رائجاً بين جميع الارستقراطية العسكرية لأوروبا ، ومع سنة ١٢٠٠ بدأ علم الرنوك تترسخ قواعده في كل مكان ، وبعد مضي قرن قادت أحكامه المعقدة وأشكاله المتباينة نحو الاستخدام العام ، وبدأت عادات الأحجام والأماكن والاستخدامات ونماذج التباين والرتب بالظهور، وظلت أحكام ونظم الرنوك منذ ذلك الوقت حتى اليوم الحالي بدون تغيير فعلي.

وأول اشارة محددة تتعلق بوضع الرنوك على أسلحة فرسان الاسبتارية، قد وردت في مرسوم صدر عن البابا الاسكندر الرابع في عام ١٢٥٩، حيث ورد فيه أن راية الرهبنة كانت في ذلك الوقت كما هي اليوم الحالي « صليب أبيض ــ فضي مصبوغ بالأحمر» وليس لدينا من دليل يظهر لنا التاريخ الذي تمّ فيه تبني هذه الراية ، ولابد بشكل مؤكد أنها استخدمت من قبل الاسبتارية أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، لابل في وقت أبكر، وفي ظل مرسوم ١٢٥٩ جرى تخويل الفرسان بارتداء هذه الشعارات ، وفي أيام ولاية المقدم نيقولا لى لورن (١٢٧٧ــ ١٢٨٥) جرى تبني طلاء الشعارات على الترسة.

وفي حوالي الوقت ، الذي صدر فيه مرسوم البابا الاسكندر الرابع ، جرى تنفيذ نظام المقدم هيوج رايفل ، وهو الذي أوجب على فرسان الاسبتارية تقديم بينه أصيلة على حقهم في حمل الشعارات،ولابد أنه

تـوفـر لدى الـرهبنـة في مقـرهـا سجل بشعـارات الأسلحـة التي حملهـا الفـرسـان،ونمتلك في هـذه الأيام قـائمـة بـالشعارات التـي حملهـا جميع مقـدمي الاسبتاريـة منـذ وقت التأسيس من قبل جيراد المبـارك ، ومن المحتمل أن هذه القـائمة قد صنفت عندما كـان دير الرهبنـة ما يـزال في عكـا ، ومن المنطقـي الافتراض أنـه عنـدمـا بـدأت الـرهبنـة بالاهتمام بمسـألة الشعارات لـدى رهبانها العسكـريين، أن تجري محاولة بشكل طبيعي لتدوين سجل بأسماء مقدمي الرهبنة ، وبما أنه لم يكن قد مضى على الاستخـدام العام للشعـارات إلاّ حوالي نصف قـرن ، لم تكن هناك صعـوبة حقيقيـة في تصنيف قائمـة أصيلة يمكـن الاعتماد عليها ، وأن تشكل هـذه القـائمـة قـاعدة للقـوائم التـاليـة، وبنـاء عليـه نمتلك التسويغ في افتراض أن شعارات المقدمين منذ أيـام غارن دي مونتاغيو ، لا بل ربما أقدم من ذلك ، أي من أيام غـارنيير دي نابلس كانت هي كما رسمت لنـا ووصفت ، لكن بـالنسبة لشعـارات المقدمين الأبكـر لم تكن موجـودة أبداً ، لسبب بسيط هـو أن حمل الرنوك لم يكن مـوجوداً في ذلك التاريخ المبكر، وبناء عليـه إن هذه الشعارات مفيدة فقط، على أنها شعـارات الأسر ، التي اعتقـد المصنف أن المقدمين أصحـاب الشأن قـد انتموا اليها ، وإلى هذا الحد هي بـلا شك لها بعض القيمة، التي لا يجوز تجاهلهـا ، ومع هذا ان بعضهـا افتراضي تمامـاً ، اخترعت فيما بعد بقصـد ملي الفـراغات في القـائمـة، أو لـربما بقصد تمجيـد بعـض الأسر بشكل محدد، ومثال على هـذا عندمـا عزي شعـار القديس ديـدير Didiar إلى جيرارد الملك ، أو شعارات دي سلي De sulle عنـدما عـزيت الى غلبرت دي اسيلي .

وبعد فقدان الأرض المقـدسة بوقت طويل نمـت بعض العادات التي كانت تتعلق بالـرنوك بين فرسان الاسبتارية، وهي معروفـة بالنسبة للذين لديهم معـرفة بالـرنوك والشعارات ، لأنها مـا زالت مستخدمة حتـى هذا

اليوم ، كما بـات من المعتـاد عليه بالنسبـة لمقدمـي الاسبتاريـة أن يضعوا شعاراتهم الشخصيـة الى جانب شعـارات الرهبنـة وكذلك الـرنوك أو الصلبـان الكبيرة، حتى يُحمـل فـوق شعـاراتهم الشخصيـة الشعـارات الرئيسية للـرهبنة، ولعل العادة الأولى درجت وجرى استخـدامها خلال النصف الثاني مـن القرن الرابع عشر، أمـا العادة الأخيرة فقد استخـدمت في أوائل القرن الخامـس عشر، ثم تطور الأمـر، فبعد فقـدان رودس صار من المعتاد بالنسبة للفرسان عـرض شعاراتهم بوضعها فوق الصليب ذي النقاط الثمانية العائد لرهبتهم .

وكانت رنوك مقدمي الاسبتارية في الأرض المقدسة كما يلي :

١ــ **جيرارد المبـارك** ــ «لازاورد، وأسـد واقف ، وأبيـض ــ فضي»، هذه هي الشعـارات العائدة الى اسرة القديس ديديـر أوف لاندوك Lan-guedoc ، وهي الأسرة التـي ادعي بأن جيرارد كـان مـرتبطاً بها ، وقـد حملت الأسرة فيها بعد هذه الشعارات في :

bordure gules besantee

٢ــ **ريمـونـد دي بـوي المبـارك** ــ « ذهـب وأسـد أحمر واقـف ، ولازاورد فرنسي وسـلاح» وكانت هذه شعارات أسرة ريموند دو بوي ــ مونتبرون Montbrun أوف دوفين Dauphine، التي من المفترض أن أسرة ريموند دو بوي قد انتمت إليها بالعادة.

٣ــ **يـوغر دي بـالن**ــ «أرضية سـوداء، بين خطين متماوجين لونهما أحمر، وثـلاثة حمامـات فضيـة»، وعـادت هذه الشعـارات إلى أسرة بـالبين أوف دوفين.

٤ــ **آرنولـد دي كومب**ــ «فضي، ونسر فارد جنـاحيه، وواقف وأحمر وأسود» لقـد كانـت هذه بـلاشك شعارات أسرة دي كـومب أوف دوفين وبروفانس، وانظر برتراند دي كومب.

٥— غلبرت دي أسيلي— «لازاورد، ونجوم صغيرة، وأبيض— فضي، وفوق ذلك كله أسد واقف، وذهب»، وهذه الشعارات متطابقة إلى أبعد الحدود مع شعارات أسرة دي سللي Sully، باستثناء أن النجوم هي خماسية.

٦— كاست دي مورل— «أحمر، وصليب مدبب، وفراء»، ويستنتج من اسم الأسرة أنها جاءت من أوفرين.

٧— جوبرت— «ذهب على صليب فرائي، وخمس صدفات، وأبيض — فضي» وهذه كانت شعارات أمراء دي بارولت Barrault، وهم فرع من أسرة دي جوبرت.

٨— روجر دي مولين— « أبيض — فضي على صليب فرائي معكوف الأطراف، وصدفة ذهبية»، وباستثناء الصدفة، هذه هي شعارات أسرة دي مولين في نورماندي المنخفضة التي زالت مع نهاية القرن الثالث عشر.

٩— آرمنغود داب— «أبيض فضي، وبرج لازاوردي، وحجارة فرائية»، وتعود هذه الشعارات إلى أسرة داب أوف بيرن Bearn.

١٠— غارنيير دي نابلس— «فراء، وصليب هائل، وفضي — أبيض»، وكان الفرع السوري من أسرة دي ميللي Milly الفلمنكية، قد اتخذ اسم دي نابلس، ومن المفيد أن نلاحظ أن شعارات دي ميللي حوت المكونات نفسها لشعارات دي نابلس، أي «فراء، وبشكل رئيسي فضي— أبيض».

١١— غيوفري دي دنجون— «أحمر، وسهم فضي— أبيض» ويقول بعضهم «لازاورد وسهم داكن»، ويبدو أنه فعليا حمل هذه الشعارات، وإلا عندما جرت محاولة لتمجيد أسرة دي دوسون Duisson ورفع شأنها، باعطائه ذلك الاسم ،فإن شعاراتها التي تختلف تمام الاختلاف

كانت بلاشك ستنسب إليه.

٢ــ ألفــونســو البرتغــاليــ «أبيض ــ فضي، وخمسـة تـرسـة تعطـي شكـل صليب، ولازاورد، في كـل واحـد مـن الترسـة خمس قطـع نقـدية (بيزنت) مـوزعة ولها في وسطها فـراء، والجميع داخل ترس أحمر، تحيـط به سبع قلاع، وذهـب»، ولاشك أن هذه الشعارات لم تحمـل من قبله، لأنها شعـارات البرتغال التـي تعود إلى تـاريـخ متأخـر، ولعله حملهـم من دون إطار القلاع.

١٣ــغيوفري لى راتــ «لازاورد، وحصان مجنح واقف، وأبيض ــ فضي»، ومن المفترض أن هذه شعارات أسرة لى رات أوف تورين.

١٤ــ غارن دي مونتـاغيوــ «أحمر، وبرج مؤلف مـن ثلاث طبقات، وأبيض ــ فضي، وحجـارة فـرائيـة»، وكـانـت هـذه شعـارات أسرة دي مونتاغيـو ــ شامبي Champeix، وهي تتباين بشكل واضـح بالنسبة لمختلف فروع تلك الأسرة.

١٥ــ بـرتـرانـددي ثيسيــ «ذهـب ومستطيل معـدني في الـوسـط، وأحمر»، فهذه الشعـارات تعطي ببساطتهـا المتناهيـة الانطباع بأنها كـانـت أصيلة.

١٦ــ غـورينــ «فضي ــ أبيض ونسر بـرأسين بـاسـط جنـاحيـه، وفـراء»، ونحن لانعـرف شيئاً عـن أسرته، لابـل أكثر مـن هذا، لانعـرف حتى لقبه.

١٧ــ برترانـد دي كومــ «أحمر، ونسر باسـط جناحيه، وشطـرنجي، وفضي ــ أبيض، وفراء»، لاشك أن هذه شعـارات قديمة لأسرة دي كوم أوف دوفين وبـروفـانس، مع أن لى شينـي ــ دسبـويس Lachenaye-Desbois قال بـأن النسر: «شطرنجي أو وفـراء»، وعرض كتّـاب آخرون شعارات مختلفة.

١٨— بطرس دي فيلا بريد— «شطرنجي وفضي— أبيض، وأحمر، وفراء أبيض رئيسي»، وليس هناك من سبب للافتراض أن هذه الشعارات ليست أصيلة تماما، وتأصلت الأسرة في أوفرين.

١٩— وليم دي كاستلونوفو— «أحمر ، ثلاثة أبراج ذوات ثلاثة طوابق، أو حجارة فرائية». ولايوجد سبب للشك في هذه الشعارات، ولعله انتمى إلى أسرة ما من أسر شمالي فرنسا التي حملت اسم «كاستلونوفر— القلعة الجديدة» الذي كان دارجاً.

٢٠— هيوج رايفل— «ذهب، ونصف طائر، ولازاورد»، فهذه كانت شعارات أسرة رايفل أوف دوفين، التي بلا شك قد انتمى إليها.

٢١— نيقولا دي لورن— «فضي— أبيض ومستطيل معدني أحمر». لعله انتمى إلى الأسرة البروفنسالية التي حملت الاسم نفسه.

٢٢— جون دي فيلير— «ذهب، ثلاث شارات يشبه كل منها رقم ثمانية، ولازاورد». ولقد انتمى إلى أسرة دي فيلير في الـ «بو فايسيس» Beauvaisis.



الشعارات والرنوك المحموله لمقدمي الاسبتارية

الملحق هـ

قانون ريموند دوبري

هـذا هـو النظـام، أنـا ريمـونـد الخادم لفقير المسيح،ومـديـر مشفـى القدس، قـررت هذه الأحكـام والأنظمة في دار اسبتـارية القـدس،وذلك بمساعـدة ومشورة جميع أفراد الـرهبنة من كل مـن رجال الدين والـرهبان العلمانيين:

١ـــ كيـف ينبغي أن يمارس الـرهبـان وظيفتهـمـــأولا:إنني أقضي أن على جميع الـرهبـان العاملين في خـدمة الفقـراء وجـوب الحفاظ ــ بعـون الرب ــ على الـوعود الثلاثـة التي قطعوها للـرب،وهي:الاحسان،وإطـاعة كـل شيء يصـدر بـه الأمــر من مقـدميهـم،وأن يعيشـوا بــلا ممتلكـات شخصيـة،لأن الرب سـوف يطـالبهم يـوم الحسـاب الأخير بـالوفـاء بهذه الوعود الثلاثة.

٢ـــمـا الذي ينبغي على الـرهبـان الادعاء أنـه حقهمـــوعليهم عـدم الادعاء بأي شيء أنه حق لهم يتجـاوز: الخبز،والماء، وارتداء الملابس التي وعـدوا بها، ولتكن مـلابسهـم متـواضعـة،لأن مـولانـا الفقير،الـذي نحن أنفسنا نـؤمن أننا خـدمه،يسير عريـانا أومـرتدياً بشكل مـزري،وخطأ أن يكون الخادم متفاخراً ومولاه متواضعاً.

٣ـــ مــايتعلـق بسلـوك الــرهبــان،وخـدمـة الكنـائس واستقبــال المريضـــزيـادة على هـذا،لقـد تقـرر أن يكـون سلـوكهـم في الكنيسـة لطيفـاً،وحديثهم لائقـاً،أي أن يقوم رجـال الديـن بخدمـة الكاهن عنـد المذبح وهم في لبـاس أبيض،وذلك إذا كـان الكاهـن شماساً أو مسـاعد شماس،لكـن إذا اقتضت الحاجـة،يمكن لـرجـل آخـر أن يشغـل هـذا المنصب، ويتوجب وجود ضوء يحترق دومـاً في الكنيسةخلال النهار وأثناء

الليل،وعلى الكاهن المضي لزيارة المريض وهوبلباس أبيض،ويحمل باحترام جسد ربنا،وينبغي أن يسير أمامه الشماس أو مساعد الشماس، أو على الأقل قسيس،وهو يحمل بيده مصباح عليه شمعة تحترق،واسفنجة مع الماء المقدس.

٤—كيف ينبغي أن يذهب الرهبان الى الخارج،وكيف يوجهون أنفسهم—زد على ماتقدم،عندما يتوجب على الرهبان الدخول الى المدن أو القلاع، ينبغي ألا يذهب واحد لوحده بل كل اثنين وثلاثة،لكن ليس مع الذين يريدونهم،بل مع الذين يأمرهم المقدم بمصاحبتهم،وعندما يأتون الى المكان المقصود، عليهم البقاء معاً،وعليهم بالنسبة لثيابهم وحركاتهم عدم القيام بأي شيء قد يؤذي رؤيته أي إنسان، بل عليهم الالتزام بواجبهم المقدس، وزيادة على هذا، عندما يكونون في بيت أو في كنيسة أو أي مكان فيه نساء حضور، عليهم الحفاظ على لطفهم وعدم السماح لأي امرأة بغسل رؤوسهم أو أقدامهم، أوترتيب فرشهم، وليحفظهم الرب الذي يقيم في عليين ويبقى حارساً عليهم .آمين.

٥— من الذي يطلب المساعدات وكيف ينبغي أن يفعل ذلك— أيضاً يتوجب على الأشخاص الدينيين من كل من الكهنة والرهبان العاديين الخروج لالتماس المساعدات للفقير المقدس، وعندما يجدون أنفسهم أنهم بحاجة إلى الضيافة، عليهم الذهاب إلى الكنيسة، أو إلى انسان لائق، وهنا عليهم طلب الطعام لأنفسهم من باب الاحسان، ولاينبغي لهم شراء أي شيء آخر، وفي الحقيقة إذا لم يجدو من يساعدهم مطلقاً، عليهم شراء ما يساوي وجبة واحدة فقط، من أجل الحفاظ على حياتهم.

٦— ما يختص بالمساعدات المجموعة واستخداماتها في مقرات الرهبان— يتوجب عليهم أيضاً عدم الحصول على أرض أو ضمان من المساعدات المجموعة، بل عليهم تسليم هذه المساعدات إلى المقدم، مع

حساب مكتوب، وأيضاً ينبغي على المقدم إرسال المساعدات وتحويلها إلى المشفى القائم تحت ادارته، وذلك من أجل الاستخدام من قبل الفقير، وعلى المقدم تسلم ثلث الهبات من الخبز والخمرة، وجميع الأطعمة، وإذا ما بقي شيء ما وفاض، عليه إضافته إلى المعونات وارساله إلى القدس، تحت اشرافه، كي يستخدم من قبل الفقير.

٧— من الذي عليه الذهاب إلى الخارج للتبشير وبأية طريقة—ولايجوز لأي واحد من الرهبان، تحت طاعة من كان، المضي للتبشير أو بجمع المعونات، ماعدا فقط الذين يرسلهم الكهنة ورئيس الكنيسة، وعلى الرهبان الذين جرى اختيارهم للذهاب من أجل جمع المعونات، الدخول في طاعة أية قيادة سيصلون إليها، ويتوجب عليهم قبول الطعام نفسه، الذي يتولى الرهبان توزيعه بين أنفسهم، وعليهم عدم اثارة أي اضطراب هناك، وعليهم حمل مصباح معهم، وعليهم اشعال المصباح أمامهم في أي بيت استضيفوا به لإمضاء الليل فيه.

٨— ما يتعلق بثياب الرهبان وبطعامهم— وزيادة على ما تقدم نحرم على الرهبان أن يقوموا في أي وقت من الأوقات بارتداء ملابس ذات ألوان براقة، والمخمل، وعدم ارتداء فراء الحيوانات في ظل أي ظروف، وعليهم أن لايأكلوا أكثر من مرتين في النهار، ويتوجب عليهم عدم أكل اللحوم في اليوم الرابع من الاسبوع وفي يوم السبت، ومنذ الأحد الثالث قبل الصوم حتى يوم عيد الفصح، وذلك باستثناء غير المتوازنين والضعفاء، وينبغي عليهم عدم التمدد وهم عراة، بل أن يكونوا لابسين قمصانا من الصوف أومن الكتان أو مايشابه ذلك من الملابس.

٩— ما يتعلق باقتراف الرهبان للزنا— وإذا حدث واقترف واحد من الرهبان ما ينبغي عدم حدوثه، أي اقترف الزنا بقوة إغراء الشيطان، فإذا حدث وأذنب بشكل سري، عليه أن يفرض على نفسه توبة مناسبة، وأن يتوب بشكل سري، لكن إذا ما بات هذا معروفاً تمام المعرفة وتبرهنت

صحته بـدون شك، عندها يتـوجب عليه، أن يقـوم في البلدة التي اقترف فيها الذنب في يـوم الرب بعد القداس، وبعد ما يكـون الناس قد غادروا الكنيسة، بالتعـري أمام الجميع، وينبغي أن يجلد من قبل رئيسـه الديني، وهذا إذا ما كان هو راهبا دينيا، لكنـه إذا ما كان مدنيا فهنا ينبغي جلده وضربـه بشدة متنـاهية بـوساطـة أسـواط أو عصي وذلك من قبل رجـال الديـن أو من قبل من يفـوضه رجـال الديـن، وينبغي أن يطرد تمامـا من رهبانيتنـا، وعلى كل حـال إذا حدث فيها بعـد وهداه الـرب، وأراد العودة إلى بيت الفقـراء، وقرر الاعتراف شخصيـاً بأنـه كان مـذنباً آثماً، ومخالفاً لشريعة الرب، ووعـد بالتوبة، ينبغي تقبلـه، وفرض عقوبة منـاسبة عليه، ويتوجب أن يعامل لمدة سنـة بمثابة غريب، وعلى الرهبـان مراقبته خلال هذا الوقت وتقرير هل سلوكه مرضٍ أم لا، وعليهم بعد هذا أن يفعلوا ما هو أفضل بالنسبة لهم.

١٠ــ ما يتعلق بـالشجار بين الرهبان وضرب أحدهـم للآخرــ وإذا ما اختلف راهب مع راهب آخـر، ولاحظ المشرف على البيت الاضطراب، ليكن مايلي: العقوبة التي يفرضها على المذنب: عليه أن يصوم لمدة سبعة أيام، وأن يكون صيـامه في اليومين الرابـع والسادس على الخبز والماء، وأن يأكـل على الأرض من دون منضـدة أومنديل، وإذا كـان قـد وجه ضربـة عليه أن يصوم لمدة أربعين يـوماً، وإذا ما تغيب عن مقرّ الـرهبنة، أو عن المقـدم المسؤول عنـه بدون تـرخيص، ثم عـاد بعد ذلـك، يتوجب عليـه تناول طعـامه على الأرض لمدة أربعين يومـاً، وأن يصوم في اليومين الـرابع والسادس من الاسبوع على الخبز والماء، وينبغي معـاملته بمثابة غريب بما يسـاوي المدة التي تغيبها، مـا لم تكن المدة طـويلة جـداً، ورأى المجلس الديني للرهبنة أنه من المناسب تعديل المدة.

١١ــ ما يتعلـق بصمت الرهبـانــ زيادة على مـا تقدم ينبغـي أثناء الجلـوس إلى المائدة الالتزام بما قـاله الـرسول: على كـل واحد أكل خبـزه

بصمت (انظر رسالة بولص إلى سالونيك: ٢/ ٣/ ١٢)، وعليه بعد الفراغ عدم شرب شيء باستثناء الماء الخالص، وفي الفراش يتوجب على الرهبان الالتزام بالصمت.

١٢— ما يتعلق بالسلوك غير المرضي للرهبان— وإذا ما كان سلوك أي واحد من الرهبان ليس مرضياً، ينبغي تقويمه وتقريعه ثلاث مرات من قبل المقدم أو من قبل الرهبان الآخرين، وإذا ما رفض تقويم سبله بناء على تحريض له من الشيطان، ينبغي إرساله إلينا ماشياً على قدميه مع تقرير مكتوب حول ما اقترفه، ومع هذا ينبغي أن يعطى القليل من الزاد يكفيه حتى يصل إلينا، ونحن سوف نتولى تقويمه، ولايجوز ضرب الخدم المرتبطين به، بل على مقدم الرهبنة والرهبان انزال العقوبة به أمام الجميع، وذلك من أجل الحفاظ على العدل والعدالة في الرهبنة دوماً.

١٣— ما يتعلق بالرهبان الذين عثر معهم على ممتلكات خاصة— وإذا ما تولى واحد من الرهبان توزيع ممتلكاته الشخصية عند موته، التي لم يفصح عنها لمقدمه أثناء حياته، ينبغي عدم قيام أية جهة دينية بأية اجراءات نحوه، بل يتوجب دفنه بمثابة رجل محروم كنسيا، وإذا ما اكتشف وهو حي أنه يمتلك ممتلكات شخصية ، وأنه قد أخفاها عن مقدمه، لكنها اكتشفت فيما بعد معه، ينبغي لف المال حول رقبته، ثم يجر عاريا خلال مشفى القدس، أو خلال أحد البيوت الأخرى حيث مكان سكناه، وهنا ينبغي أيضاً أن يضرب من قبل رجل دين إذا كان هو من رجال الدين، لكنه إذا كان علمانيا فليضرب من قبل واحد آخر من الرهبان وعليه بعد هذا أن يصوم لمدة أربعين يوماً، وأن يكون صومه في اليومين الرابع والسادس على الخبز والماء.

١٤— ما يتعلق بالقداسات التي ينبغي أن تقام للرهبان الموتى— زيادة على ما تقدم، بما أنه من الضروري بالنسبة لنا إقامة نظام لكم، إننا نرسم، ومع رسمنا نأمر أن كل من ينتقل من هذه الحياة الجسدية، تحت

إمرة مـن كان، ينبغي انشاد قـداس لراحـة روحه لمدة ثلاثين يـوماً، وعلى كل واحد من الـرهبان أن يقدم في القداس الأول تقدمـة هي شمعة مع قطعة مـن المال، وينبغي إعطاء ذلـك المال إلى الفقراء، مهما كـان مقداره كبيراً، وللكاهن الذي أنشد القداس، إذا لم يك منتمياً إلى البيت، ويعطى أيضاً مـا ينفقه على نفسه خـلال تلك الأيام، وعنـدما يكمل القـداسات على المقدم القيام بتكريمه، وينبغي إعطـاء جميع ثياب الراهب المتوفى إلى الفقراء، وعلى الرهبان الـذين هم كهنة، عندما يقومون بـانشاد القداسات مـن أجل راحـة الميـت، أن يقـدمـوا بعـض الصلـوات إلى الـرب يسـوع المسيح، ويتـوجب أيضاً على كل واحـد من رجال الـدين إنشاد مـزمور، وعلى كل واحـد من العلمانيين أن يقـوم بمائة وخمسين صلاة للـرب، وفيما يتعلق بجميع الذنوب الأخرى والأعمال والشكـاوى يتوجب البت فيها في المجلس الديني، ومن ثم التفوه بالحكم العادل.

١٥— كيف يتـوجب الحفاظ بدقـة على الأحكام التي وضعـت هنا— وبالنسبة إلى جميع هـذه الأشياء التي كتبناها أعلاه ، باسـم الرب القدير، ومريم المبـاركة، ويوحنـا المبارك، والفقراء، نأمـر بالحفاظ عليهـا، بأعظم قدر من الحرص، وبكل احترام.

١٦— كيف ينبغي استقبال ساداتنـا المرضى، وكيفية خدمتهم— وفي تلك الطاعة وحيث يسمح مقدم الاسبتـارية، يتوجب عند استقبال رجل مريـض، أن يستقبل وفق مـا يلي: عليه أولاً أن يعترف بذنـوبه إلى كـاهن الرهبنـة، ثم عليه أن يشارك في قـداس عام، ثم ينبغي حمله بعـد هذا إلى الفـراش، ويتوجـب أن يتلقى هنـاك، — وكأنـه السيد— أفضـل رعايـة حسنـة كل يوم على نحـو أحسن مـا تستطيع الـرهبنة تقـديمـه، وقبل أن ينهي الرهبان صـومهم، وفي كل يوم هو للرب يتوجب انشـاد مقاطع من الانجيل ومـن رسـائل الرسـل، في بيت الـرهبنـة، وفي أثنـاء اجـراء ذلك يتوجب رش الماء المقـدس، وزيادة على ما تقـدم إذا ما كان هنـاك واحد

من الرهبان ممن بيده عدة مسؤوليات في مختلف البلدان، وقام بإعطاء أي شخص من المدنيين مال الفقراء من أجل أن تزداد قوته ليمتلك السلطة ضد مقدمه واخوانه الرهبان هنا، ينبغي طرده من الهيئة العامة للرهبنة.

١٧— في أي طريقة يمكن للرهبان تقويم الرهبان— وإذا كان إثنان من الرهبان أو أكثر يعيشون معا، وقام واحد منهم بسلوك مسلك فاجر، وبالحياة حياة شريرة، ينبغي على الراهب الآخر عدم التشهير به لا أمام الناس ولا أمام الراهب الأول، بل عليه تقويمه بنفسه، وإذا لم يسمح له بتقويمه عليه استدعاء اثنين أو ثلاثة آخرين لمساعدته على تقويمه، وإذا لم يقوم سبله ويصلحها، عليه استخدام التهديد ضده، لكن إذا وجده على غير استعداد لتقويم سلوكه، هنا على المقدم أن يكتب ذنوبه ويدونها، ثم ليرسلها بشكل سري إلى المقدم، ومن ثم ينبغي أن يعامل وفقاً لأوامر المقدم.

١٨— كيف ينبغي لراهب اتهام راهب آخر— وينبغي أن لايقوم أي واحد من الرهبان باتهام رجل آخر من الرهبان ما لم يكن قادراً على البرهنة على صحة التهمة، وإذا ما فعل ذلك (بدون برهان) سيكون بذلك راهباً غير صحيح، وعليه هنا أن ينال العقوبة نفسها التي كان سينالها المتهم، لو أنه كان قادراً على البرهنة على صحة تهمته.

١٩— حول وجوب حمل جميع الرهبان شارة الصليب على صدورهم— وزيادة على جميع ما سلف يتوجب على جميع الرهبان في جميع المراكز، من الذين وهبوا أنفسهم للرب وإلى مشفى القدس المقدس، أن يحملوا صلباناً تشريفاً للرب وللصليب المقدس، يضعوها على صدر كل واحد منهم فوق ثيابه وفوق الرداء تكون سواء، وذلك من أجل أن يتولى الرب حمايتنا من خلال مظهر هذه الشارة، ومن خلال الايمان، والأعمال والطاعة، وأن يحمينا من قوة الشيطان في هذا العالم وفي العالم المقبل، في الروح والجسد، مع جميع المحسنين إلينا من مسيحيينا. آمين.

— ٤ —

وصف الأرض المقدسة

تأليف

جون أوف وورزبيرغ

(١١٦٠ — ١١٧٠)

استهلال

إلى

وصف جون أوف وورزبيرغ للأرض المقدسة

إنه بالنسبة للقول: من هو وورزبيرغ Wurzburg ما من شيء مؤكد معروف حوله، باستثناء ما يخبرنا هو نفسه به، من أنه كان كاهنا في الكنيسة في وورزبيرغ، ولقد كتب على الصفحة الأولى من مخطوط تيغرنسي Tegernsee بخط مخالف لخط المخطوط: « يعود هذا الكتاب إلى دير القديس قورينوس Quirinus في تيغرنسي، وهو يحتوي على وصف الأرض المقدسة، وخاصة مدينة القدس، من قبل السيد جون أسقف وورزبيرغ»، وكتب على غطاء الكتاب إلى جانب ثبت محتوياته الكلمات التالية:« تأليف جون أسقف وورزبيرغ» لكن في عودة إلى سجل أساقفة وورزبيرغ كان من غير الممكن الحصول على اسم جون، هذا من جانب ومن جانب آخر نعلم أن واحداً اسمه ثيودورك كان أسقفاً لـوورزبيرغ،وفي لائحة أسماء أساقفة الكنيسة الكاتدرائية لوورزبيرغ، الموجود في المكتبة الوطنية في ميونيخ، نجد أن ثيودورك قد جرى تعيينه أسقفاً في سنة ١٢٢٣، وأنه شغل منصبه لمدة سنة واحدة وشهرين وأربعة عشر يوماً، فهو قد توفي سنة ١٢٢٤ (تبعا لبوتهاست Potthas : في شباط ١٢٢٥)، في أيام حكم فردريك الثاني، وعلى هذا يبدو من المحتمل كثيراً أن ديتررخ Dietrich الذي إليه وجه صاحبنا جون خطاب إهدائه هو ثيودورك نفسه. وعلى افتراض أنه قام برحلة حجة إلى الأرض المقدسة عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره، لقد كان في السادسة والسبعين من عمره عندما اختير أسقفاً، وهذا محتمل الوقوع كثيراً، وأبعد من هذا ما من شيء مؤكد معروف عن جون أوف وورزبيرغ.

وبالنسبة للتاريخ الذي تمت فيه رحلة حجة، نعلم من ج.أ. فبريكوس في كتابه «مكتبة العصور الوسطى اللاتينية: ٤/ ١٧٠» أن جون قد كتب كتابه ليس بعد مدة طويلة عن سنة ١٢٠٠، وذهب برنارد بيز Pez في كتابه «الكنوز» (١/ ٨٧) إلى أنه لابد أن جون أوف وورزبيرغ قد شرع بكتابة ما رآه في القرن الثالث عشر، لكن فحصاً دقيقاً لأوصافه لايدع أي مكان للشك في أن زيارته للقدس قد تمت في أثناء وجود المملكة الفرنجية فيها، ويبدو من المحتمل من خلال مقارنة الكاتبين، أن جون أوف وورزبيرغ قد زار كنيسة الضريح المقدس قبل ترميمها، وأن ثيودورك فعل ذلك أثناء الترميم، حيث نقرأ في الفصل الثاني العشر من رحلتنا الحالية أن قبة بيعة الضريح المقدس كانت فضية اللون، وأنه تبعا لهذا كتبت الترنيمة الجماعية «قام المسيح» حول قبة البيعة بأحرف فضية، هذا من نحو، ونعلم من نحو آخر من خلال فوقاس (الفصل: ٢١) أن الامبراطور البيزنطي مانويل كومينوس قد غطى الضريح المقدس باللون الذهبي، ويقول ثيودورك (الفصل:٥) بأنه قرأ الترنيمة وهي مكتوبة بأحرف ذهبية، ويجعلنا هذا نحاجج بأن ثيودورك لابد وقد رأى الكنيسة بعدما فعل ذلك جون، ولربما كان جون في القدس فيما بين سنة ١١٦٠ وسنة ١١٧٠، ومن المؤكد أنه كان موجوداً في يوم عيد القديس جيمس (٢٥— تموز)، وأثناء الاحتفال بيوم القديسة آن (حنة) (الفصل: ٢٦).

وكان الحاج رساماً ألمانيا متحمساً بحرارة، وذلك حسبما يظهر من ملاحظاته في الفصل الثالث عشر، وهي الملاحظات التي أزعجت الكاتب الفرنسي فيرير Verrier، ودعا برنارد بيز دفاعه عن الصليبين الألمان «بالصفحة النبيلة، وهي صفحة هي الأكثر تشريفاً لأمتنا، حيث قدم جون براهين كثيرة، أنه من العدل أن يعزى إلى الألمان استرداد الأرض المقدسة، وليس إلى الفرنجة وحدهم».

أما بالنسبة لمحتويات كتابه، فصحيح أن إ. روبنسون (أبحاث توراتية: ٢/ ٥٣٨، بوستن ١٨٥٦) قد قال: «للرحلة قيمة قليلة» لكن هذا حكم متسرع جداً، قد صدر من دون قراءة ما جاء فيها ووزنه بشكل ناضج ودقيق، ذلك أن وصفه للكنائس في القرن الثاني عشر له فائدة كبيرة، ولائحته بالنقوش المكتوبة ليست أقل قيمة، ومن الممكن تقديم وصفه لهيكل الرب وكنيسة الضريح المقدس بمثابة مثال، وذلك مع إيلاء الجغرافيا الاهتمام أيضاً، وبناء عليه نمنح كتيبه مكانة عالية.

ونعلم من استهلال المؤلف أن الوصف المقدم هنا ليس كل ما شاهده الحاج المؤلف شخصياً، لكن بعضه كان هو شاهد عيان له، وقد استعار بعضه الآخر من آخرين، ولعل ذلك كان من وصف تاريخي وجغرافي للأرض المقدسة وللمناطق المجاورة كان متوفراً آنذاك في كتاب كان رائجاً، ومنه كما يبدو استقى معظم كتّاب تلك الآونة رواياتهم، ويمكننا أن نفترض أن جون نزل في عكا، ثم ركب الطريق المعتاد للحجاج، وأنه زار شخصيا الناصرة (الفصل الأول) ثم ذهب من هناك عبر جينين ونابلس إلى القدس، ويعني هذا أنه زار أيضاً بيت لحم، وعاد إلى وطنه عبر يافا، وهكذا قدم جون نفسه بمثابة شاهد عيان، وأنه تولى وصف الذي رآه بنفسه، وأكثر من ذلك أكد كلامه عما رآه بشكل دقيق، ولقد قال في رسالة التكريس في مستهل كتابه أنه كان ينوي أن يكتب حول الذي هو موجود في داخل القدس، وليس بعيداً عن أسوارها، لكن ليس حول الأماكن البعيدة، وهنا لايجوز أن نفهم العبارة بشكل حرفي، لأنه ذهب إلى القول في الفصل الأول نفسه بأنه ينوي أن يقدم وصفاً مختصراً فقط للناصرة وللأماكن القائمة بينها وبين القدس، وينبغي ألا ننسى هنا أنه على الرغم من وجود الحكومة الفرنجية، كانت مناطق كثيرة غير آمنة، وكان على الحاج أن يرضي نفسه بزيارة أماكن قليلة، وكانت هذه الأماكن بالنسبة للأتقياء هي الأكثر أهمية، ونستخلص من هذا كله أن

وصفـه للكثير من الأمـاكن يعـوزه الاشراق والجدة والحداثة التـي يأتي بها شاهد العيان، لابل أكثر من هـذا نجد في كثير من الأوصاف لأماكن قد زارها كـاهننا وورزبيرغ أنـه نسخ بشكل مصطنع أوصـافها عن آخـرين، مثلما يفعل في أيـامنـا حب النسـخ حيث حـرك عـدداً كبيراً من الأقـلام للعمل، وعلى كـل حـال سواء أدعينـا هـذه أعمال نسخ، أو مشـاهـدات حاج، نجـد أنها إذا كانـت قد صنعت بلطـف ومرونـة وليس بشكل آلي، تمتلك العـذر، لا بل تستحق التشجيع، لأن الحقـائق التاريخيـة للعصور القديمة لا يمكن اختراعها .

ولغة المؤلـف لغة لاتينية عـادية للعصور الـوسطى، لكنها أقـل صقلاً من لغة ثيـودورك، وكثير من أوصافه واضحة ومميزة، وبقـدر ما يمكن أن يكتبه رجل متعلـم، ومن غير الممكن اضفاء الكثير من المدح على تـرتيبه لمواده، لأن هذا الترتيب متـداخل ومشوش جداً، وقـد صنع عدة ايماءات إلى الأختام السبعـة لرؤيا القـديس يوحنا، وقـد جرى حذف هـذا كله في هذه الطبعة .

- ٢٢٤٥ -

رسالة تكريس

يتمنى جون الذي هو الآن بنعمة الرب في كنيسة وورزبيرغ : الصحة، ورؤية القدس السماوية لأصدقائه المحبوبين ولتابعه ديترخ الذي نصيبه في ذلك هو نفسه .

إن معلوماتي عن أوضاعكم المعنوية، مشابهة تماما للمعلومات عن الرجال الجيدين، وكذلك بشأن حماستكم العظيمة لخدمة الرب وإطاعته، وذلك إلى جانب الروابط المتعلقة بالشؤون المنزلية، وحثني هذا بوساطة الحب لتنفيذ رغباتكم ـ التي أفترض أنها دوما من جانبكم عادلة ولطيفة ـ وما من رغبة من رغباتكم، تحتاج إلى جهودي لانجازها، وهي بقدر ما يمكن لطاقتي الوصول إليه، سوف لن تتحقق بشكل كامل ومرض، ولهذا السبب، إنني عندما ذهبت للحج إلى القدس من أجل حب ربنا يسوع المسيح، مع هذا إنني لم أنسكم أنتم الذين كنتم غياب، ومن خلال عواطفي نحوكم توليت وصف الأماكن المبجلة، التي قدسها ربنا، منقذ العالم بحضوره الجسدي، مع أمه مريم الرائعة، العذراء دوماً، وعساكره المحترمين من الحواريين، وأكثر بشكل خاص مدينة القدس المقدسة، وسيكون وصفي واضحاً ودقيقاً بقدر ما أستطيع، وأيضاً بذلت جهدي بوساطة قلمي لأن أقوم بجمع النقوش الكتابية الموجودة هناك، سواء ما كان مكتوباً منها نثراً أو شعراً.

وأعتقد أن هذا الوصف سوف يكون مقبولاً لديكم، للسبب التالي، وهو أن كل واحد من هذه الأماكن سيكون معروفاً لديكم من خلال هذا الوصف، حتى إذا حدث وذهبتم إلى هناك بقدر رباني وحماية سماوية، سوف تقدم هذه الأماكن نفسها إلى أعينكم بشكل طبيعي، ولسوف تجدونهم بدون تأخير أو صعوبة، بمثابة أماكن معروفة تماماً، أو

إذا حدث ولم تذهبوا إلى هناك ولم تروهم بأعينكم مباشرة، مع هذا يمكنكم بمثل هذه المعرفة تخيلهم والحصول على المزيد من الشعور الديني بقداستهم، وأنا أعرف تمام المعرفة، أنه قبل الزمن الحالي قد وصفت هذه الأماكن كتابة من قبل رجل محترم (لعله أركولف أوبيد)، وشمل الوصف ليس فقط هذه الأماكن نفسها الموجودة في القدس، لابل حتى الأماكن الواقعة على مسافة كبيرة منها، ومهما يكن الحال، بما أن المدينة غالباً ما تمّ الاستيلاء عليها وتهديمها من قبل الأعداء، خلال المدة الطويلة التي مرت منذ ذلك الحين،نجد أن هذه الأماكن المقدسة نفسها، التي نقدرها كثيراً، مما هو موجود داخل أسوارالمدينة، أو مما هو موجود على مسافة وجيزة خارجها، قد تعرض للهدم، وربما لتغيير الشكل فيما بعد، ولهذا السبب إن عنايتنا الدينية نحو مواقعها، التي تولينا وصفها كشهود عيان، ينبغي أن لايظن أنها من نافلة القول أو غير ضرورية، وعلى كل حال إنه فيما يتعلق بالأماكن القائمة بعيدا في المناطق المجاورة، لم نكلف أنفسنا بالكلام عنها، لمعرفتنا أنها قد وصفت بما فيه الكفاية من قبل آخرين.

وصف جون أوف وورزبيرغ للأرض المقدسة

الفصل الأول

إنه الآن بما أن انقاذنا قد بدأ في مدينة الناصرة، من خلال تجسيد ربنا، فهناك تم الاعلان بوساطة الملاك، لذلك نقترح أن يبدأ الوصف مع هذه المدينة نفسها، التي تقع على نحو ستين ميلاً عن القدس، وأن نمر بسرعة وباختصار بالأماكن القائمة بينها وبين المدينة المقدسة، على أننا نعلم بأن آخرين قد كتبوا أكثر حولهم.

ومدينة الناصرة التي تبعد عشرة أميال عن طبرية هي البلدة الرئيسية في الجليل، وقد تدعى « مدينة المخلّص»، لأن الحمل به جرى فيها،

وفيها أيضاً نشأ، ولهذا دعي بـالناصري(١)، ويفسر بعضهم كلمة الناصره بأن معنـاها هو «الـزهرة» أو «النبتة»، وهـي حقاً جديـرة بهذا الاسـم، لأن هناك نمت الزهرة التي فاح شذاها فملأ العالم أجمع، والزهرة هي العذراء مريـم، التي أعلن إليهـا هناك رئيس الملائكـة جبرائيل أنها سـوف تحمل بابـن العلي الأعلى حيث قال لها: «سـلام لك يـامريم»الـخ، وقد أجـابته بقولها : «هو ذا أنا أمة الـرب». (لوقا: ١/ ٢٨—٣٨)، وعن الناصرة قيل: « هل يمكن لشيء جيـد أن يأتي من الناصرة»؟، ويجري في النـاصرة النبع الصغير الذي اعتاد يسوع في طفولته أن ينضح منه الماء، ويأخذه إلى أمه.

وعلى ميل مـن النـاصرة بـاتجاه الجنوب يـوجـد المكـان الـذي يـدعى «الجرف»، ففي أسفلـه وقف الذين رغبـوا في رميه نحو الأسفـل، لكنه في لحظة اختفى عنهـم، وفي هذا اليوم يدعى هذا المكان باسم «قفزة الرب».

والمدينة الثانية التي تبعد عن الناصرة مقـدار ميل هي مدينة صفورية، وهي قائمـة على الطريق الذي يقـود إلى عكا، وقد جاءت حنـة أم مريم، التي هي أم ربنا، من صفـورية، وقد قيل أيضاً بأن العذراء المبـاركة مريم قد ولدت في صفـورية، لكن تبعاً لجيروم، حسبما يخبرنا في تـوطئة الكتاب حـول ميلاد مـريم المبـاركـة، الموجه إلى هيليـودوروس Heliodorus :

١— ينبغي أن نميز هنـا بين كلمة «ناصري» و«نصراني»، فالنسبة إلى النـاصرة «ناصري» لكن ليس نصراني، هذا ويعتقـد بعضهم بأن التسمية الأخيرة. قـد استخدمت للمرة الأولى في أنطـاكية من قبل بولـص الرسول، لأنها الاسم المناسب للعقيـدة الجديدة المزيجة بالغنوصيـة، وذلك استناداً إلى إللغة السريانية ووثـائقها التي تعود إلى تلك الآونة، وأحدث من هـذا مارآه بعضهم أن النسبة هي إلى نوع من السمـك يصاد في خليج العقبة يحمل اسم نصراني، ويمضي هـؤلاء إلى القول بأن مسرح احداث الانجيل المبكـرةهي شواطىء العقبـة، لأن مدينة النـاصرة لم تكن موجـودة آنذاك، وتبقى هناك مشكلة تحتـاج إلى حل، هي أن صابئة العراق يسمون أنفسهم نصـارى، ويقولون إن نبيهم هو يوحنا المعمدان، أي النبي يحيى عليه السلام.

قـد روي بأنها ولـدت في مـدينـةالنـاصرة نفسها، وفي الغـرفـة نفسهـا تحدثت فيها بعـد وهـي طفلـة مع الملاك، وهـذا مـا يـزال يـرى في بعض الأماكن الخاصة، وذلك حسبما رأيت أنا ولاحظت.

وعلى بعـد أربعـة أميـال من النـاصرة، وميلين عـن صفـوريـة، بـاتجاه الشرق، تقوم قـانا الجليـل التي جاء منهـا فيليب ونـاثائيل، وحيـث كان المسيح الطفل وقـت جلوسـه مع أمه أثنـاء حفلة عـرس، فحول الماء إلى خمرة. وعلى مسـافة أربعـة أميـال من النـاصرة، بإتجاه الشرق، يقـوم جبل الطـور، حيـث تحول يسـوع بحضـور حـوارييـه، ونـذكـر منهـم: بطـرس وجيمس، ويـوحنا، وكـذلك مـوسى واليـاس، ويحتفل بعيد ذلـك بشكل مهيب في القدس وذلك في يوم عيـد القديس سكستوس Sixtus (٦— آب)، ولاسيما مـن قبل السريـان، لأن هنـاك سمـع صـوت الآب يقـول: «هـذا هو ابني الحبيـب» الخ. (متى: ١٧/ ٥)، وقـدمنع بطـرس ويوحنـا وجيمس من إخبـار أي إنسان بما رآه، وذلك حتى يقوم ابـن الانسان من الموت، وهنـا قال بطـرس: « يـارب جيد أن نكـون هنـا» (متى: ١٧/ ٤) الخ. وعلى مسافة ميلين من الطور، بـإتجاه الشرق يقوم جبل حرمون، وعلى الطـريق عند سفـح حرمـون، التقى ابراهيـم وهو عـائد من قتل أمـالك بالمولى ملكيصادق، الذي كان هو نفسه سـام بن نوح، وكاهن سالم، وهو الذي منحه خبزاً وخمرة، وهو نمط مذبح المسيح تحت النعمة.

وعلى ميلين من الطور مدينة «نعين» التي رد يسـوع عند بابها إلى الحياة ابن الأرملـة، الذي يسميه السكـان المحليون باسـم بارثلميو، وهـو الذي أصبح فيها بعد حواريا، وفـوق نعين جبل عين دور (جبل الدحي)، الذي عند سفحـه، إلى جانب نهر كـادوميم Cadumim، والذي يـدعى أيضاً باسم نهر قيشـون، غلب باروخ بن عمـون الأدوميين، وذلك بناء على رأي النبيـة دبـوره، وذلك عنـدمـا قتل سيسرا مـن قبل يـاعيل زوجـة حـابـر القينـي، وطـارد بـاروخ ذئب، وزبـح، وصلمنـاع عبر الأردن وقتلهـم

بالسيف، ودمر جيشهم تحت جبل عين دور وقربه (القضاة: ٤؛ ٧/ ٢٥؛ ٨/ ١٢)، وهكذا جاء في المزامير: «الطور وحرمون باسمك يهتفان» (المزامير: ٨٩/ ١٢)،الخ، وعلى مسافة ستة أميال من الناصرة وخمسة أميال من نعين تقوم مدينة يزرعيل التي تعرف أيضاً باسم زرعين، وهي التي تعرف الآن بشكل عام باسم «جنين الصغرى» ومن هذه المدينة كانت ايزابل، الملكة الأكثر شراً، التي انتزعت من نابوت اليزرعيلي كرمه، وهي التي لجشعها رميت نحو الأسفل من أعلى قصرها وقتلت، ومازال جبلها (هرمها) يُرى حتى هذا اليوم، وعلى مقربة من يزرعيل سهل مرج ابن عامر، الذي فيه غُلب أوزياس Ozias وقتل من قبل ملك السامرة، ثم حمل فيما بعد إلى صهيون ودفن هناك.

وعلى مسافة ميل من يزرعيل يقوم جبل جلبوع (فقوعه) الذي تحارب عليه شاؤول ويوناثان، ولهذا قال داود: « ياجبال جلبوع لايكن طل ولامطر عليكن» (صموئيل: ٢/ ١/ ٢١) الخ. وعلى مسافة ميلين من جلبوع باتجاه الشرق تقوم مدينة بيسان، وهي المدينة الرئيسية في الجليل، وهي تعرف أيضاً باسم بيت شان (بيت الثعبان) أي بيت أو مدينة الشمس، فعلى أسوارها علقوا رأس شاؤول، وعلى خمسة أميال من يزرعيل تقوم مدينة «جينين»، التي تدعى الآن الكبرى أو جينين الأكبر.

الفصل الثاني

ومع مدينة جينين تبدأ منطقة السامرة، ويمتد بينها وبين سبسطية سهل يدعونه باسم دوثان، ففي هذا السهل هناك إلى جانب الطريق الصهريج القديم الذي وضع فيه يوسف من قبل أخوته، وعلى بعد عشرة أميال من جينين تقوم مدينة السامرة التي تدعى أيضاً باسم سبسطية، وأوغسطة نسبة إلى أوغسطس، وفيها دفن رائد الرب، يوحنا المعمدان، الذي قتل صبراً من قبل هيرود، فيما وراء الأردن، وذلك على مقربة من البحر الميت في قلعة مكور، لكن جسده حمل من قبل حوارييه

وجلب إلى سبسطيـة، ودفن فيها بين إليجيا وعـوبيديـا، وأخذ جسـده فيها بعـد من هناك مـن قبل يوليـان المرتد، حيـث يقال بأنـه قد أحـرق، وذر رماده في الـريح، لكن ذلك كـان بدون الـرأس، حيث كان قـد حمل قبل ذلك إلى الاسكنـدريـة، ومـن هناك إلى القسطنطينيـة، وأخيراً إلى فـرنسـا حيث دفن في مقاطعة بواتو، وذلـك من دون اصبع السبابة التي أشار بها إلى يسوع ليأتي حتى يعمـد، قائلاً: «انظروا حمل الرب»الـخ، وأخذت هذه السبابة وحملت من قبل العذراء المبـاركة تقلا، إلى جبال الألب، وحفظت هنـاك وسط كثير من الاحترام في كنيسـة (القديـس يوحنـا دي) مـورين Maurienne. ويطلـق اسم الســامـرة ليس على المدينــة فقط بـل على المنطقة أيضاً.

وعلى مسافة أربعة أميـال من السامرة تقوم مدينة نـابلس، التي تدعى أيضـاً باسـم شكيم، وهي قـائمة فيها بين دان وبيـت إيل، وحملت هـذه البـلاد اسم شكيم نسبـة إلى شكيم الـذي كان والـده حمور، وشكيم هـو الذي اغتصب دينـه، عندما كـانت تتمشى في بريتـه. وإلى شكيم جلبت عظـام يوسف مـن مصر، وفي شكيم، وقرب النبـع صنع يربعـام العجلين من الـذهب، ومثلـه مثل هـرون جعلهما يعبـدان من قبل عشرة أسبـاط تمكن من إغوائها، واقتـادها معه، مبعداً إياها عـن القدس، وأقام واحداً من هـذين العجلين في دان، ووضع الآخـر في بيت إيل، وقـد دمر أبنـاء يعقـوب مدينـة شكيم هـذه، وقتلوا حمور، لأنهم قـد غضبـوا كثيراً بسبب مضاجعـة أختهم دينة،، وتدعى شكيـم في هذه الأيام باسـم نابلس، أي المدينـة الجديدة، وتقـع العسكر أمـام شكيم (إلى الشرق)، قـرب الحقل الذي أعطـاه يعقوب إلى ابنـه، وفيه يوجـد بئر يعقـوب، وهو أيضـاً البئر، الذي حكي لنا في الإنجيل بـأن الرب يسوع قد جلس فوقه، عنـدما كان متعباً من السفـر، وتحدث إلى امرأة سامـرية، وقد بني الآن في هـذا المكان كنيسة، وعلى مقـربة من شكيـم توجد البطمـة التي أخفى يعقـوب تحتها

الأصنام في بيت إيل، وعلى مسافة ميل واحد عن شكيم تقوم مدينة لوز (خربة لوزه)، ففيها عاش إبراهيم لمدة طويلة، وهناك أيضاً رأى يعقوب في المنام السلم الذي يصل رأسه إلى السماء، والملائكة ينزلون ويصعدون بوساطته، وقال مباشرة عندما أفاق :« ما هذا إلاّ بيت الرب، وهذا باب السماء» (التكوين: ١٧/٢٨). وأقام عموداً ذكرى لهذا، وصب عليه زيتاً، وأطلق على المكان اسم بيت إيل، حيث كان اسمه من قبل لوز، وتقوم بيت إيل الآن على جانب جبل جرز يم، وهو الجبل الذي يتوجه نحو جبل جبعال (عيبال) باتجاه الشمال، مقابل دان، ووراء شكيم ، ويحكى أنه في جبل شكيم هذا حاول إبراهيم أن يضحي بابنه.

وعلى مسافة عشرين ميلاً من شكيم وأربعة أميال من القدس، وذلك على الطريق الذي يقود إلى اللد،هناك سيلو Silo (النبي صموئيل) وهو جبل ومدينة، تدعى أيضاً راما، فهناك بقي تابوت العهد وخيمة عهد الرب من أيام قدوم بني اسرائيل حتى أيام النبي صموئيل والملك داود.

الفصل الثالث

تقع القدس على مسافة أربعة وعشرين ميلاً من شكيم، وستة عشر ميلاً من بيسان، وسبعة عشر ميلاً من الخليل، وعشرة أميال من أريحا، وأربعة أميال من بيت لحم، وستة عشر ميلاً من بير السبع، وأربعة وعشرين ميلاً من عسقلان، والقدر نفسه من يافا، وستة عشر ميلاً من الرملة، والقدس هي المدينة الأكثر قداسة في اليهودية، وتدعى أيضاً باسم صهيون، ومن هذا المنطلق قد قيل: « قد قيل بك أمجاد يا مدينة الرب» (المزامير: ٨٧/ ٣)، وعرفت أيضاً باسم إيليا، ذلك أنها نالت هذا الاسم من إيليوس هدريانوس، الذي بناها، أو بالحري غيرها.

وتبعاً للفلاسفة تقوم القدس التي هي الحاضرة الرائعة لليهودية في وسط العالم، وقد حكم فيها داود أربع وثلاثين سنة ونصف السنة،

ويوجد في القدس جبل موريـا، الذي عليه رأى داود الملاك يطعن الناس ويضربهم بسيـف مجرد (صمــوئيل: ٢٤/ ١٦ــ١٧)، وخشيــة منــه أن يتعـرض هو والمدينـة للعقـوبة لأنـه أذنب في تعـداد النـاس، انكب على الأرض في توبـة حقيقية، وانفعال عميق، وقـد سمعه الرب، ونـال العفو، وعن داود قال الرب:« لقد وجدت رجـلاً مطابقاً لقلبي»، وكان على جبل موريا عندما كان داود ملكاً مكـان بيدر عرونة اليبوسي، ومنه أراد داود أن يبتاعه ليبني هناك بيتاً للرب، لأنه تلقى رحمة منه ومغفرة في ذلك المكان، وأمسك مـلاك الرب بيـده وأبقاه هناك، وقـد اشتراه، لكنه منـع من قبل الرب مـن الشروع بمثل هذا العمـل، بسبب أنه كـان رجل دمـاء (أخبار الأيام: ١/ ٢٨/ ٣)، وبنـاء عليه سلم الكنـز الذي أعـدّه لهذا الغرض إلى ابنه سليمان، الذي أذن لـه من قبل الرب ببنائه، وذلـك حتى يتمكن من بناء بيت للرب.

وبنى سليمان على أرض البيـدر هيكلاً، صـار يدعـى باسم بيـت إيل، ومـذبحاً، كـرسه مقـابل نفقـات واسعة، وسأل الـرب أن كل من سـوف يبتغي الاستخارة حول أي مسألة مهما كـانت، ينبغي أن يصغى إليه وهو المطلب الذي نالـه ومنح له من قبل الرب، وبناء عليـه إن بيت الرب هو بيـت الاستشـارة، وعــاقـب الـرب فيما بعــد ذنــوب الأمـراء والشعـب بجعل«نبـوخـذنصر» يقوم بتشعيـث الهيكل على أيـدي «نبوز دان» الـذي كان كبير قواده، وحدث ذلك أيام الملك صـدقيا، الذي حرم من مدينته، وحمل كل شيء جميل كان في المدينة أو في الهيكل إلى بـابل من قبل نبوخذ نصر، وأمر بسوق النـاس أمامه إلى بابـل، وبعد أمد وجيز هـدم الفرعون نيكو Necho كل من الهيكل والمدينة، والآن على كـل حال، خشية مني أن تبدو الحكـاية مضحكة بالنسبـة للمروية له، ومتعبـة للمستمع، كنت سأقـوم بتعداد تحت أي ملـوك وبوساطـة من كـان البناء، ثم كـان تهديم الهيكل الأول، ثم الهيكـل الثاني، ثم الهيكل الثـالث، ومتى حـدث ذلك،

وإنني سوف أحاول جاهداً ياأحبائي الأصدقاء، أن أقدم أصدق رواية بإمكاني تقديمها حول مدينة بيت إيل الحالية، فبالنسبة لبيت إيل الحالية، إنه غير معروف تماماً في أيام حكم أي ملك قد استردت وأعيد اعمارها، ذلك أن بعضهم يقول إنها بنيت من جديد في أيام حكم الامبراطور قسطنطين، وذلك من قبل أمه هيلانة (حنة).وذلك تشريفاً للصليب المقدس، الذي عثر عليه من قبلها: وبنيت أماكن أخرى من قبل الامبراطور هرقل، تشريفاً لصليب الرب الذي أعاده من خلال نصره على فارس، كما وبنيت أماكن أخرى من قبل الامبراطور جستنيان، وشيدت أماكن أخرى من قبل ملك القاهرة (ممفيس) في مصر، تشريفاً لـ «الله الكبير»، لأن إليه تتحد جميع اللغات في التعبير عن عباداتها التقوية، وأقول أنا، إن الهيكل الحالي، هو المكان الذي— حسبما روي لي — جرى فيه ختن الطفل يسوع في اليوم الثامن من ولادته، وحملت غرلته بوساطة ملاك من السماء، من القدس وقدمت إلى شارلمان، وهذا الملك الكبير هو الذي جلبها إلى بلاد غاليا، إلى اكس لاشابيل (آخن)، ثم نقلت فيما بعد بوساطة شارل الجريء إلى أكوتين، إلى مقاطعة بواتو إلى كنيسة تشارو Charroux ، التي بناها لنفسه تشريفاً لمخلصنا، ومنحها بشكل ملكي بوفرة وافرة من الممتلكات، ووضعها تحت الاشراف الديني للرهبان، وهذا الأثر المقدس محفوظ فيها منذ ذلك الحين بشكل مهيب، وهو يُتعبد هناك.

الفصل الرابع

ودعونا الآن بالنسبة لتقديم ربنا نضيف أنه على كل حال فيما يتعلق بختانه — الذي حدث في هيكل الرب في اليوم الثامن — أن هذا الطقس وإن كان قطع الجلد يرمز فيه في أذهان الناس إلى طرح الشرور جانباً، إنه في الحقيقة ينتمي إلى العهد القديم، وبالمسيح وصل إلى كماله، وينبغي من ذلك الوقت فصاعداً أن يتوقف، ولا يعد الختان بين طقوس

القداسات في العهد الجديد، كما أنـه لايتعلق مع أي من الأختام السبعة، وكما قلنا من قبل، أحضر ربنا يسوع المسيح إلى الهيكل بـوساطة أمه، وقد وضع بين ذراعـي سمعان المقـدس، الذي بـدأ يقـول باسم روح النبـوة: «أيها الرب، ذق الآن أنت فراق عبدك»، الـخ، وبينما كان ربنا يسوع مقيماً في القدس، وكـان قد وصل إلى الثانيـة عشرة من عمره، أخـذ يتناقش في الهيكل مع اليهـود، وغالباً ماعتـاد فيما بعد على تعليمهم، مع أنهم كـانوا يكـرهـونه، وامتـدح في الهيكل تقـدمـة الأرملـة الفقيرة، التي وضعتهـا في الخزينـة، لأنها أعطت كـل مـا كان لـديها، وأوقـف الشيطـان عيسى على الـزاوية العليـا للهيكل، المعتقـد أنها فوق طـرف الجدار الخارجي، وكـان تحتهـا نـوافـذ بـدت وكـأنها بينـاس Pinnas ، أو سينـاس Cinnas ، (كذا؟)، وأغـراه للمرة الثـالثة، وبسبب تعميـده وصومه قـال: «إذا كنت ابن الرب ارم نفسك من هنـا». ويروى أن المباركة مريم عنـدما كانت في الثالثة من عمـرها، كانت موجودة في هيكـل الرب، وذلك في يوم ٢١ — تشرين الثاني، وذلك حسبما تعلمنا هذه النقوش المكتوبة شعراً:

«في الثالثة من عمرها، ومعها سبعة من الرفاق الأعزاء

كرست أمة الرب ووهبت هناك».

وكانت غالباً ماتتلقى الارشاد من الملائكة، حيث جاء في الشعر:

«بخبز الحياة أطعم الملائكة

العذراء المباركة وقت حاجتها».

وكان تقـديم العـذراء المباركـة وحضورهـا في الهيكل قد وقـع يوم ٢١ تشرين الثاني، ولهذا يتلى الدعاء التالي في الهيكل نفسه:

دعاء

«يارب، يـامن كنت بعد ثلاث سنـوات مسروراً لتتلقى في الهيكل الأم

المقدسة للرب، التي هي هيكل الروح القدس، تفضل بقبول صلوات شعبك المؤمن، وامنحنا نحن الذين نحافظ الآن على عيد تقديمها، أن نتمكن نحن أنفسنا فنكون في هيكل يُجعل لك لتقيم به، من خلال مولانا»، الخ، الخ.

ولقد رمى مولانا يسوع المسيح وطرد البائعين والشراة من الهيكل، والبرهان على هذا أنه مايزال هناك في الجانب الأيمن من الهيكل مرئياً حتى هذا اليوم صخرة تعامل بتبجيل كبير، وهي مغطاة بمصباح وبزينة، لأن الرب مشى عليها، وهي ماتزال تحمل علامة قدم الرب، وكان قد وقف عليها لوحده بوساطة القوة الربانية، وتصدى لعدد كبير من الرجال، وألقى بهم بالقوة إلى الخارج: وهذه الصخرة موصولة بصخرة أخرى، ويوجد فوقها كما لوكان فوق مذبح رسماً لحضور مولانا هناك، وهذا مرئي في الصورة هناك وفي النقش الكتابي الفائق عليها الذي جاء فيه مايلي:

«ملك الملوك الذي ولد من أم عذراء

كان موجوداً هنا. هذه أرض مقدسة.

هنا رأى يعقوب السلم، وهنا بنى

مذبحه. علّنا نتمكن من تعليق أعطيات حوله».

لكن بالنسبة ليعقوب، الذي رسم وقد وضع رأسه فوق الصخرة نفسها، عندما رأى في منامه السلم الواصلة حتى السماء، الذي كان الملائكة يصعدون عليه وينزلون، ومع جميع الاحترام للهيكل، هذا ليس صحيحاً، مع أن الشعر التالي قد كتب هناك:

«يعقوب، هذه ستكون أرضك

وأولادك من بعدك»

لكن هـذا لم يحدث هنا، لكن في مكـان آخر بعيـد جداً، لأنـه كان في طـريقه إلى بـلاد الرافـدين، أي كـان على مقربـة من مـاهو ميريـا -Ma humeria ، الكبرى (البيرة).

وفي الهيكل أطلق ربنا سراح المرأة التـي أمسكت بتهمة الزنا، وحـررها من الـذين اتهموهـا بقولـه: «من هـو الذي بـلا ذنب» الخ، وقـال أيضاً عنـدمـا كان متهمـوهـا يـذهبـون بصمت: «أيتهـا المرأة، اذهبي بسـلام، ولاتذنبي من بعـد الآن». ويعرض المكان للمشاهـدة داخل كهف صغير في الهيكل نفسه، ومدخله هو على الجانب الأيسر للهيكل ويدعى «مكان الاعتراف»، وقد قيل بأن زكـريا قد دخل إلى المكان نفسه، عندمـا أكد له الملاك خبر الحمل بيحيـى، وكل هـذا قـد شرح بـوسـاطـة صـورة، كتب عليهـا مـايلي: «قال الملاك لـزكـريـا: لاتخش يـا زكـريا لأن دعـاءك قـد استجيب» الخ، وعلى الافريز فوق البـاب هناك تمثال للمسيح مع النقش التالي:

«من الذنب حررت أنا الناس

إذاما اعترفوا بذنوبهم لي».

وفي الهيكل، وقرب مذبح قـائم في الهواء الطلق، يبعد عن الهيكل أكثر من اثنتين وعشريـن خطوة، عـانى زكـريا بـن براخيـا من الموت شهيـداً، وعلى هـذا المذبح اعتـاد يهود العهد القـديم على تقـديم الطيـور والحمام، وقد غير بعد ذلـك من قبل المسلمين إلى مزولة، ومن الممكـن رؤيته حتى هذا اليوم، وهـو ملاحظ لأنه حتى هذا اليـوم يأتي كثير من المسلمين إليه للصـلاة، لأنه يشير نحـو الجنـوب، وهـو الاتجاه الذي يتجهـون إليـه في صلاتهم.

والآن إن هذا الهيكـل نفسه، هيكل الـرب، قد زيـن من قبل أحـدهم بألـواح رائعة من الـرخام وذلـك من الداخـل ومن الخارج، ولهذا الهيكل

شكل مستدير، أو بالحري دائري ثماني، أي له ثمانية أضلع، منتظمة على شكل دائرة، وجدرانه كلها مزينة من الخارج، من الوسط نحو الأعلى بأجمل أنواع الفسيفساء، لأن البقية من الرخام، وهذا الجدار المنخفض نفسه مستمر، باستثناء أنه مخروق بأبواب أربعة، حيث يتجه أحد الأبواب نحو الشرق، وهو ملتصق ببيعة مكرسة للقديس جيمس، لأنه رمي من ذلك الجانب من سقف الهيكل نحو الأسفل، ثم قتل بعصا القصار، ذلك أنه كان أول كاهن أعلى في ظل الشريعة الجديدة للنعمة في القدس، ولهذا فإن الأبيات الشعرية التالية قد نقشت في البيعة نفسها، على جانب الجدار:

«ابن ألفيوس، شبيه المولى بالوجه
رمي من الهيكل، فهلك في هذا المكان
هنا الجمهور الضال، بعصا القصار
قتل جيمس العادل، لأنه بشر بالمسيح علناً»

وكتب في أعلى وداخل قبة السلسلة للبيعة نفسها مايلي:

«ابن ألفيوس، أخو ربنا
ناصرياً كان جيمس الذي بشر بالكلمة
اسرائيلياً، في الحقيقة، لم يوجد
به عيب — صياد سمك لبعض الوقت كان.
بأيد مدنسة رمي من أعلى الهيكل،
وضرب بعصا، وطارت روحه إلى المسيح».

ويوجد في الجانب الشمالي باب (باب الجنة) يقود إلى دير القانون،

وعلى الافريز فوقه كثير من الكتابات الاسلامية قد نقشت، وفي ذلك المكان نفسه إلى جانب ذلك الباب نفسه موقع الماء العذب، الذي قال عنه النبي: «رأيت ماءً يخرج من هذا الجانب» الخ، وعند المدخل إلى الهيكل باتجاه الشرق، يوجد فوق الساباط تمثال للمسيح، وقد نقش حوله النص التالي: «بيتي سوف يدعى بيت الصلاة»، وله أيضاً باب في الجنوب (باب القبلة)، يطل باتجاه بناء سليمان، وهناك بالغرب أيضاً باب (الباب الغربي) يطل باتجاه ضريح ربنا، وهناك أيضاً بوابة جميلة (باب السلسلة)، من خلالها كان بطرس ماراً مع يوحنا عندما أجاب الرجل الأعرج الذي سأل احساناً بقوله: «ليس معي لافضة ولاذهبا» الخ، ولكل من هذين المدخلين — أعني ذاك الذي على الشمال والذي على الجانب الغربي — ستة أبواب مرتبة، كل باب بمصراعين: أي على الجانب الجنوبي هناك أربعة، واثنان فقط على الجانب الشرقي، ولكل مدخل من المدخلين مظلة جميلة.

هذا فيما يتعلق بالقسم المنخفض من الجدار، أما في القسم العلوي حيث أشكال الفسيفساء الرائعة فهناك الآن نوافذ مقحمة بالجدار بشكل جميل، حيث يوجد خمس نوافذ على كل جانب من الجوانب الثمانية، باستثناء الجوانب التي فيها أبواب الهيكل، فهذه في كل منها أربع نوافذ فقط، وهكذا يكون العدد الاجمالي للنوافذ ست وثلاثون نافذة، وبين هذا الجدار الذي يشكل الاطار الخارجي، والأعمدة الرخامية العظيمة، التي عددها اثني عشر عموداً والتي تدعم الرواق الداخلي الضيق، جدار أعلى، وهو جدار مستدير فيه اثنتي عشرة نافذة، ولها تحتها أربع من السواري الحجرية المربعة، ثم أعود لأقول: بين الجدار الأول والجدار الآخر ستة عشر عموداً وثمانية من السواري الرخامية المربعة، وهناك ثماني خطوات بينهم، وتدعم كل سارية على الطرفين سقفاً، قائماً بين الجدار الأكثر اتساعاً؛ والجدار الداخلي الأضيق، موفرة بذلك مسافة

للسير في أي اتجاه، وفيـــهأنابيب من الرصاص لنقل مياه الأمطار، ويقوم فوق هذا الجدار الداخلي الضيق قبة مستديـرة عالية، مطلية من الداخل، ومغطـاة بـالـرصـاص من الخارج، ويـوجـد في أعـلاهـا تمثـال للصليب المقـدس، وكـان الـذي تـولى وضعه هـم المسيحيـون، وهـو مـزعج جـداً للمسلمين، ويـود كثير منهم عن طـواعيـة إنفـاق الكثير من الـذهب في سبيل إزالته، ومع أنهم يؤمنون بـآلام المسيح، إلا إنهم يحترمون هذا المعبد، لأنهم يعبدون خـالقهم فيـه، وهذه العبـادة ينبغي عدّهـا وثنية، بنـاء على رأي القـديس أوغسطين، الـذي أعلن أن كل شيء هـو كفـر، إذا لم يكن فيه إيمان بالمسيح.

ويوجـد حول الهيكل، وجـزئياً تحت سقفه في الجانـب الخارجي وذلك وأنت ذاهـب نحو الغـرب هذا النقـش: «علّ هـذا البيت يتمتع بســلام دائم من الآب السرمـدي، ولتكن المبـاركة هـي المجد للـرب في موضعـه المقدس». وكتب على الطرف الجنوبي مايلي: «بني بيت الرب بشكل جيد على صخرة ثـابتة. مبـاركون الذين يسكنـون في بيتك، ولسوف يحمـدونك ويحمـدونك إلى الأبـد». ونقش على الجانب الشرقـي: «في بيتك أيها المولى سـوف يتحـدث جميع النـاس عـن مجدك». وكتب على الجانـب الشمالي: «هيكل الرب مقدس، والرب يعتني بـه، والرب هو الذي بناه». وكتب في داخل الهيكل بأحـرف كبيرة فوق «الكورنيش» الأعلى حول البنـاء، الدعاء التالي: «أيها الرب اسمع ترنيمتي» مع جوابها الشعري: «انظر إلي يارب»، وكتب على الكـورنيـش أيضاً بـأحـرف ذهبية عـدة أبيـات من تـرنيمـة: «القدس المباركة».

وبني هـذا الهيكل وزين بشكل جميـل، وله على جـوانبه جميعـاً عتبات واسعة ومستـوية، مبلطة بحجارة متنـاسقة مع بعضها، وهناك عتبـة منها مربعـة الشكل ويصعد إليهـا من ثلاثـة جوانب، وفي الحقيقة بنيـت هذه العتبة بشكل رائع جـداً، وذلك تماشياً مع طبيعة الأرض، ولها في جـدارها

الشرقي مدخل واسع من خلال خمسة أقواس، قد تم وصلها بوساطة أربعة أعمدة عظيمة، وبهذا الشكل ينفتح هذا الجدار نحو البوابة الذهبية، التي مرّ خلالها ربنا في موكب نصر قبل اليوم الخامس من آلامه، وكان راكباً على ظهر أتان، وقد جرت تحيته من قبل أطفال يهود كانوا يحملون سعف النخل، وكانوا ينشدون أماديح ويقولون: «التحيات لابن داود»، الخ، وبقيت هذه البوابة دوماً بوساطة الوقاية الربانية دون أذى، مع أن القدس جرى الاستيلاء عليها منذ ذلك الحين وهدمت من قبل جيوش معادية؛ زيادة على هذا تحمل هذه البوابة ذكريات دينية بشأن دخول مولانا الرباني المليء بالأسرار، عندما قدم من بيت عنيا عبر جبل الزيتون إلى القدس، وكانت البوابة مغلقة من الداخل، ومسدودة بالحجارة من الخارج، ولم تكن تفتح لأحد من الناس إلا يوم أحد السعف، وهو يوم محدد كل سنة اتخذ تذكاراً لما حدث، وهي تفتح بشكل مهيب للمسيرة ولجميع الناس سواء أكانوا من سكان المدينة أو من الغرباء، وبعدما ينهي البطريرك موعظة القداس إلى الناس عند سفح جبل الزيتون، وعندما ينتهي القداس لذلك اليوم تغلق ثانية طوال السنة، كما كان الوضع من قبل، اللهم إلا يوم تمجيد الصليب المقدس. ففي هذا اليوم تفتح أيضاً، وعند نهاية أسوار المدينة وقرب أسفلها على مقربة من هذه البوابة يقوم موقع المقبرة المشهورة.

وللعتبة عند طرفها الجنوبي مدخل واسع، خلال ثلاثة أقواس واسعة موصولة مع بعضها بوساطة عمودين، ولها عند الطرف نفسه مدخل آخر أوسع من الأول، ويوجد على الطرف الغربي باتجاه المدينة مدخل جميل، من خلال أربعة أقواس موصولة بوساطة ثلاثة أعمدة من الرخام، وعلى الطرف الغربي من هذه العتبة جزء ضيق بسبب وجود دير قانوني بني فوقها، لكن المتبقي من ذلك الجانب هو جميل واسع، وله مدخل أخّاذ، ويوجد أيضاً على الطرفين الجنوبي والغربي فسحة مستوية، أنيقة وذات

حجم وافر، ويوجد على الطرف الشمالي أيضاً قطعة مستوية من الأرض، امتداداتها فيما وراء العتبة.(١)

ليكن هذا الوصف للهيكل المتقدم الذكر مع مايحيط به كافياً، ولن نحسد أي إنسان يمكنه أن يكتب أفضل.

الفصل الخامس

وعندما تنزل إلى الشارع الرئيسي، تجد باباً كبيراً، بالدخول منه تصير في داخل ساحة واسعة تعود للهيكل، ويوجد على الطرف الأيمن باتجاه الجنوب قصر قيل إنه بني من قبل سليمان، حيث يوجد هناك اسطبل رائع، له حجم هائل يمكن أن يستوعب أكثر من ألفي فرس، أو ألف وخمسمائة جمل، ويمتلك فرسان الداوية إلى جانب هذا القصر كثير من الأبنية الواسعة المتصلة مع بعضها، وهناك أيضاً أساسات لكنيسة جديدة وواسعة، هي لم تنته بعد، لأن تلك الرهبنة تمتلك الكثير من الممتلكات وموارد لاتعد ولاتحصى في كل من هذه البلاد وفي مناطق أخرى، وهي تقدم مبلغاً كبيراً من المساعدات إلى الفقراء في المسيح، لكن ذلك لايعدل عشر مايقدمه الاسبتارية، ويمتلك بيت الداوية أيضاً عدداً كبيراً جداً من الفرسان لحماية أرض المسيحيين، لكنهم أصيبوا بانتكاسة، لست أدري أهي صحيحة أم مزيفة، لطخت سمعتهم وسببت إتهامهم بالخيانة، الأمر الذي تبرهنت صحته بشكل واضح، في قضية دمشق المعروفة، في ظل قيادة الملك كونراد (الثالث ملك ألمانيا الذي حاصر دمشق مع قوات الحملة الثانية).

١ــ في العبارة الأخيرة إشارة إلى منطقة الحرم، وبما أن حديث الرحالة هنا ووصفه قد تناول المسجد الأقصى، فالقيمة كامنة في وصفه للتغييرات والإضافات التي أحدثها الصليبيون، أما مابناه من معطيات تاريخية فلا قيمة له، لأن المسجد بني بعد الفتح الاسلامي على بقعة فارغة بدون بناء، كما ثبت من خلال الحفريات الأثرية أن القدس لم تعرف لاهيكل أول ولاثاني ولاثالث.

وإلى جانب أبنية الداوية، على الجانب الشرقي، وفوق سور المدينة، كان مسكن سمعان العادل، حيث قيل بأنه استقبل فيه مراراً مريم العذراء المباركة، أم ربنا، باكرام وترحيب، حيث رعاها وأعطاها طعاماً، وقد فعل ذلك ليلة النهار الذي كان اليوم الرابع عشر لميلاد ربنا، ولقد كان عليه تقديم الطفل وأمه في الهيكل، وبينما كان حاملاً إياه بين ذراعيه، وكان سيقدمه أمام المذبح، شعر بروح النبوة، أنه سيكون هو، المنتظرمنذ أزمان طويلة مضت، والمتطلع إليه برغبة صامتة من قبل الآباء الأقدمين، فغنى بشكل نبوي وقال: «مولاي، دعو أنتم الآن عبدكم يغادر بسلام» الخ، وفي هذا البيت نفسه، الذي تحول الآن إلى كنيسة يرقد مدفوناً سمعان المبارك، وذلك حسبما يخبرنا به الشعر الذي كتب هناك، وفي الأسفل، في قبو هذه الكنيسة نفسها، مايزال المهد الخشبي العائد للمسيح موجوداً، ومحفوظاً، وهو معروض بتبجيل عظيم.

الفصل السادس

عندما كان وقت آلام ربنا يقترب، جاء ربنا يسوع إلى بيت عنيا في وقت متأخر في المساء، قبل أحد السعف، وفي اليوم التالي — أي في يوم الرب — دخل إلى المدينة المقدسة بالشكل المهيب الذي كنت قد تحدثت عنه، وتقع بيت عنيا على مسافة ميلين عن القدس، وهي البلدة التي غالباً ماكان يستقبل سمعان أو لعازر فيها المولى يسوع كضيف وعندما كانت مريم ومرثا تعتنيان به بإيمان واخلاص، وفي بيت عنيا كسرت مريم المجدلية الصندوق المرمري، ولكي تظهر تفانيها وإيمانها صبت الدهن الثمين على رأس المخلص، عندما كان جالساً إلى المائدة، وامتلأ ذلك البيت بشذى رائحة ذلك الدهن، وقيل أيضاً أن مريم المجدلية قامت في المكان نفسه، أو بالحري في مكان آخر، هو بيت سمعان المجذوم، وذلك قبل وقت طويل، عندما كانت ماتزال مذنبة، دفعتها توبتها للإرتماء عند قدمي مولانا، عندما كان جالساً إلى مائدة، وغسلت

قدمي يسوع بـدموعها، وجففتهما بشعرها، ودهنتهما بدهـن آخر، هو دهن التوبة، وذلـك حتى تنال من الرب العفـو عن ذنوبها. وبناء عليه عنـدما نجد في أي مكان من الكتابات المقـدسة بأن مريماً أخرى جاءت وارتمت عند قـدميه، وواحـدة أخرى هي التـي دهنت رأسه، شرح ذلـك علماؤنا وبينـوا أنها كـانت واحـدة أخـرى — أي كـانـت امـرأة متغيرة — لأنها جاءت في المرة الأولى كمذنبة تتحرق للتوبـة، وجاءت في المرة الثانية امرأة قد تيـب عليها وهي مليئـة بالـوجد والإيمان، ويـوجد الآن داخـل أسوار المدينة المقدسـة كنيسة، قائمة على مقـربة من كنيسة القـديسة حنة، على الجانب الشمالي قرب سـور المدينة، هي مكرسة على شرف القديسـة مريم المجدلية، ويعيش فيهـا رهبان يعاقبة، قد ذكـروا أن بيت سمعان المجذوم كـان قائماً على تلـك البقعـة، وهو الـذي دعـا ربنـا إلى عشاء، في أثنـائه جاءت مريم المجـدلية وارتمت على قدمي يسوع، وقد غسلتهما بـدموعها، وقبلتهما، ومسحتهما بشعـرهـا، ودهنتهما بـدهـن، وهـم يـؤكـدون هـذا، وبالفعل يعرضـون للمشاهدة المكان عينه (وقد رسم على الأرض بـوساطة صليب) المكـان الـذي ارتمت فيه مـريم على قـدمي يسـوع، وبرهنـا على ذلك بوسـاطة صور، وهـم يعرضـون للمشاهدة في هذه الأيام شعـر مريم الموجود داخل وعاء شفاف موضوع فوق تلك البقعة.

وقالوا أيضـاً هناك مريم أخـرى، هي التي كانت أختاً لكـل من لعازر ومرثـا، وهي التي كسرت صنـدوقاً مـن المرمر في بيت عنيـا، التي كـانت هي البلـدة التي عـاش فيها الثـلاثة، وصبت زيتـاً ثميناً على رأس ربنـا: ويحكى أن ضريحهـا مـرئي في هذا اليـوم في طبريـة،مع جسـدها المدفـون هناك، وهـم يقرون أن جسـد مريم المجدلية يرقـد في بلادنا،لأنها دفنت في فيزيليا Vezelai(في بيرغندي)، وهـم يعلنون هذا،ذلك أنني سمعته بأذني شخصياً، لكن حسبما قيل أعـلاه يقول العلماء المختصون لدينـا بأن مريم التي دهنـت قدمي يسـوع ورأسـه،وأخت لعازر كـانتـا امرأة واحـدة هي

نفسها،فهي قد كانت في إحدى المرات مذنبة،هذا ويلاحظ أن نص الإنجيل حول هذا الموضوع صعب جداً حتى يمكن فهمه حول هذه النقطة،ويجعل،حتى أكثر القراء حرصاً غير متأكد فيما إذا كان سمعان الفريسي قد امتلك بيتاً في بيت عنيا،ودعا ربنا إليه،وهو أمر بعيد الاحتمال،لأن تلك البلدة كلها كانت ملكاً لـ «لعازر»وأختيه،وإذا كان سمعان قد امتلك بيتاً في مكان آخر—ربما في المكان الذي تقدم وصفه أعلاه— يبات من الضروري متابعة القول أنه هناك،لابد أن مريم قد قامت للمرة الأولى هناك فدهنت ليس فقط قدمي يسوع بل رأسه أيضاً، فهذا مايمكن فهمه من كلمات ربنا في الانجيل، حيث قال:«سمعان إني قد دخلت بيتك»(لوقا:٧/ ٤٤)الخ،لكن عندما كان في مرة أخرى في بيت عنيا—وكأنه كان في بيته— قامت مريم هذه نفسها فدهنت رأسه لوحده،وكسرت صندوقاً من المرمر فوق رأسه،ولهذا نقرأ في الانجيل:«وفيما كان يسوع في بيت عنيا»الخ(متى:٢٦/ ٦)، وإذا مارغب أي واحد أن يتلقى معلومات أكثر تأكيداً حول هذه المسألة،دعوه نفسه يأتي ويبحث حول كيفية هذه المسألة وصدقها من سكان محليين من هذه البلاد،لأنني عرفت هذا من خلال الكتابات المقدسة،وليس تماماً من هؤلاء الناس.

وبين بيت عنيا هذه وقمة جبل الزيتون،في حوالي منتصف الطريق، كانت تقوم قرية بيت فاجي،وهي قرية كهنة،وماتزال آثار منها قائمة ممثلة في برجين حجريين،واحد منهما هو كنيسة.

الفصل السابع

وعندما كان— كما قلنا— وقت الآلام يزداد قرباً، وبعدما أقام لعازر، (من الموت)قدم الى القدس في يوم أحد السعف، وبعد الدخول المهيب لذلك اليوم، الأمر الذي تحدثنا عنه،عاد الى جبل الزيتون،ناويا البقاء هناك حتى اليوم الخامس من الاسبوع،وهو اليوم الذي قصد أن يأكل فيه

مع حوارييه العشاء الذي جلب العهد القديم الى نهايته،وبدأ العهد الجديد،وعندما سأله حواريوه·أين يرغب أن يتناول العشاء الأخير، بعث بواحد منهم الى المدينة،علـه يذهب ويعدّ لـه مكان إقامة، أو مكاناً مناسباً،لإقامة قداس هذا العشاء،الذي نقرأ عنه بتوسع أعظم في الانجيل قوله:« إذهبا الى المدينة ولسوف تلتقيان برجل يحمل جرة ماء»الخ(لوقا:٢٢/ ١٠)،وعثر على مكان«علّية العشاء الأخير» هذا فوق جبل صهيون،في المكان الذي يقال بأن سليمان قد بنى فيه بناء عظيما،وهو البناء الذي نقرأ عنه في نشيد الانشاد قوله:« الملك سليمان عمل لنفسه تختاً» الخ(نشيد الانشاد:٣/ ٩)،وكانت عليّةالعشاء الأخير في الطابق الأعلى من البيت،وكانت كبيرة وواسعة،ويحكى أن ربنا تناول في أحد الجوانب مع حوارييه العشاء وذلك من أجل الاحتفال بالقداس، وأومأ هناك بشكل حذر الى الذي سيتولى خيانته،مطمئنا البقية حول ما يتعلق بآلامه،التي سوف تكون بعد قليل،وأعطاهم جسده على شكل خبز ليأكلوه،وأعطاهم دمه على شكل نبيذ ليشربوه قائلاً:« افعلوا هذا مرارا بقدرماتستطيعون»الخ.

وبعد ماتعشى في الجزء العلوي من ذلك البيت،يبدو من المعقول أن مولانا عندما كان يعرض ذلك القداس،ضرب لحوارييه مثلاً عن تواضعه بقيامه بالقسم الأسفل من البيت بغسل أقدامهم،وسواء أخترت أن ترى ذلك قد حدث قبل العشاء،أو بعده،حسبما أشارت الى ذلك بعض الشروح حول ذلك النص الوارد في انجيل القديس يوحنا قوله:« قام عن العشاء» الخ(يوحنا:١٣/ ٤)، وسواء أحدث هذا قبل العشاء أم بعده، فهذا ليس بعظيم قيمة،ومع هذا يود الانسان أن يعرف ماحدث،لأن عرض المسألة في هذه الأيام في الكنيسة على جبل صهيون،يوميء الى أنها قد حدثت في مكانين مختلفين،لأنه يوجد في هذه الكنيسة نفسها في الجانب اليساري منها،في الطابق العلوي صورة

للعشاء، وفي الطابق الأسفل— أي أن تقول في القبو— من الممكن رؤية منظر يمثل غسل أقدام الحواريين.

الفصل الثامن

وبعد الفراغ من هذه القداسات،عاد مع تلاميذه الى الصلاة فوق جبل الزيتون،الذي أضاع عند سفحه ومنحدره حوارييه،وابتعد عن هناك لوحده مسافة حوالي رمية حجر،أي الى جيسماني، وصلى الى أبيه قائلاً:« أبي،إذا كان من الممكن»الخ،حيث أنه من آلام جسده صار عرقه يتصبب وكأنه نقاط من دم،وعاد الى حوارييه فوجدهم نيام،وعندها قرعهم وقرع بطرس خاصة قائلاً:«ألم يكن بإمكانك السهر معي ساعة واحدة»؟وقال للحواريين الآخرين: «ناموا الآن وخذوا راحتكم»الخ،ثم ابتعد عنهم للمرة الثالثة وعاد الى المكان نفسه،وقدم الصلاة نفسها الى الرب الآب، وبعد طول لأي تطمأن من الآب،واطمأن في نفسه ،وبعدها عاد المولى الى حوارييه للمرة الثالثة وقال:« اسهروا وصلوا»، وهذه الأماكن التي بقي فيها الحواريون في الخلف والمكان الذي صلى فيه الرب،واضحة ويمكن رؤيتها في وداي يهوشافاط(شعفاط)،لأنه على مقربة من الكنيسة الكبرى،التي يوجد فيها قبر العذراء مريم المباركة— الذي سوف نتكلم عنه بعد قليل — هناك في اليوم الحالي على الجانب الأيمن من المدخل المؤدي إليها بيعة فيها قبو،بقي فيه الحواريون،ومكثوا حزينين ونائمين نوماً ثقيلًا،في حين ابتعد الرب عنهم ثلاث مرات ثم عاد إليهم العدد نفسه من المرات،ومن الممكن رؤية هذا بوساطة صورة ماتزال موجودة،لكن المكان الذي صلى فيه ربنا محاط بوساطة كنيسة جديدة،وهي الكنيسة التي تدعى باسم كنيسة المخلص»فعلى أرضيتها تقف ثلاث صخور غير منجورة،قيل بأن الرب صلى عليهن،وجثا ثلاث مرات،ويتعبد الناس المؤمنون بالمسيح هذه الصخور بتقوى عظيمة جداً ويقدمون لهن التقدمات،وفي هذا القبو المتقدم الذكر عرف مولانا أن

يهوذا كان يقترب منه ومعه أوباشه،لأنه بعد انقضاء العشاء بوقت قصير،وفي الوقت الذي بقي فيه الحواريون الآخرين مع مولانا،ذهب يهوذا وابتعد لوحده ماضياً الى اليهود ليتساوم معهم حول خيانة مولانا، وبعدما استلم ثلاثين قطعة من الفضة ثمنا لخيانته،كان الآن يقترب مع حشد من الناس، وأقول:عرف يسوع بهذا، فقال في القبو نفسه لحوارييه:« انهضوا،ودعونا نذهب،انتبهوا إنه قد اقترب» الخ، وغادر جيسماني،وقد تم التعرف عليه بوساطة قبلة يهوذا،ولهذا اعتقل،وحمله الحشد معه،وهو الحشد الذي أرسل لاعتقاله،ومن الممكن الآن أن يرى الانسان في هذا القبو المتقدم الذكر خمس علامات على صخرة واحدة، حيث قالوا بأنها انطبعت عليها بوساطة الأصابع الخمسة لمولانا، وعندما أقول: لمولانا، أعني عندما اعتقل وأبقى نفسه في الخلف بعيداً عن معذبيه، الذين كانوا يجرونه بعنف لإبعاده وأخذه، وهذا على كل حال ممكن الحدوث، مع أننا نعلم بدون أدنى شك أنه كان قادراً على تنفيذ أفعال أعظم قوة وأكثر قدرة.

الفصل التاسع

لقد جرت خيانة ربنا— كما قلنا— من قبل حوارييه، وقد حمل وكتف من قبل جندي روماني، وجلب إلى جبل صهيون، حيث قام في تلك الآونة الـ Praetorium أو قاعة القضاء لـ «بيلاطس»، التي عرفت باسم «الرصيف» أو جباثا Gabbatha»، لأنه كان في ذلك الوقت أجمل أجزاء المدينة كلها وأقواها موجوداً على ظهر ذلك الجبل، وكذلك برج داود، الذي كان برج المراقبة والمكان الحصين لبقية المدينة، فهو قد بني هناك، وعلى هذا كان الجزء المنخفض من المدينة وكأنه قد جيء به واعتني به مثل أم دعت ابنتها، ومن هنا جاءت الكلمات التالية:«أخبرك يا ابنة صهيون»الخ، لكن بعد هذا عندما هدمت المدينة التي كانت قائمة هناك، ونقلت إلى مكان آخر، حيث هي الآن قائمة في

هذه الأيام، وذلك من قبل الامبراطور إليوس (هدريان)، اقتطع من ظهر الجبل ومن ارتفاعه كثيراً، وجعل أكثر انخفاضاً، وجرت إزالة البرج من عليه مع الأبنية الأخرى. وعلى كل حال من الممكن في هذه الأيام رؤية المكان الذي قامت فيه قاعة المحكمة وبرج داود، وقام في ذلك الحين بناء كبير إلى جانب قاعة المحكمة، على الطرف الجنوبي منها، ففي هذا البناء تناول الرب العشاء مع حوارييه، وعلى مقربة من قاعة المحكمة، وعلى الطرف الشرقي منها كانت القاعة التي اقتيد إليها مكتوفاً، وأبقي فيها طوال الليل، وهو تحت رقابة الحرس ورقابة مقدمي اليهود، وذلك حتى ساعة ظهوره في المحكمة في صباح اليوم التالي، وفي قاعة المحكمة هذه أنكر بطرس الرب ثلاث مرات قبل صياح الديك، وهناك أيضاً عندما صاح الديك، التفت الرب ونظر إليه، وبتقوى تذكر كلمات يسوع، وكان بالفعل صبوراً، وبكى بمرارة، وعاد إلى القبو الذي يدعى في هذه الأيام «مكان صياح الديك» ومن قبل العامة «الجليلي».

وظهر المسيح على جبل صهيون لحوارييه، ولهذا جرت كتابة البيتين التاليين على جانب الطرف الأيمن من الكنيسة:

«هنا قام المسيح حسبما رئي من قبل رجال الجليل

والجليلي هو الاسم الذي سوف يعرف به هذا المكان دوما»

وعلى الطريق الذي يقود نزولاً من صهيون إلى وادي يهوشافاط، وتحت باب جبل صهيون، وفوق هذا القبو، تمّ بناء كنيسة، هي في هذه الأيام بأيدي رهبان إغريق.

وحدث في اليوم التالي، بعد صدور الحكم غير العادل، جرى جلد الرجل المُدان في مكان قائم أمام قاعة المحكمة، وضرب وأهين وبصق عليه، وألبس ثوباً أرجوانيا، وتوّج بتاج من شوك، حسبما هو معروض بالنقش التالي الموضوع فوق تلك البقعة، ونص هذا النقش هو كما يلي:

- ٢٢٦٩ -

«هنا بسخرية توّج

الذي يحكم العالم كله»

زد على هذا، لقد تمت الاشارة الى هذا المكان أيضاً بوساطة بيعة قائمة إلى جوار الكنيسة الكبرى القائمة على صهيون، على الطرف الأيمن منها، وهي تحتوي على صورة لما حدث، مع النقش التالي:

«إن الذي جعل القديسين قديسين قد أدين بصوت المذنبين،

وهو الذي من أجل عبيده جلد ولطم،

وتحت الصليب قد سقط، لكن سمعان أعانه جيداً،

ولن يعاني من خسارة الذي يحمل ذلك الصليب المبارك».

وفي هذا المكان نفسه، وبعد قرار الحكم، وابلاغه بالادانة والصلب، وضعوا على كتفي الرب الصليب الذي كان قد أُعدّ من أجله، وذلك من أجل حمله إلى مكان الصلب، ومن أجل أن تتحقق النبوءة التي تقول:«وتكون الرئاسة على كتفه» الخ (اشعيا: ٦/٩)، وصدف أن جاء رجلاً قيروانيا، أرغموه على خدمتهم بجعله يحمل الصليب إلى مكان الجمجمة، لأسباب طقوسية.

الفصل العاشر

وكان هنالك في ذلك الوقت في مقابل موقع المدينة القديم، موقع اسمه أكرا (الجمجمة)، وكان خارج المدينة، وقد أقيم منعزلاً من أجل الذين حكم عليهم بالاعدام، وبسبب صلعهم— لأن شعورهم قد قصت، وتغير لون جماجمهم بسبب الرياح، وجردت من الجلد ولم تدفن في الأرض— أطلق على المكان اسم الجمجمة، أو بسبب أن المجرمين كانت شعور رؤوسهم تقص، أي تنفذ العقوبات هناك، وكان هذا المكان المسمى بالعبرية الجلجلة صخرة قديمة، ومثلما الحال في كثير من المدن

في هذه الأيام، يتم عـزل الأماكن المرتفعة خارج الأسـوار، وتفرد من أجل تنفيـذ حكم الإعـدام بـالذيـن حكم عليهم بـالموت، وفي الـوقت الـذي أعدت فيه الصخـرة لاستقبال الصليب، أبقي مولانا مكتـوفاً، واحتفظ به في سجن كـان موجوداً هنـاك بين الحقول، ولقـد أخذ هذا المكـان شكل بيعـة، ومـازال حتى هـذا اليـوم يدعـى بـاسم «سجن الـرب»، وهـو في مواجهـة الجمجمة تمامـاً، في الجانب اليساري المقبب مـن الكنيسة، وعلى كل حـال، لآخرين مـواقف أخرى حـول هذا المكـان، حسبما سمعت في تلك البقعة.

وبعد هـذا، وفي موقع الجمجمة جرد الجنـود الرومان الـرب من مئزره، وذلك بنـاء على أوامـر بيلاطس وعلى تحريـض من اليهـود، وأعطوه خـلاً ممـزوجـاً بمرارة ليشربـه، وربطـوه إلى الصليـب، وبينما كان يسـوع يعـاني الآلام فوق هـذا الصليب، استقبل صـديقه يـوحنا— بنـاء على أوامره— أمه ووضعهـا تحت رعايته، وذلك حتى تتمكـن عذراء من رعايـة أخرى، لأن يسوعـاً قال لأمـه: «انتبهي أيتها المرأة لابنـك»، وهناك خـلاف حول تفسير هـذا، فبعضهم يقول مـع يوحنـا، وبعضهم يقول معـه هو نفسـه، ومع هذا فقد قال:«إنني أعاني من هـذا منذ طفولتي، التي جاءت بسبب أمومتـك، ثم إنني لم أمتلك من خـلالها القدرة على صنـع معجزات»، في حين قـال في مكان آخـر، أي في العـرس في قـانا الجليـل:«أيتها المرأة مـا الـذي يمكننـي أن أفعل معـك»؟، فهكـذا قـد تكلم إلى أمـه، ثـم قـال ليوحنا:«انتبه لأمك»، يعني في مسائل الخدمات العائلية والعناية.

وفي الجمجمـة، بينما كان الضحيـة يقـدم للعـالم أجمع وهو يعـاني على الصليب، وعـد بثوب مـن الخلود اللص الـذي صلب على يمينـه وسأل الغفران، وفيما هـو معلق على الصليب، طُعـن برمح، وتـدفق منـه دم مع ماء، وسببـت نقاط من هـذا استرداد يوجينيـوس لبصره(١)، ويوجينيـوس

١ —تبعاً للتقاليـد كان يوجينيوس أعمى أو بعين واحـدة، لكن عندما أصـابت بعض نقاط الدم والماء عينيه استرد بصره، وتحول عن دينه.

هو الذي طعنـه صدوراً عن شعوره بالشفقة نحـوه، وإقراراً، أي أن تقول أنه بفعله ذلـك لن يعيش يتنوع مدة أطول تحت العـذاب، وفيما كان ربنا يمـوت على الصليب، ويسلم الـروح بإرادتـه، إنهارت ستارة الهيكـل من الأعلى إلى الأسفل، وانشطرت الصخـرة التي كان الصليب مثبتاً عليها،، من وسطها، وذلك في المكان الذي لامسـه دمه، ومكّن هذا التصدع الدم من الانسياب نحو الأسفل، حيث يقال بأن آدم كـان مدفوناً هناك تحتها، وبذلك يكون آدم قـد تعمد بدم المسيح، وقد قيل إنـه تخليداً لهذا، ترسم دومـا الجمجمة في أسفل الصليـب، لكن هـذا التعميد لآدم بـدم المسيح لايعني أكثر من أن آدم قـد أُنقذ بدم المسيح ذلك أن الكتابـات المقدسة تروي لنـا أنه قد دفـن في الخليل، وبالحري إنـه الموت والدمار هـو الذي جُسد بصورة وجـه الانسان المرعب، الذي اعتيد، على رسمـه تحت قدمي المصلوب، لأن مـولانا قـد قال:« أيها الموت، انني سـوف أكون مـوتك»، يعني دمارك. ومكـان الجمجمة موجود على جـانبك الأيمن وأنت داخل إلى الكنيسـة الأكبر، وفي الجزء الأعلى منها شـق الصخرة المشهـور، وتجري عبـادة هذا الشق بـاحتفاء عظيـم، ويعرض بـوضوح ليراه حتى في هـذه الأيام الزوار، وهـذا الجزء العلوي مزين بشكل جميل بوسـاطة الفسيفساء الأكثـر أنـاقـة، التي تمثـل مشهـد آلام المسيح ودفنـه، مـع نصـوص من النبوءات التي فيها شهادة حول الحادثة.

ولاحظ في ذلك المكـان نفسه، سواء أكـان الصليب مثبتاً حـول الثلمة التي هـي ظـاهرة مـرئيـة حتى هـذا اليـوم، والتي تُـرمـى فيها تقـدمـات المؤمنين، أو في المكـان الذي يـوجـد فيـه صدع شـاقـولي داخل صخـرة مستـديرة، وهـو أيضاً مـرئي، حيث يعلن بعضهم أن هـذا هو المكـان، وبـالفعل إن هذا المكـان زيـادة على ذلك واضح أنـه يتماشى أكثـر مع شكل الأرض وجـريـان الـدم مـن طـرفـه الأيمن في الثلمـة الموجـودة في الصخرة، ويحكى أن وجه مولانا عنـدما كان معلقاً على الصليب، كان

دوماً ملتفياً نحو الشرق بحكم الضرورة، وبسبب وضعه.

وإلى جـانب هـذا المكـان في الجزء الأعلى باتجاه اليمين يـوجـد مـذبح مكرس على شرف آلام مـولانا، وتلقـى هذا المكـان كله اسمـه من الآلام نفسها، ويحتـوي القسم السفلي من الجمجمة نفسهـا مذبحاً، وهـو يدعى باسم بيعة الدم المقدس، لأنه يحكـى بأن دم الرب قد جرى خلال الثلمة الموجودة في الصخـرة إلى المكان المعلـم في هذه الأيـام عند ظهـر المذبح المتقدم الـذكر، وقد حدث الجريـان بسبب نوع من التصـدع في الصخرة، وهناك جـرى تعليق مصباح يتقـد دوماً، ومكتـوب على المدخل الخارجي للجمجمة الأبيات التالية:

«أحضر مولانا إلى هنا، جرت خيانته، وصلب ُوغسل،

ولهذا إن هذه الجمجمة الشهيرة أرض مقدسة، لأنه من المؤكد

أن دماء يسوع التي سفكت وسالت فوق هذه الرابية سوف تنقذنا

وتنجينا، وتحمينا، ولسوف تغسل ذنوبنا وتمحوها».

الفصل الحادي عشر

في وسط شرفـة الكهنة، ليـس بعيداً عـن الجمجمة، وفي بقعـة صنعت لتأخـذ شكل مذبح بـوساطة ألـواح واقفة من الـرخام مدعـومة بحـاجز مفتـوح من الحديـد له شكـل صليب، وتحت ألـواح الـرخام هـذه دوائر صغيرة على البلاط، يقـولون إنها علامـة على مركز الأرض، وذلـك تبعاً لما جاء في النص الذي يقول: «صنع خـلاصه في وسط الأرض»، ويقال بأن الرب قد ظهر في هذا المكان نفسه لمريم المجـدلية المباركة، وكان هذا بعد قيامته، وهـذا المكان مبجل جداً، وفيه مصباح معلـق في داخله، ويذهب بعضهم إلى القـول بأن يوسف (النجـار) قد حصل على جسد يسـوع من بيلاطـس لأجل دفنه، وكـان ذلك في اليـوم نفسه، أي في اليـوم السادس

من الاسبوع، فلقد أخذ جسده من على الصليب وغسله بتبجيل، ودهنه بدهن ثمين وبعطر، ولفه بقطعة نظيفة من قماش الكتان، ودفنه في مكان ليس بعيداً كثيراً، وكان ذلك في حديقته، في القبر الجديد الذي نحته لنفسه في الصخر، ونزل من هناك إلى رابية لتحرير الرجل، وفي هذا المكان نفسه قام الرب حقاً من الموت، وظهر هناك ملاك الرب إلى النساء المقدسات، عندما انزاحت الأحجار بعيداً، عن وجه الضريح، وأخبرهن أن يسوع قد قام حقيقة من الموت قائلاً: «اذهبن وأخبرن أخواني» وقال ثانية: «أخبرن حوارييه وبطرس».

وفي اليوم نفسه، وبعدما مضت سحابة النهار، اختفى المسيح تحت مظهر رجل غريب، وظهر لاثنين من حوارييه، وهما يسيران وقد استبد بهما الحزن بسبب موته، وذلك على الطريق إلى نيقوبولس، أي عمواس (الأصح: قالونية) وهي بلدة على مسافة ستة أميال من القدس باتجاه الغرب، حيث استقبل من قبلهما كضيف لهما، وقد تعرفوا إليه بكسره للخبز، لكنه مالبث أن اختفى على الفور، وظهر بعد ذلك لجميع الحواريين، باستثناء توما، وكان ذلك على جبل صهيون، عندما كانت الأبواب مغلقة، قائلاً:«سلام لكم»، زد على هذا لقد ظهر على الجبل نفسه بعد مضي ثمانية أيام إلى توما وإلى بقية الحواريين، وقدم له جراحه ليشعر بها، وبناء عليه قال توما: «مولاي وربي»، وأعمال الظهور هذه مرئية على صورة، على أنها حدثت في مكان ما على جبل صهيون، أي أن نقول في قبو الكنيسة الكبرى، وهناك في الصورة تمييز في تقديم كل حادثة وعرضها، وفي هذا المكان رسم ربنا أيضاً وهو يغسل أقدام حوارييه، وأظهر يسوع نفسه بعد القيامة ثلاث مرات أيضاً إلى حوارييه إلى جانب بحيرة طبرية وفوقها، وكذلك في أماكن أخرى إلى جانب هذه الأماكن، وذلك من أجل أن يبرهن أنه قد قام من الموت، وأننا سوف نقوم فيها بعد.

الفصل الثاني عشر

والآبدة الحاوية للضريح المقدس لربنا دائرية تقريباً في شكلها، ومزينة في الداخل بأشكال فسيفسائية، ويدخل إليها من الشرق من خلال باب صغير، يوجد أمامه غرفة معاكسة ذات شكل رباعي تقريباً، مع بابين، يدخل من أحدهما الأشخاص الذين دخلوا إلى الآبدة، وسمح لهم بالدخول إلى الضريح، ويمر من خلال الأخرى المغادرون، ويسكن في هذه الغرفة المعاكسة حرس الضريح، وهناك فيها باب ثالث يؤدي إلى الشرفة، وهناك خارج هذه الآبدة نفسها، أن تقول عند رأس الضريح، يوجد مذبح، قد بني فوقه نوع من أنواع المظلات المربعة الشكل، وجدران هذه المظلة الثلاثة مصنوعة من الحديد الذي أخذ شكل صلبان متداخلة، ويدعى هذا المذبح باسم مذبح الضريح المقدس، وللآبدة قبة فوقها مثل الكأس، الجزء العلوي منها مغطى بالفضة، وهذه القبة شاهقة الارتفاع في الفضاء المفتوح المتجه نحو السماء، وهذا جعل من البناء الذي قامت فوقه بناء كبيراً، وهو بناء أخذ شكلاً مستديراً، لأنه قام على أرض ذات خطة دائرية، مع وجود فسحة واسعة حول الآبدة (أي آبدة الضريح المقدس)، ويوجد في نهايتها جدار متواصل مزين بصور تمثل مختلف القديسين على مستوى واسعاً، وهو مضاء بعدد كبير من المصابيح، ويوجد في الإطار الضيق لهذا البناء الواسع ثمانية أعمدة مستديرة من الرخام، التي لها ثماني قواعد مربعة، مزينة من الخارج بالعدد نفسه من الألواح الرخامية، وهي موضوعة جميعها حول (النقطة المركزية)، وتدعم مجازاً تحت السقف الذي كما قلنا هو مفتوح في الوسط.

وفي الأسفل أبيات شعر متنوعة، يمكن رؤيتها في أماكن مختلفة،وقد كتب فوق اسكفة الضريح المقدس:

«لماذا أيتها المرأة تبكين، ولماذا تجثين أمام الذي يبتغي الموت؟

لاتلمسيني، انتبهي أنني وأنا حي جدير بأن أعبد».

وكتب فوق اسكفة المدخل الداخلي لضريح الرب:

«يشهد المكان والحارس على قيامة المسيح،

كذلك القماش الكتاني، والملاك، والفداء».

وكتب في الداخل حيث كان الرب قد مدّد:

«أنزل جسد الرب من على الصليب وسط الدموع من قبل أصدقاء،

لقد تحمل الآلام من أجلنا، الذي يلبس التاج الآن»

وكتب في الداخل على مقربة من ضريح الرب:

«بالعطر مدهون هذا القبر الذي رقد المسيح فيه،

وبالفضيلة يمكن للاستقامة أن ترتفع إلى السماء،

الانسان مسرور، الأرواح تحركت، وجهنم كلها تزمجر،

لأن ذنب حواء ألغاه قدوم المسيح»

وكتب في المكان نفسه، لكن في الوسط:

«هنا جرى تمديد المسيح في داخل هذا الضريح الصخري

ولقد فتح دفنه باب السماء للفانين»

ولقد قلنا أن الأعمدة التي عددناها من قبل قد صفت على شكل دائرة، لكن الآن على الجانب الشرقي اختلف عددها وصفها وترتيبها، وذلك بسبب الكنيسة الجديدة التي تبنى الآن عليهم، والتي مدخلها الآن قائم عند تلك النقطة، ويحتوي هذا المبنى الجديد، والذي أضيف حديثاً على شرفة واسعة للكهنة النظاميين، وحرم واسع فيه مذبح مرتفع،

مكرس على شرف القيامة المقدسة، وذلك حسبما هو مشاهد من الصورة المصنوعة من الفسيفساء الموضوعة فوقه، لأن هذه الصورة تحتوي على صورة المسيح أثناء القيامة وقد خرق أبواب جهنم، وأخرج منها أبانا آدم القديم، وخارج حرم هذا المذبح، وداخل الإطار المغلق للبناء فسحة واسعة بها فيه الكفاية من جميع الاتجاهات، وذلك خلال كل من هذه الكنيسة الجديدة، وكذلك البناء القديم القائم من حول الآبدة المتقدمة الذكر، وذلك حتى تكون موائمة من أجل المسيرات التي تجري ليل كل أحد من الفصح حتى عشية العشاء الأخير، وتتجه هذه المسيرات إلى الضريح المقدس، وهي تردد نشيد «قام المسيح»، وقد نقش نص هذا النشيد على الإفريز الخارجي الأقصى للآبدة بأحرف من فضة، وعندما كان يجري ترداد هذا النشيد وغنائه، يبدأ قادة الكورس يغنون على الفور قائلين: « لكن في المساء»الخ، وذلك مع مزمور: «تمجد روحي الرب» الخ، مع المجمل المتعلق بالقيامة، الذي نصه: «الجبار والسرمدي» الخ، مع استهلال بشطر البيت التالي: «قام الرب من هذا الضريح»، ويحتفل بالطريقة نفسها بقداس القيامة، في كل أحد، خلال هذه الآونة.

الفصل الثالث عشر

وعند رأس هذه الكنيسة الجديدة نفسها، بإتجاه الشرق، وإلى جانب دير الرهبان، مكان عميق جداً، على شكل قبو واسع جداً، يحكى أن الامبراطورة هيلانة (حنة) وجدت فيه صليب الرب، ويحتوي هذا المكان على مذبح بني على شرف هيلانة المذكورة، وقد حملت هذه الامبراطورة معها إلى القسطنطينية الجزء الأكبر من الخشبة المقدسة، لكن البقية تركت في القدس، وقد حفظت بعناية وتبجيل، في مكان محدد، في قسم آخر من الكنيسة المواجهة للجمجمة.

وصحيح أن هذا المكان قد تكرس وتقدس منذ زمن طويل بدم المسيح الذي سفك فيه، لقد أعيد تكريسه في الزمن الحالي من قبل

الكهنـة المبجلين، في يوم ١٥— تموز، وتخليـداً لهذه الحقيقة كتبت أبيـات الشعر التالية تحت عمل مذهب، وهي تحمل شهادة دائمة :

«تقدس هذا المكان من قبل بدم المسيح،

وتكريسنا له لايمكن أن يجعله أكثر قداسة

وتاريخ تكريس هذه الأبنية حول هذه الصخرة

هو الخامس عشر من تموز»

وكانـت القدس قـد جرى تحريرهـا من قبل الجيـش المسيحي في مثل هذا اليـوم نفسه للشهـر نفسه، وذلـك بعدمـا بقيت في الأسر تحت حكم المسلمين من مختلف الأنـواع، واحتفاء بذكـرى هذه التحريـر يحتفلون في هذا اليـوم، وذلك بعد تجديد التكـريس، ويكون ذلك على شكـل قداس ديني، ويغنـى في القـداس الأول: «Jerusalem Laetare »ويغنى في ذروة قداس التكريس: «Terriblls estloeus».

وجرى في اليوم نفسـه أيضاً تكريس أربعة مذابـح في الكنيسة نفسها، وهي: المذبح العـالي، والمذبح العلوي في الجمجمة، ومـذبحين في الجناح المقابل من الكنيسـة، وقد كرس أحدهما تشريفاً للقـديس بطرس، وكرس الآخر على شرف القديس ستيفن رائد الشهداء.

ويقومـون في اليوم التـالي أثناء تقـديم المسـاعدات وخـلال الصلوات بـذكـر مهيـب لجميع المؤمنين الموتـى، وبشكل خـاص الـذيـن سقطـوا بمناسبـة اقتحام القـدس، وهم الـذين مكان دفنهـم مشهور جـداً، وهو القائم قرب الباب الذهبي، وتصادف بعـد ثلاثة أيام ذكرى الدوق النبيل غودفـري، وهو صاحب الـذكرى الطيبة، فهـو قد كان مقـدم وقائد تلك الحملة المقـدسة، وقـد ولد مـن أسرة ألمانية، وتجري مـراعاة ذكـراه بشكل مهيب من قبل المدينة، بتقديم مسـاعدات وافرة في الكنيسة الكبيرة، وفقاً

لما كان قد نظمه أثناء حياته.

لكنه يكرم في هذه المدينة بهذه الطريقة لشخصه، مع هذا إن الاستيلاء على المدينة لايعزى فضله إليه مع ألمانه، الذين لم يكن نصيبهم صغيراً في الجهد والتعب في تلك الحملة، بل إنه يعزى إلى الفرنسيين وحدهم، ولهذا استخف بعضهم بأمتنا ولم يعترفوا بأنهم شوهوا ما نقش على قبر ويغر Wigger (أوويكر Wicker صاحب سوابيا) الشهير، الذي قام بأعمال رائعة كثيرة، لأنهم ما كان بامكانهم إنكار أنه كان ألمانيا، ومن ثم كتبوا نقشا أفاد بأن القبر يعود إلى فارس فرنسي أو آخر، وهذا يمكن رؤيته في هذه الأيام، لأن تابوته مرئي، وما زال موجوداً في زاوية قائمة بين الكنيسة الكبيرة، وبيعة القديس يوحنا المعمدان، وقد حذف اسمه وألقي جانباً وكتب اسم آخر هناك، وكبرهان وكمثل على النكران الذي عومل به شعبنا، ومدحاً للفرنسيين، من الممكن قراءة النقش التالي على الطرف الخارجي للآبدة:

«ألف سنة ومائة سنة، إلاّسنة،

منذ أن حملت مريم المباركة بابنها الرائع،

عندما أشرقت شمس الخامس عشر من تموز،

نيلت القدس بقوى الفرنجة»

وجواباً لهذا كتبت:

«ليس الفرنجة، بل المحاربون الألمان الأعظم شجاعة،

أنقذوا القدس وحرروها من نير الكفرة،

كان ويغر ألمانيا،وهذا ما يعرفه كل فرنجي،

وألمانيا أيضا كان غونترام وكذلك الدوق غودفري،

ومن السهل البرهنة على أن كلماتي صحيحة».

وعلى كل حال بما أن الدوق غودفري وأخاه بلدوين الذي اتخذ ملكاً في القدس من بعده، كانا من رجال بلادنا، ثم بما أن قلة من شعبنا بقيوا هناك معهما، وعادت أعداد كبيرة من الآخرين بسرعة كبيرة إلى بلادها الأصلية صدوراً عن شدة شوقها إليها، وقعت القدس في أيدي أبناء الأمم الأخرى، هذا ومعروف أن الدوق غودفري رفض التاج من باب التواضع، ثم إن أبناء الأمم الأخرى الذين آلت القدس إليهم هم من: الفرنسيين، واللوريين، والنورمانديين، والبروفناساليين والأوفرانتيين، والايطاليين، والاسبانيين، والبرغنديين، الذين أسهموا في الحملة الصليبية (الأولى)، ومع هذا لم يتركوا في المدينة ولاحتى جزئاً صغيراً في أصغر شارع، وعزلوه جانباً لصالح الألمان، وذلك بسبب أن الألمان أنفسهم لم يهتموا بهذه المسألة، ولم تكن لديهم نية بالبقاء هناك، ولهذا لم تذكر أسماؤهم قط، وعزي فخار تخليص المدينة المقدسة إلى الفرنجة وحدهم، وهؤلاء الفرنجة مع أبناء الأمم الأخرى المتقدمة الذكر، يسيطرون في هذه الأيام على السلطة ويتصرفون بشؤون الحكم في القدس والمنطقة المجاورة، وفي الحقيقة كان من الممكن لهذه المنطقة المسيحية أن تمدّ حدوها منذ وقت طويل مضى إلى ماوراء النيل نحو الجنوب، وإلى ماوراء دمشق نحو الشمال، لو كان فيها عدداً كبيراً من الألمان كما هو الأمر في المقاطعات الأخرى، وعلى كل حال دعونا الآن نتخلى عن هذه الإعتبارات، ومن ثم العودة إلى موضوعنا المحدد.

الفصل الرابع عشر

ويوجد على جبل الزيتون مكان صعود الرب، وهو معلم في وسط كنيسة قد بنيت منذ زمن طويل فوق البقعة، وهناك فتحة في سقف هذه الكنيسة من أعلاها، وحمل من هذا المكان وسط الغمام إلى السماء، في وقت وقفت فيه أمه وحواريوه وأناس آخرون من الجليل، ينظرون لصعوده

بـدهشة، وكـان من قبل قـد أمر حـوارييه بعـدم مغادرة القـدس قبل أن يتسلمـوا من الآب روح القـدس الموعودة، والاطمئنـان، حتى يستكملـوا سكـون أنفسهم، وحـدث هذا في اليـوم العـاشر بعـد صعود الـرب، وفي اليـوم الخامس عشر إثـر قيـامته، أي في يـوم عيـد الحصـاد، ووقتها كـان الحواريـون مقيمـون في احـدى غـرف المبنى المتقـدم الـذكـر، فـوق جبل صهيون، وهو المكان الذي يقال بـأن ربنا قد تعشى فيه (العشاء الأخير)، وكانوا أثناء اقامتهم ينتظرون تنفيذ الـوعد، وهذا كله مرئي حتى هذا اليوم في المكان نفسه، في صورة فسيفسائية مـوجودة في داخل قبة حرم الكنيسة المتقدمة الذكر، ففي هـذه اللوحة مثلما رسم في الصورة، الحواريين الاثني عشر مع صـورهم الشخصية، وروح القـدس نازلـة فوق رأس كـل واحد منهم على شكل ألسنـة من اللهب، مع النقش التالي: «فجأة جـاء صوت من السماء»، الخ.

وفي الكنيسـة نفسها، على جهتـك اليمنى وأنت داخل إليهـا، هنـالك مكان يدعى مـذبحاً، يتألف من ألواح ملمعة من الـرخام، مصنوعة على شكل قبـة، قائمـة على البقعة التـي يقال أسلمـت عليها مـريم المباركـة الروح، وغادرت هـذا العالم العالي، وهناك أيضاً ابنهـا، ربنا يسوع المسيح مثـلاً على صـورة على الجدار المقـابل، وهـو يتسلـم روحهـا بحضـور حوارييه، ويـوجد حول المبنى الـذي شيد فوق هذا المكـان النقش التالي: «حملت الأم المقدسة للرب ممجدة فوق تراتيل الملائكة».

الفصل الخامس عشر

وبعدمـا فرغنا من رؤيـة هذه الأشياء، ووصفنا بشكـل رئيسي الأماكن التي وقعـت فيها، ووصفنـا أيضاً الأمـاكن المجاورة لها، دعـونا نعـود إلى مدينة القـدس المقدسة نفسها، لنتـولى وصف الأماكن المقدسـة الجديدة، والأمـاكن المبجلة القـديمة، التـي أعيد إعمارهـا حديثـاً وكرست لخدمـة الديانة.

وبالمناسبة لنلاحظ أن يهوذا تسلم في هذه المدينة ثلاثين قطعة من الفضة ثمناً لخيانته لربنا، وبهذا المبلغ شري الحقل المسمى أكلداما —أي حقل الدم— وعزل ليكون مدفناً للغرباء حتى هذا اليوم، وهذا الحقل قائم على الطرف الأيمن من جبل صهيون على طول الطريق الذي يقود إلى بيت لحم.

وعبر هذا الحقل، وملاصق له يقوم جبل جيون Gion ، الذي عليه تسلم سليمان التاج الملكي، كما جرت العادة بمسح الملوك الآخرين على ذلك الجبل.

ويلاحظ أن ربنا أقام فتاة من الموت في وسط القدس، كما وصنع عدداً من المعجزات فيها، وعبر كنيسة الضريح المقدس، التي وصفناها أعلاه، وفي الطرف المواجه (للطريق) المتجه نحو الجنوب، هناك كنيسة جميلة بنيت تشريفاً ليوحنا المعمدان، ومضاف إليها مشفى فيه غرف مختلفة تحتوي في داخلها على حشد كبير من الناس المرضى، من النساء والرجال، الذين يلقون العناية فيها حتى يستردوا صحتهم يومياً مقابل نفقات عالية جداً، وسمعت عندما كنت هناك وعلمت أن عدد هؤلاء المرضى قد بلغ الألفين، يموت منهم أحياناً خلال يوم واحد وليلة أكثر من خمسين، وفي الوقت نفسه يدخل إليها ويصل أعداد جديدة، وماذا يمكنني أن أقول أكثر؟ فهذا المشفى يزود بالأطعمة أعداداً كبيرة من الناس في الخارج بقدر الذين هم في الداخل، وذلك إلى جانب مالايحصى عدّه من أعمال الاحسان التي تقدم يومياً للناس الفقراء، الذين يتسولون طلباً للخبز من باب إلى باب، ولايسكنون في بيت، وعلى هذا من غير الممكن جمع المبلغ الاجمالي لنفقاته وحصره حتى من قبل مديريه والعاملين فيه. وبالاضافة إلى هذه الأموال التي تنفق على المرضى وعلى الناس الفقراء، تقوم دار رهبنة هذا المشفى بالانفاق، في قلاعها العديدة، على عدد كبير من الناس، الذين تدربوا على جميع أنواع

التمارين العسكرية، من أجل الدفاع عن أراضي المسيحيين ضد غزوات المسلمين، وإلى جانب كنيسة القديس يوحنا هذه، يوجد دير للراهبات بني على شرف مريم المباركة، ورأس هذا الدير ملاصق تقريباً لأبنية الكنيسة المتقدمة الذكر، وهو يسمى: دير القديسة مريم الكبير، وليس بعيداً عن هناك، وعلى الطرف نفسه من الشارع نفسه، هناك ديرللرهبان، بني أيضاً على شرف مريم المباركة، ويدعى أيضاً باسم دير القديسة مريم للاتين، ومحفوظ فيه وسط تبجيل عظيم رأس القديس فيليب الرسول، وهو أيضاً معروض للذين يأتون ليتعبدوه، ويطلبون رؤيته.

وفي الشارع الذي يقود من برج داود نزولاً من التلة نحو الهيكل، وعلى الطرف الأيمن، على مقربة من برج داود أيضاً هناك دير للرهبان الأرمن، بني على شرف القديس سابا، وهو راعي الدير الأعظم احتراماً، لأنه عندما كان مايزال حياً، صنعت له العذراء مريم المباركة كثيراً من المعجزات، وفي هذه المنطقة نفسها، وليس بعيداً، وفي أسفل النزول خلف شارع آخر، هناك كنيسة كبيرة بنيت على شرف القديس جيمس الكبير، وهي مسكونة من قبل الرهبان الأرمن، ولديهم في المكان نفسه مشفى واسعاً لاستقبال الفقراء من شعبهم، وفي هذا المشفى محفوظ وسط تبجيل عظيم رأس ذلك الرسول، لأنه قتل صبراً من قبل هيرود، وقد وضع جسده من قبل تلاميذه على ظهر سفينة عند يافا، وقد حملته إلى غاليشيا، غير أن رأسه بقي في فلسطين، وهذا الرأس معروض في هذه الأيام في هذه الكنيسة للحجاج.

وأنت نازل في الشارع نفسه، وإلى الباب الذي يؤدي إلى الهيكل، وعلى الطرف الأيمن، هناك نوع من أنواع الممرات، خلال ساباط طويل، يوجد في شارعه مشفى وكنيسة بنيت حديثاً تشريفاً للقديسة مريم، وهي تعرف باسم بيت الرهبان الألمان، ومن النادر أن يتلقى هذا البيت أية مساعدات من الذين يتكلمون لغة أخرى غير الألمانية.

الفصل السادس عشر

ويوجد في الشارع نفسه، قرب الباب الذي يذهب إلى جبل صهيون، بيعة، بنيت تشريفاً للقديس بطرس، فيها قبو عميق جداً ومظلم، حيث يقال فيه سجن القديس بطرس، وبقي تحت الرقابة المشددة بناء على أوامر مشددة من هيرود، وقد صفد بسلاسل من حديد، وتولى حراسته الجنود من كل من الداخل ومن الخارج، لكن هذا الحرص كله لم يفد شيئاً أمام القدرة الربانية، ففي الليلة نفسها، وبوساطة واحد من الملائكة، اقتيد القديس بطرس من قبل الملاك، وخرج دونما أذى، وذلك بعدما تقطعت سلاسله، وفتحت أبواب السجن، وكذلك أبواب المدينة، وقد قال: «عرفت الآن بشكل مؤكد أن الرب قد أرسل ملاكه»، الخ. وعندمدخل البيعة، كتبت الأبيات الشعرية التالية، شارحة المعجزة التي صنعت هناك:

«قم يابطرس، وخذ رداءك، لقد تحطمت سلاسلك،

قم غادر هذا المكان، فقد غدوت حراً بفضل السماء».

«علمت الآن في الحقيقة، أنني قد تحررت من السجن،

حمداً لحب المسيح لي، ذلك أنه خلصني من الأصفاد».

وفي قبو القيود في هذه الكنيسة، قمت في يوم عيد القديس بطرس بالاحتفال بقداس، مع الدعاء المناسب للاستخدام في ذلك المكان وهو: «أيها الرب الذي سببت اطلاق سراح القديس بطرس من قيوده، ونجيته دونما أذى» الخ، وهذه البيعة بيعة فقيرة، وهي ليست غنية بالأعطيات أو مزينة بالزينة اللائقة بمثل تلك المعجزة العظيمة التي حدثت لرئيس الحواريين، ويدعى الباب الذي يقود نحو جبل صهيون باسم باب

الحديد، وقد فتح عن طواعية للملاك ولبطرس.

وفي مقابل ساحة الهيكل، أي على الجانب الشمالي، قرب الباب الذي يذهب منه الانسان إلى وادي شعفاط، هناك كنيسة واسعة بنيت تشريفاً للقديسة حنة، وفيها يمكن رؤية كيف تـمّ بالقدر الرباني وبلاانذار ولادة العذراء المباركة منها ومن يواكيم، وحسبما هو مروي بتفصيل وطول عظيم في حياة القديسة حنة، التي يحتفل بعيدها في تلك الكنيسة في يوم عيد القديس جيمس الكبير، بأبهة عظيمة، فقد كنت أنا شخصياً بين الحضور. وتتم عبادة الرب في هذه الكنيسة، من قبل معهد للراهبات المكرسات، اللائي آمل أن يكن مقبولات، وإذاما غادر الانسان هذه الكنيسة، يجد على طرفه اليساري، على مسافة ليست كبيرة، أسفل زقاق هناك، باب بركة الضأن، أو Piscina Probatica ، ومياه هذه البركة اعتاد ملاك أن يحركها في أوقات محددة أيام يسوع، وكان أي انسان مريض يدخلها بعد تحرك الماء فيها يشفى من أي مرض كان يعاني منه، وقد عرفت باسم «بركة الضأن» Probaton ، بالاغريقية، لأن العادة جرت وقت الأضاحي بغسل الأوعية الداخلية للأضاحي فيها: وفي الحقيقة كان لون الدم أحمر بسبب (دماء) الأضاحي التي نظفت هناك، وأمام بركة الضأن هذه أعاد يسوع إلى الصحة، رجلاً مريضاً، بقوله له: «خذ فراشك واحمله واذهب».

ومن هذا الشارع نفسه، الذي يقود إلى خارج باب شعفاط، وفوقه في الشارع الآخر الذي يتفرع عن هذا الشارع، وعلى الطرف اليمين، صعوداً باتجاه سور المدينة يصل الانسان إلى كنيسة بنيت تشريفاً للقديسة مريم المجدلية، وفيها رهبان يعاقبة، وقد تحدثنا عنها بكل مانعرفه؛ ويمضي الانسان عبر هذا الشارع المتقدم الذكر، مباشرة من باب شعفاط إلى الشارع الذي يؤدي إلى باب القديس ستيفن، ومن هنا (يمضي الانسان) من الاتجاه الشمالي نحو الشوارع الثلاثية، أو بالحري الشوارع الكثيرة

الفروع والتشعبات، التي تحتوي جميع الأشياء التي هي للبيع (الاسواق)، وتمتد حتى واجهة الكنيسة الكبيرة للضريح المقدس، وأقول يوجد في وسط هذا الشارع، قوس حجري قديم عبر الشارع، استراحت تحته مريم العذراء المباركة، مع ابنها المبارك، الذي كان طفلاً رضيعاً، وأنها قد أرضعته هناك، وجرى تخليد ذكرى هذه الحادثة بوساطة صورة، وقد عزل المكان وأغلق بشكل لطيف دون المارة، لأنه مكان مقدس، لكن لم تعمر هناك كنيسة لرعاية المكان وتعبده بالتبجيل اللائق.

ويوجد أيضاً عبر هذا الشارع الذي يقود من باب القديس ستيفن إلى طرف كنيسة الضريح المقدس، وليس بعيداً عن شمال الضريح المقدس، شارع صغير، فيه في كنيسة عائدة للسريان يرقد الجسد المبارك للشهيد المقدس شاريتون Chariton ، وهو محفوظ هناك وسط تبجيل عظيم من قبل الرهبان السريان، وجسده في هذه الأيام كامل تقريباً، وهو محفوظ في داخل تابوت خشبي، يرفع غطاؤه، عندما يعرض أمام الحجاج ليروه. وكان هذا الأب المبارك قد قتل من قبل المسلمين في داخل ديره (قرب تقوع) على ضفاف نهر الأردن، وقتل معه رهبانه، لأنه اعترف باسم المسيح.

الفصل السابع عشر

وخارج باب القدس الذي يتطلع نحو الغرب، وهو الجانب الذي جرى فيه تحرير المدينة من قبل اسرائيل الثاني، سقط رائد الشهداء المبارك ستيفن، بعدما أنهكه الرجم بالحجارة، وقد نقل جسده من هناك إلى كنيسة صهيون، ودفن فيها بين نيقوديموس وجمالئيل، وأبيبون، ثم أعيد دفنه فيها بعد في القسطنطينية، ودفن أخيراً في روما بوساطة القديس لورانس، ولهذا كتب على قبره بيت الشعر التالي:

«أرسلت بيزنطة إلى هنا ضحية صهيون البريء».

وخارج باب القدس— إلى جانب بركة (ماملاّ)— المتجه نحو الجنوب يمكن رؤية الكهف الذي حمل إليه أسد أجساد اثني عشر ألفاً من الشهداء الذين هلكوا على أيدي كسرى، وكان ذلك بناء على أمر الرب القدير، ولهذا أطلق على الكهف اسم «مدفن الأسد».

وعلى ميلين من القدس، وعلى الطريق الذي يقود إلى شكيم، يقوم جبل جبع، في منطقة سبط بنيامين.

وعلى ميل من القدس، على كتف جبل الزيتون، يقع جبل (بطن الهوا) العدوان الملاصق له، لكنه منفصل عنه بوساطة الطريق الذي يقود من شعفاط خلال بيت فاجي إلى بيت عنيا، وهو يدعى باسم جبل «العدوان» (بطن الهوا)، لأن سليمان أقام هناك صنم مولوخ Moloch، وعبده.

وملاصق للقدس تماما، وعلى جانب الهضبة، تحت قصر سليمان، في وادي شعفاط، تقوم بركة سلوان، التي إليها أرسل يسوع الرجل الأعمى، الذي رد إليه بصره، ليغسل عيناه فيها، وذهب وغسل عيناه واسترد بصره، وهكذا فسرت كلمة سلوان بـ «أرسل»، وليس إلى هذا الماء نفسه أرسل نعمان أمير سورية من قبل النبي اليجيا، بل أرسل إلى الأردن، على أمل أنه إذا ما اغتسل فيه ثلاث مرات، يمكن أن يبرأ من جذامه، وقد نظر إليه باستخفاف وقال: «أوليس أبانا وفرفر» —النهران الموجودان في بلاده —«نهران أفضل من هذا»؟ ووافق على كل حال أخيراً على الأخذ بنصحية خادمه، حيث نفذ أمر النبي فشفي، وسلوان تبعاً لتقاليد السريان، ينبع من سيلو، ويسيل ماء سلوان بصمت، لأنه يجري من تحت الأرض، وعلى مقربة من سلوان هناك شجرة بلوطة روجل، التي دفن تحتها إشعيا المقدس.

وقد دفن في وادي شعفاط جيمس المبارك ابن ألفيوس، الذي حسبما

روينا من قبل قد رمي من أعلى الهيكل، وهنـاك بيعة جميلة في هذا الوادي نفسه، فيها برهان على دفنه، وقد كتبت عليها الأبيات التالية:

«هاجم الكفار اليهود ابن ألفيوس

وهو من أجل اسم الرب، وحباً بالموت فعل.

رمي ابن ألفيوس من أعلى الهيكل

وبأيد تقية دفن هنا أخيراً»

وعلى كل حـال نقل رسـول الرب فيها بعـد من هنا إلى القسطنطينيـة. ودفن في وادي شعفاط الملك يهوشافاط تحت هـرم حاد الذروة، ومن هذا الملك نال الوادي اسمه، ومعنى هـذه التسمية هو «وادي الحكم»، وذلك إشـارة الى النص الـذي يقول :«سـوف أجمع معـا جميع الأمم»، وفي هـذا الوادي نفسه الكثير من الكهوف في كل جـزء منه، يعيش فيها رجال دين حياة النساك.

وتعود ملكيـة الوادي بأكمله الى الـدير الذي يقـوم في الجزء الأعلى من الـوادي القائم فـوق نهر قدرون الصغير، وذلك الى جـانب الحديقـة التي غالبـاً ماالتقى فيها ربنـا مع حوارييه، ومعـروض في قبو هذا الـدير— في الوقت الحالي— ضريح العـذارء مريم المباركة، الذي سـوف نتحدث عنه بشكل أطول.

الفصل الثامن عشر

في اليوم الذي حدث فيه انتقال جسد العذراء مريم الأعظم مباركة ، حمل هذا الجسد إلى الكنيسة القـائمة في وادي شعفاط، وكان الاثنى عشر حواريا من حـواريي الرب جميعاً حضوراً، وذلك بناء على رغبتهـا، وكانوا هناك حيث دفنت بالتشريف اللائق في وسط القبو، المزين بأعمال رخامية رائعة، ولوحات مرسومة جميلـة جداً بالألوان المختلفة، وضريحها —مع أن

جسدها لم يعد فيه— بهي جداً بسبب لوحاتـه الرخامية، ومايشبه بناء قبة من الذهب والفضة، فبهما مغطاة، وقد نقش عليها مايلي:

«من هنا ومن وادي شعفاط، ممر يؤدي إلى السماء،

كانت العذراء هنا مرة راقدة، وهي الفتاة موضع ثقة الرب،

من بقعة غير محددة، من هنا قامت، ولها فتحت بوابة السماء،

للفقراء المذنبين وللدروب، أضاءت أمهم آمالهم».

وجسدهـا المبارك ليـس هناك، بسبب هـو كما أخبرنا، أن القبر عنـدما جرت زيارتـه في اليوم الثامن تماشياً مع العادة العبريـة، ونظر في داخله لم يكن الجسد مـوجود هناك، ومن هـذا نشأ اعتقاد قوي أنـه ليست روحها فقط بـل جسدهـا كذلـك أقيم وسط مجد عظيـم من قبل ابنهـا ورفع إلى السماء،الأمر الذي أشـار إليه جيروم بشيء من الشك، بدلاً مـن التأكيد، وجاء ذلك في رسالـة مطلعها: «أنتما ترغماني يابولا ويايـوستوخيوم»، الخ. وهـذا على كل حال ربما ممكـن، لأننا نعتقـد أن مريم العـذراء المباركـة، وحدهـا —لأنها وجدت جـديرة بحمل خالقهـا— جديـرة بكل تشريف وتطويب، وذلك بـالنسبة لكل من جسدها وكـذلك روحها، وبما أن ابنها حي أبـداً وكلـه قدرة، فقـد كـان راغبـاً وقادراً على فعـل هذا، وضريحهـا مشرف أيضـاً وتجري عبادتـه، لأن هناك بعـض الترابط والتشـابه بمجـده ومكانتـه، والذي يقـدم لضريح ابنها المبـارك. ومن الممكن أن نـرى عند مدخل القبو الصورة التالية مع النقش التالي:

«أيها الوارث للحياة، تعال، واحمد الرب، الذي

حياتنا له، وهو الذي قرر مصيرنا».

ويوجد على الجانب الأيسر صورة جيروم، وهو حامل للنقش التالي:

(هذا النقش مفقود في جميع المخطوطات)

والآن ضريحها معروض للمشاهدة في هذه الأيام في وادي شعفاط، ولقد شهدناه أثناء حضورنا، في وسط الوادي، حيث هناك كنيسة بنيت على شرفها، بتزيينات رخامية رائعة، ولقد تأكد من قبل الجميع أنها قد دفنت هناك، ويوجد عند الطرف الأيمن من المدخل إلى هذه الكنيسة تمثال لباسيل المقدس، وهو يحمل هذه الكلمات:

«أشد أعداء أم الرب

يوليان المرتد قد قام

الأول في القوة وفي المكان

من العرق الكافر المتوحش،

وبعزيمة من أم الرب، هو

قد هلك في طغيانه.

المجد دائماً أبداً

إلى الملكة التي نعبدها،

والتي دفنت مرة تحت هذه الأرضية».

وهذه الأماديح وأماديح أخرى كثيرة قيلت بالعذراء، قد وضعت عند مدخل القبو، وفي الداخل على الجدران التي تحيط بالضريح وعلى السقف كتبت النقوش التالية: على الجدار في الجهة اليمنى: «حملت مريم العذراء إلى قصر في الجنة»، الخ. زد على هذا، جاء على وصلة إطار الكنيسة النص التالي: «انتبهي أنت جميلة، يا حبيبتي، انتبهي أنت جميلة، أنت لك عينتي حمامة»، الخ، حتى إلى «ليلك الوادي»، وأضيف إلى هذا: «بنات صهيون قد رأينها»، «من مكان الصدق هذا صعدت العذراء الرائعة إلى السماء، أتمنى عليكم أن تبتهجوا، لأنها صعدت إلى

الأعـالي بـدون كـلام وحكمت إلى الأبـد مـع المسيح»، وكتـب على الجزء الأمامي: «حملت مريم إلى السماء» وعلى الجزء المقـابل: «تمجدت أم الرب المقدسة»، الخ، وفي الـوسط: «حشود الملائكة واقفة حول مـريم المباركة، وهي تنظر إلى العرش، معلنة أنها أخذت طريقها إلى مملكة السماء».

ويـوجد عنـد سفح جبـل الـزيتون، على الجانـب الأقرب إلى المدينـة، حيث الآن ضريح العذراء مريم المباركـة، يمكن رؤية قرية صغيرة تدعى جيسماني.

الفصل التاسع عشر

بيت لحم الذي يعني اسمها «بيت الخبز» هي مدينة في اليهودية، وهي تعرف أيضاً باسـم إفراتا، وهذا ليس بدون سبب، لأنـه من زهرة الناصرة تنامت هنـاك وجاءت ثمرة الحياة، وأعنـي بذلك من العذراء مـريم، جاء ابن الـرب الحي، يسوع المسيح، الـذي هو خبز الملائكـة والحياة بـالنسبة لجميع العالم، ويـوجد في بيت لحم، في مكان ولادته المزود الـذي تمدد فيه الطفل يسـوع نفسه، ومـن هنا كـان قول النبـي: «يعرف الثـور أصحابـه، وتعرف الأتـان مزود صـاحبها»، وجـرى حمل التبن من هـذا المزود —أي التبن الذي تمدد عليه الطفل يسوع، وأخذتـه الامبراطورة هيلانة إلى روما، وهـو معروض وسـط مظاهـر التبجيـل في كنيسة القـديسـة الكبيرة، ومن الممكن أن نقرأ في موضع مهد ربنـا البيتين التاليين وقد نقشا داخل عمل فسيفسائي مذهب:

«من محاسن مقدّم الملائكة التي لانظير لها،

حملت العذراء هنا بالرب نفسه»

وإلى بيت لحم جاء الملـوك الثلاثة من الشرق يقودهـم النجم الجديد، لعبـادة الطفل يسوع، ولكـي يقدمـوا احترامهم لملـك الملائكة قـدموا لـه الهدايا الـرمزية المؤلفة مـن الذهب والبخور والمر، وفي بيـت لحم والمناطق

المجاورة لها، أمر هيرود بقتل الأطفال الأبـرياء، ويرقد القسم الأكبر منهم مـدفونين في الجانب الجنـوبي، على بعد أربعـة أميال مـن بيت لحم وعلى ميلين من تقوعه.

وفي بيت لحم، دون الكنيسة نحو الأسفل، وليس بعيـداً عن مزود ربنا، يرقـد جسد القـديس جيروم، وجسد بـاولا، وجسد يـوستوخيوم، اللـذين كتب إليهما جيروم نفسه رسائل، وهما مدفونان مثله في بيت لحم.

وعلى مسافـة ميل واحد عن بيت لحم أضاء النجـم للرعاة عندمـا ولد الرب، وظهـر ملاك وهو يردد قـائلاً: «المجد للرب بـالأعالي وعلى الأرض السلام وللنـاس المسرة».(لوقا: ٢/ ١٤)، وعلى بعـد ثلاثة أميـال من بيت لحم تقوم تقوعه، وهي بلدة عاموس الـذي يرقد مدفوناً هناك، وعلى أربعة أميال من بيت لحم وبـاتجاه الجنوب تقوم كنيسة القديس شـارتون، حيث عندمـا غادر هو نفسـه من هذا العـالم هلك رهبانـه معه، ذلك أنـه كان معلمهم التقي، وكـانوا قد تلقـوا من قبل انذاراً مـن الرب، لأنه كـان أباً تقياً لهم، وفي الحقيقـة كانوا يهيمـون حباً به، ولهذا لم يـرغبوا بالعيـش بعد مـوته، وفي الكنيسـة المتقدمـة الذكـر يمكن رؤيـة هياكلهم العظميـة في الأوضـاع التي كانـوا عليها، عنـدما استبـدت بهم آلام الحزن عند مـوت أباهم، وقد نقلوا منذ أمد إلى القدس.

وعلى مسافة ميـل من بيت لحم، وعلى الطريق الذي يقـود إلى القدس، تقوم قبة راحيل، وهو المكان الذي تـوفيت به راحيل، بعد حملها ببنيامين، وقد دفنت هنـا من قبل زوجها يعقـوب، في قبر وضع يعقوب فـوقه اثنتي عشرة صخـرة عظيمة، وذلـك بمثـابة ذكـرى ابنـائهـا الاثني عشر، والهرم الذي تشكـل من هذه الصخور يمكـن رؤيته من قبل الـذين يعبرون من هناك.

الفصل العشرون

عندما كان ربنا في التاسعة والعشرين وثلاثة عشر يوماً من عمره —حسبما يروي لنا لوقا— ولدى شروعه بدخول سن الثلاثين، ورغبة منه في وضع نهاية للاختتان، وليجدد الانسان العجوز بالماء المقدس، ذهب إلى الصحراء إلى يوحنا، الذي كان رائده، وتعمد من قبله في نهر الأردن، في مكان يبعد ثلاثة أميال عن أريحا، وهناك سمع صوت الآب يرعد فوقه قائلاً: «هذا هو ابني الحبيب» الخ؛ وينبع نهر الأردن من نبعين هما: «أر» و «دان»، وهو ينبع عند سفح جبال لبنان، وبعدما يسير لمسافة طويلة يتشعب، ثم تعود مياهه إلى الاندماج قرب جبال جلبوع، وزيادة على ماتقدم، عندما كان المسيح يتعمد، جاء الروح القدس، وحلق فوقه على شكل حمامة، وبذلك أظهر، أنه هو، وليس يوحنا الذي يمتلك قوة تقديس الماء، وقرب البقعة نفسها، أي أن تقول على مسافة ميلين من أريحا، وعلى الجانب الأيسر، توجد الصحراء التي اسمها القرنطل، وعلى رابية صخرية فيها عمل المسيح صيامه الذي دام أربعين يوماً وليلة، وعندما كان جائعاً هناك جاء الشيطان لاغرائه قائلاً: «قل أن تصير هذه الحجارة خبزاً» (متى: ٤/ ٣)، ويقوم على ميلين من القرنطل باتجاه طبرية الجبل العظيم الارتفاع، الذي حاول الشيطان فيه ثانية إغراء المسيح، حيث أراه جميع ممالك الدنيا وقال له: «كل هذا سوف أعطيه لك»، الخ.

وعلى مقربة من القرنطل نهر صغير يصدر عن النبع الذي شفى فيه ألسيوس المقدس المرأة العاقر، وجعله حلواً بدلاً من المرارة، وقبل أريحا، وعلى طرف الطريق كان هناك متسول أعمى، وعندما سمع أن يسوع كان ماراً عبر الطريق صرخ: «يايسوع، أنت يابن داود، ارحمني»، وكان جديراً أن يتلقى النور منه في كل من الخارج ومن الداخل، وعلى مسافة ثلاثة عشر ميلاً من القدس باتجاه الشمال تقع أريحا، وهي مدينة راحاب العاهرة، التي استضافت أربعة من الجواسيس من بني اسرائيل، وأنقذت حيواتهم، وأخفتهم وأطعمتهم، وهي أيضاً مدينة زاخايوس (زكريا)

الـذي عندمـا سمع بـأن يسوع كـان يسير في تلك الأطـراف، ولأنه كـان قصير القامة فقد تسلق شجرة جميز، حتى يمكنه أن يراه، ويتحدث إليه، حـاكماً على نفسه وسـائلاً مـن أجل العفـو، وهي أيضـاً مـدينة الأطفـال الذين سخـروا من الياس المقدس، عندمـا كان ذاهباً إلى القدس، وقـالوا له: «ابتعد فأنت أصلع الرأس»، الخ.

وعلى ثلاثـة أميال من أريحا، وعلى ميلين من الأردن تقـوم بيت حجلة، التي فسر اسمهـا على أنـه يعنـي مكـان الـدائرة، لأنـه في هـذا المكـان، وحسب عـادات الندب، عمـل أبناء يعقـوب والناس معهم دائرة حـول قبره، عندما جلبوه من مصر إلى الخليل.

وعين الجدي، في منطقة سبط يهوذا، حيث أخفـى داود نفسه في أيلون Aulon ، أي أن تقول في سهل منطقـة أريحا، وعلى كل حال هناك قـرية يهوديـة واسعـة إلى جوار البحـر الميـت اسمها عين الجدي، وفيهـا ينمـو شجـر البلسم، ومنهـا يصـدر، وهذا هـو السبـب الذي دعـا إلى إطـلاق اصطلاح عين جدي على الكروم.

الفصل الحادي والعشرون

وعلى الجانب الآخـر من القدس، وبـاتجاه الجنوب قليـلاً، تقوم مـدينة الخليل، التي كانت في يوم من الايـام المدينة الرئيسية في فلسطين، ومكان إقامة العمالقـة، وهي على مسيرة يوم واحد من القدس، وقـد أعدت هذه المدينة ونظمت لتكـون مدينة كهنة ومدينـة لاجئين في منطقة سبط يهوذا، ففي تلك المنطقـة صنع الخالق أبـانا العـام آدم من طين، ونفخ فيـه روح الحيـاة، وتـدعـى الخليل بـاسم «قـريـة — أربعـة» حسبما ورد بـاللغـة السريانية، ومعنى هـذا وتفسيره «مدينة الأربعة» فمعنى كلمة «قـرية» هو «مدينة» و (Arba) «أربعة» وسبب هـذا أن أربعة من الآباء «البطـارقة» قـد دفنـوا في الكهـف المزدوج الموجـود هنـاك، وهـم: آدم وإبـراهيـم،

واسحق، ويعقـوب، مع زوجـاتهم، أمهاتنـا: حواء، وسـارة، ورفقة، وليـا، وتقوم الخليل الآن على مقربة من وادي الدموع، وعرف وادي الدموع بهذا الاسم، لأن آدم ناح هنـاك على ابنه هابيـل لمدة مائة سنة، وحـدث هناك أيضـاً فيما بعد، أن تعـرف — بناء أمـر من مـلاك— على زوجتـه، التي حملت منـه فيما بعد ابنـه شيث، الـذي انحدرت منـه أسرة المسيح، وعلى مسافة ميلين من الخليل يقوم ضريـح لوط، ابن أخى ابراهيم، وفي الخليل حقل، التربـة فيه حمراء، ويحفر هـذا من قبل السكان، وتـؤكل تربتـه من قبل السكـان ويصدرونها إلى مصر، ويبيعـونها هناك بثمن مـرتفع، وبأمـر من الرب، نجد هذا الحقل الذي يحفـر عميقاً وعريضاً، يتجدد ويعود كما كان دوما في نهاية السنة.

وعلى مقـربة مـن الخليل يوجـد جبل ممـرا، الـذي عند سفحـه توجـد شجـرة تدعـى «دربسDirps أي البلـوطـة المقدسـة والخضراء دومـا، أو البلوطـة فقط، وهي التي سكـن ابراهيم تحتها لـوقت طويـل، وتحتها رأى الملائكة الثـلاثه، وقد تعبّد واحـداً منهم، وأكرم وفادتهم بقدر مـا أمكنه، وطمأنهم وأكل معهم.

وأوضح جيروم أن البلـوطة المتقدمـة الذكر ظلـت موجودة حتـى أيام الامبراطور ثيوديوس، ومنها تفرعت البلـوطة الموجودة الآن، وهي مرئية في هذه الأيـام ومحط رعايـة شعب ذلك المكـان وعنايتـه، ومع أنها مـازالت تمتلك سمات الإبـراء كما تبرهن من خـلال حقيقـة أنه إذا مـا قام فـارس وحمل قطعة منهـا معه، فـإن حصانـه لن يكبو أبـداً، وكانـت الخليل أول مكـان وصل إليـه يشوع وكـالب، ومعهما رفـاقهما العشرة، وحكم داود في الخليل لمدة سبع سنوات ونصف السنة.

الفصل الثاني والعشرون

وعلى بعد عشرة أميال من الخليل، وباتجاه الشرق تقوم بحيرة اسفلت التي تدعى أيضاً باسم «البحر الميت»، وهو بالحقيقة بحر ميت، لأنه لايحتوي على شيء حي، ويسمى أيضاً «بحر الشيطان»، لأن المدن الأربعة غير السعيدة بأعمالها غرقت فيه، وهي: سدوم، وعموره، ودومه، وساعور، لأنها ثابرت على اقتراف شرورها، فأحرقت بالنار، وبنار الكبريت، ومن ثم أغرقت في تلك البحيرة.

وعلى قرب من البحيرة، على منحدرات اليهودية تقوم سيجور، التي عرفت أيضاً باسم بلع، وزرع، وهي المدينة الخامسة من هذه المدن، وهي التي حفظت من الغرق بسبب صلاة لوط، ومن الممكن رؤيتها في هذه الأيام، وهي تعرف أيضاً باسم «قلعة النخيل»، وكانت زوجة لوط قد حولت إلى عمود من ملح، وعلى الطريق عندما يخرج الانسان من سيجور، يمكن أن يراها باقية ومن الممكن مشاهدتها، وعلى شواطىء البحيرة المتقدمة الذكر هناك الكثير من الشب، والقار، ويتولى جمعه السكان المحليون، ويستخرجون من البحر الحمر، أو الفحم القاري الذي يعرف باسم الحمر اليهودي، وهو ثمين يستخدم لأغراض كثيرة، وعلى كل حال تدعى سيجور من قبل سكانها باسم بلدة النخيل.

وليس بعيداً عن بحيرة اسفلت، عندما يذهب الانسان هبوطاً نحو العربية يوجد كهف الكرك، في جبل المآبيين، ففيه قاد بلك بن باعور النبي بلعام، علّه يقوم بلعن بني اسرائيل، ويدعى هذا الكهف بـ «الانقطاع» لأنه قائم وسط شعاب منحدرة، وتفصل بحيرة اسفلت اليهودية عن العربية، وكانت العربية في أيام بني اسرائيل صحراء مهجورة بلا سكان، ومعزولة، لايمكن المرور بها، ولاماء فيها، وأبقاهم الرب هناك لمدة أربعين سنة، وهو يمطر عليهم المن ليأكلوه، ويجعل الماء ينبع من الصخور.

ويـوجد في العـربية جبل سينـاء، الذي بقـي موسى عليـه لمدة أربعين يوما والعـدد نفسه من الليالي بدون أي طعام، وهناك أعطـى الرب موسى الشريعـة وقد كتبت بـاصبعه على ألـواح من الحجـر، ويوجـد في العربيـة وادي مـوسى، ففيه ضرب الصخـرة مـرتين، فأرسلت نهرين مـن الماء من أجل شعب الـرب، منهما ما تزال المنطقـة كلها تشرب، وفي العربيـة سار عمود مـن نار أمـام بني اسرائيل في الليل، وأظلتهـم غمامة كل يـوم، وفي العـربيـة حليم Helim (وادي وسيط، أو وادي غُـرنُـدل) حيـث قيست مسـاحـة معسكـر بنـي اسرائيل، وبما أن مكـان هـذا المعسكـر كـان في الصحراء، فإنهم عنـدما خرجـوا من البحر الأحمر، وجـدوا اثني عشر نبعاً وسبعين شجرة نخيـل، ويوجـد في العربيـة أربعين محطة تـوقف فيها بنـو اسرائيل، ويوجـد في العربية جبل حـوريب، الذي دفن عليـه هرون، وفي العربية أيضـاً جبل عبريم Abarim، الذي دفن فيه الـرب موسى،الذي لايمكـن رؤيـة قبره في أي مكـان، وفي العـربيـة هنـاك الجبـل الملكـي (مونتريال)، الـذي استولى عليه الملك بلدوين، الملـك الأول للفرنجة في القـدس، وألحقـه بالأراضي التـي كـانت بحـوزة المسيحيين، وعمل عليـه حصناً قوياً (الشوبـك) من أجل أرض داود، وتتصل العربية بأرض أدوم قرب بصرى، وأدوم هي بـلاد دمشق، وعلى كل حال أدوم تابعـة لسورية، ورأس سورية دمشق.

الفصل الثالث والعشرون

وعلى مسافـة أربعة أميـال من القدس، وبـاتجاه الجنوب، تقـوم البلدة التي كان زكريا يسكن فيها عندمـا جاءت مريم أم يسوع، وهي حامل في رحمهـا بابـن الرب، مسرعـة لتقديـم التحية إلى خـالتهـا إليزابـث، حيث كانت وقتها حاملة بابنها يوحنا، الذي يقال بأنه ولد في ذلك المكان.

وعلى ستة أميال مـن القدس، وباتجاه الجنوب على الطريـق الذي يقود إلى الرملـة يقوم جبل مـودين Modin، الذي جاء منـه متيتا -Mathath

ias، أبو المكابيين، الذين يرقدون مدفونين هناك، ومن الممكن رؤية قبورهم هناك حتى هذا اليوم، وعلى ثمانية أميال من مودين، وعلى الطريق الذي يقود إلى يافا، تقوم مدينة اللد، والتي تعرف أيضاً باسم ديوبولس، ففيها مدفون جسد القديس جرجس، وهو معروض هناك على مسافة ميل من الرملة.

وعلى ستة عشر ميلاً من جبل الكرمل، وباتجاه الجنوب تقع مدينة قيسارية الفلسطينية، التي هي مطرانية، ومدينة كورنيلوس، قائد المائة الروماني، الذي عمده القديس بطرس هناك، وعمله أسقفاً، وهناك يوجد برج ستراتو، وهناك أيضاً بنى هيرود ميناءً من الرخام الأبيض لمواجهة قدوم أغسطس، وبنى هيرود نفسه البرج الذي يتحكم بالقدس، وهو الذي يعرف باسم برج داود، ويخبرنا يوسفيوس بأنه بنى هذا البرج وسماه «أنطونيا».

وعلى مسافة ثمانية أميال من الناصرة، وباتجاه الكرمل يقوم جبل قيمون، فعند سفحه وإلى جانب نبع هناك قتل لامخ أبو نوح مقدمه قاين بقوسه ونشابه، ولهذا قال في ثورة جنونه وغضبه: «لقد قتلت رجلاً أنا معجب به، وذبحت رجلاً شاباً لإيذاء نفسي» وعن قاين قال الرب:«إن الذي قتل قاين على هذه الصورة سوف يعاقب عقاباً مضاعفاً سبع مرات». وعلى بعد سبعة أميال من جبل قيمون يقوم جبل الكرمل، الذي نقرأ عنه في نشيد الإنشاد قوله: «رقبتك مثل جبل الكرمل»، وللعيش عليه اختار ذلك الياس المقدس لمدة طويلة ومعه تلميذه «إليشا».

الفصل الرابع والعشرون

يفصل لبنان أدوم عن فيقيقيا، وفي فينيقيا مدينة صور، وهي المدينة الأكثر شهرة بين مدن الفينيقيين، وهي الحاضرة، التي — تبعاً لروايات

السريان— رفضت استقبال المسيح داخل أبوابها عندما كان يسير على شاطىء البحر، وهي أيضاً المدينة التي — وفقاً لصفحة مقدسة وبشهادة منها — قدمت شهداءً للرب، علمه فقط يمكنه أن يخبر عن عددهم، وفي صور قبر أورجين، وخارج صور تقوم الصخرة الرخامية الكبيرة التي جلس عليها يسوع، والتي بقيت بدون أذى منذ أيام المسيح حتى أيام إخراج المسلمين من المدينة، لكنها قطعت فيها بعد من قبل الفرنجة والبنادقة، وعلى كل حال لقد بني فوق المتبقي من تلك الصخرة كنيسة على شرف المخلص.

وعلى بعد ثمانية أميال من صور باتجاه الشمال، وعلى طرف البحر، تقوم الصرفند، وهي صربتا، Sarepta في أرض صيدا، حيث سكن هناك النبي إلياس مرة من المرات، فهناك أرجع إلى الحياة يونه، ابن الارملة التي أكرمت وفادته، وطمأنته وأطعمته، وعلى بعد ستة أميال من الصرفند تقوم مدينة صيدا، وهي مدينة نبيلة، جاء منها ديدو، وديدو هو الذي أسس قرطاج في إفريقية، وعلى مسافة ستة عشر ميلاً من صيدا تقوم بيروت، وهي مدينة ثرية جداً، وحدث في بيروت أنه ليس بعد مدة طويلة من آلام مخلصنا، كان هناك تمثال له، أخذه اليهود ووضعوه على صليب سخرية منهم ولاظهار كراهيتهم ورفضهم له،(وطعنوه) فصدر عنه دم وماء، وبناء عليه آمن كثيرون به، وهو الذي صلب فعلاً، وتعمدوا، وكان جميع الذين دهنوا بنقاط مما تساقط من التمثال قد تحرروا كلياً من كل مرض كانوا يعانون منه.وأرفات (تل ارفاد أو أرواد) مدينة تابعة لدمشق.

الفصل الخامس والعشرون

من أجل دمشق في سورية انظر التاريخ، فدمشق هي عاصمة سورية، وهي حاضرة مبجلة، وقد بنيت دمشق في سورية من قبل هيليزر He-liezer خادم إبراهيم،في الحقل الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل، و

سكن عيسو في دمشق، و سعير في أدوم، و سعير تعني صاحب الشعر الكثيف، ومعنى أدوم الاحمر، أو ذي الشعر الأحمر، ومن اسم أدوم عرفت تلك المنطقة كلها باسم أدوميا الذي ورد ذكرها في المزامير: «فوق أدوميا سوف أرمي حذائي» الخ، وتدعى أدوم أيضاً، ولذلك قال النبي: «من الذي جاء من أدوم، والذي يرتدي ثياباً ملونة من بصرى»؟ وجزء من تلك البلاد يعرف باسم حوران (Hus)، ويدعى أيضاً باسم سوتا -Sue ta (السواد)، التي كان منها بلداد السوتي (السوادي)، وفيها أيضاً تيماء، التي هي المدينة الرئيسية في أدوميا، ومن تيماء جاء علفز Eliphaz التيمائي، ويوجد في موضعه مدينة نعمان، التي جاء منها زفر Sophar النعماني، وهؤلاء الثلاثة كانوا المطمئنين ليعقوب.

وفي منطقة أدوم، وعلى مسافة ميلين من الأردن، هناك مخاضة يبوق(غربي الزرقا)، وكان يعقوب، بعد عبوره لها، عندما كان عائداً من بلاد الرافدين قد تصارع مع الملاك، الذي غير اسمه من يعقوب إلى اسرائيل، وفي أدوم يوجد جبل سعير (حرمون)، الذي تقع دمشق على مقربة من سفوحه، وعلى مسافة ميلين من دمشق يقوم المكان الذي ظهر فيه المسيح لشاول، قائلاً: «شاول، شاول، لماذا أنت تعذبني»؟، وهناك أشع نور عظيم جداً من السماء حول بولص، وفي دمشق تولى أنانيس تعميد شاول،، ومنحه اسم بولص، ومن فوق أسوار دمشق تمت تدلية بولص إلى الأرض، لأنه خاف من غضب معذبيه.

وفسر اسم لبنان بأنه البياض، وورد ذكره في نشيد الإنشاد قوله: «تعالي ياحمامتى من لبنان»، وينبع من لبنان نهرا: أبانا (نهر القاسمية)، وفرفر (العاصي)، وهما نهري دمشق، ويجري أبانا خلال جبال لبنان، وفي سهول منطقة أركاسArchasمتخذا طريقه نحو البحر الكبير، حيث الأمكنة التي اتخذها يوستاخيوس Eustachius مقراً لحياته بعد فقدانه لزوجته وأولاده، بينما يجري فرفر خلال سورية إلى أنطاكية،.وبعد عبوره

لأسوارها، يصب هو نفسه في البحر المتوسط، وذلك على بعد عشرة أميال من أنطاكية، في ميناء السويدية الذي هو ميناء القديس سمعان، وكانت أنطاكية لمدة سبع سنوات الكرسي بالنسبة للقديس بطرس الرسول، الذي لبس التاج البابوي هناك لمدة سبع سنوات وعند سفح لبنان تقوم مدينة بانياس أوبلنياس، التي هي تدعى أيضا باسم: قيسارية فيليب.

وعند سفح لبنان ينبع نبعا «ار» و «دان»، ويشكل هذان النبعان الأردن، عند سفح جبال الجليل، ويدعى الوادي القائم فيما بين جبال جلبوع وبحيرة أسفلت باسم «الغور» أو أولون Aulon، التي هي كلمة عبرية (كذا واقرأ: اغريقية)، وأطلق هذا الاسم أيضاً على الوادي الخصب والواسع، المحاط بالجبال على الجانبين، من لبنان إلى صحراء فاران، ويفصل الاردن الجليل عن أدوم، وعن أرض بصرى، التي هي المدينة الثانية في بلاد أدوم، ومعنى الاردن هو «النزول».

ويجري دان تحت الأرض تقريباً من نبعه حتى مزيريب (Medan) فهناك يستأنف مسيره بشكل مكشوف فوق الأرض، ويدعى هذا السهل باسم «مدان» لأن دان في وسطه، وهكذا يعرف بلغة المسلمين، وباسم «بلاتيا Platea » باللاتينية، وتعرف «مدان» أيضاً باسم «موضع السوق»، لأن أعداداً لاتحصى من الناس تجتمع هناك في بداية الصيف، ويجلب هؤلاء الناس معهم جميع أنواع الأشياء للبيع، ويبقى هناك عدد واسع من الفرس والعرب طوال الصيف بغرض القيام بحماية الناس ورعي مواشيهم، وتتألف كلمة «مدان» من كلمتي: «مد» و «دان»، وتعني كلمة «مد» بلغة المسلمين «ماء» و«دان» نهر، وبعدما يغادر «دان» السهل المتقدم الذكر، يصبح نهراً يجري خلال السواد (Sueta) حيث الهرم التذكاري ليعقوب المبارك، وهو مايزال موجوداً، وهو محط احترام من قبل الملوك والأمم، وينعطف دان نحو الجليل الاسلامية، ويجري

خلال مدينة جدر (أم قيس) إلى جانب الحمامات الطبية، خلال سهل الأشواك، ويندمج «بالأر»، و«الأر» يصنع بحيرة (الحولة) ليس بعيداً عن بانياس، ومنها نفسها يأخذ طريقه فيما بعد إلى بحر الجليل بين بيت صيدا وكفرنا حوم، حيث تكون هنا بدايته.

الفصل السادس والعشرون

وجاء من بيت صيدا بطرس، ويوحنا، وأندرو، وجيمس بن ألفيوس، وعلى مسافة ستةأميال من بيت صيدا تقع كوروزين Chorazain (قلعة الحصن) فهناك المسيح الدجال المضلل للعالم سوف ينشأ وينتعش، وعن كوروزين وبيت صيدا قال يسوع: «الويل لك كوروزين، والويل لك بيت صيدا»، وعلى بعد ستة أميال من كوروزين تقوم بلدة جدر (أم قيس)، وهي المدينة الأعظم مجداً، وهي التي نقرأ عنها في المزامير: «لقد سكنت بين سكان جدر»، وتفسير كلمة جدر هو «في الظلام»، وتقع كفرنا حوم (تلحوم) على الطرف الأيمن من البحر، وهي مدينة قائد المائة، وفيها شفى يسوع ابن قائد المائة، والذي قال عنه: «إنني لم أجد مثل هذا الايمان العظيم في اسرائيل»، وصنع يسوع في كفرنا حوم كثيراً من المعجزات، وقام بالتعليم في الكنيس، وتفسير اسم كفرنا حوم هو: «البيت الأعظم جمالاً» أو «ابنة الجمال»، الذي يعني بالنسبة لنا ويشير إلى الكنيسة المقدسة، فجميع الذين يأتون إليها من لبنان، أو بالحري من بياض الفضيلة، سوف يتحولون فيها وبها إلى أكثر ألقاً.

ويقوم على ميلين من كفرناحوم سفح الجبل (خان منية) الذي وعظ فيه الرب الحشود، وبعث أمامه حوارييه لتعليمهم، وشفى هناك المجذوم، وعلى ميل من هذا السفح يوجد المكان الذي أطعم فيه خمسة آلاف انسان بخمسة أرغفة وسمكتين، ولهذا يدعى هذا المكان باسم المائدة، لأنه كان موضع الاطعام، ودونه غير بعيد يقوم المكان الذي ظهر فيه في الساعة الرابعة من الليل لبطرس وأندرو، عندما كانا يصطادان

السمك، ووقتها رغب بطرس بالتوجه إليه فوق البحر، وبدأ يغرق، فقال المسيح له: «ياقليل الايهان لماذا شككت»؟، وهنا قام مرة أخرى بتهدئة البحر، عندما كان حواريوه في خطر، وعند رأس البحر، وعلى الجانب الأيمن هناك انهدام في الجبل اسمه جنسارث (الغوير)، وهو «المكان الذي يرعى الريح»، الأمر الذي مازال يشعر به حتى الآن الذين يزورونه.

وعلى بعد ميلين من جنسارث يقوم المجدل، وهو مكان ولادة مريم المجدلية، وتدعى هذه المنطقة باسم جليل المسلمين، وهي قائمة في دار سبطي: زبلون ونفطليم، وفي الجزء الأعلى من هذا الجليل تقوم العشرون مدينة اللائي أعطاهن الملك سليمان إلى صديقه حيرام ملك صور، وعلى ميلين من المجدل تقوم مدينة سينيرث، التي تدعى أيضاً باسم طبرية، ذلك أنها نالت اسمها من القيصر تايبيروس، وهذه المدينة غالباً مازارها يسوع عندما كان شاباً، وعلى مسافة أربعة أميال من طبرية تقوم مدينة بيت أوليا (كذا، والاشارة هنا إلى صفد، ولعل بيت أوليا الآن هي مثليا) التي تنتمي إليها يودث، التي قامت أثناء حصار مدينتها بعمل على درجة كبيرة من البراعة بقتلها أولوفرنس، وأنقذت شعبها، وعلى أربعة أميال من طبرية باتجاه الجنوب (اقرأ: الشمال) تقوم دوثيم (خان جب يوسف) فهناك وجد يوسف أخوته يرعون قطعانهم، ولكراهيتهم له باعوه إلى الاسماعيليين هناك، وعلى بعد ستة عشر ميلاً من الناصرة، وباتجاه الشرق، عبر بحر الجليل تقوم جرجوسيا Gergesa ، وهي القرية التي رد فيها المخلص إلى الصحة الذين تلبسهم الشيطان، وأرسل من هناك قطيع الأوز عبر مكان شديد الانحدار إلى البحر.

الفصل السابع والعشرون

إلى القارىء

هكذا قمت بقدرما أستطيع بوصف الأماكن المقدسة في مدينة

القـدس، شروعـاً من كنيسـة الضريح المقـدس، وطفت مـن حـولها، من خلال باب داود، حتى عدت إلى المكـان نفسه، وأسقطت ذكر عدد كبير من البيع والكنائس الصغيرة، المدارة من قبل أنـاس من مختلف الشعوب واللغـات، لأنـه هناك: الاغـريـق، والبلغار، والـلاتين، والألمان، والهنغـار، والسكوتلنديين، والبوهيميين، والجورجيين، والأرمن، والكفتوريين Caph-eturici ، والموارنـة، وعـدد كبير آخـر يحتـاج ذكـرهم إلى وقـت طـويل: وهكذا دعونا مع هذا ننهي هذا الكتاب الصغير، آمين

صيغة الـدعاء بمناسبة عيـد ذكرى استرداد مدينة القـدس من الكفار، وذكرى تبدل شكل ربنا، الذي يستخـدم في الكنيسة الكاتدرائية للضريح المقدس في القدس.

صيغة الدعاء بمناسبة استرداد مدينة القدس

اليـوم الخامس عشر من تموز هـو يـوم عيـد تكريـس كنيسـة الضريح المقدس، حيث يقـام في ذلك اليوم احتفـال عظيم بمناسبة ذكـرى تحرير القدس مـن قبل المسيحيين، وفي إيماءة إلى هذا يتكون المدخـل الطقوسي الغنائي الذي يجري قبل القداس، من الأناشيد التالية:

Laetare Jerusalem, Kyrie Eleyson, Cunctipotens» . « genitor Deus

والدعاء كما يلي:

«أيها الـرب القديـر، والسرمـدي، لقـد أنقذت القـدس بفضل جـودك الرائع، أنقذت القـدس مدينتك من أيدي الكفـار، وأعدتها للمسيحيين، كن معنـا أيها الرب، فنحن نتوسـل إليك، وساعـدنا، نحن الذيـن نداوم على الاحتفـال بهذا اليوم المقـدس كل عـام، بكل تقـوى، علّنا أن نكـون أهلاً لنيل متع القدس السماوية من خلال ربنا» الخ.

وبعـد النـص الـرسـولي يغنـى شعـر «Surgeilluminare» وتكـون الهلالـوليا (أو الأنـاشيد التـي تغنى قبل الانجيـل) هي: Dies Sanc- tificatus ، بالتدريج ، أو بالترتيلة الجماعية Omnes de saba .

ويغنـى بعــد الانجيـل شعــر:«Cum Intruret Jesus Hier- osolymam » .

وبعـد الطقس تأتي التقـدمـة Offertoria ، أو جمل تُقـرأ عنـد وقت التقدمة الأولى هي: الـ Secreta ، أو دعاء وقت التكريس للعناصروهو:

«أيها الرب، نلتمس منك أن تتقبـل بكرمك هذه التقدمة التـي نقدمها إليكم بتـواضع، وأن تمنحنا بـأسرار قدرتها نحن الـذين نحافـظ على هذا اليوم الذي أنقذت فيه القـدس من أيدي الكفار، في أن نكون لائقين لأن نصبح من أهل القدس التي هي في السماء، من خلال ربنا» الخ، الخ.

ويُغنى عنـد القداس العـام، أو الدعاء وقـت تسلم عناصر التكـريس النشيد التالي: «Jerubsalem surge » الخ.

الدعاء

«امنحنـا يـارب، أن تكون التضحيـة التـي قمنا بها، صحـة لكـل من أجسادنـا وأرواحنا، وأن نكون نحن الـذين نبتهج هذا اليـوم بسبب تحرير مدينـة القدس، جديـرين بوراثة القـدس التي هي بالأعلى، مـن خلال»، الخ.

القداس في يوم تبدل هيئة الرب

دعاء

«يـارب، يـامن كنـت مسروراً في تغيير هيئة ذاتـك فـوق الجبل، وفقـاً لتركيبتنـا، نلتمـس منك أن تمنحنـا أيضـاً النـور الـذي تكـرمـت وأريتـه لحوارييك، والذي هو مع الآب»،الخ

ويحتفل بعيد تغيير هيئة ربنا على جبل الطور في اليوم الثامن من قبل اليوم الرابع عشر من آب. (٦ — آب).

والمدخل الطقوسي الغنائي هو: «Benedicta sit sancta . Per Dominum ».

الدعاء

«يارب، يامن قمت في هذا الوقت بالكشف عن ذاتك على أنك ولد مولود فقط، وتحولت بشكل رائع في السماء وعدت إلى الآب للعهدين القديم والجديد، نلتمس منك أن تمنحنا، بعملنا هذه الأشياء التي هي مرضية لك، أن ننال التأمل الأبدي في أمجاد من أنت أبوه، أنت يامن أعلنت عن نفسك ورضاك، وذلك من خلال ربنا»، الخ.

والـ Secreta، أو الدعاء لدى تكريس العناصر:

«يارب، أيها الأب المقدس والقدير، نلتمس منك أن تتقبل التقدمات التي نقدمها في ذكرى تغيير الهيئة الرائع لابنك، وامنحنا برحمتك أن نتحرر من الاضطرابات الأرضية، وأن نشترك في البهجة السماوية من خلال ربنا»، الخ، الخ.

والقداس العام، أو الدعاء لدى تسلم تكريس العناصر:

«يارب، يامن جعلت هذا اليوم مقدساً بتغيير هيئة كلمتك المتجسدة، وباعترافك به بصوتك على أنه ابنك، نلتمس منك أن تمنحنا بفضيلة الطعام المقدس هذا، أن نكون جديرين لأن نصبح أعضاءً في جسده، جسد الذي أمرنا أن نفعل هذا، في تذكر لنفسه، إنه يسوع المسيح، ابنك ياربنا، الذي هو معك»، الخ، الخ.

حواشي كتاب الاستيلاء على دمياط

١— كانت الهدنة التي انتهت في سنة ١٢١٧، قد عقدت بين العادل الأيوبي، وبين إما عموري لوزغنان، أو جون دي إيبلين عندما كان نائباً لملك القدس.

٢— كان مجمع اللاتيران الرابع (المجمع(المسكوني الثاني عشر) الذي عقد عام ١٢١٥، أعظم مجامع العصور الوسطى، ولهذا يشار إليه أحيانا بكل بساطة باسم مجمع اللاتيران، وقد عقد بناء على دعوة البابا انوسنت الثالث (ت: ١٢١٦)، ورفض هذا المجمع التجسيد والأسرار الأخرى، مراغمة للألبينين، وأدان أخطاء جوشيم حول التثليث واعترف بالمكانة الثانية لبطريرك القسطنطينية، ومنع تأسيس رهبانيات دينية جديدة، واتخذ موقفا مضاداً للثنوية، وأقر بطلب اعتراف واحد على الأقل كل سنة وبقربان.

٣— جون أوف بريين، ملك القدس (١٢١٠— ١٢٢٥)، وأمبراطور القسطنطينية (١٢٢٨— ١٢٣٧)، وقد تسلم تاج القدس عندما تزوج من ماري دي مونتفرات في سنة ١٢١٠، وفقده سنة ١٢٢٥ عندما تزوجت ابنته ايزابيل فردريك الثاني، ولقد كان قائداً عسكرياً، فهو الذي قاد الحملة ضد دمياط، لكنه كان متغيباً وقت المصاعب بسبب خلافه مع بيلاغوس، ولأنه انشغل بمطالبته بعرش أرمينيا.

٤— أندرو الثاني، ملك هنغاريا (١٢٠٣— ١٢٣٥)، كان ابن بيلا الثالث ومرغريت أميرة فرنسا، وقد ترك الحملة الصليبية في بداية عام ١٢١٨، وغدا فيما بعد في سنة ١٢٣٣ زوجاً ليولاندا كورتني، امبراطورة القسطنطينية.

٥— هيوج أوف لوزغنـان، ملك قبرص (١٢٠٥— ١٢١٨)، كان ابن عمـوري وإشيـف دي إيبلين، وقـد تـزوج مـن أليـس أوف شـامبين— القدس، ابنـة ايزابيلا صاحبـة القدس وهنري أوف شـامبين، الذي شغل بعد وفاة هيوج دوراً هاماً في سياسات الدول اللاتينية.

٦— ليوبـولد السادس، الدوق المشهـور للنمسا (١١٩٨— ١٢٣٠)، الذي قـاتل في اسبانيـا في سنة ١٢١٢، لكنه وصل متـأخر جداً بـالنسبة لمعركة «لاس نافاس دي تولوزا».

٧— أوتـو السـابع، دوق ميران (١٢٠٤— ١٢٣٤)، وقـد انتمـى إلى أسرة بطـركيـة شهيرة، وكـان والـداه: بيرثـولـد الـرابـع، دوق ميران (ت:١٢٠٤)، وأغنس أوف غروتـش— روشلتز (ت: ١١٩٤أو ١١٩٥). وتزوج أوتـو من بيتريس أوف هـوهنستوفن، وارثـة بيرغندي. وكـان أخوة أوتـو هم: هنـري مرغـريف أوف استريـا (١٢٠٤— ١٢٠٩)، وبيرثولـد الخامس، بطريـرك أقويليا، وايغبيرت، أسقـف بامبيرغ، أما أخـواته فكن: أغنس (ت:١٢٠١)، زوجـة الملك فيليب الثاني، ملـك فرنسـا، وغيرترود (ت: ١٢١٣)، زوجـة أندرو الثـاني ملك هنغـاريـا، والقديسـة هيـدويغ (ت: ١٢٤٣)، زوجة هنري دوق سيليزيـا— برسلو. وحمل أوتو الصليب في سنة ١٢١٥، وعاد في كانون الثاني ١٢١٨.

٨— يوستـورغيوس أوف مونتاغيـو، رئيس أساقفة نيقـوسا (١٢١٧— ١٢٥٠)، ووردت الإشارة إليـه بمثابـة نائب لبطريـرك القدس في رسـالة تعلقت بالحملـة الصليبية، كتبها ثيبـود، كونت شامبين، وكـذلك الاشارة إلى بـارونات فـرنسيين آخـرين، وكـان يـوستورغيـوس أخـاً لغـورين دي مونتاغيو، مقدم الاسبتارية، ولبطرس مقدم الداوية.

٩— بطرس، أسقف رآب (في هنغاريا)، ١٢١٧— ١٢٢٤.

١٠— توماس، أسقف ايرلو في هنغاريا (١٢١٧— ١٢٢٤).

١١— بيرثولد الخامس أوف ميران، رئيس أساقفة كالوكزا وبكس (في هنغاريا)، ١٢٠٦— ١٢١٨، انتقل إلى أقوبيا ليشغل وظيفة البطريرك ١٢١٨— ١٢٥١، وكان أخا للدوق أوتو أوف ميران، وعن ايغبيرت أسقف بامبيرغ انظر الحاشية رقم /٧/ المتقدمة.

١٢— روبرت أوف أبليغ، أسقف بيو Bayeux (١٢٠٦— ١٢٣١).

١٣— ايغبيرت أوف ميران، أسقف بامبيرغ (١٢٠٣— ١٢٣٧)، وهو أخ آخر لأوتو أوف ميران.

١٤— إيغلبيرت، أسقف زيتز (من قبل: نامبورغ) في أبرشية ماغبورغ (١٢٠٧— ١٢٤٢).

١٥— أوتو أوف ألدنبيرغ، أسقف أوف مونستر، (١٢٠٤— ١٢١٨).

١٦— أوتو السادس، أسقف أوف أوترخت (١٢١٥— ١٢٢٨).

١٧— أوتو أوف أفسن، (في فلاندرز)، ترك الوطن في ١٢١٧، غير أنه كان قد عاد في ربيع ١٢١٨، وقدمت أسرته عدة أعضاء للصليبيين، كان منهم جاك دي أفسن، الذي كان بارزاً في الحملة الصليبية الثالثة.

١٨— رالف أوف ميرنكورت، أسقف سالف لصيدا، وبطريرك القدس (١٢١٤— ١٢٢٥).

١٩— إلى الجنوب من عكا، وتعرف في هذه الأيام باسم خربة كرداني.

٢٠— في معركة حطين (٤— تموز ١١٨٧) عندما دمر صلاح الدين جيش مملكة القدس.

٢١— الفولة، جنوب شرق الناصرة مباشرة.

٢٢— غرب الناصرة، وتعرف في هذه الايام باسم عين طبعون.

٢٣— منطقـة جبلية ومـدينـة، شرقي الأردن، ويعـرف الجبل في هـذه الأيام باسم جبل عشه.

٢٤— جنـوب— غـرب بحيرة طبريـة، وبيسـان هي سكيـزوبـولـس القديمة.

٢٥— بلـدة مـدمرة على الطـرف الشمالي لبحيرة طبريـة، عنـد مصب الأردن ولعل موقعها هو الذي يعرف في هذه الأيام باسم التل.

٢٦— مـدينـة مدمـرة على الشـاطـىء الغربي لبحيرة طبريـة، ولعلهـا تلحوم الحالية.

٢٧— تـوجهت هـذه الحملـة إلى شقيـف أرنـون، وهي قلعـة شقيقـة لتبنين، وقائمة عند الطرف الآخر من نهر الليطاني.

٢٨— هيـوج الأول لـوزغنـان مـات في ١٠— كـانـون ثـاني ١٢١٨، وعمره ثلاث وعشرون سنة.

٢٩— أصبـح أنـدرو مـريضـاً، أثنـاء المرحلـة المبكـرة مـن الحملـة الصليبيـة، وقـد ذهب إلى عكـا، وكـان حـاضراً في طـرابلـس أثنـاء زواج بوهيمونـد الرابع من ماليسـاند، أخت هيوج الأول، وعاد بعـد أمد وجيز في أوائل عام ١٢١٨ إلى أوربا عبر طريق الأناضول.

٣٠— تأسست رهبانيـة فرسان الاسبتاريـة، أولا على شكل مشفى في القدس سنـة ١٠٩٢، وكانـت هذه الـرهبنة قـوية وثـرية، طبقت أحكـام القديـس أوغسطين، وعرفت من سنـة ١٣٠٩ حتى ١٥٢٣ باسم فـرسان رودس، ومن ١٥٣٠ حتى ١٧٩٨ بـاسم فرسـان مالطـا، ومازالت قـائمة دينيا ومدنيا في الكنيسة الكاثوليكية.

٣١— تأسست رهبانية الداويـة في سنة ١١١٨، من أجل الدفاع عن المملكـة اللاتينيـة في القدس، وقـد كتب لها أحكـامها القـديس برنـارد،

وكانت رهبنة قوية وثرية جداً، وقد سحقهـا الملك فيليب الجميل، ملك فرنسا سنة ١٣١٢، إرضاء للبابا كليمنت الخامس.

٣٢— ارتبطت رهبانية التيوتون بمشفى أقيم في خيمة أثناء حصار عكا في سنة ١١٨٩، وكانت ألمانية صرفة.

٣٣— عثليت، على الشاطىء الفلسطيني، وقد جرى تحصينها في الوقت الذي حُصنت فيه قيسارية.

٣٤— توفي الأسقف أوتو في ٦— آذار ١٢١٨، في قيسارية.

٣٥— ليس هناك من معلومات إضافية عنه.

٣٦— عرفت قلعة تل الصافيه باسم قلعة ابن الرب.

٣٧— جاء وصف هـذه الرحلة في: De Itinere Frisonum، وقد أخذت من تاريخ إمو، وحققت من قبل روهرخت في: Quinti Belli sacri scriptores Minores ص ٥٩— ٧٠، فلقد جرى اعداد ثلاثمائة سفينة في كولون، وبعضها بقي وقسم هلك، لكن الأكثرية جاء إلى لشبونة في البرتغال، وغادر الاسطول لويرزي Lauwerzee يوم ٣١— أيار ١٢١٦، وكان أمام عكا في ٢٦— نيسان ١٢١٨.

٣٨— قصر أبي دانس على نهر سادو غربي سيتوبال Setubal في البرتغال.

٣٩— وليم الأول كونت هولاندا (١٢٠٤— ١٢٣٦)، من بيت بيترشيم، كان تحت الحرمان الكنسي عندما حمل الصليب، وقد قاد الفريزيين في اسبانيا، وقاتل بشجاعة ضد المسلمين، وفي ١٥— ايلول ١٢١٩، استعد لمغادرة الحملة الصليبية وتركها، وفي ١٩ نيسان ١٢٢٠ كان مع فردريك الثاني.

٤٠— كان الكونت جورج أوف ويد قائداً للأسطول الفريزي ضد

اسبانيا ومصر، وكان أخا لـ «ديتريخ» رئيس أساقفة ترير (١٢١٢— ١٢٤٢)، وكان شريكاً (مع الكونت وليم صاحب هولاندا) في قيادة الإسطول الذي أبحر من لويرزي.

٤١— استخدم أولفر اصطلاح اسبارطي للدلالة على فرسان رهبانية القديس جيمس صاحب السيف، وهي رهبانية قد تأسست في اسبانيا في حوالي سنة ١١٥٨، وكان هدف هؤلاء الفرسان مساعدة المسيحيين في الحرب ضد المسلمين، وكان شعارهم سيفاً أحمر مثبتاً على عباءة بيضاء.

٤٢— كان ملك البرتغال من ١٢١١ حتى ١٢٢٣ هو ألفونسو الثاني، وكانت زوجته التي اقترن بها سنة ١٢٠٧ أو ١٢٠٨ اسمها أوراكا Urraca، ابنة الفونسو الثالث، ملك كاستيلا.

٤٣— تعطي الـ Gesta crucigerorum Rhenorum (Qcinti Belli sacriscrptores Minores, ed Rohrieht, pp 27- 56) and De Itinere Frisonum (ibid, pp 57- 70) قليلاً من التفاصيل حول القصر (المعروف لدى العرب باسم قصر أبي دانس تحت حكم عبد الله بن محمد بن وزير— ويعطي Rohricht, Beitrage, II, 241- 242 تفاصيل وافية).

٤٤— جرى أعلاه التعريف بالبطريرك رالف، وبأسقفي نيقوسا وعكا، وبدوق النمسا، أما أسقف بيت لحم فكان رينير (حوالي: ١٢٠٧— ١٢٢٧).

٤٥— ألبيرك، رئيس أساقفة الرايم منذ ١٢٠٧، وقد توفي في ٢٤— كانون الأول سنة ١٢١٨.

٤٦— جون دي فيراك، أسقف ليموز Limoges ١١٩٧ (١١٩٨)— ١٢١٨.

٤٧— سيمون الثاني كونت أوف ساربروكن ١٢١١— ١٢٣٣.

٤٨— تاريخ الاسكندر الكبير: ٤/ ٤٠، وكانت هذه هي الإحالة الوحيدة التي تمت إلى اسم كاتب كلاسيكي خلال الكتاب الحالي كله.

٤٩— الكونت أدولف الخامس ١١٨٩— ١٢١٨، ولقد توفي أمام دمياط في يوم ٧— آب ١٢١٨.

٥٠— القديس انغلبيرت الثاني، جُعل رئيساً للأساقفة في وقت مبكر، أي في سنة ١٢١٨، وقد توفي في سنة ١٢٢٥.

٥١— آب وإيلول لسنة ١٢١٨.

٥٢— بيلاغوس غالفاني، ولد في اسبانيا أو في البرتغال، كردينال— أسقف لألبانو، ١٢١١— ١٢٤٠، وقد وُجه اللوم إليه من قبل كثيرين بسبب الاخفاق الكامل للحملة الصليبية، وكان عدم قبوله لشروط التهادن— وهو ما أيده فيه بعض القادة المدنيين— لرغبته العارمة بالاستيلاء على القاهرة نفسها، وأبعد عنه حبه للتسلط واستبداده بالرأي كثيراً من القادة المدنيين، وكانت له في الكنيسة أعمال متميزة، لذا جعل منه البابا انوست الثالث— كاردينالاً — شماساً، للقب سينت لوشيا، ثم كاردينالا — كاهنا في سنة ١٢٠٦، وكان هو النائب البابوي في الحملة الصليبية، وذلك حسبما ذكر أولفر، وعاد بعد الاخفاق الذريع للحملة إلى أوربا، وقد استخدمه البابا هونوريوس الثالث في كثير من المناسبات. وقد توفي في مونت كازينو في ٢٧ كانون الثاني لعام ١٢٤٠.

٥٣— كان هذا تبعاً لهوغويغ (ص ١٨٧— حاشية٢) هو جيمس كونت أوف أدريا، ولربما كان قريباً لهيوج الأول دوق أندريا (حوالي ١١٧٣— ١٢٤٠).

٥٤— وليم الثاني، Amanieu de Genies (١٢٠٧— ١٢٢٧).

٥٥— وليم أوف بيـومـونت، أسقـف أنغر (١٢٠٢— ١٢٤٠)، وقـد صار رئيساً للأساقفة في سنة ١٢٠٧.

٥٦— هنري أسقف مانتو (١١٩٣— ١٢٢٠) (٢٥؟).

٥٧— جيرارد الثـالث، ورد ذكره للمـرة الأولى في سنة ١٢٠٤، وكـان ميتاً في سنة ١٢٢٨.

٥٨— غير معروف.

٥٩— رئيس جـامعة بـاريس، وكـاردينالاً ١٢١٢— ١٢١٩، وكـان أخاً لوولتر أوف شامبرلين في فرنسا، وتخلى الأخوان عن الحملة الصليبية في ١٢١٨.

٦٠— بيتر أوف نيموروس، رئيس أساقفة باريس ١٢٠٨— ١٢١٩.

٦١— ريموند أوف بالافول، رئيس أساقفة جيرونا ١٢١٤— ١٢١٨.

٦٢— من أجـل أسقفي ايرلـو وهنغاريـا انظـر ما تقـدم تحت رقمي: ١٠ و ١١، ولم يمت تـوماس أوف هنغاريـا— حسبما ورد هنا— بـل عاد إلى وطنه في إيلول ١٢١٨.

٦٣— انظر الحاشية ٦٨ المقبلة.

٦٤— هيوج الثاني أوف أنغوليم أوف لامارشي ١٢٠٨— ١٢٤٩.

٦٥— ميلو الثالث، كونت أوف بار— سور— سين منذ ١١٨٩، وقد تـوفي في ١٨— آب ١٢١٩، أثناء حصـار دمياط، وقـد قتل ولداه هنـاك أيضاً.

٦٦— وولتر أوف بوزيت، ابن ميلو.

٦٧— وليم أوف بـوزيت، كان يـدعى باسـم وليم أوف تشارتـرز، ابن

ميلو، ولقد كان أخاً لوولتر مقدم الداوية ١٢٠٩— ١٢١٩.

٦٨— هرفيه الرابع أوف دونزي، كونت نافار من ١١٩٩ بزواجه من ماهوت ابنة بيتر أوف كورتني، وزوجته أغنس، وقد توفي في ٢٢— كانون الثاني ١٢٢٣.

٦٩— لعله انحدر من اثيير الثالث، أكبر أولاد نارجوت الأول لورد أوف توسي ١١٤٧— ١١٧٣، وكان ايثيير قد شارك في الحملة الصليبية مع لويس السابع.

٧٠— كان أولفر ابنا غير شرعي لجون بلا أرض، الذي صار ملك انكلترا من ١١٩٩ حتى ١٢١٦.

٧١— هذه غلطة تأريخية، فقد وقع فقدان السفينة في أوائل تشرين الثاني قبل العاصفة. انظر هوغويغ ص ١٩٤، الحاشية ١.

٧٢— كان رانولف ايرل أوف شيستر قد ساعد جون بلاأرض في الحرب الأهلية في انكلترا، وفي أربعاء الرماد لعام ١٢١٥، حمل الصليب، وانطلق في ١٢١٨ نحو الشرق، وقد وصل إثر الاستيلاء على برج السلسلة، وعاد إلى انكلترا في حوالي ١— آب سنة ١٢٢٠.

٧٣— غالبا مابعث سكان مدن الشمال الايطالي بوحدات عسكرية مع الصليبيين مقابل منافع اقتصادية، ولهذا وقفوا إلى جانب بيلاغوس بالاصرار على الاستيلاء على دمياط، وهي مدينة بدت واعدة بالنسبة للعمل التجاري.

٧٤— كان تعداد فرسان قبرص حوالي المائة، وكانوا تحت قيادة وولتر صاحب قيسارية الذي كان متقلداً لهذا المنصب في سنة ١٢١٧، كما كان قسطلان قبرص على الأقل من سنة ١٢١٠ حتى ١٢٢٠، وقتل في ٢٤— حزيران ١٢٢٩، أمام نيقوسيا أثناء قتاله من أجل جون دي

إيبلين ضد مؤيدي الامبراطور فردريك.

٧٥— وولتر الثالث أوف بيرثوت، وكان نبيلاً برابانتي، وصاحب مكلين (١١٨٠— ١٢١٩) (١٢٢٠؟).

٧٦— كان الأسقف المنتخب لبوفياس هو ميلون أوف تشاتلون— نويلي (١٢١٧— ١٢٣٤) ابن غوشر لورد تشاتلون—— سور— مارن وهلفي سيدة نانتويل، وقد غادر الشرق لدى سماعه بأخبار وفاة ألبيرك رئيس أساقفة الرايمز، الذي كان يدير له أسقفيته، ولم يطلق سراحه من أيدي المسلمين حتى سنة ١٢٢٢.

٧٧— أندريه أوف نانتويل، وقد كان بين «فرسان الأعلام» تحت قيادة فيليب أوغسطس.

٧٨— كان حاجب فرنسا من ١٢٠٥ هو وولتر الثاني أوف فيلابون Villebeon، وقد توفي في الأرض المقدسة بعيد سنة ١٢١٩، وغدا ابنه آدم دي فيلابون بدوره الحاجب في سنة ١٢٢٣، ومات في سنة ١٢٣٨.

٧٩— من المحتمل أن رتشارد، فيزكونت أوف بيلمونت (أو بيمونت) ولورد أوف سينت— سوزان، كان هو أخو وليم أوف بليمونت وأسقف أنغر، وقد توفي رتشارد في معركة عند غزة في سنة ١٢٣٩.

٨٠— هناك اشارة لجون أوف أرسيز لدى ألبيرك دي تروي فونتين باسم يوانس دي أرسيز، ووردت الاشارة إليه في تاريخ لييج باسم «آرشي»، ولقد كان معه ابن غير شرعي هو أندريه أوف إبيسيس، وكان الأب مع الملك فيليب في معركة بوفين، وقاتل وقتها بشجاعة نادرة عند البرج حتى صار يعرف بـ «بيريز» وهذه الكلمة ربما تصحيف للكلمة العربية «بارز».

٨١— كان هنري مشاركاً في الحروب الصليبية منذ الاستيلاء على

القسطنطينية وقد حمل معه إلى وطنه الكثير من الآثار المقدسة المسروقة.

٨٢— كان مارشال الاسبتارية هو أيمار دي ليرون، الذي كان صاحب قيسارية، ١١٩٣ ١١١٩٣ ١٢١٣، عن طريق زواجه بجوليانا صاحبة قيسارية، ولعله دخل في رهبنة الاسبتارية بعد وفاة جوليانا، وظهر مارشالاً للاسبتارية خلال الحملة الصليبية الخامسة، ومع أن ما قاله أولفر غامضاً، اننا نفترض أن أيمار قد قتل في هذا الوقت، ذلك أنه لم يظهر على مسرح الأحداث بعد ذلك.

٨٣— ساعد سافاري أوف موليون— في بواتو، وابن رالف دي موليون— كونت طولوز في النزاع ما بين فرنسا وانكلترا، وخدم فيها بعد في الجيش الانكليزي، وشارك في سنة ١٢٢٤ في المساعدة على الدفاع عن لى روشيك ضد لويس الثامن، وقدم أخيراً الولاء لملك فرنسا، وعين حاكما للجزر القريبة من لى روشيل، وقد قاوم نائب الملك أثناء طفولة القديس لويس، ومات في سنة ١٢٣٣، وكان أيضاً شاعراً شهيراً، لكن بدون امكانات عظيمة، وذلك حسبما جاء في تاريخ الآداب الفرنسية (ط. باريس ١٨٩٥) : ١٨/ ٦٧١.

٨٤— ركز الايطاليون اهتماماتهم على المنافع التجارية التي ستؤول إلى بيزا، وجنوى، والبندقية من استيلاء الأوربيين على الدلتا، ومن هنا جاءت معارضتهم لرفع الحصار عن دمياط، ومن الواضح هنا موقف أولفر المؤيد لبيلاغوس في معالجته لهذه الحادثة.

٨٥— هذا غير صحيح لأن كل من رمسيس وتنيس هما في جنوب دمياط.

٨٦— استولى بوهيموند صاحب العين الواحدة على السلطة في انطاكية بمساعدة الداوية، وانتزعها من ابن أخيه روبن— ريموند، ابن أخيه الأسن منه، وابن ابنة ليون صاحب أرمينيا، وعمل ليون لصالح

حفيده، وهكذا وضع روبن مرتين حاكما في أنطاكية بوساطة القوة الارمنية ، لكنه طرد أخيراً، وقد مات وهو يحاول تأكيد حقه في عرش أرمينيا.

٨٧— صحح أولفر هنا غلطته التي وردت في الفصل السادس والثلاثين.

٨٨— لعل ذلك كان في الفصح ففي ٢٩— آذار بات جون كثير الانزعاج من سلوك بيلاغوس، وقد استغل مشاكل أرمينيا عذراً له، وتزوج ستيفاني ابنة ليون الثاني، الذي توفي في سنة ١٢١٩، ورغب جون بالمطالبة بالعرش لنفسه باسم زوجته، وسيأتي أولفر على ذكر تطلعات جون الارمنية في الفصل الخامس والاربعين.

٨٩— هنري سيبتالا، رئيس أساقفة ميلان ١٢١٣— ١٢٣٠.

٩٠ — أسقف كريت غير معروف، وكان أسقف فانيزا هورولاند (١٢١٠ — ١٢٢١) .

٩١ — أسقف لاندو(١٢١٦ — ١٢٣٤) .

٩٢ — ألبيرت ريزاتو (١٢١٣ — ١٢٢٨) .

٩٣ — هناك اشارة الى متى جينتايل في وثيقة تاريخها ١٢٢٩ باسم « ماثيوس جينتالس كونت اليسين (ليسينا حاليا) و القائد المدني وقاضي أبو لياوأراضيها» ، وكان الامبراطور فردريك قد جعله مسؤولاً عن ابوليا ، و بناء على أوامره التحق بالحملة الصليبية .

٩٤ — كان وليم ايرل أروندیل وسسكس ، فعالاً في الصراع مابين جون بلا أرض و ملك فرنسا ، وقد مات في ايطاليا في سنة ١٢٢٠ أو ١٢٢١، بعد عودته من الحملة الصليبة .

٩٥ — انظر الحاشية المتقدمة رقم ٨٨ .

٩٦ — الجاثليق هو اللقب الذي منح لرؤساء الكنائس : الأرمنية، و الجورجية و النسطورية، وعدّ هذا اللقب اعلى من لقب مطران و أدنى من لقب بطريرك، لكنه بات الآن يساوي لقب بطريرك، مع استثناء أن في الكنيسة الأرمنية ثلاثة برتبة جاثليق مع بطريركين ، و المرتبة العليا هي لجاثليق اتشميدزين Etshmiadzin، وكان الجاثليق عند وفاة ليون هو جون ميدزابرو Medzabaro .

٩٧ — كانت زابل ابنة ليون الثاني، من زوجته الثانية سيبيلا ابنة عموري دي لوزغنان ملك قبرص ، وكانت قد تزوجت من فيليب بن بوهيموند الرابع صاحب انطاكية، و من بلا سانس Plaisance صاحب جبلة، و قتل فيليب في السجن بناءعلى أمر الدوق الكبير قسطنطين، الذي تزوج إثرها ابنة هيتوم من زابل (١٢٢٤ — ١٢٢٥)، و مارس هيتوم قليلاً من السلطة حتى وفاة والده، وقد خلع ١٢٧٠، و دخل الدير حيث نال اسم مكاريوس .

٩٨ — كان هذا في تموز ١٢٢٠، وكانت هذه المرة الاولى، التي تقدم بها الجيش بناء على أمر بيلاغوس، وفيما عدا حملة النهب هذه، بقي الجيش بلا نشاط بقية سنة ١٢٢١ حتى تموز ١٢٢١ .

٩٩ — كما يبدو بيلمونت أخرى (دي بيلومونت)، و من هذا القياس قيل في اسم الفيزكونت رتشارد (دي بولكرو مونت)، انظر الحاشية ٧٩ ـ المتقدمة .

١٠٠ — بيترو زياني دوج البندقية (١٢٠٥ — ١٢٢٩) .

١٠١ — هنري الأول الأسد، دوق سكسوني وكونت شويرن (١١٦٠ — ١٢٢٧) وهو معروف لارتباطه باعتقال دولدمير ملك الدانمارك في سنة ١٢٢٣، وقد بقي في الحملة الصليبية من ١٢٢٠ حتى عودته الى الوطن في آذار ١٢٢٢ .

١٠٢ — ديثر الثاني كونت كاتزنلنبوغن Katzenellenbogen (١٢١٩ — ١٢٤٤) و هـو ابن ديثـر الأول (١٢١٤ — ١٢١٩) و قد عاد إلى وطنه سنة ١٢٢٢ .

١٠٣ — أليس، أرملـة هيـوج أوف لـوزغنـان انظـر الحاشيـة رقم /5/ المتقدمة، و هي قـد كانت ابنة هنري الثاني دوق شامبين، وايـزابيلا ملكة القدس .

١٠٤ — بطرس دي مـونتاغيـو، وكان أخـاً لكل من : يـوستورغيـوس Eustorgius أوف نيقوسـا، و غارن مقدم الاسبتـارية، وقـد خلف وليم أوف تشارتـز في مقدميـة الداويـة لدى مـوت وليم في سنـة ١٢١٩، وقد بقي في منصبه حتى سنة ١٢٢٩ .

١٠٥ — بوهيمـوند الرابع صاحـب العين الواحده كونـت طرابلس . انظر الحاشية رقم /86/ المتقدمة .

١٠٦ — جـون دي إيبلين صـاحـب بيروت (١١٧٧ — ١٢٣٣)، كان أكثر البارونات نفوذاً في القـدس، و كان نائباً للمملكه (١٢٠٥ — ١٢١٠)، و بالنسبة لحفيـدته ماري (انظر . ج . ل .لامونـت في بيزنطة ١٢ (١٩٣٧) (٤١٧ — ٤٤٨) .

١٠٧ — كان غـي صاحب جبلـة اينا لهيـوج الثاني صاحـب جبلة، ولإيتيتي Etienette ابنـة هنـري أو ميللي، صاحـب نابلـس، و كـانت أخته بـلايسانس Plaisance زوجة لبـوهيموند الرابع أمير أنطـاكية، و خلف غي أباه في جبلـة عندما كان مايزال صغيراً، وقـد تزوج من أليس، زوجة بـوهيموند السـالفة، وقد عـاش مأساة الصليبين، و أعان فـردريك ضد الإيبلينيين (انظر الفصل ٨٧ المقبل) .

١٠٨ — انظر الملحق أ — المقبل .

١٠٩ — كان فردريك الثاني من أسرة هو هنستوفن ابنا لهنري السادس و لكونستانس صاحبة صقلية ، وقد توج ملكاً لصقلية، و كان قد توج من قبل ملكاً لألمانيا، و تتويجه الآن كان امبراطوراً في روما .

١١٠ — لودويغ أوف وتلزباخ، دوق بافاريا، و كونت بالاتاين في الراين (١٢١٤ — ١٢٣١) و قد حمل الصليب مع فردريك في سنة ١٢١٥ .

١١١ — أولريخ أوف أندخ — ديسين، أسقف باسو منذ سنة ١٢١٥، وقد توفي في رحلة عودته نحو الوطن في ٣٠ تشرين أول ١٢٢١، و قد حمل الصليب مع لودويغ صاحب بافاريا في سنة ١٢١٥ .

١١٢ — هرمان الخامس، مركيز بادن، أخو هنري الأول أوف بادن (١٢١٢ — ١٢٣١)، و كان هرمان قد عاد إلى وطنه في آذار ١٢٢٢ ، وقد توفي سنة ١٢٤٣ .

١١٣ — تبعا لروهرخت، Regesta regni hieros ص ٢٥٠، كان هذا هو وولتر الرابع أوف بريين، و ابن أخي الملك جون صاحب القدس، وقد تزوج من ماري القبرصية ابنة الملك هيوج الأول ، و قد صار كونت يافا، و قتل أثناء حربه ضد المسلمين .

١١٤ — كانت التعليمات لدى بيلاغوس تقضي بالاتصال بالبابا و إعلامه بأية مقترحات للهدنة، و عندما علم البابا هونوريوس . بمقترحات الكامل، ردّ بأنه قد أسف لفقدانه الحياة و الجهد والنفقات، مما دفعه إلى رفض المقترحات، و قد جعله تأكيد فردريك بعزمه على الابحار نحو الشرق، يتخذ موقفه ضد هذه المقترحات، وكان هونوريوس قد تأثر بالتقارير التي شاعت عن « برسترجون » و « الملك داود » التي بنيت على انجازات جنكيزخان و المغول ، يضاف إلى هذا أن فردريك قد حظر في رسائل صدرت عنه المبادلة مابين دمياط و القدس .

١١٥— كانت أقدم الاشارات إلى وجـود الصليب الأصيل قد جاءت على لسان القـديس سيرل المقدسي سنة ٣٤٧، و يحكـى بأن الامبراطورة هيلانه قد قسمته إلى ثلاثـة أقسام، و قد أرسلت قسماً واحداً إلى القدس، و كان هـذاالقسم هـو الذي استـولى عليه المسلمـون في حطين، (و مع ذلك تحتاج المسألة إلى كثير من التدقيق) .

١١٦ — احتل هـذا الكـرسي منـذ سنـة ١٢١٩ من قبل أثنـاسيـوس أوف كليرمونت في أوفرين .

١١٧ — كـان هنـري بسكاتـور، كـونت مـالطـا، قـد أرسل مـن قبل الامبراطور فردريك، قائداً لأسطوله .

١١٨ — كان مقـدم فرسـان التيوتون في هـذه الآونة هـو هرمـان فون سالزا المشهور، و هو الذي كان المستشار الأخير لفردريك الثاني .

١١٩ — كان غارن أوف مونتاغيو، فرنسيـا من مقاطعة أوفرين، و أخا ليو ستـوغيوس رئيس أسـاقفة نيقـوسيا، ولبطرس مقـدم الداويـة، و كان يعمل مارشـالاً للاسبتاريـة عندما رقـي إلى مرتبة المقـدم الأعلى في سنة ١٢٠٨، وقد ميز نفسه أثناء حصـار دمياط، و أسهم في تتويج جون أوف بريين في سنة ١٢١٠ ، و كـان حاضرا في المؤتمر الذي عقد في عكـا سنة ١٢١٧، و قد توفي سنة ١٢٢٨، و خلفه في المقدمية برنارد أوف تكسي .

١٢٠ — كانـت المناوشـات أمراً عاديـاً في شمالي المملكة، حتـى بعد عقد الهدنة، و رفض غـي بكل بساطة في هذه المناسبـة الاعتراف بالهدنة، و قد أرغم من قبل المعظم عيسى على عقد هدنة منفردة .

١٢١ — حدده روهـرخت (Beitrage ,11 , 197 , nlos) على أنه صندقلي في فريجيا .

المحتـــــــوى


Bibliotheca Alexandrina
0414615